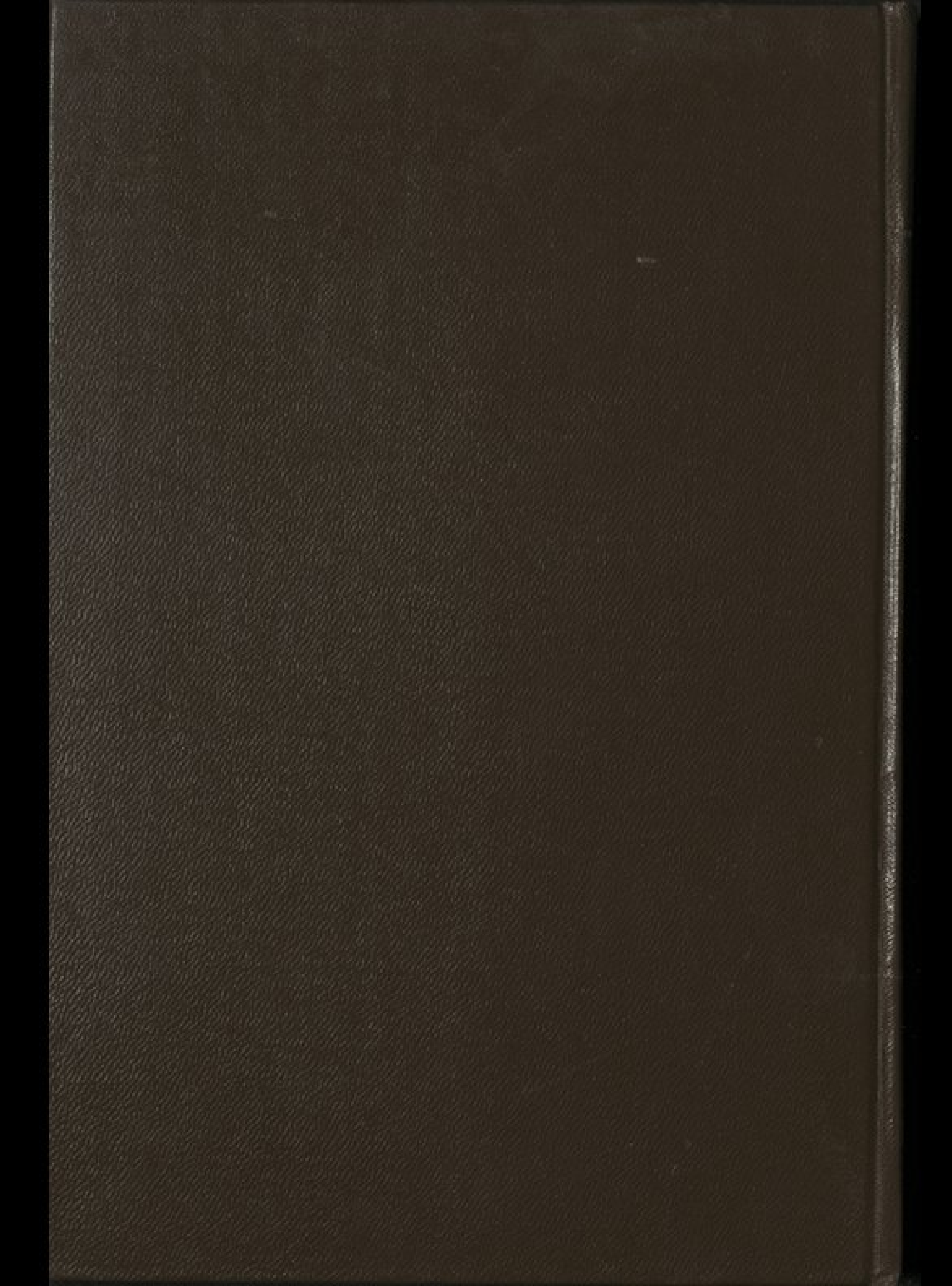
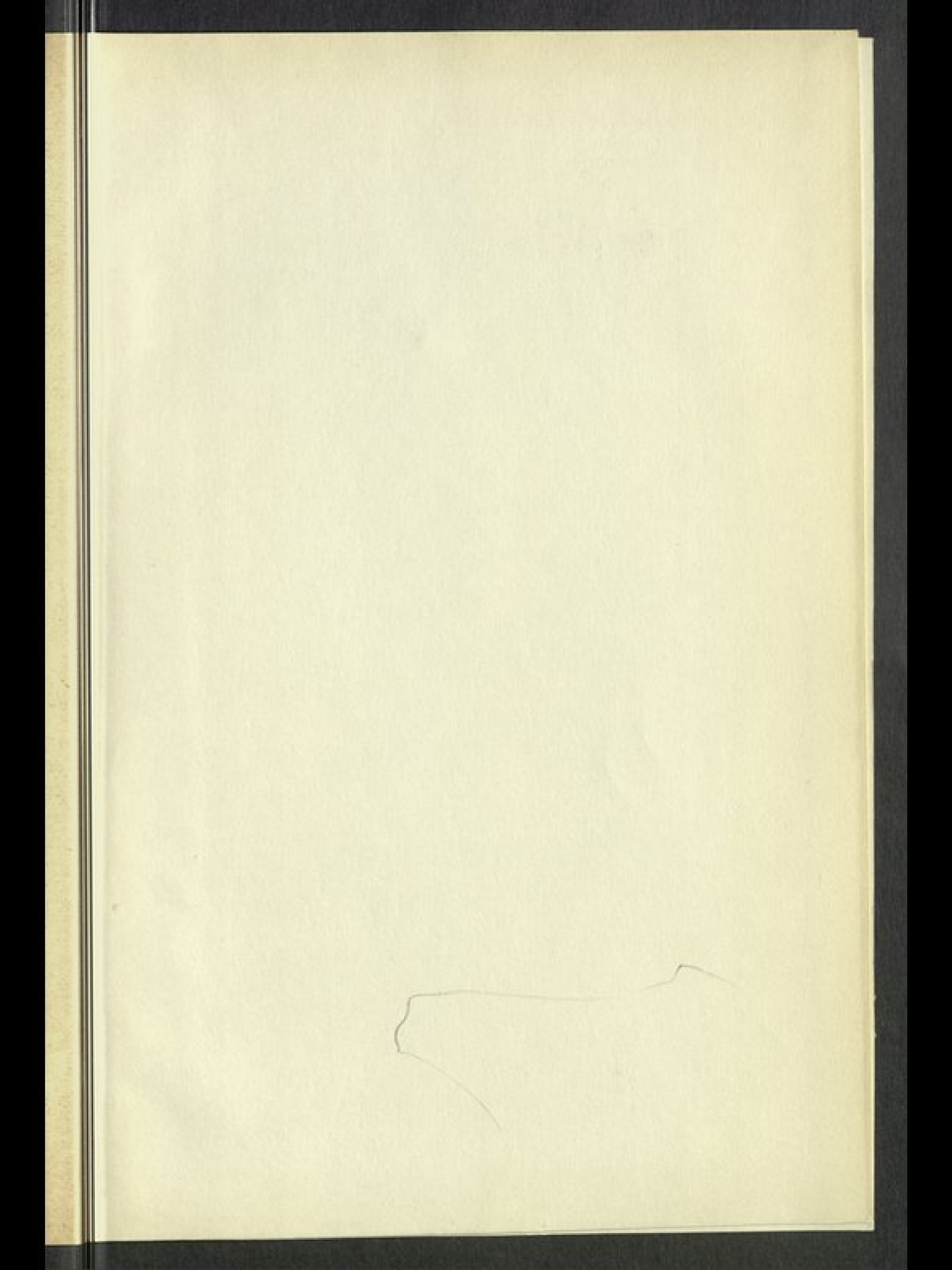




كفاح الشعب

من عمر مكرم الى جمال عبد الناصر

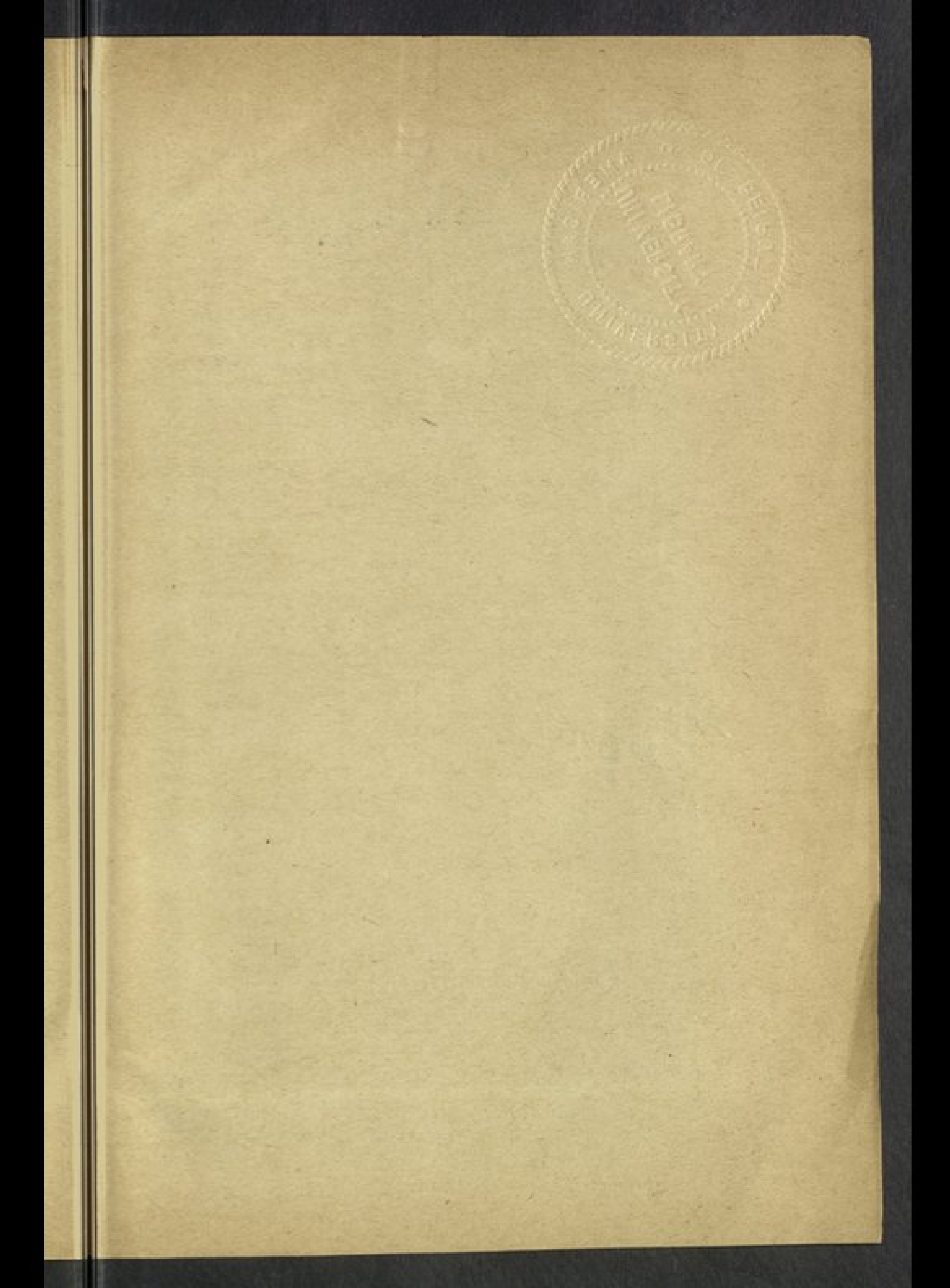
المجلد الثانى

الوعى الثورى

محمد امين حسونة

القاهرة – ١٩٥٥

مطبعة جريدة الصباح بمصر



للمؤلف

اعمـــال روائية

اشبال الثورة .. .. سنة ١٩٣٠
الورد الابيض .. .. « ١٩٣٢
الباب الذهبى .. .. « ١٩٤٤
هنرى الرابع « عن لويجى بيراندللو » .. « ١٩٣٧
الاستاذ كلينوف « عن كيرن برامسون » .. « ١٩٤٣
الحب والموت « عن لويجى بيراندللو » .. « ١٩٤٧

دراسات أدبية

ساعات الصمت.. .. .. « ١٩٤٥
بيراندللو .. .. « ١٩٤٩
بيتـــوفى .. .. « ١٩٥٥

سياحـــة

وراء البحار .. .. « ١٩٣٦

تاريخ

مصر والطرق الحديدية .. .. .. « ١٩٣٨
٢٣ يوليـــو .. .. « ١٩٥٣
جمهورية مصر فى عامها الاول .. .. « ١٩٥٤
جمهورية مصر فى عامها الثانى .. .. « ١٩٥٥
كفاح الشعب ــ المجلد الاول ــ الوعى القومى « ١٩٥٥
كفاح الشعب ــ المجلد الثانى ــ الوعى الثورى « ١٩٥٥

الوعى الثـــورى

اينما يحل الظلم والاضطهاد يتولد فكرة الثورة وتختمر فى الأذهان ، ويتردد صـــداها فى كل مـــكان ، هاتفة بالحـــرية ، منادية بالخلاص والتحرر من كل نير .

فالثورة انقـلاب سريع ، يحدث فى فترة وجيزة ، ضـد النظم الراسخة والتقاليد القائمة ، والعقائد السارية ، واقتـلاع الجذور التى امتدت فى باطن التربة عدة قرون ، وكان يبدو لمن ينظر اليها عن بعد أنها ثابتة لا تتزعزع .

تهب الثورة كالاعصار المدمر الهائج ، فتهدم الانظمة الفاسدة ، وتستبدل بها نظاما ينحو منحى الرقى والتطور ، وتجترف المبادىء السياسية العاتية لتصوغها فى قالب جديد يتفق مع الحرية والحق والكرامة .

لولا الثورة لبقى الجهل والظلم ، والاحتكار والاقطاع ، والفساد والاستعمار ، والامتيازات التى تستأثر بها طبقة خاصة ، أو دولة اجنبية تتسلط على الشعب .

لذلك . . . فالثورة صيحة عالية ، للحرية والاستقلال ، وهى دعوة صريحة الى اعلان حقوق الشعب وتوكيدها .

ومن هنا تكره كل حكومة مستبدة الثورة وتناهضها ، وتجند جواسيسها وعملاءها لقمعها وهى فى المهد ، اذ تشعر بأن اقتراب شبحها لا يتفق ومبادىء الاستبداد التى تغرسها .

ان الثورات فى العالم كلها متشابهة ، وهى ليست اقليميـــة الا بالاسم ، اما حقيقتها فعالمية ، تسهم كل الشعوب المهضومة الحقوق فى مبادئها وخواصها . كان الثوار على تبـــاعد الزمان واختلاف المكان وتباين البيئة وتغير الاشخاص قد نشأوا ولقنوا

فلسفة خاصة يؤمنون بها ويدعون اليها .

لولا الثورة لما تحررت الولايات المتحدة الامريكية من كابوس الاستعمار البريطانى ، ولما نهضت فيها دولة مستقلة قوامها الحق والحرية والعدالة .

ولولا الثورة فى فرنسا لما فاز ابناء السين بالحرية والاخاء والمساواة ، وتحطيم الملكية المستبدة ، وتقليص نفوذ الاشراف ورجال الكنيسة الذين كانوا يحتكرون خيرات الأرض ويحرمون الشعب منها .

ولولا الثورة فى ايطاليا لظلت مستعمرة نمسوية ، ممزقة الاوصال مهيضة الجناح لاتجمعها رابطة ولا وحدة ولا تظلها راية الاستقلال .

وهكذا الحال فى بولونيا والمجر وتركيا ، وكل بلد ارهقه الظلم او الاضطهاد او الاستعمار ، فيهب الثوار الى التكتل والمقاومة والكفاح لمحو الاستبداد والغاء الامتيازات والتحرر من الاستعمار ، وهم يعتمدون فى كفاحهم على تأييد السواد الأعظم من الشعب الذى ينطقون باسمه ويتكلمون بلسانه ويفصحون عن امانيه ..

كذلك قامت الثورة الوطنية الكبرى بقيادة البطل الفلاح احمد عرابى التى هى من مفاخر مصر الأبية ، وقد جرت على نسق الثورات العظمى ، بل انها لا تختلف فى شىء عن ثورات ١٨٤٨ التى قامت فى شتى ارجاء اوربا ، اى من حيث انها حركة استقلالية ودستورية معا ، وخطت بالشعب المصرى خطوات فساحا نحو الرقى والاصلاح والتطور ، وبعثت القومية المصرية فى اجلى صورها ومعانيها .

* * *

لم تكن الثورات الوطنية الكبرى حركة عسكرية قوامها ضباط ينشدون مغنما او يطلبون جاها ، بل هى حركة قومية صميمة انبثقت من وجدان الشعب ، انها صراع فى سبيل الحرية ،وكفاح مستميت من اجل اقرار الحقوق ومقاومة الجشع الاوربى ، وتخليص مصر من براثن الأفاقين الاجانب .

وانتشرت الثورة تقاوم الضيم الذى فرضه الخديو وبطانته ومن يلوذ به من الخوارج ، وتكافح نفوذ الاغراب الذين يحتكرون المغانم ، ويفرضون لونا من الاستعباد الاقتصادى على الكنانة .

وبعد ان كان الفيض الثورى موكولا الى الجيش ، اقبل العلماء وقادة الراى وزعماء الاصلاح فى الازهر وغيره يحملون الرسالة ويطالبون جميعا بالحرية وبالاصلاح الدستورى وباشراك نواب الامة فى الحكم ، وعدم فرض ضريبة قبل الرجوع الى وكلاء الشعب .

واحمد عرابى هو المكافح الأول والزعيم الحقيقى للثورة . واول من طالب اسرة محمد على البيروقراطية بالتنازل عن سلطاتها المطلقة للشعب ، وانقاذ أرض الكنانة من غمار الرق والاستبداد ، وتخليص الفلاحين من الكرباج الذى كان يحنى ظهورهم ،ومساواتهم بغيرهم من الآدميين .

وقد انكر الخديو على عرابى ان يقف فى وجهه بهذه الصيحة التى دوت فى سمع الزمان وعبر الأجيال ، وكبر على الدخلاء من الطبقة الحاكمة ان يشاركهم ابناء مصر فى المناصب التى يتوارثونها ، واقتسام الخيرات التى يحتكرونها ، واستنكر وكلاء الاستعمار ان ينهض غلاة الوطنيين لتحطيم القيود المزدوجة التى كبلوا بها مصر سياسيا واقتصاديا .

ان ميلاد كل حكومة جديدة يعلن عادة بدق الطبول وقصف المدافع ورفع معالم الزينات ، ولكن الحكومة الوطنية فى مصر لم تحظ بدعوة طيبة من دول الغرب التى كانت تزعم فى ذلك العصر انها راعية الحريات ونصيرة الديمقراطيات . بل لقد تآمرت على ثورة مصر قوى الشر والبغى والعدوان لاحباطها واذلال الفلاح الذى رفع راسه وشمخ بانفه ، وتحالفت الصهيونية العالمية ضدها فجندت الأقلام بغية تضليل الراى العام وتشويه سمعة مصر ، وفتح روتشيلد خزائنه يدفع منها الاموال الطائلة الى السياسيين والكتاب والصحفيين لتصوير الثورة على انها حركة تعصب ذميم ضد الاوربيين فى الشرق أو بالأحرى استئناف للحروب التى نشبت بين الهلال والصليب .

وشعر الخديو بان الحركة القومية تزحف بلا توقف لتقضى على النفوذ الاجنبى ولتعلن الدستور باسم الشعب ، فارتمى فى احضان الاستعمار التركى والاوربى وطالبه بالتدخل لحماية عرشه من تطفل الفلاحين على شئون الحكم !

هذه الثورة يجب أن تدون على نسق جديد يبعدها عن الالفاظ الخداعة التى غرسها المستعمرون فى اذهان النشء ووصموا بها عرابى وصحبه بالعصاة والاشقياء والمفسدين فى الأرض ، بل ان كرومر لم يتورع عن ان يصفها بانها «مجرد فتنة هوجاء» وان يدون كتاب الاحتلال وصنائعه فى تاريخ مصر الرسمى سلسلة من المغالطات والمفتريات منها ان مصر قبل ان تتدخل انجلترا فى شئونها كانت بلدا همجيا يخيم الجهل على سكانه ولا يعرف فيه معنى للقانون والنظام ، وليس فيه للملكية ولا للحياة ضمان ، وان تدخل انجلترا لم يكن باختيارها بل ارغمتها مجرى الحوادث التى لم يكن فى وسعها ان تتجنبها ، ثم القى فى روع النشء ان مصر مدينة لبريطانيا بما ترفل فيه من رخاء اقتصادى ، ومن حق المصريين ان يقدموا اليها فروض الشكر والولاء لأنها انقذتهم من هاوية الافلاس واقامت فى أرضهم ادارة ناجحة ، وان الجلاء اذا تم فان مصر تعود الى براثن الفوضى .

وظل تاريخ الثورة الوطنية الكبرى ووثائقها محجوبا فى طى الكتمان قرابة سبعين عاما ، لايعرف عنه سوى النذر اليسير ، الى أن اتاحت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ نشر الحقائق ، وتمزيق قناع الباطل والبهتان ، والقاء الأضواء على حركة مصر القومية ، فكان فى مقدمة ما استندنا اليه فى وضع المجلد الثانى من سلسلة « كفاح الشعب » :

١ — مجموعة من الوثائق المحفوظة بالقصر الجمهورى « عابدين سابقا » ومن بينها المكاتبات والبرقيات المتبادلة بين الخديو محمد توفيق والباب العالى ، ثم بين القاهرة والقبو كتخدائية باستامبول بشأن الثورة التى قادها عرابى ، وهى جميعا محررة باللغة التركية

٢ — تقريرات الخائن محمد سلطان الذى لعب دورا خسيسا فى تمهيد الاحتلال البريطانى ، وهى مدونة بالشفرة ، وكانت ترفع يوما بيوم الى الخديو .

٣ — مذكرات مدموازيل فردريكا فى مصر ، وهو مخطوط بالانجليزية عثر عليه أخيرا فى سراى القبة ، كتبه فردريك الخادم الخاص للخديو توفيق ، وكان جاسوسا عليه ، متصلا بدائرة المخابرات البريطانية ، وقبل ان يموت دون قسما كبيرا من اعترافاته عن خيانته لمصر وشعب مصر .

٤ — مذكرات الخديو عباس حلمي وشقيقه محمد علي عن بعض الاحداث التي عاصراها في غضون نصف قرن في مصر .

هذا الى مذكرات الزعيم احمد عرابي المعروفة بعنوان « كشف الستار عن سر الاسرار » ومذكرات الامام محمد عبده ، ويوميات المستشرق ولفرد بلنت التي نشرت عقب وفاته وفيها معلومات لم ترد في كتابه « الاحتلال السري البريطاني » ، ثم الخزانة السرية لعرابي وهي مجموعة وثائق واسانيد كانت في حوزة ورثة محاميه برودلي واقتنتها دار الكتب المصرية اخيرا وتقريرات دوفرين وكرومر وجورست وكتشنر والوفدين العثمانيين برياسة على نظامي باشا والمشير درويش باشا ، ومجموعة « الوقائع المصرية » وبعض الصحف اليومية والاسبوعية التي صدرت في ابان الثورة وفي اعقابها .

***

لقد كان من الطبيعي ان تظل مصر دولة عظمى ، في مصاف الدول الراقية ، وان تسير بخطا حثيثة الى الامام ، وتتبوا المكانة الجديرة بماضيها وتراثها الزاخر ، لو لم يناهضها الخديو توفيق ، ومن ورائه الاستعمار والرجعية والاقطاع ، فتآمروا جميعا على مصر ، وتحالف الاستعمار الفرنسي مع الاستعمار البريطاني وسوى مشاكله معه ، واتفق التجار في باريس ولندن على ان يقيدوا مصر باغلال ليون ومنشستر لتظل مزرعة لانتاج القطن .

ولكن حسب ثورة مصر الوطنية الكبرى انها احدثت في حياة العرب وفي حياة الشرقيين عامة اثرا واضحا وتعبيرا ضخما ، فتجاوزت التخوم المرسومة وانعكست آيتها في ربوع السودان وبلاد العرب وتركيا والهند وكل بلد يتوق الى الحرية والانطلاق من الأسر .

القاهرة — ٢٦ اكتوبر ١٩٥٥ .

محمد امين حسونة

بين الاستبداد والحرية

تفاقم الحال السياسية ــ عدو الشعب رقم ١ ــ الصفحات السوداء فى عهده ــ نفى الافغانى ــ الموازنة بين شريف ورياض ــ الضربات الثلاث التى سددت الى قلب الكنانة ــ قيام الحزب الوطنى ــ المطالبة بعزل وزير الحربية الجركسى ــ انتصار الحرية .

بعد ان شقيت مصر زمنا بحكم الخديو اسماعيل وشيعته الى منفاه بمظاهر السخط ، اخذت موجات التذمر تتلاقى وتفترق ، الى ان بلغت مرحلة الثورة الموحدة ذات الأهداف الواضحة .

فقد استبيحت الكنانة للأفاقين من الأغراب ، وغزاها الجشع الأوربى فى ابشع صوره ، وتولى امورها من حكامها اما جاهل أو مبذر فاسق ، واصبحت الحكومة عاجزة عن الوفاء بالتزاماتها ، وأهملت المرافق الحيوية كالتعليم والرى والزراعة ، وتطرق الفساد الى صفوف الجيش والادارة ، وشاعت الوان السخرة والضرب بالكرباج ، حتى أهدرت آدمية المواطنين الابرياء ، وأشرفوا على المجاعة ، بعد ان عز القوت والكساء ، وباتوا لا يأمنون على انفسهم وأعراضهم .

كان المصريون يخالون ان خلع اسماعيل عن العرش سيمهد الطريق الى تسوية المشكلات الداخلية والخارجية ، بيد ان التركة كانت مثقلة ومنهارة ، وكان الطوفان جارفا ، فملأ السخط اطواء الصدور ، واختمرت بذور الثورة فى النفوس ، واشتدت حملات قادة الرأى ، وتعددت النشرات السرية ، واخذت الاقلام تسهب فى وصف المآسى والمحن التى اغرقت البلاد ، وتشرح الفروق بين الحكومات المستبدة والحكومات العادلة ، وتنادى بضرورة القيام بحركة اصلاح شاملة ، وتحرض على الصراع من اجل الخبز ، والكفاح المستميت فى سبيل الحرية ، ورفع السياط عن ظهور

دافعى الضرائب . وقد أحدثت هذه الآراء شعورا من الشعب بقوته ، وايمانا بمستقبله ، وذيادا عن حقوقه ، والتطلع الى فجر وليد للتخلص من مساوىء العهد الغابر .

ومن سوء حظ مصر ان كان على راس حكومتها ، حاكم معتوه مصاب بالضعف والتردد ، ورث كل نقائص اسلافه ، ورسبت فى دمائه رذائل أسرته وضراوتها ، ذلك هو الخديو محمد توفيق ، فبدلا من ان يعمل على اصلاح ما افسده ابوه والاصغاء الى مطالب زعماء الشعب ، اتخذ تدابير تعسفية لمقاومة حملات قادة الاصلاح واخماد صوت الشعب ، والبطش بكل من يجاهر بفكرة سديدة او راى صائب ، وكان كلما وقع فى ورطة بعث يستنجد بممثلى الدول الاجنبية يشاورهم فى الامر ، ويتلقى نصائحهم ، فينتهزون الفرصة للضغط عليه ، واملاء ارادتهم ، والتمكن بهذه الطريقة من التدخل فى حقوق السيادة .

—•—

كان توفيق ثمرة لخطة نارية من لحظات الشيطان بين اسماعيل حين كان شابا يافعا ، وبين احدى خادمات قصر امه خوشدار . ولم يلفت مولد توفيق انظار احد من افراد الاسرة ، فلم يكن اسماعيل وقتئذ وارثا للعرش ، ولا طامحا فى اعتلائه اذ كان شقيقه احمد رفعت يحجبه ، فلما اغرق الامير فى حادث قطار كفر الزيات صار اسماعيل هو المرشح الوحيد للعرش بعد سعيد .

وكان اسماعيل يبغض ذلك الابن الذى لم يولد على فراش شرعى ، ويزدريه ، ويفضل عليه بقية اخوته ، فقد كان توفيق متصفا بالغباء والبلاهة ، لم يحظ بقسط وافر من التعليم ولا الالمام بلغة ما أجنبية ، وقل أن فتح كتابا او تصفح مؤلفا نافعا ، ولم يغادر مصر مطلقا لا الى استامبول او السياحة الى عواصم الغرب كغيره من أفراد الاسرة .

واتجهت نية اسماعيل الى الاحتفاظ بالعرش لحسين كامل وليس لتوفيق ولكن السلطان نصحه اخيرا بأن يكون العرش للولد البكر كما نص على ذلك فرمان الوراثة ، وان يعقد على امه . فامتثل للامر صاغرا واعترف بتوفيق وليا للعهد واسكنه فى قصر القبة .

وكان أفراد الاسرة يحقدون على توفيق ويعيرونه بوضاعة أمه

وخساسة منبته ، وسمعنا بهذه المناسبة من سير وليم ويلكوكس الذى كان مستشارا لوزارة الاشغال فى عهد الاحتلال ، بأن ام توفيق كانت فلاحة مصرية ، كانت تعمل مرضعة فى قصر الاميرة خوشدار ، ولا نستبعد هذه الرواية اذا ما عرفنا ان مرضعة الخديو اسماعيل نفسها كانت فلاحة مصرية ، وهى ام اسماعيل صديق المفتش . واضطر توفيق بسبب هذه الزراية للانضمام الى عصبة الاحرار الناقمين على سياسة ابيه ، الذين وجدوا فى سلسلة القوانين التى صدرت لمصلحة الاجانب اجحافا وغبنا بمواطنيهم واستغلالا غير مشروع للثروة القومية ، ثم انخرط فى سلك جماعة الماسون الذين كانوا يتظاهرون بمناصرة الحرية والعدالة ، فاتصل بالافغانى ومحمد عبده وابراهيم المويلحى والبارودى وغيرهم من زعماء الاصلاح .

ولم يلمع اسم توفيق الا عند ما عهد اليه اسماعيل برياسة الوزارة التى خلفت الوزارة المختلطة ، وكان غرض الخديو من ذلك القضاء على سلطة المراقبين وتدخلهما فى اداة الحكم ، على ان توفيق لم يظهر لباقة سياسية فى اثناء تقلده رياسة الوزارة ، كان عديم الكفاءة ، محدود الافق ، يعوزه الابتكار والشجاعة الادبية فى تحمل الاعباء والمسئوليات الجسام .

ثم ورث توفيق العرش ومعه الفساد والفاقه والديون والثورة ، كما ورثها من قبله لويس السادس عشر ، وكان ملوثا بالكثير من المعائب ، كالغباء والتردد وضعف الراى والاستعانة بالاجانب والاستهانة بمطالب الشعب ، وقد لمس فيه سير مالت قنصل بريطانيا هذه الصفات المرذولة ، كما سبق لمستر والم ان لمس الصفات نفسها فى عباس الاول ، فصارا يجتمعان سرا يتداولان ويدبران الدسائس لتقويض النهضة القومية وضربها فى الصميم ، وبين نقمة تركيا الغاضبة لضعف سلطانها وتقلص نفوذها فى وادى النيل ، وانجلترا الطامحة الى بسط حمايتها على مصر ، وفرنسا التى تنافسها فى مآربها ، والراسمالية الاوربية الجشعة ، والشعب الذى يصرخ من الظلم ويئن من سطوة المستبدين ، ومطامع الطبقة الحاكمة التى تعمل على اغتنام الفرص للاثراء على حساب الطبقات الكادحة ، تسلم توفيق زمام الحكم .

وتطلعت الانظار اليه على زعم انه بطل منقذ .. وتوسم الاحرار

الخير على يديه ، اذ سبق ان حالفهم على معالجة الارتباك المالى والحد من فداحة المصروفات فى الدولة ، واقرار النظم الدستورية الكفيلة بصيانة الحقوق والتخفيف من حدة التوتر ، والاقلال من التدخل فى شئون الحكم .

ولكن توفيق كان يميل بحكم نشأته الى الاستبداد والحكم المطلق . ويهاب سطوة الاجانب ، ويعتمد على معاونة كل من يتمشى مع نزعته ، ويخاف المسئولية ويلقيها على اكتاف الآخرين ، وكانت حاشيته هى بعينها حاشية ابيه التى جرت الخراب والاستعباد الاقتصادى على البلاد ، حاشية مكونة من حثالة العثمانيين . وخليط من الدخلاء والعناصر المعادية ، فوجدت فى هذا الحاكم المستبد العاجز آلة تحركها من وراء ستار .

وحاول الباب العالى عقب ارتقاء توفيق العرش ان يلغى الفرمان الجامع الصادر فى ٨ يونيو ١٨٧٣ او تعديل نصوصه بحجة انه مجحف بحقوق السيادة العثمانية ، فنهضت بريطانيا وفرنسا لمناوئة الدولة العلية دفاعا عن نصوص الفرمان ، وقدم توفيق رشوة مقدارها خمسون الف جنيه الى رجال الباب العالى ،واخيرا اذعنت تركيا ، وبذلك اكتسبت الدولتان الاستعماريتان حق التدخل فى شئون مصر بحجة المحافظة على حقوقها وحماية الامتيازات التى حصلت عليها . وحفظ توفيق للدولتين هذا الصنيع وصارت سياسته فى ايدى ممثليهما فى مصر ، هذه السياسة التى عصفت بآمال الشعب ، واضعفت من سلطانه واثارت سخط مختلف الطبقات .

ولم يلبث الخديو ان اعاد المراقبة الثنائية التى جاءت تهدم السلطة الشرعية للدولة ، وجعل للرقيبين بارنج ودى بلنيير من النفوذ والسلطان ما يتجاوز نفوذ رئيس الوزارة .

وجاءه جمال الدين الافغانى يلح عليه فى انجاز وعوده السابقة وهى ارساء الحكم على قواعد الشورى ، فقال له توفيق :

— انى احب الخير للمصريين ، ويسرنى ان ارى بلادى وابناءها فى اعلى درجات الرقي والفلاح ، ولكن معظم الشعب مع الاسف خامل ، لايصلح ان يلقى عليه ماتلقونه من الدروس والاقوال المهيجة فتكون النتيجة ان يلقى بنفسه فى التهلكة .

فأجابه الافغانى :

ـ ليسمح لى امير البلاد ان اقول بحرية واخلاص ان الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين افراده . وان النظرة التى تنظرون بها الى الشعب المصرى ينظر بها اليكم . وان قبلتم نصحى واسرعتم فى اشراك الشعب فى حكم البلاد عن طريق الشورى واجراء انتخابات عامة يكون ذلك اثبت لعرشكم وادوم لسلطانكم .

ولكن توفيق اعرض عن هذه النصيحة وتنكر لاستاذه السابق ووجد ان التخلص منه اجدى عليه من انجاز وعده ، ووسوس ممثل بريطانيا فى اذنه بخطورة المبادىء التى يدعو اليها هذا السياسى الداهية ، الواسع الافق ، وصور لتوفيق ما كان من أمر الافغانى فى ايران وكيف حرض الشعب هناك على الثورة التى انتهت بمصرع الشاه ، وذكر له انه لايستبعد ان يفعل فى مصر ما فعله فى ايران ، وكيف كانت له اليد الطولى فى خلع اسماعيل بما دبره من مؤامرة مع ممثلى الدول الاجنبية لاقصائه عن العرش .

وانتهت هذه الدسيسة بحمل الخديو على التخلص من استاذه الذى سبق ان خاطبه يوما بقوله :

ـ انت ايها السيد موضع املى فى مصر .

وسرعان ما اصدر امرا فى ٢٤ اغسطس ١٨٧٩ بنفى الافغانى واخراجه من الاراضى المصرية بحجة انه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش ، مجتمعة على فساد الدين والدنيا »

فقبضت عليه الشرطة ليلا وهو فى طريقه الى منزله ، وساقوه الى مخفر البوليس ، ثم مضوا به الى محطة القاهرة حيث رحلوه بالقطار الى السويس ، ومنها اركبوه باخرة متجهة الى احدى موانى البحر الاحمر .

وهكذا لم يكن توفيق كريما فى معاملة هذا المصلح العظيم ، ولا اصغى الى نصحه او عرف كيف ينتفع بعلمه وتجاربه بل جافاه واقصاه واستخدم وسائل القسوة معه .

وكان محمد شريف قد سعى بدوره الى استمالة توفيق الى المبادىء الدستورية واقناعه بفوائدها ، ووضع فعلا مشروعا بقانون لمجلس نواب على غرار المجالس النيابية فى الغرب بحيث يضمن لوكلاء الشعب حرية القول والفكر ومحاسبة الوزراء على اعمالهم ، ولكن قنصل فرنسا نظر بعين الريبة الى المشروع وناهضه ثم

استعان بقنصل بريطانيا لاقناع الخديو بضرر المشروع لان فى قيام مجلس نواب تعطيل لحل المشاكل الموقوفة . واخيرا شددت حكومتا فرنسا وبريطانيا الوطأة على الخديو وحملتاه على ان يسقط وزارة شريف ويقضى على مشروع الدستور . ولذلك عندما قدم المشروع الى الخديو رفض ان يوقعه ، وكان من جراء هذا ان قدم الوزير الاول استقالته فى ١٧ اغسطس ١٨٧٩ . وفى هذا ما يبرهن على ان الوازع الوطنى كان بمثابة جذوة مقدسة تشتعل بين جوانح هذا السياسى المحنك اساسها الايمان بالعقيدة ، فانه لم يكتف بتقديم استقالته بل تعاهد هو وزملاؤه على الا يقبلوا الدخول فى وزارة ما . . . مالم تنفذ مطالبهم ، وكان هذا العهد بمثابة الميثاق الاول من نوعه فى حياة مصر الدستورية اذ ضحى شريف وزملاؤه بالسلطات الواسعة النطاق المخولة لهم واعترفوا بان الامة هى مصدر السلطات ، وتعاهدوا على الا يحكموا الا بموجب هذا المبدأ القومى ، وقد وفوا بالعهد والميثاق .

تنحت اذن وزارة محمد شريف عن الحكم ، فزين ممثل بريطانيا للخديو ان يشكل وزارة مؤقته برياسته ، وصادفت هذه الفكرة هوى من نفس توفيق واشبعت غريزته لحكم مصر حكما مطلقا فالغى مجلس الوزراء ، واجاز لكل وزير ان يستقل بشئون وزارته وان يعرض عليه مباشرة اوراقه . ثم اقترح عليه ممثل بريطانيا ان يعيد الوزيرين ولسن ودى بلنيير لمساعدته على اصلاح احوال بلاده فكاد يوافق على ذلك لولا معارضة ابداها بعض الاحرار ، واخيرا خاطب الخديو ممثل بريطانيا بقوله :

ـ ان فى اعادة الوزيرين الاوربيين مايساعد على اثارة الخواطر ، ومع ذلك فلو صممت بريطانيا وفرنسا على اعادتهما فاننى مستعد للاشتراك معهما فى العمل وقبول ما يشيران به .

وكذلك اشار القنصل عليه باعادة نوبار ، وكان قد لجأ الى اوربا هو ورياض فرارا من نقمة الخديو اسماعيل ، فابى توفيق ، فقال له القنصل :

ـ ان رياض هو الخادم الامين لاسرتك ، وفى وسعه ان يعيد السلطة الشخصية اليك .

وعلى ذلك وجه الخديو الى مصطفى رياض خطابا يدعوه فيه للعودة الى القاهرة ليتولى رياسة الوزر ، فوصلها فى ٣ سبتمبر ١٨٧٩ ،

وبعد المشاورات شكل وزارته بعد ثلاثة اسابيع .

وهنا يطيب لنا ان نقارن بين الرجلين اللذين ارتبطت سياستهما بمصير مصر فى العقد الاخير من القرن التاسع عشر .

* * *

كان شريف رمزا للشورى ، وهو اول من وضع لبنة فى صرح النظام الدستورى .

وكان رياض رمزا للاستبداد والاثرة والحكم المطلق .

وشريف من رواد الاصلاح ، اقترن اسمه بالاحداث الجسام التى وقعت فى مصر ، تولى الوزارة اربع مرات فى ظروف عصيبة وازمات خطيرة ، وكان يشعر بالعزة والانفة والكرامة ، فلم يطاطىء راسه او يحنى هامته لمخلوق ما .

على حين كان رياض كثير الثقة بالاجانب ، يعتز بقوتهم وصولتهم ، ويعتمد عليهم ، ويبذل قصارى جهده فى ارضائهم ، ويميل الى السياسة الانجليزية بنوع خاص ويحبذها ، كما كان ولى نعمته السابق عباس الاول يؤازرها ويشجعها على التدخل فى شئون مصر ، ولذلك اطلق عليه غلاة الوطنيين اسم «رياضستون» نسبة الى رئيس الوزارة البريطانية « جلاد ستون » .

وشريف هو ابن محمد شريف ، قاضى قضاة مصر ، تلقى تعليمه الابتدائى فى استامبول ، ثم وفد على القاهرة للالتحاق بمدرسة الخانقاه العسكرية حتى اذا تخرج فيها ، ارسل فى بعثة عسكرية الى مدرسة سان سير بباريس ، ثم الحق بالجيش الفرنسى الى ان وصل الى رتبة « يوزباشى اركان حرب » واخيرا عاد الى مصر ليخدم فى جيشها ، ثم عين ياورا للقائد سليمان الفرنساوى وصاهره .. وفى عصر سعيد كان على راس حرسه الخاص ، وظل يرقى سلك المناصب العسكرية الى ان وصل الى رتبة فريق ، ثم انتقل من السلك العسكرى الى السلك الديبلوماسى وعهد اليه بوزارة الخارجية .

وتقلب محمد شريف فى وزارات شتى اظهر فيها كفاءة وحنكة الى ان تقلد الرياسة فى اواخر حكم اسماعيل .. كان رجل الساعة تتطلع اليه الانظار فى كل كارثة او ورطة تقع فيها البلاد لانقاذها منها . ففى ٢٢ اغسطس ١٨٧٨ استجاب الى مطالب الاحرار

وشـكل وزارته الاولى على اساس « اللائحـة الوطنية » وبذلك تقررت فى تاريخ مصر الحديث القاعدة الدستورية التى تنص على ان رئيس الدولة يسود ولا يحكم الا بوساطة وزرائه . وكان تقرير تلك القاعدة اول مظهر لسيادة الشعب ، وتأكدت القاعدة نفسهـا فى الدستور الذى صدق عليه مجلس شورى النـواب فى ١٨ مايو ١٨٧٩ .

ولم تكد تنقضى خمسة اعـوام حتى امتحنت رجـولة الوزراء المصريين ، فقد طالبت الحكومة البريطانية الخديو توفيق باخلاء السودان ، وانحنى الخـديو امام القوة ، ولـكن وزير مصر الاول محمد شريف استقال . وسجل فى كتاب استقالتـه ان الخـديو لا يملك ـ وحده ـ الموافقة ـ على اخلاء السودان ، لانه يحكم مع وزرائه وبوساطتهم ، وجاء فى كتاب الاستقالة « وقد استقلنـا لانه حجر علينا ان ندير الاحكام بمقتضى هذا الدستور » وكـان موقفا رفع راس رجل ، وسجل ارادة شعب .

وفى ابان الثورة الوطنية الكبرى لبى داعى الوطن ، واجـرت وزارته اول انتخابات عامة لاول مجلس نواب حر ، وافترض على المجلس ان يكون بمثابة « جمعية تأسيسية » لوضع الدستور ، واقر مبدا المسئولية الوزارية ورقابة وكلاء الشعب على اعمـال الحكومة ، ولكن الخلاف لم يلبث ان استحكم بينه وبين الزعيـم احمد عرابى حول حقـوق مجلس النواب ، فقد ابى شريف الا ان تكون اختصاصات مجلس النواب على اساس القاعدة الضيقة التى قام عليهـا المجـلس فى عـام ١٨٦٦ وتشبث شريف برايه واصر على تقديم استقالته . وليس هذا بغريب منه ففى التـاريخ امثلة عدة لثورات خذلها اشخاص من طبقة رفعتها الثـورات الى القمة ، وفى جميع الظروف كانت الطبقة العاملة تنضم الى الطبقة الوسطى التى تدبر الثورة ، وكانت الطبقة الارستقراطية تخـدع الثوار وتظهر بمظهر حماة الطبقة الـكادحة ، فاذا تمكنت من الثورة اخذت تتنكر للطبقات الشعبية ، وحاولت ما وسعتهـا المحاولة ان تحيد بالثورة عن اهدافها .

والواقع ان محمد شريف عثمانى النشاة ، ارستقراطى البيئة فكان آخر ما يفكر فيه هو الدفاع عن حقوق الفلاحين الذين وثقوا

به واسلموه قيادهم ، فخان الامانة وتخلى عن الحكم فى احرج الظروف .

اما مصطفى رياض فقد انحدر من اصلاب اسرة يهودية كانت ازمير موطنها ، وتعرف باسم اسرة الوزان ، قدم ابوه الى القاهرة فى عهد محمد على ، وكان مديرا لدار سك النقود « الضربخانة » ولم ينل رياض نصيبا وافيا من التعليم بل الحق بخدمة الحكومة فى وظيفة نساخ بديوان المالية ثم نقل الى موسيقى الحاشية العسكرية ومنح رتبة « ملازم ثانى » . واتصل بعباس الاول وعمره ١٨ عاما . وكانت اخلاق هذا الوالى الشخصية مثار اقاويل وشائعات متناثرة ، لذلك نال رياض حظوة فى عينى مولاه ، والصق العار باسمه بسبب هذه الحظوة ، ولم يلبث ان رقاه فى مدى سنوات قلائل الى رتبة قائمقام ، فالى منصب مدير الفيوم وعمره ثلاثة وعشرون عاما ، وكانت امثال هذه المناصب لا يصل اليها فى ذلك العصر سوى الملتحين .

وكان مظهر رياض وصفاته مظهر يهودي شرقي . . كان شحيحا ، جبانا ، مداجيا ، يتكلم العربية بلهجة اجلاف الاتراك ، ولكنة الدخلاء ، وكان محدود الفكر ، ضيق الافق ، لا تخرج معلوماته عن قشور سطحية .

واشتهر رياض الى جانب هذا بنزعته الاستبدادية ، وازدرائه بمطالب الشعب ، واستخفافه بالحقوق العامة ، كان يمثل صلف الاقطاعيين فى القرون الوسطى ؛ فهو يحتقر أصحاب الجلاليب الزرقاء . ويعدهم قطيعا لا يساق الا بالعصا ، وكان احساسه بالنقص فى مواجهة الاجانب يدفعه الى الشكوى امامهم من قلة اهتمام بريطانيا بشئون مصر وتدخلها فى كل كبيرة وصغيرة حماية لاصحاب القروض !! الم يربى فى احضان السفاح عباس الاول الذى كان ينكل بالمواطنين الابرياء فى الوقت الذى يطاطىء فيه هامته امام سادته الانجليز ؟

وكان رياض لا يفتأ يتعرض للحريات العامة بالمصادرة والبطش وفى مقدمتها حرية الراى ، فكان يعمد الى تعطيل الصحف بحجة انها « تتدخل فيما لا يعنيها » ، أما هذا الذى لا يعنيها فهو مصالح الشعب وانظمة الحكم .

وكان ابرز عمل قام به وزير الداخلية سعيه الى عقد القرض المعروف « بدين روتشيلد » ورهنت الحكومة بسببه ما تملكه من اسهم شركة القناة ، ثم اصطدامه بضباط الجيش فى المظاهرة العسكرية التى قاموا بها فى مقر وزارة المالية ، واخيرا تعريضه باعضاء مجلس شورى النواب عند ما مضى لفض دورة المجلس .

وارتبكت الحالة المالية وبدات الدول الاجنبية تتدخل فى أخص شئون مصر ، متعللة بحماية مصالح الاجانب ، وشكلت لجنة تحقيق لفحص الاداة الحكومية ، فوقع الاختيار على رياض ليعاون اللجنة فى اداء مهمتها لما هو معروف عنه من ايثاره مصالح الاجانب على مصلحة مصر ، ولجراته على الخديو ، المسئول الاول عن الفوضى التى سادت مالية البلاد ، فعارض اسماعيل فى تعيينه خوفا من مصادرة ممتلكاته وممتلكات اسرته ، ولكن رياض برغم هذه المعارضة ظل العضو المصرى الوحيد فى هذه اللجنة المشئومة التى كانت وصمة عار فى جبين مصر ، وكان من نتيجة تشيعه لاغراضها ان رشحته اللجنة وزيرا للداخلية فى الوزارة المختلطة التى فرضت على البلاد ، وقامت سياسيتها على ممالأة الاجانب وحماية مصالحهم .

وولى رياض رياسة الوزارة بعد ان زكاه قنصل بريطانيا . فاستهل حكمه بالغاء السخرة والكرباج واغضب قراره هذا الحكام وملاك الاراضى من الاقطاعيين اذ سلب بذلك السلطة منهم ، ثم اباح توزيع مياه الرى على الاراضى . اذ كان هناك نفر من الحكام والاجانب يبيعون هذه المياه للفلاحين ، اما بالتحكم فى سد الترع او بوساطة آلات بخارية تحول المياه عن اراضيهم .

وحاول رياض أن يعارض الخديو توفيق فى منح الرتب والاوسمة لمن يراهم غير اهل لها فقابل رجال البلاط هذا الاعتراض بالازدراء والاستخفاف اذ ان فيه هدما لركن من نفوذهم وسلطتهم .

على ان هناك ثلاث ضربات سددها رياض الى قلب مصر :

الاولى تغاضيه عن النفوذ الاوربى الذى اخذ يتغلغل ويستفحل يوما عن الآخر ،وارغام الوزراء ورؤساء المصالح على ان يقدموا الى الرقيبين الماليين الاجنبيين كشفا مفصلافى كل اسبوع يتضمن دخل كل وزارة ومصروفاتها ، وان يشترك الرقيبان فى جلسات مجلس الوزراء مع منحهما حصانة قوية ، فلا يعزلان الا بأمر حكومتيهما ،

ولهما سلطة التعيين والترقية والعزل لموظفى المراقبة المالية .

والضربة الثانية تجريد مصر من كل حقوقها فى القناة .. كانت مصر تحصل على ١٥٪ من ارباح الشركة ، فراى بناء على اوامر الرقيبين ان تبيع الحكومة هذه الحصة مقابل سبعمائة الف جنيه تنفق لا فى تخفيف ويلات الشعب وانما لسد شهوات الحاكمين فخسرت مصر بذلك آخر اشراف لها على القناة .

واما الضربة الثالثة فخاصة بقانون التصفية الذى صارت بموجبه نصف موارد الخزانة العامة مخصصة للدين العام . فقد استصدر مرسوما فى ٥ ابريل عام ١٨٨٠ بتشكيل لجنة التصفية من خمسة أعضاء أوربيين وعضو مصرى واحد ، وحددت بموجب هذا المرسوم نفقات الدولة وما يخصص لاستهلاك سندات الدين ، ووضعت املاك الدائرة السنية تحت ادارة دولية ، وتسوية علاقة الحكومة بالدائنين .

❊ ❊ ❊

اصبحت مصر خاضعة للنفوذ الاوربى خضوعا مطلقا ..

وكان السودان وافريقية الوسطى اى نصف مصر يحكمها ضابط انجليزى هو جوردون ، على حين كان النصف الآخر تحت اشراف ورقابة طائفة من الموظفين الاجانب .

ماذا كان موقف توفيق من رياض ؟

كان الخديو كما قدمنا مثالا للضعف والاستخذاء ، وقد وجدت فيه بطانته نقائص ومعائب ، وبابا يلجونه لشفاء مافى نفوسهم ، فصاروا يوقعون بينه وبين وزيره الاول . ويوسعون شقة الخلاف بينهما ، وراحوا يتندرون بتقليد رياض فى كلامه ، ومحاكاته فى حركاته ومشيته وجلوسه ، وكان توفيق يجد فى ذلك نوعا من الترفيه يسلى به نفسه الاسوانة ، واخيرا صب جام غضبه على رياض واخذ يسعى الى عزله ، ولكنه كان يهاب قنصل بريطانيا الذى يؤثر رياض بعطفه ويؤازره فى سياسته .

❊ ❊ ❊

وفى هذه الفترة التى تجتازها البلاد وضع محمد شريف مشروعا بتأليف « الحزب الوطنى » فى اجتماع عقده فى ضاحية حلوان

ويعرف هذا الحزب فى المصادر التاريخية « بجمعية حلوان » . وكان من ابرز اعضائه : شريف وشاهين كنج وعمر لطفى واسماعيل راغب ومحمد سلطان ، ثم انضم اليهم فيما بعد : احمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى والبارودى وسليمان اباظة وحسن الشريعى ومحمود فهمى . واوفد الحزب اديب اسحق صاحب جريدتى « مصر والتجارة » اللتين الغاهما رياض بجرة قلم الى باريس لاعادة اصدار جريدة « مصر » على نفقة الحزب ، وكانت هذه الجريدة لاتفتأ تشن حملات شعواء على سياسة رياض واسلوب حكمه وتطالب بحياة دستورية كريمة تصلح قاعدة للحكم ، وكانت اعداد هذه الجريدة تصل الى مصر سرا فيتلقفها رجال الحزب ويوزعونها على انصارهم .

وقد اشار مراسل التيمس بالاسكندرية فى رسالة له بتاريخ ١٩ مايو ١٨٧٩ الى خطورة الدور الذى يقوم به هذا الحزب فقال: « لقد اصبح واجبا على الخديو ان يحسب حسابا لهيئة سياسية تسمى « الحزب الوطنى » ، وقد اجتمعت كلمة الجيش والشعب والعلماء على امر واحد هو اثبات ان مصر فى وسعها ان تحكم نفسها بنفسها » .

بدا الحزب يعقد جلسات سرية بمنزل محمد سلطان ، وفى ٤ نوفمبر اصدر اولى بياناته فى نشرة رسم فيها برنامج سياسته وطبع منها الوف النسخ ، وزعت فى شتى انحاء البلاد ، وفيها يقول : « بانه يريد انقاذ مصر من الهوة السحيقة التى تردت فيها تحت اثقال الربا والاستبداد ، وانه يقدر ان اكثر من ستين مليونا من الجنيهات استولى عليها الوسطاء الماليون ، وان الحكومة الحالية — اى وزارة رياض — لا تمت الى مصر بنسب حقيقى ، بسبب ان الدول الاجنبية هى التى اقامتها ولا دخل للامة فيها » ثم اقترح الحزب :

١ — ان تعاد الى الحكومة جميع الممتلكات المسماة بالخديوية

٢ — الغاء النص القاضى بتخصيص ايرادات السكك الحديدية للقرض الممتاز .

٣ — ان تكون الديون الممتازة والسائرة والمنتظمة دينا واحدا مضمونا بمال الامة بفائدة ٤٪ .

٤ — ان تقام ادارة مراقبة وطنية خاصة مؤقتة يكون فيها

ثلاثة من الاجانب تعينهم الدول وتقرهم الحكومة المصرية .
واعلن الحزب فى ختام بيانه بأن مصر تبغى التخلص من ديونها بشرط ان تتركها الدول حرة فى تنفيذ الاصلاحات العاجلة .
فزع رياض من قيام هذا الحزب الذى يعارض سياسته والذى يجمع تحت لوائه قادة الراى وزعماء الاصلاح ، فبث العيون والارصاد بغية الوقوف على مدى نشاط الحزب ، واخذ يطارد كل من يعرف عنه انه متصل بهذا الحزب ، واخيرا قبض على بعض اعضائه ومنهم الفريق شاهين كنج ، الذى اضطر الى التجنس بالجنسية الايطالية والفرار الى الخارج ، كما عمد الى انذار الصحف المعارضة ومصادرتها وتعطيلها وفرض رقابة صارمة على الاقلام .
وفى الوقت ذاته قامت فى الاسكندرية جمعية سرية تحمل اسم « مصر الفتاة » للدعوة الى الحرية واصدرت صحيفة بهذا الاسم لتكون لسان حالها ، ولكن الحكومة قامت بمناهضة اعضاء الجمعية وتعطيل الصحيفة .

* * *

كان وزير الحربية فى وزارة رياض وهو عثمان رفقى ، مزيجا من الرجعية والتعصب لبنى جنسه من الجراكسة ، وسولت له نفسه ان يحد من ترقية الضباط المصريين الى المناصب العليا فى الجيش ليجعلها مقصورة على العناصر المعادية وعلى الخوارج على الرغم من تفشى الجهل وانعدام الكفاءة بينهم ، بل ان منهم من كان لا يحسن القراءة والكتابة ولا يتكلم بلغة اهل البلاد ، فاصدر فى ٣١ يوليو ١٨٨٠ « قانون القرعة العسكرية » الذى يرمى الى الاجحاف بحقوق الضباط المصريين وقصر الترقية على ابناء جنسه

وكان هؤلاء الضباط الجراكسة خليطا من عناصر دخيلة متفرقة ، وفدت على ارض النيل عن طريق الاسترقاق والنخاسة، فاصطفتهم الطبقات الحاكمة حتى اذا شبوا الحقوا بمناصب الدولة واهديت اليهم الاراضى الخصبة والقصور الشامخة ، وابتاعوا الجوارى والغلمان من بنى جنسهم ، وشب أولادهم وحفدتهم على الترفع عن الاختلاط بسواد الشعب ومعاملتهم بالازدراء ونعتهم « بالفلاحين » تحقيرا لشأنهم .

وداب هؤلاء الاغراب على الاجتماع في جوف الليل بمنزل الفريق خسرو ليتذاكروا تاريخ دولة المماليك ويتمنوا العودة الى امتلاك مصر وابتزازها والسيطرة على مرافقها ، وكان عثمان رفقى يشهد هذه الجلسات ويقول : لقد حان الوقت لرد بضاعتنا الينا .

تألم الضباط المصريون من « قانون القرعة العسكرية » الذى جاء مجحفا بحقوقهم ، وبلغ من تذمرهم ان كونوا جماعة سرية برياسة على الروبى احد الضباط العظام للذود عن حقوقهم ، وتعاهدت الجماعة على الفداء والتضحية ، واقسم الاعضاء على المصحف والسيف بان يكونوا مخلصين فى دعوتهم ، ثم انضم اليهم فيما بعد من الضباط : عبد العال حلمى وعلى فهمى ومحمد عبيد وخضر خضر ومحمود فهمى ثم الاميرالاى احمد عرابى الذى تمكن عن طريق جراته وفصاحته ان يكون الرئيس الفعلى للجماعة، واخذ بنشر الدعوة ضد خصومه ومناوئيه بشتى الاساليب ، ومنها النشرات السرية .

ونشط عثمان رفقى الى تنفيذ سياسة التعصب الذميم ، فاصدر امرا بنقل الاميرالاى عبد العال حلمى قائد الفرقة السودانية الى منصب معاون بوزارة الحربية على ان يحل محله فى قيادة الفرقة ضابط جركسى طاعن فى السن اسمه خورشيد نعمان وفصل القائمقام احمد عبد الغفار قائد كتيبة الفرسان من الخدمة وتعيين ضابط جركسى هو شاكر طمازه ليحل محله .

وحدث ان كان الاميرالاى احمد عرابى مدعوا فى ليلة ١٥ يناير ١٨٨١ الى مادبة ببيت نجم الدين باشا لمناسبة عودة الباشا من الحج ، فأتاه من اخبره بهذين القرارين ، فلم يتم عشاءه بل نهض لساعته الى منزله حيث كان فى انتظاره لفيف من الضباط الاحرار اعضاء الجمعية ومن بينهم الاميرالاى عبد العال حلمى ، والاميرالاى على فهمى ، والقائمقام احمد عبد الغفار ، والبكباشى محمد عبيد ، والبكباشى خضر خضر ، والبكباشى الفى يوسف ، وكانوا جميعا فى حالة نفسية ثائرة .

وبعد ان افصحوا عن شكواهم ، قال على فهمى :

— ان رياض حاكم مستبد ظالم ، وان عثمان رفقى ليس الا

نسخة منه ، وان الجراكسة يجتمعون كل ليلة بمنزل الفريق خسرو ويزعمون بانهم لن يغلبوا من قلة .

فسالهم عرابى :

— وماذا تريدون . . . ؟

فقالوا :

— لقد جئناك لنقف على رايك حيال هذه المظالم .

فاجابهم عرابى :

— رايى ان تطيب نفوسكم وتهدئوا من روعكم وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا اليهم النظر فى مصالحكم وهم يتخذون من بينهم رئيسا يثقون به كل الوثوق ، ويسمعون قوله ، ويطيعون أمره ، ويحفظونه بمعاضدتكم اذا ارادت الحكومة به شرا .

فصاحوا جميعا فى صوت واحد :

— لقد فوضنا هذا الامر اليك وحدك ، فليس فينا من هو احق به واقدر عليه منك .

فعارض عرابى فى ذلك وقال لهم :

— بل انظروا غيرى وانا اسمع له واطيع وانصح له جهدى فقالوا :

— نحن لا نبغى سواك ولا نثق الا بك . .

فابان لهم ان الامر عصيب ولا يسع الحكومة الا قتل من يتصدى لها . .

فقالوا :

— نحن نفديك ونفدى وطننا العزيز الغالى بارواحنا .

فطلب اليهم أن يقسموا له على ذلك ، فاقسموا جميعا .

واخيرا استقر رايهم على تحرير شكوى الى رئيس الحكومة مصطفى رياض اشاروا فيها الى تعصب عثمان رفقى الذميم لابناء جنسه واجحافه بحقوق ابناء البلاد ، ثم طلبوا وضع حد لهذه المأساة وذلك بعزل الوزير وتعيين غيره من ابناء البلاد مع الغاء الاوامر التى اصدرها وتعديل قانون القرعة العسكرية ، وقيام مجلس نواب تنفيذا لوعد قطعه الخديو على نفسه ، وابلاغ الجيش العامل الى العدد المنصوص عليه فى الفرمانات .

ووقع على الشكوى : احمد عرابى ، وعلى فهمى ، وعبد العال حلمى ، نيابة عن الضباط الاحرار ، وبعثوا بنسخة اخرى من الشكوى الى القصر الخديو .

كان اجتماع هؤلاء الضباط وتحالفهم على تحرير هذه الشكوى فاتحة اول ثورة عسكرية فى تاريخ مصر وهى جراة لم يقم مصرى بمثلها منذ ابادة الزعامة الشعبية بقيادة عمر مكرم .

وبعد يومين انطلق الضباط الثلاثة الى ديوان الداخليــة حيث التقوا بوكيل الوزارة خليل بكن وشرحوا له مضمون الشكوى ثم طلبوا اليه ان يتولى بنفســه تقديمها بنفســه الى رئيس الحكومة .

ووقف رياض مبهوتا ازاء جراة هؤلاء الضباط الفلاحين اذ كان يخال ان الظلم والاستبداد مد رواقه عليهم فاستكانوا الى سلطة الحكومة وتنزيه الحاكم عن ان يتطاول اليه افراد الشعب بالاعتراض والمقاومة ، ولم يدر بخلده ان المسالة ليست ابدال وزير بآخر بل هى ابعد مدى من ذلك وان الثورة على الابواب مادامت مصر تحكم على هذه الصورة .

وتلقى رياض الضباط الثلاثة ولوح لهم بان فى الامر خطــورة وجراة ربمــا قذفت بهم الى اعماق السجن ونصحهم بسحبهــا ، فاجابه عرابى :

ـ اننا لم نطلب الا حقا وعدلا وليس فى طلب الحق من خطر ، فما هذا التلويح والتخويف .

فقال رياض :

ـ ليس فى البلاد من هو اهل لان يكون عضوا فى مجلس النواب، فتصدى له عرابى يقول :

ـ انك مصرى وباقى الوزراء مصريون ، فهــل تظن ان مصر ولدتكم ثم عقمت ؟ كلا ! فان فيها العلماء والحكماء والنابهين ، وعلى فرض ان ليس فيها من يليق لان يكون عضوا فى مجلس النواب ، افلا يمكن انشاء مجلس يستمد من معارفكم ويكون بمثابة مدرسة ابتدائية تخرج لنا بعد اعوام خمسة ... رجالا يخدمون الوطن بصائب افكارهم ، ويعضدون الحكومة فى مشروعاتها الوطنية .

فعقدت الدهشة لسان رياض ، وازاء اصرارهم عــلى التمسك بمطالبهم امهلهم اسبوعا للنظر فيها ، ثم حمل الشــكوى بنفسه الى قصر عابدين وافصح للخديو عن مجملها ، فقال له الخديو :

ـ وهل رياض باشا بكل ابهته ونفوذه تاثر واكترث باقــوال هؤلاء الفلاحين حتى انه حمل للامر اهمية لدرجة انه حمل بنفســه عريضة الشكوى واتى بها الى ، اننى يارياض باشــا ارى طــرد

هؤلاء الضباط الفلاحين وعدم الاهتمام بامرهم .

فقال رياض :

— ان المسألة ليست مسألة فلاحين ولا اتراك ، وانما المسألة مسألة جيش ، فاذا افلت زمام الجيش من يدك ضاعت البلاد منك ، لذلك ارجو امعان الرأى وتوليته ما يستحقه من الاهمية ، ان المسألة جسيمة وخطيرة واخشى بسببها ضياع البلاد وخرابها

وهنا قال الخديو :

— ما انت يارياض باشا الرجل الذى اعرفه انا ويعرفه غيرى . جيش ايه وبلاد ايه ؟ .. كل هذا يرد فى فكرك من قبل جماعة مثل هؤلاء الفلاحين .

فانهى رياض الحديث بقوله :

— انى اترك افندينا يفكر فى الامر يومين او ثلاثة ، وساعود الحديث معه من جديد ، وليعلم مولاى بان رايى هو هو لا يتغير .

وتردد رياض مرة اخرى على الخديو ليقف على رايه الفاصل فى الموضوع وقال له :

— لاحل للمسألة الا باحد امرين : اما ان افندينا يجيب طلباتهم ويطيب خاطرهم حتى تموت هذه الحركة ، واما ان يأمر بأعدامهم اذا كان مصرا على رايه ، وبدون اجابة هذين الامرين فنحن امام تهديد بخراب البلاد بل بضياعها .

فأجابه توفيق فى صلف وكبرياء .

— انا لا اجيب مطالبهم ولا آمر بأعدامهم ، وهم فى نظرى لاشىء!!

وشاع نبأ عريضة الضباط الاحرار بين جميع طبقات الشعب ، واتصل بها نبأ الخلاف بين الخديو ووزيره الاول ، فشخصت الابصار الى هؤلاء الضباط وتمنوا ان يكون خلاص مصر على ايديهم ، وحثوهم على الاستمساك بمطالبهم ، وايدوهم فى موقفهم ووضعوا ايديهم فى ايدى هؤلاء الضباط الاحرار .

وجاء البارون درنج قنصل فرنسا فبعث الى عرابى ورفاقه يمتدح صلابتهم فى الحق ويقوى من عزائمهم ، ونصحهم بالا يتقهقروا عن موقفهم ، وقال لهم : ان حكومة فرنسا تسندهم فى هذه المطالب .

واخيرا اثار رياض المسألة فى اجتماع مجلس الوزراء ، كان من رايه وجوب تشكيل مجلس عسكرى لمحاكمة هؤلاء الضباط ،

وانبرى وزير الحربية عثمان رفقى وقد خال نفسه وزيرا فى حكومة المماليك فقال يخاطب الخديو :

ــ انا احب من افندينا ان يصدر لى امرا بوجوب محاكمتهم فى مجلس عسكرى فوق العادة ، ومعاقبتهم بالشدة على ما فعلوه من هذه الوقاحة .

فتساءل الخديو :

ــ ربما يتولد من ذلك ثورة عسكرية يصعب اطفاؤها .

فاجابه وزير الحربية :

ــ بنفس افندينا لا يحصل شيء ولا تشويش فى ذلك وانا المسئول عن هذه المسالة .

وايده فى هذا الراى خيرى باشا ويوسف شهدى باشا وهما جركسيان مثله .

فوافق الخديو على الراى الاخير ، وبعد ان انفضت جلسة مجلس الوزراء اصدر الخديو امرا الى نظارة الجهادية هذا نصه:

« بناء على الافكار الفاسدة والحركات المضرة المتوقعة من كل من احمد بك عرابى اميرالاى ٤ بيادة وعبد العال بك حشيش اميرالاى ٦ بيادة وعلى بك فهمى اميرالاى ١ جى بيادة خلافا للقانون والنظام العسكرى ، قد تقرر بمجلس النظارة المنعقد يوم تاريخه بسراى عابدين تحت رئاستنا بتوقيف الثلاثة ضباط المذكورين واحالة محاكمتهم على مجلس عسكرية تحت رئاسة الجنرال استون واعضائه ابراهيم باشا فريق السوارى ولارمى باشا وبلوم باشا ولوا خورشيد باشا عاكف ولوا سوارى محمد رضا باشا ومن الضباط المتقاعدين لوا نجم الدين باشا . ولهذا اصدرنا امرنا هذا لكم لكى تجروا حالا توقيف الثلاثة ضباط المذكورين مع اخذ الاحتياطات الكافية لعدم وقوع ادنى ما يخل بالنظام العمومى تحت كفالتكم وبمعرفتكم يصير انتخاب وتعيين بدل الثلاثة ضباط المذكورين فى محلاتهم ومن حيثية تشكيل المجلس العسكرى فوق العادة ومحاكمة الثلاثة ضباط المذكورين قد تحرر فى تاريخه لجناب الجنرال استون بما لزم عن ذلك يكون معلوم » .

ولم يسلك عثمان رفقى الطريق القانونى للقبض على الضباط الثلاثة ، كما جرت العادة ، بل اتبع فى تنفيذه طريق الغدر والخيانة

كما لقن عن اسلافه ، ففى ٣١ يناير دعا الضباط الى الاجتماع به فى ديوان وزارة الحربية بقصر النيل للمذاكرة فى ترتيب حفل زفاف الاميرة جميلة شقيقة الخديو من الامير احمد كمال ، فلما تلقوا هذه الدعوة ساورهم الشك اذ ان الموضوع لا يحتاج الى مداولة .

وجاءهم النبا اليقين من محمود سامى البارودى وزير الاوقاف عن طريق البارون درنج اذ افضى اليهم بتفصيلات المؤامرة المبيته للغدر بهم وزجهم فى السجن توطئة لمحاكمتهم .

واسرع الضباط الثلاثة بالاتصال بلفيف من رفاقهم وعلى راسهم البكباشى محمد عبيد والبكباشى خضر خضر اللذان اخذا على عاتقيهما انقاذهم فى حالة القبض عليهم .

وفى الموعد المحدد وهو اول فبراير ١٨٨١ قصد عرابى وعبد العال حلمى الى ديوان الحربية ، واما على فهمى فانه تمارض فى هذا اليوم وارسل بدلا عنه خورشيد بسمى قائمقام الكتيبة ، فلما دخل الديوان ووقع عليه نظر عثمان رفقى قال له :

— انت لست المطلوب بل على فهمى فاذهب وارسله حسب الطلب .

وتلقت احمد عرابى وعبد العال حلمى ثلة من الضباط الجراكسة واحاطت بهما وطلبت اليهما نزع سيفيهما توطئة لاعتقالهما حسب الاوامر الصادرة ثم اقتيدا الى غرفة فى ديوان الوزارة وانهالت الشتائم تتقاذفهما الى ان لحق بهما على فهمى وانضم اليهما ، ثم مر بباب الغرفة الفريق خسرو واراد ان يتشفى فصاح متهكما :

— فلاحين شغالين بالمقاطف .

وغمرت الفرحة قلب عثمان رفقى وانبسطت اساريره اذ خال ان خطته نفذت باحكام . بيد ان هذه الفرحة لم تدم سوى لحظات فان خورشيد بسمى ما كاد يعود الى مقر الكتيبة فى عابدين حتى دعا اليه البكباشى محمد عبيد وقال له :

— كن مستعدا . وارسل الكتيبة الى قصر النيل .

وقاد محمد عبيد الكتيبة وهى مزودة بكامل معداتها من مدافع وبنادق وذخيرة وحاصر ديوان الوزارة . وما كاد عثمان رفقى واعوانه يلمحون الشرر يتطاير من عيون الضباط والجند

وهم يقتحمون الابواب ويسدون المسالك حتى ساد الهلع ودب الرعب فى اوصالهم ، فهرولوا الى الابواب يلتمسون منفذا للنجاة ووثب عثمان رفقى من نافذة غرفة مكتبه الى حيث اختبأ فى « مخزن ورشة الترزية » ثم تسلل مع اعوانه الى قصر الخديو ليحتموا به .

شرع الجند يحطمون الابواب والنوافذ الى ان وصلوا الىالغرفة المعتقل فيها القواد الثلاثة ، فاطلقوا سراحهم واخذوا يتبادلون العناق ويفتشون عن مكان اسلحتهم لردها اليهم ، وهكذا اجاد عثمان رفقى نصب الشباك ولكن الطير لم يقع فيها .

وخرج القواد الثلاثة على راس الكتيبة التى أنقذتهم من الاسر وحررتهم من الاعتقال ، ووجهتهم ثكنة عابدين ، وهناك تعانقوا مع بقيه رفاقهم الضباط واحتشدت طوائف الشعب حول مقر الثكنه تتطلع بعيون ملؤها الدهشة الى هذه الحركة غير المالوفة فلما وقفوا على حقيقتها والى انها طفرة الحد من طغيان الاغراب وانتصار العدالة على الاستبداد اخذوا يباركون الحركة الفتية الناشئة ، ونهض عرابى خطيبا وسط الجند فشكر لهم اتحادهم وتضامنهم لانقاذه وصاحبيه من السجن .

وبلغ النبأ رياض فبادر بالتوجه لمقابلة الخديو للتداول فى الموقف ، واما عرابى فبعث الى البارون درنج يبلغه تفصيلات ما حدث ويطلب ان يطلع بقية قناصل الدول على الحقيقة وكيف ان الضباط لم ياتوا الا ما يحفظ كرامتهم وشرفهم العسكرى ، وانهم يطالبون بعزل وزير الحربية الجركسى وهو طلب عادل بسبب سوء تصرفاته .

وحنق الخديو على البارون درنج ، فبعث الى الحكومة الفرنسية يطلب اليها سحب قنصلها من القاهرة لتدخله فى مسألة الضباط الثائرين ، فأجابته الحكومة الفرنسية الى طلبه ، وفى الوقت ذاته بدأ الخديو يتقرب من العنصر الوطنى فى الجيش فسأل الضباط عمن يريدونه وزيرا للحربية فرشحوا اسم محمود سامى البارودى ، واخيرا دعا الضباط الى اجتماع بقصره فى ١٢ فبراير ١٨٨١ والقى عليهم خطابا اكد فيه انه لا يوجد فى نفسه ادنى اثر لما بدر منهم ثم طالبهم باحترام النظام وعدم الخروج على طاعة الحكومة والسعى الى الامتثال فى دائرة القانون

لم يفت على زعماء الحركة ان هذا الانتصار الحاسم الذى ادى الى عزل زعيم الجراكسة لا يمكن ان يمر بسلام ، بل لا بد ان يسعى هؤلاء الدخلاء الى تقويض الحركة وبث الفتنة بين الصفوف . واخذت الشكوك تساور قلوب الضباط خوفا من المكائد التى قد تدبر فى الظلام لاسيما ان تاريخ مصر مملوء بالوان الخديعة والبطش التى دبرها الخوارج للايقاع بالعناصر الرشيدة التى تجاهر برايها ، واغتيالهم بقصد اخماد حركات الكفاح والنضال ، وصور الحال لهم انه لا يستبعد ان يعمد الجراكسة الى التآمر عليهم على طريقة محمد على مع المماليك فى مذبحة القلعة ، فاحاطوا انفسم بالاعوان والحراس وصاروا يعقدون اجتماعاتهم سرا للتداول فى الموقف

وتقدموا الى محمودْ سامى البارودى وزير الحربية بمطالب منها : رفع مرتبات الضباط والجند اذ انها مقررة منذ ثمانين عاما دون ان يتناولها تعديل او تبديل ، وترقية مستوى الحياة العسكرية ، وتعديل قوانين الجيش كالاجازات والماكل والملبس بما يتفق والنهضة التى تجتازها البلاد ، واعادة قائد كتيبة الفرسان القائمقام احمد عبد الغفار الى الخدمة .

واستجاب البارودى الى هذه المطالب المشروعة فاعد طائفة من القوانين واللوائح وفى طليعتها قانون برفع مرتبات الضباط والجند ، وتشكيل لجنة لاعادة دراسة الانظمة العسكرية ، ورفع مستوى التعليم فى المدارس الحربية ، وقد صدرت فعلا هذه القوانين والقرارات فى ٢٠ ابريل ١٨٨١ واقام وزير الحربية مادبة فى مقر وزارة الحربية بقصر النيل احتفالا بهذا النصر الساحق ، والقى خطابا فياضا ضمنه مانالته مصر من الاصلاح ، كما خطب رياض وعرابى .

الزعيم الثانى

نشاة عرابى ـ التحاقه بالجندية ـ الثورة على الاستبداد السياسى ـ غرس فكرة القومية ـ الحشد التاريخى فى ساحة عابدين ـ الصيحة الاولى التى دوت فى سمع الزمان ـ اسقاط وزارة رياض ـ اجابة مطالب الجيش والشعب ـ الوثائق التاريخية ومظاهرة سبتمبر العسكرية .

ـــ•ـــ

ان بناة الامم والشعوب هم الذين يخرجون من صلبها ، ويرقون سلم الحياة درجة فدرجة الى ان يصلوا الى الذروة والقمة .

وقد خرج احمد عرابى من صلب الامة ، ومن والدين فلاحين عريقين فى فلاحة الارض ، كما يخرج جميع الافذاذ والزعماء ، فكان صوته اول صرخة مدوية ايقظت فى النفوس روح التمرد على الظلم ، والتحرر من الاستعباد ، وكانت صرخة تتمثل فيها ارادة الشعب وامانيه فى الحرية والاستقلال .

واحمد عرابى ابن القرية الصغيرة « هرية رزنة » من ارباض مدينة الزقازيق ، اذ ولد بها فى ٣١ مارس ١٨٤١ ، ماتفتحت عيناه للنور وما انطلق لسانه بالكلام حتى دخل مكتب القرية حيث تلقى مبادىء القراءة والكتابة ، وحفظ بعض السور من كتاب الله الكريم[1] ، ثم تعهده صراف القرية فلقنه مبادىء الحساب والرياضة ، وكان ذلك كله الخطوة الاولى التى يخطوها الصبى احمد الى العزة والمجد ، والفخار المنشود .

وكان ابوه السيد محمد عرابى عالما ورعا ، وشيخا مبجلا من شيوخ القرية ، شيد مسجدا فى « هرية رزنة » ورتب فى صحنه دروسا فى الفقه والعبادة ، لنشر الثقافة الدينية بين الفلاحين ،

ثم قضى نحبه اثر اصابته بوباء الكوليرا وعمر احمد ثمان سنوات فكفله اخوه الاكبر وبعث به الى الجمع الازهر فى طلب العلم .

كان الازهر فى ذلك العصر بمثابة ملجأ يلوذ به ابناء الفلاحين والكادحين فرارا من قسوة الحكام ، فيجدون فى رحابه الامن والطمانينة ، وكان لهم من اوقافه مايسر لهم سبل العيش فى نطاق محدود ، فتحامل الصغير احمد على نفسه ،وعكف على الدرس والتحصيل حيث جود كتاب الله الكريم ، وانطبع لسانه اذا خطب او خاطب بطابع البلاغة فيخلب الالباب ويسحر العقول

وليس من شك فى ان نشأة احمد عرابى كان لها اعمق الاثر فى مجرى حياته ، وفى اخلاقه ، ترعرع فى بيت حسب فكان فخورا بمنبته ، وربى تربية دينية فكان عظيم الايمان ، كبير القلب ، هذا القلب الذى يفيض حرارة واخلاصا سواء فى احاديثه او فى خطبه صريحا لا يعرف المواربة ، يطلق نفسه على سجيتها ، كثير الثقة بمن حوله ، وطبع بفضل تربيته الدينية الصحيحة على حب العدل والتشرب بالنزعة الانسانية والابتعاد عما تتصف به النفس فى طفولتها .

وعاد الى القرية بعد سنوات اربع قضاها فى رحاب الازهر لايدرى ماذا يكون من امره فى المستقبل ، هل يمضى فى دراسته الدينية التى تؤهله لان يكون شيخا من شيوخ الدين ام يتحول عن هذه الدراسة الى الزراعة وتعهد الارض بالغرس والرى .

ولم يدر ان الامة تدخره لموقف عصيب من اشد مواقفها ، فيكون داعية ورسولا وزعيم فكرة سامية . ورمزا لمقاومة الطغيان وان تدوى صيحته الاولى فى سمع الزمان ، ويجيد الاحساس والتعبير عن آلام مواطنيه الذين سينوءون تحت اثقال الاضطهاد ، وتجرى على لسانه عبارات الوطنية والدستور وحكم الشورى وحق المصريين فى ان يكونوا احرارا لا يستعبدهم احد .

ولم تطل به العزلة والاعتكاف فى القرية ، فقد اراد الوالى سعيد ان يجند اكبر عدد ممكن من الشبان ، فأمر بان يكون فى صفوف الجند ابناء العمد والمشايخ بعد ان كانوا معافين ، وكان من حظ الجندية ان انخرط فيها الفتى الازهرى فى ٦ ديسمبر ١٨٥٤ وهو يومئذ دون الخامسة عشرة من عمره .

بدا حياته جنديا بسيطا فى المشاه ، ولكن المامه بالقراءة والكتابة

جعل له ميزة التفوق على اقرانه ، فلم يأت عام ١٨٥٨ حتى كان ضابطا برتبة ملازم ، ثم ظل يرقى فى سلك المناصب العسكرية الى ان وصل الى رتبة قائمقام .

واحمد عرابى هو اول فلاح وصل الى مرتبة من مراتب القيادة العسكرية ، فعلى الرغم من ان الفلاحين الكادحين الذين اندمجوا فى صفوف الجيش احرزوا انتصارات باهرة فى الفتوحات العسكرية ، وابلوا بلاء حسنا فى المواقع التى خاض الجيش غمارها ، فقد توجس الحكام الاغراب خيفة من هؤلاء العمالقة ورسموا خطة ثابتة هى الا يرقى مرتبة القيادة فى الجيش عنصر الفلاحين حتى لا تستيقظ فى نفوسهم عوامل السيادة والسؤدد .

ثم عين عرابى ياورا للوالى سعيد وظفر بثقته ، فرافقه فى زيارته للمدينة المنورة ، واستطاع ان يستشف فى خلال هذه الرحلة عطف الوالى على رجال الجيش وافتخاره بهم .

وليس من شك فى ان هذه الترقيات السريعة قد اشعلت فى فؤاد الضابط الشاب شتى المطامح والامال . . . ثم حدث ان اهداه الوالى نسخة من كتاب يتضمن سيرة حياة نابليون بونابرت واعماله طبعة بيروت ، فما ان استوعبه ودرس من خلال سطوره شخصية القائد الفرنسى الفذ حتى امتلات نفسه حماسة وبسالة وطموحا .

وجاء عهد اسماعيل فكان وبالا على العنصر الوطنى فى الجيش ، فيه استشرى نفوذ الضباط الجراكسة والخوارج وعادوا الى نعرتهم وغرورهم واستطاعوا ان ينفذوا من الثغرات التى احدثتها نزوات العاهل الخليع ، وازدادت الشقة بين العنصرين الوطنى والدخيل ، لا فى الجيش وحده بل فى كل مرفق من مرافق البلاد .

واضطهد عرابى مع من اضطهد من الضباط المصريين ، ووقعت الخصومة بينه وبين اللواء خسرو بسبب النزاع على قطعة ارض زراعية اهداها الخديو الى عرابى واهدى مثلها الى كل ضابط فى حامية طرة . ثم تطور النزاع الى وشاية وسعاية فى حقه عند امتحان الضباط وتفضيل الجراكسة على المصريين فى الترقية ، اذ اعترض عرابى على ذلك ، فدبروا مكيدة له واحالوه الى مجلس عسكرى للمحاكمة ، ومع ثبوت براءته الا ان المجلس اراد ان يحابى خسرو فحكم عليه بالسجن ثلاثة اسابيع ، واستانف الحكم وبراه

المجلس العسكرى العالى مما نسب اليه ، الا ان خسرو لم يشأ ان يسلم بالامر الواقع فما زال يكيد له حتى استصدر امرا من الخديو بعزله .

كان عرابى وهو الفلاح الصميم يشعر بازدراء الضباط الجراكسة واحتقارهم لشان المصريين ، كان يحس انه غريب فى جيش امته وكان كل ما حوله يشعره بان زمام هذا الجيش فى ايدى الاغراب يتصرفون فيه على هواهم ، لذلك جاء تمرده امرا طبيعيا لمنطق الحوادث ، وتولدت عنده نزعة كراهية العناصر الدخيلة التى تستنزف دماء المصريين وتحتكر مراكز الصدارة ، وانبثق فى اطواء صدره المقت القديم الذى يحمله لهؤلاء الجراكسة ، حين كان يراهم وهو صبى اذ يهبطون القرية لتحصيل الضرائب ، فكان السوط هو الاداة الوحيدة للتفاهم مع الفلاحين ، وكانوا يعمدون الى اشد الوان الايذاء لاهدار آدمية الفلاحين واذلالهم .

واعيد عرابى الى الخدمة ولكن فى منصب بعيد كل البعد عن المناصب العسكرية ، اذ اسندت اليه اعمال مكافحة فيضان النيل والاشراف على تشييد الجسور والقناطر ، فوجد فى هذه المهمة امتهانا لكرامة الرتبة العسكرية التى يحملها ، كما تالم بالغ الالم من تكليف الجند القيام باعمال السخرة كمد الخطوط الحديدية والسلكية وحفر الترع وتطهير المصارف والخدمة فى التفاتيش الزراعية للاقطاعيين .

وفى عام ١٨٧٥ الحق عرابى بالحملة العسكرية التى سيرها الخديو اسماعيل لغزو الحبشة بوصفه ضابطا للامدادات والتموين « مامور مهمات » ، وكان فى عهدته عشرة آلاف من دواب النقل كالبغال والخيل والجمال وهى جميعا مما استولى عليها الخديو من الفلاحين بدون ثمن .

لم تكن مصر بحاجة الى هذه الحرب ولا على استعداد لها سوى اشباع نزوات الخديو وطمعه فى ان يوسع رقعة نفوذه ، فقد ارسلت الحملة ومصر غارقة فى ديونها ، وشبح الافلاس يقض مضجعها ، وتكبدت الخزانة العامة بسببها خسائر فادحة قدرت باكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وازالت الحملة هيبة الجيش بسبب تفشى الخيانة وعوامل الفساد والانحلال ، وكانت هزيمة الجيش المصرى فى هذه الحرب بعد الانتصارات الساحقة التى

احرزها قبل ذلك بنصف قرن من البواعث التى جعلت الدول الاوربية ترنو الى احتلال وادى النيل .

خسرت مصر فى حرب الحبشة الاموال والارواح والعتاد ، ولكن الضباط المصريين عادوا منها وهم يحملون بين جوانحهم بذور الثورة التى افرخت فيما بعد فى صدور الفلاحين ، فقد ملأ السخط صدورهم من جراء مسلك قوادهم الاوربين امثال منزنجر الانجليزى ووليم لورنج الامريكى ، وارندروب الدنمركى وغيرهم ، وشهدوا بأعينهم كيف القى هؤلاء القواد واركان حربهم طرابيشهم قبل ان يخوضوا المعركة الحاسمة بين الجيشين المصرى والحبشى ووضعوا قبعاتهم على رءوسهم وربطوا فى اعناقهم مناديل بيضاء شارة الى انهم مسيحيين والى انهم يطلبون التسليم .

وكذلك لمس الضباط المصريون من رؤسائهم الجراكسة امثال السردار راتب واللواء عثمان رفقى احتقارهم للعنصر المصرى وتعريضهم جنود مصر للموت والدمار والضن عليهم بالطعام حتى أصيب معظمهم بالنزلات المعوية .

واخيرا راى الضباط المصريون كيف كوفىء الاغراب من الضباط الذين خذلوا جيش مصر فى هذه الحرب وباعوا عشرة آلاف من اخوانهم الى الجواسيس وعملاء الاستعمار وكبدوا الخزانة العامة الخسائر الفادحة وشوهوا سمعة البلاد ، بأن اكرمهم الخديو وعلق بيده الاوسمة على صدورهم بدلا من ان يقدمهم الى المحاكمة

وعندما وقعت ثورة الضباط على وزارة نوبار فى فبراير ١٨٧٨ بسبب حبس مرتباتهم ، واراد الخديو ان ينقذ سمعته على حساب هؤلاء الابرياء الذين لاذنب لهم سوى انهم يطالبون بحقوقهم المهضومة ، اسند الخديو تدبير الحادث الى بعض الضباط المصريين ومن بينهم احمد عرابى حتى يرضى بذلك الدوائر الاجنبية، فقدمهم قربانا على مذبح الاستعمار ، وعلى الرغم من ان عرابى اثبت للمجلس العسكرى انه كان يوم الحادث فى مهمة رسمية ، فقد حكم المجلس بتكديره .

وفى مايو ١٨٨٠ قامت حركة بين نفر من الضباط المصريين بزعامة احمد عرابى للمطالبة بصرف رواتبهم المتاخرة ، ونظرت وزارة الحربية فى الامر واقرت مطالب الضباط ، ولكن الوزير رياض عد ذلك العمل خروجا على النظام .

وكانت الوطنية المصرية اذ ذاك فى ابان نشأتها ، والدعوة اليها فى اشد رواجها بتأثير تعاليم الافغاني والعناصر المكافحة الرشيدة ، فوجدت نفس عرابى المجال واسعا للعمل ، والميدان فسيحا للمجاهدين المجدين ، فصار متعلما بما يطالعه فى اشتات الصحف وما تصل الى يده من النشرات عن الاستبداد والحرية ، والظلم والعدالة ، وكذلك بما يستوعبه من آراء فى بعض المؤلفات المترجمة عن الحياة الدستورية فى شتى بلدان الغرب ، وكيف ان المجالس النيابية رقيبة على اعمال الحكومات وحافظة الحرية الشخصية ، وفكر فى انه لو كانت فى مصر حكومة دستورية لكان البرلمان بمثابة ملاذ يلجأ اليه الشعب من عصف الاشرار من الاغراب .

وكذلك صار عرابى معلما بما يبثه فى نفوس رفاقه من الضباط عن الاتحاد والتضامن ، لرفع معالم الظلم وتقويض صرح الاستبداد. ووجد الى جانبه الصحبة المختارة والصفوة المناضلة امثال على الروبى وعلى فهمي ومحمد عبيد والبارودى الى غيرهم من تلك الطائفة الصالحة التى جعلت شعارها : مصر للمصريين وليست للعثمانيين أو الاجانب . فتآزروا جميعا فى العمل ، وتساندوا جميعا لانقاذ وطنهم مما يكرهون ، ورفع حجب الظلام والجور والاباطيل التى اسدلها الطغاة على مصر فى عصر انتشرت فيه مبادىء الحرية والرقى والحضارة .. فكان عرابى وليد الثورة على الاستبداد وليد الثورة على الاستعباد .. وليد الثورة على القديم الذى لا يصلح لعصره ، وربيب البلاغة والحجة والبرهان التى رضع لبانها فى الازهر.

غمرت شخصية عرابى الوادى باسره ، ولم يلبث ضباط الجيش الاحرار ان دانوا له بزعامته عليهم ، ووكلوا اليه امر قيادة حركتهم ، وكانت له من صفاته التى حباه الله بها وهى الجراة والاخلاص وطلاقة اللسان ما يؤهله للاضطلاع بأعباء هذه الزعامة خير قيام .

***

شطر حادث قصر النيل البلاد الى حزبين متطاحنين : الاول الحزب الذى يتزعمه الخديو ويضم رجال الحاشية من الخوارج والضباط الجراكسة والاجانب .

والثاني الذى يقوده عرابى ويضم مختلف طوائف الشعب التى تطالب باقرار العدل ، والمساواة فى دفع الضرائب وفى الوظائف العامة ، وارساء قواعد الحكم على نظام الشورى .

لم يرض الحزب الاول عن حادث قصر النيـــل الذى رفع من شان الفلاحين ورد اليهم كرامتهم وعزتهم وفخارهم ، فتــوالت اجتماعات اقطابه بالخديو لتدبير المكائد فى الخفاء والتحريض علــى الايقاع بزعماء الحركة ، والايعاز الى الضباط الجراكسة برفـــع العرائض التى يبسطون فيها شكواهم من وقائع خيالية .

واخذ الخديو من ناحية اخرى يعمل على التخلص من سطـوة العنصر الوطنى فى الجيش فوكل الى ناظر خاصته يوسف كمـــال ان يستميل بعض الجنود السودانيين بأن ينثر المال عليهـم لاثارة الفتنة واشاعة التمرد بين الصفوف ، فاستكتبهم عرضا يسنـدون فيه بعض المظالم الى الضباط المصريين ، وضبطت المؤامرة قبـل ان تفقس ، وحقق مع الجنود فاقروا بالحقيقة ، وكان من نتيجتها ان حكم على الباشجاويش الجركسى الذى حرضهم على الشكوى ، وكذلك فصل ناظر الخاصة من منصبه ترضية للضباط المصريين .

وكذلك اخذ اغوات القصر يدعون صغار الضباط وبعض الجنـد الى قصر الاسماعيلية ، ويعرضون عليهم الاماء السود اللواتى تركهن الخديو اسماعيل بعد خلعه ، ثم يعمد الاغوات الى منح الجند بعض المال تحت ستار مساعدتهم على الزواج من هؤلاء الجـوارى ، وفى الوقت ذاته يحرضونهم على اغتيال رؤسائهم من الضباط العظـام الاحرار .

وتعددت المؤامرات وهى فى كل مرة تشق طريقها الى الفشل .

واخيرا أحرج الخديو مركز البارودى وزير الحربية واتهمـــه صراحـــة بانه آلة فى ايدى رجال الجيش وانه ينقل اليهم اسرار الدولة ومـداولات مجلس الوزراء وان وجـوده على رأس وزارة الحربية يسبب « الفوضى » بين العسكريين ، وبذلك اجبره عــلى ان يقدم استقالته توطئة لتعيين آخر من العنصر الدخيل مكانه ، ولم يكد البارودى يتنحى عن منصبه حتى بادر الخديو باحـــلال صهره داوود يكن محله .

وكان داوود يكن من سلالة العناصر العثمانية التى حكمت مصر ومن الذين يمتون بصلة القربى الى اسرة محمد على ، ومن الطبيعى ان اختياره لم يكن بمحض المصادفة بل كان تدبيرا محكما متفقـــا عليه .

قابل زعماء الحـركة هذا التغيير والتبـــديل فى منصب وزير

الحربية بالامتعاض والحذر ، وتوجسوا شرا من سياســة الوزير الجديد . ولم يخب ظنهم اذ استهل داوود يكن حكمه بان اصدر تعليمات صارمة منافية للنظام ، الغرض منها الحد من نشاط الحزب العسكري والحيلولة دون اجتماع اقطابه ، فامر الضباط العظام بعدم مفارقة مراكزهم ، والا يترددوا على المحافل والمنتديات ، والا يشتغلوا بالشئون السياسية ، ثم بث عليهم العيون ترصد حركاتهم ، وسلط البوليس السرى بمراقبة عرابى وعبد العال حلمى واحمد عبد الغفار بصفة خاصة ، وكان يمر ليلا بالثكنات ليلمس بنفسه مدى تنفيذ اوامره .

واخذت مكانة عرابى تعظم فى نفوس افراد الشعب الذين تطلعوا اليه على اساس انه زعيم محرر ، ولقى التأييد من كل جانب ، وبلغت قوة الجيش الاوج ، وبات الاغراب يرهبون جانبه .

راى المصريون فى عرابى اول بطل يخرج من اصلاب الفلاحين ليقف فى وجه الطغاة ، شهدوا انتصاره على الخديو فى حادث قصر النيل ومطالبته بعزل وزير الحربية الجركسى ، وتولية وزير من انصار التحرير ، ثم سعيه الى استصدار طائفة من القوانين العسكرية رفعت من مكانة المصريين فى الجيش .

وسرعان ماخرجت الفكرة من نطاق العسكريين الى صميم الشعب وتحولت الى حركة كفاح قوامها خدمة مصر وفك اغلال الذل والهوان الذى كبلت بها فى خلال السنوات المشئومة .

والواقع ان الشعب نفسه كان يتألم من المظالم التى يتذمر منها الضباط الاحرار ، وفى مقدمتها سوء نظام الحكم والرغبة فى التخلص منه ، فقد كان هذا الحكم يمثل الاثرة والاستبداد والتنكيل بالسواد الاعظم من الشعب . لم تكن هناك قوانين معمول بها الا اذا وقع الابرياء المتضررون تحت طائلها ، ولم تكن هناك حقوق ولا حريات للطبقات الكادحة ، وكان الضرب بالكرباج لا يزال شائعة وهو الوسيلة الوحيدة لا بتزاز الضرائب ، وكذلك كانت السخرة شائعة يستخدم فيها الوف المواطنين لمصلحة الطبقة الحاكمة .

وكانت الرقابة الصارمة على اعمال المواطنين شديدة الوطأة ، والنفى الى اعالى النيل من الامور العادية . فقد كان هناك قرابة الف مواطن نفوا من أرضهم لا لسبب سوى مجاهرتهم بآرائهم والذود عن حقوقهم ، وكان فى طليعة هؤلاء الضحايا حسن موسى

العقاد ، سر تجار العاصمة ، وكان ذنبه انه اعترض على ابطال قانون المقابلة الصادر فى ٦ يناير ١٨٨٠ واصابه منه ، كما اصاب غيره ، حيف ، فقدم بذلك مظلمة الى لجنة التصفية ونشر صورتها فى جريدة « الريفورم » التى تصدر بالفرنسية ، ووصف فيها هذا العمل بانه استبداد ، ودعا غيره من الذين وقع حيف عليهم بان يحذوا حذوه ، فراى رياض ان تقديم هذه المظلمة الى اللجنة ونشرها فى الصحف معناه التشهير بالحكومة ونقد قوانينها والدعوة الى عصيان اوامرها ، فقدمه الى المحاكمة ، وصدر الحكم بسجنه خمس سنوات ، ولكن رياض لم يكتف بذلك ، بل اصدر امرا فى ٢٧ نوفمبر ١٨٨٠ بنفيه الى فازوغلى بالسودان .

وكانت الحالة الاقتصادية مرآة لتذمر الشعب ، فالديون التى اقترضها الخديو اسماعيل بفوائدها الباهظة والنفقات الطائلة التى تتحملها الخزانة العامة بسبب الابهة فى مظاهر الحكم . القت على البلاد عبئا جسيما ، واضطرت الحكومة الى تخصيص نصف موارد الميزانية لسداد هذه القروض والنفقات ، والواقع ان تخصيص هذا المبلغ الضخم الذى يجبى من عرق الفلاح وكده معناه حرمان الطبقات الكادحة من ثمار كدها وتعبها .

أضف الى ذلك ان استفحال شرور الاجانب واستحواذهم على المرافق الاقتصادية ، والترخيص لهم باستثمار موارد البلاد ، والاكثار من استخدامهم فى دوائر الحكومة . الى حد ان كان فى خدمة الحكومة ١٣٢٥ موظفا اوربيا اى عشر عدد الموظفين تقريبا ، ويتقاضون مرتبات قدرت بنحو ٣٧٩ر٠٥٦ جنيها ، كل ذلك جعل البلاد فى حالة فقر مدقع .

وكانت وزارة رياض القائمة فى الحكم تمثل الظلم والاستبداد فى ابشع صوره ، فاضطهدت الصحف الحرة وعطلتها ، وعصفت بالمعارضة فى مجلس النواب وقمعتها بالشدة ، وسلمت مصر الى الخوارج يتصرفون فى شئونها تصرفا استغلاليا بشعا .

لمس عرابى هذه العوامل مجتمعة ، فاخذ يعقد الاجتماعات ويخالط العلماء وقادة الراى ، ونشط انصاره الى اصدار وتوزيع النشرات يوقظون بها النخوة القومية ويبصرون المواطنين بحقوقهم التى سلبها منهم الاغراب . ويحرضونهم على المطالبة بالدستور وبالحياة النيابية .

واخيرا حرر عرابى عرضا وقعه هو وعدد كبير من الضباط شرح فيه الشكوى من استبداد الحكام ، ذلك الاستبداد الـذى اضعف الامن على الانفس والارواح ، وزاد من نفوذ الاجانب حتى اصبحت مصالح البلاد فى ايديهم وتحت تصرفهم .

ووجد عرابى استجابة من علماء الازهر لمطالبه فصرح لهم بقوله: ان القوة فى ايدينا . والعلماء والوجوه يعضدوننـا ولا مندوحـة للخديو من اجابة طلبنا ، فان لم يفعل خلعناه ، واقمنا جمهـورية مستقلة .

***

تفاقم الخلاف بين وزير الحربية داوود يـكن وبين الضبـاط الاحرار ، فقد كان الوزير يصدر الاوامر تلو الاوامر دون ان تنفذ ، واخيرا لجا رياض رئيس الوزارة الى تخدير اعصاب الضبـاط الاحرار وقال لهم : انه يبذل قصارى جهده لارضاء مطالبهم ، وفى الوقت ذاته جعل يفكر فى تدبير وسيلة يتخلص بها منهم ، ففى ٨ سبتمبر رتب مع وزير الحربية اصدار امرين معـا ، الاول الى الكتيبة المعسكرة فى القلعة بالانتقال الى الاسكندرية ، والثـانى الى حامية الاسكندرية لتحل محل الكتيبة الاولى . وادرك عـرابى ان الغرض من هذه الحركة هو تشتيت انصـاره لتتفرق كلمتهم ، فاوعز الى قائد الكتيبة الاولى بالعصيان .

وكانت الكأس قد طفحت ، فلا وزارة رياض نفـذت القوانين العسكرية التى استصدرها محمود سامى البارودى ، ولاهى شرعت فى اصدار الدستور الذى وعد الخديو به عرابى وصحبه . وعندما ايقن زعماء الحركة بأن الحكومة تماطلهم وتغرر بهم ولا تنوى تنفيذ طلباتهم رسموا خطة محكمة لوضع الخديو امام الامر الواقـع ، واتفقوا على ان يقود عرابى الجند الى ساحة عابدين ، لوضع حـد لحالة التذمر التى يشكو الشعب منها ، وعلى حد تعبيره هـو « لضمان حرية الامة وسعادتها » .

وبعث عرابى بكتاب الى الخديو وآخر الى وزير الحربية يخطرهما بما انتواه الضباط الاحرار من القيام بمظاهرة عسكرية ، كما اعلن قناصل الدول بذلك وطمأنهم على رعاياهم . وكانت هذه خطـوة

خطيرة من جانب الزعيم معناها انه اصبح سيد البلاد الحقيقى ، كما فصل بهذه الخطوة مابين القصر والدول الاجنبية .

***

وبعد ظهر ٩ سبتمبر ١٨٨١ تحركت القوات المرابطة فى القاهرة من ثكناتها وقوامها اربعة آلاف جندي بكامل اسلحة وملابس الميدان ووجهتها ساحة عابدين ، الى ان اصطفت فى تشكيلة رائعة وصوبت ٢٢ مدفعا الى القصر .

وبذل الخديو ماق وسعه لاحباط هذه المظاهرة العسكرية والحيلولة دون قيامها ، فانطلق منذ الصباح الباكر الى ثكنة عابدين وراح ينصح ضباط وجنود كتيبة الحرس ويزعم لهم بانهم بمثابة ابنائه « فلا يتبعوا التعصب الذميم » ، واخيرا طلب اليهم الانتقال الى داخل القصر وتوزيعهم على المنافذ والابواب للمحافظة على حياته وحياة افراد اسرته .

وجاءه رياض فاستصحبه معه الى القلعة ، وهناك سال ضباط حاميتها عن بواعث مخالفتهم اوامر وزير الحربية بنقلهم الى الاسكندرية ، فتصدى له البكباشى حسن فوده وصارحه بالمخاوف التى تساورهم من جراء هذا الامر وان هناك مكيدة مدبرة لاغراقهم بالقطار عند جسر كفر الزيات ، فاستشاط الخديو غضبا وامسك بتلابيب الضابط وهو يصيح :

ـ أمثلك يقاوم اوامر الحكومة ؟

وحدثت حركة سريعة لم تكن متوقعة ، فقد هب الجند جميعا وشهروا اسلحتهم فى وجه الخديو وطالبوه باطلاق سراح قائدهم على الفور .

ففزع الخديو وخفض لهم جناح الذل وهو يقول :

ـ الست ولى امركم ؟ هل تاخر لاحد منكم راتب ، او نقصت له مؤنة او حرم من حقه فى ملبس ، فلماذا تجاهرون بالعصيان وتخالفون اوامر الحكومة ؟

وانصرف الخديو الى ثكنات العباسية ليمثل الدور نفسه مع ضباطها ، غير انه بلغه وهو فى الطريق بأن الجند قد اصطف فى ساحة عابدين فبادر بالعودة الى القصر ، ودلف الى الداخل من باب

الحريم ، وارسل يستنجد بقناصل الدول وبالمراقب المالى الانجليزى والجنرال ستون واعضاء صندوق الدين .

وكان عرابى عندما وصل على راس الجيش وشاهد كتيبة الحرس بداخل القصر ، ارسل فى استدعاء قائدها على فهمى ، واخذ يعاتبه على موقفه ، فرد عليه القائد بقوله : ان السياسة خدعة ... الا ان عرابى امره بالانضمام الى القوات المرابطة فى الساحة فامتثل وسحب جنده من منافذ القصر .

***

والتف حول الجند الالوف من ابناء الشعب ، وغصت النوافذ والشرفات واسطح المنازل المطلة على الساحة بالجموع الوافدة من شتى انحاء العاصمة وارباضها ، جاءوا ليكحلوا عيونهم التى رانت عليها الغشاوة بالحدث التاريخى الذى كانوا يخالونه من قبل خارقا للعادة ، وليشهدوا مصرع نفوذ الطاغية الذى اذلهم وشاد صرحه فوق جماجم واشلاء آبائهم واجدادهم فى غضون الثمانين عاما المنصرمة .

كانت الاعناق تتطاول وتشرئب ، والعيون تدور فى محاجرها ، باحثة عن قائد الحركة ، عن زعيم النهضة ، عن الفلاح الاول الذى شهر سلاحه فى وجه الطاغية .

وكان اسم عرابى يدور على الافواه كانما هو مارد انشقت عنه بطن الارض ، ليؤدب بعصاه السحرية طغمة الطواغيت المستبدين الذين كانوا يعدون الشعب بمثابة آلة صماء فى يد حاكم مطلق .

وأرهفت الجموع المتراصة آذانها لتسمع كلمات : حرية ، عدالة ، مساواة ، دستور ... تجرى على لسان زعيم الفلاحين ، واخذت الدعوات الصالحات تخرج من اعماق القلوب ، صاعدة الى عنان السماء أن ينصر الله الزعيم ويؤيده ويتوج خطاه .

كانت رنة فرح لم يسمع بمثلها على ضفاف النيل منذ اقدم العصور ...

فانه للمرة الاولى هب الفلاحون من غفلتهم وقاموا من سباتهم ووثبوا وثبة واحدة بين الاستبداد والحرية ، فكانت صيحتهم فى الساحة نفسها التى شهدت من قبل اذلالهم واهدار آدميتهم .

وللمرة الاولى بداوا يشمخون برءوسهم التى نكسها العدوان

واصبحوا يتطلعون الى الفجر الوليد بعيون مشرقة ووجوه تطفح بشرا .

وظهر عرابى فى وسط الساحة فوق صهوة جواده شاهرا سيفه، يحيط به لفيف من الضباط الاحرار ، هؤلاء جميعا يمثلون شعب مصر الذى صبر وصمد وكافح وجالد ، واخذت العيون تلحظهم والقلوب تلتف حولهم والامال تعقد عليهم .

واخيرا خرج توفيق من ظلام القصر مترددا وجلا ، يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، ويكاد قلبه يقف بين ضلوعه . خرج كما يخرج الثعبان من جحره ، تحوطه حاشيته العثمانية ، ووزيره الاول واعوانه الاجانب الذين يحركونه من وراء ستار امثال : اوكلند كلفن الرقيب المالى ، والجنرال ستون رئيس هيئة اركان حرب الجيش ، وجولد سميث مراقب الدائرة السنية ، وكوكسن قنصل بريطانيا فى الاسكندرية ، وبضعة نفر من القواصة الارناؤود بعد ان تخلى عنه حرسه الخاص .

موقف من اروع مواقف التاريخ ...

زعيم وراءه ملايين الفلاحين يشدون ازره ويفتدونه بالمهج والارواح ، جاء ليطالب بحقوقهم ويرد الضيم عنهم .

رجل يمثل مصر الخالدة التى ايقظتها كلماته ، ويرمز الى الكفاح الشعبى المجيد .

وامامه حاكم عات يمثل الظلم والاثرة والجاه والسلطان ، تؤازره طغمة من الخوارج ، وتسنده بطانة نفعية وصولية لاتمت الى مصر بصلة من الصلات اللهم الا صلة استغلال هؤلاء الفلاحين ، وانفاق ثمرة كدهم وشقائهم فى ملاذها . وهى مع ذلك تنكر على هؤلاء المواطنين حقوقهم التى اهدرتها ، وتضن عليهم بحرياتهم التى اغتصبتها ، وتحقرهم بكلمة« فلاح » وتعيرهم بانسابهم .

وحينما وقع نظر الخديو على هذا المشهد الرائع الذى تجمعت فيه ارادة شعب وقوة امة ، دب الهلع الى قلبه وخانته رجولته ، فمال على اوكلند يسأله :

ـ ماذا افعل الآن ؟

ـ عندما يتقدم عرابى مره ان يسلم سيفه ثم در حول الساحة وخاطب كل قوة على حدة ومرها بالتفرق .

وتقدم عرابى وهو ممتط صهوة جواده وشاهرا سيفه وحوله

اركان حربه وحرسه الخاص ثم ادى التحية للخديو ، فهمس اوكلنفد فى اذن توفيق :

— هذه هى ساعتك ، تناول غدارتك واطلقها عليه وبذلك تحسم الموقف فرد عليه توفيق فى خوف :

— ولكننا بين نيران اربعة .

فعاد المستعمر الخبيث يرفع من روحه المعنوية بقوله :

— تشجع !

— ولكن ماذا عساى ان اصنع ، نحن محصورون بين اربعة نيران ، انهم يفتكون بنا .

— اعمل . كن شجاعا .

فملك توفيق زمام امره واراد ان يظهر سلطانه فصاح يخاطب عرابى ولكن فى قنوط :

— ترجل واغمد سيفك .

ففعل عرابى تأدبا فى حق الحاكم الشرعى ، وقد كان فى وسعه ان يطيح براس الطاغية بالسيف المرفوع فى يده ، ووراءه اربعة آلاف جندى يمثلون طوائف الشعب ويقرونه على عمله المشروع ، الا ان عرابى لم يكن سفاحا ولا مجرما ولا من طبقة محمد على وذراريه الذين كانوا يدعون ضيوفهم الى وليمة ثم يغدرون بهم بازهاق ارواحهم .

وصمت توفيق برهة ثم خاطب الضباط الذين يحوطون بعرابى وكان عددهم ثلاثين ضابطا :

— اغمدوا انتم ايضا سيوفكم وعودوا الى صفوفكم .

فلم يمتثلوا للامر بل ظلوا وقوفا فى اماكنهم يحرسون رمز مصر وعنوان يقظتها وشارة كفاحها المجيد .

واخيرا التفت توفيق الى عرابى وساله :

— ما هى اسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟

وتجاهل الكتاب الذى وصله من الزعيم وفيه ينبئه عن عزمه على القدوم لعرض طلبات الشعب .

فاجابه عرابى فى شجاعة :

— جئنا لنعرض طلبات الجيش والامة وكلها طلبات عادلة .

— وما هى هذه الطلبات .

— عزل وزارة رياض المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب ، وابلاغ

الجيش الى العدد المنصوص عليه فى الفرمانات ، وتنفيذ القوانين العسكرية التى سبق ان صدقتم عليها .

ـ ان كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها وانا خديو البلد . . . لقد ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى واجدادى وما انتم الا عبيد احساناتنا .

فاجابه عرابى بهذه الصيحة التى دوت فى سمع الزمان وعبر الاجيال :

ـ لقد خلقنا الله احرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فو الله الذى لا اله الا هو اننا سوف لا نورث بعد اليوم .

فالتفت توفيق الى اوكلند وقال له فى شبه استنكار :

ـ اتسمع ما يقول ؟

فرد عليه المستعمر يزجره :

ـ ليس من الملائم ان يعالج الخديو الموقف على هذا النحو مع قواده العسكريين ، وانى انصحك بالعودة الى القصر .

وعاد يخفى حنين يجر اذيالا من الفشل والخذلان وتدوى فى اذنيه صيحات الحق والعدالة وكلمات الانصاف والدستور وحريات الشعب .

ووقف مستر كوكسن نائب القنصل الانجليزى يخاطب عرابى كرسول من قبل الخديو فقال :

ـ ان عزل الوزارة من حقوق الخديو ، وطلب تشكيل مجلس نواب ليس من حقوق العسكريين ، وزيادة عدد الجيش لا ضرورة له لان ميزانية الدولة لا تساعد على هذا التوسع .

فاجابه عرابى :

ـ ان هذه الطلبات لم اعمد اليها الا لان الشعب اقامنى نائبا عنه ، انفذ هذه الطلبات بوساطة هؤلاء الجند الذين هم اخوانهم واولادهم ، فهم القوة التى تنفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة . . . انظر الى هؤلاء الالوف المؤلفة المحتشدين وراء الجند ، فهم افراد الشعب الذين انابونى عنهم فى طلب حقوقهم ، علما باننا لن نتنازل عن طلباتنا ولن نبرح هذا المكان حتى تنفذ .

ـ علمت من حديثك انك تنشد تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، وهذا امر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها .

ـ كيف يكون ذلك ، ومن ذا الذى يعارضنا فى شئوننا الداخلية ،

اننا سنقاوم كل من يتصدى لمعارضتنا اشد المقاومة الى ان نفنى عن آخرنا .

ــ وأين هى قوتكم التى ستدافع بها ؟

ــ عند الاقتضاء يمكن ان نحشد مليونا من الجند يدافعون عن بلادهم ، ويسمعون كلمتى ويلبون اشارتى .

ــ وماذا تفعل اذ لم تجب الى ما تطلب ؟

ــ اقول كلمة اخرى .

ــ وما هى ؟

ــ لا اقولها الا عند اليأس والقنوط .

وبذلك ظهر سلطان الانجليز واضحا على مسرح السياسة ، فان تدخل اوكلند المراقب المالى ، ثم كوكسن قنصل انجلترا فى الاسكندرية ومخاطبته عرابى بالنيابة عن حاكم البلاد الشرعى ، مما يجعل موقفهما موقف دفاع عن الراعى ضد مصلحة الرعية .

جرى هذا المشهد وهذا الحوار فى ساحة عابدين ، اما فى داخل القصر فقد اقبل توفيق والهلع يأخذ منه كل جانب ، يتداول فى الامر مع خاصته ومع قناصل الدول الاجنبية ويتلقى منهم المشورة وفى اثناء انتظار القوات المرابطة فى الساحة ، كان كوكسن يغدو ويروح بين القصر وبين القادة ويزعم بأن الخديو سينظر فى هذه المطالب بعد التداول مع رجال الباب العالى وذلك ليثبط عزيمتهم ويضعف من روحهم المعنوية ولكن عرابى اصر على الا يتزحزح عن مكانه حتى تجاب طلباته .

واخير راى توفيق الا مفر له من ان يحنى راسه للعاصفة وان يذعن لمطالب زعيم الجيش والشعب ، فقد افزعته فكرة العزل وتولية آخر كالامير حليم مثلا مكانه ، او اعلان الجمهورية وطرد اسرة محمد على من مصر .

وكذلك افزعته رؤية فوهات المدافع المصوبة الى القصر فى انتظار اشارة من الزعيم لهدم القصر على من فيه ، واوصله جبنه واستخذاؤه والخوف على حياته وعلى عرشه الى التسليم بهذه المطالب .

واخيرا اشار الخديو على وزيره الاول رياض بأن يقدم استقالته ففعل ، ثم عرض اسم حيدر يكن ليتولى رياسة الوزارة فاعترض الضباط الاحرار على هذا الاسم لما تربط صاحبه من صلات القربى

والمصاهرة بالخديو ، وجرى على الالسن اسم محمد شريف ، فقد كان شريف رمزا للدستور ، ومؤسس الحزب الوطنى الذى يناوىء سياسة الطغيان ، فارتضاه الضباط رئيسا للوزارة .

وعلقت صحيفة التيمس على الحادث بمقال نشرته فى ١٢ سبتمبر ١٨٨١ وقالت فيه : ينبغى ان نذكر ان الجيش هو الهيئة الوطنية الوحيدة التى تملكها مصر ، وكل هيئة سواه عدا عليها ممثلو فرنسا وبريطانيا الرسميون فاخذوا بزمامها وغيروا نظامها » .

اما الوثائق الرسمية فتصور حركة الجيش بانه لا يقصد من ورائها منفعة ذاتية وانما هى حركة تعبر تمام التعبير عن نفسية الامة ، وان المطالب التى تقدم بها الزعيم عرابى لم تكن عفو الساعة بل ان جذورها تمتد الى اعمق مما تصوره رجال السياسة والحكم ، الى الوقت الذى ابيدت فيه الزعامة الشعبية الرشيدة من الميدان السياسى .

ففى ٢٤ اغسطس سنة ٩٧ « اى السنة المالية العثمانية التى توافق ٤ سبتمبر ١٨٨١ » بعث الباب العالى ببرقية الى الخديو يقول فيها :

بما ان الباب العالى ليس لديه معلومات رسمية عن حقيقة الاحوال الجارية الآن فى مصر ، الامر الذى يجعله عاجزا عن القيام بما يجب عرضه على جلالة السلطان من الانباء والمعلومات لدى التفضل بالسؤال عنها . وبما يجب ان يقوله لسفراء الدول عند اتصالهم به ، واستطلاعهم رايه فى تلك الاحوال ، نرجو موافاتنا بمعلومات رسمية كافية عن حقيقة تلك الاحوال والاحداث » .

وبعد ايام تلقى الخديو من الصدارة العظمى باستامبول برقية تقول فيها : « وصلتنا اليوم من باريس ولندن برقيات خصوصية تفيد وقوع شغب كبير فى الليلة البارحة من العساكر المصرية حوصر فى اثنائه مقركم العالى ، واحاطوا به المشاغبون من كل النواحى ، نرجو اشعارنا بحقيقة الاحوال » .

وقد رد الخديو على البرقية الاولى فى ١١ سبتمبر بقوله :

« حسبما تطلعون على التفاصيل من مكاتباتنا الرسمية المرسلة الى مقامكم السامى ، يظهر ان الفساد وروح الثورة قد انتشرت بين العساكر المصرية الشاهانية واثرت فيهم تاثيرا بليغا ، فلذا اقدم رئيس المشاغبين المدعو احمد عرابى بك عندما صدرت

الاوامر بمغادرة آلاى من الجنود المصرية القاهرة الى الاسكندرية ، ووقوعه من جراء ذلك تحت تاثير المخاوف والوســاوس ، على ارسال خطاب الى ناظر الحربية يقول فيه :

ان الفرض الحقيقى هو تفريق القوى العسكرية هنا وهنــاك وتوزيعها على البلاد ، هو الوصول الى تشتيت جمعنا ، ثم القــاء القبض علينا واعدامنا ، فبناء على هذا نصرح باننــا لانسلم بذلك قط ، بل نطالب اصدار امر آخر ، ونعلن اننا سنحتشـــد فى يوم الجمعة المقبل فى الساعة التاسعة عربى فى ساحة قصر عابدين مـع جميع الآلايات المصرية لنطلب تامينا على ارواحنا ، وقد اطلعنــا بعزمنا هذا جميع قناصل الدول واحطناهم علما بذلك .

وفضلا عن هذا الخطاب فقد ارسل هؤلاء المشاغبون اخبــارا شفوية يقولون فيها : ليفتح مجلس الامة ، وليعلن الدستور ، ولتغير هيئة النظار الحاضرة .

هذا كل ما حصل لغاية الآن من الاحداث ، وسنبادر الى عرض ما يستجد من الاخبار والاحوال التى ستنشأ من جراء قيام هؤلاء بما اعتزموا عليه » .

وبعد ساعات ارسل الخديو برقية اخرى يقول فيها :

« كما عرضت اليوم ان زعيم الثورة عرابى بك الذى تمكن بوجه من الوجوه من استمالة الجيش المصرى كله اليه ، قد احــاط الآن بتعضيد من معظم ذلك الجيش ، بقصرعابدين الذى اقيم فيه،وضرب الحصار حوله طالبا اجابة ما ياتى :

اعلان الحرية ـ تاسيس مجلس للامة ـ استبدال هيئة النظار الحاضرة باخرى .

وبما ان اوان اصلاح هؤلاء الثوار والمشاغبين قد مضى ولم يكن هناك مجال او امل فى استصلاحهم ، فارجو ارسال قوة عسكرية مقدارها عشرون طابورا على جناح السرعة ، على ان تكون قيادتهــا العامة منوطة بى خاصة » .

ورد الباب العالى على هذه البرقيات بما يلى :

« وصلتنا اليوم ثلاث برقيات خديوية تتضمن الحادث بصورة مختصرة جدا ، من غير ان يوضح فيها الاسباب الحقيقية لهــذا الحادث ، والباعث عليه ، ومكتفيا باسناد قيام الثورة الى ضــابط برتبة اميرالاى فقط .

وبما انه ليس من المحتمل قط ان لا تكون لديكم انباء عن ظروف وملابسات تلك الثورة العسكرية ، قبل اجتماع كلمة الجند على الثورة ، والاحاطة بكم فى قصركم وتضييق الحصار عليه ، فضلا عن ان حكومتكم لا بد لها من علم بالظروف والاحوال التى ساعدت على تكوين هذا الحادث ، ولا بد لها ايضا من معرفة مدى اشتراك المشاغبين فيه وما ينطوون عليه من الافكار والنوايا ولا سيما المحرضين عليه والرؤساء .

فازاء ذلك لايسع الباب العالى ان يقوم باى مسعى لاعادة الامن الى نصابه وتسوية المسألة وفق الاعتبارات المحلية ، مالم يحصل اولا على المعلومات الوثيقة من سموكم لتجلو الاحوال جلاء تاما » .

ورد الخديو على هذه البرقية بسرد بواعث الثورة واسباب التذمر فقال :

تسالوننى فى برقيتكم السامية التى تشرفت بوصولها الساعة عن مقاصد الذين قاموا بحركة العصيان ونوايا الذين حرضوهم عليه ، وما هى الاسباب والعوامل التى ادت الى تسميم افكار الجيش بهذه الدرجة ، فاقول كما سبق تفصيلا فى مكاتباتى المرفوعة الىمقامكم السامى فى البريد السابق ، ان التذمر وتغلغل روح الثورة فى صفوف الجيش ليس وليد يومه ، بل هو داء قديم ونتيجة ظروف واعمال فى العهود السابقة ، غير انه ظهر للعيان الآن فقط ، ويرجع منشأ ذلك الى الاسباب التالية :

لماذا يحكم مصر العنصر التركى وغيره من العناصر الاجنبية العديدة ؟

ولماذا لا يكون زمام الامور فى مصر فى ايد مصرية ؟

ولم تتسرب ملايين الجنيهات الى الخارج تسديدا لديون الاجانب ، الى غيرذلك من الافكار والاراءالطائشة التى دخلتصفوفالجيش.

ومروجو هذه الافكار السيئة والقائمون بها هم اميرالاى يدعى احمد عرابى بك ولفيف من ضباط الجيش يشاركونه فى الفكرة والغاية .

ولو كان لدى الحكومة علم باسماء المحرضين من وراء الستار — سواء اكانوا من الاجانب أم من الاهالى — لبادرت فى الحال الى اظهارهم وانزال العقوبة بهم ، والذى اريد ان اشرحه هو ان الحكومة لم يكن عندها علم او نبأ سابق بهذا الموضوع ، وكل

ما نعلمه ان هنالك صحيفة تدعى « ابو نظارة » يصدرها فى باريس باللغة العربية العامية رجل يدعى جيمس له اتصال وثيق بطبيب عمى سمو عبد الحليم باشا ، وان آلافا من نسخ هذه الصحيفة تدخل مصر بطرق ملتوية وتوزع سرا ومجانا بين صفوف الجيش على الرغم من مساعينا الحثيثة لمنع دخولها والحيلولة دون انتشارها فى البلاد .

ولا يخفى على احد ان الذى ينفق بسخاء على طبع ونشر هذه الصحيفة هو سمو عبد الحليم باشا لاغير ، وبما ان الدعايات التى تقوم بها هذه الصحيفة والافكار التى تبثها ، تتفق تمام الاتفاق مع الافكار السائدة الآن فى البيئات الناقمة والطبقة المتذمرة من الجيش، فيمكننا ان نقر بأن لدعاية هذه الصحيفة دخلا كبيرا فى قيام هذه الفتنة العسكرية » .

وفى يوم ١٤ سبتمبر بعث الخديو ببرقية اخرى مفصلة يقول فيها :

« سبق أن عرضنا ان الجنود الذين قاموا بحركتهم وتظاهرهم يوم الجمعة الماضى ، عادوا الى ثكناتهم ، اكتفاء بتغيير هيئة النظار، ولكن حدث بعد ذلك ان اجتمع علماء ووجوه القاهرة والاسكندرية وعمد واعيان بلاد الصعيد ومديريات مصر السفلى واتفقوا على المطالبة بتعيين شريف باشا لرياسة الوزارة ، وشاركهم فى هذا الطلب جميع ضباط الجيش ، كما ان المجتمعين من هؤلاء العلماء والاعيان استهجنوا اعمال الجيش الطائشة مظهرين استياءهم وغضبهم من الضباط والجنود الذين قاموا بتلك الاعمال ، بتوبيخهم اياهم . وبعد ان اخذوا عليهم العهود والمواثيق على الا يحيدوا من الآن فصاعدا عن جادة الطاعة والتزام السكينة والهدوء، أصدروا قرارا بالاجماع بأنه فى حالة ما اذا عاد الجيش الى حركة تخل بالنظام العام او تكون مخالفةللقوانين العسكرية يتبرالمجتمعون من هؤلاء المخالفين ولا يعدونهم مصريين قط .

وقد تعهد العلماء والاعيان والعمد عامة للحكومة بان يطيع الجيش كل الاوامر التى تصدرها الحكومة الحاضرة من الآن فصاعدا بكل انقياد وامتثال .

وهكذا قبل شريف باشا رياسة الوزارة بعد ان اخذ من المجتمعين كافة الضمانات والوعود القوية ، وبعد ان صدر الامر الكتابى منه

اليه بذلك ، ثم اخذ فى تاليف الهيئة التى تعاونه فى مهمته .
هذا وشريف باشا رجل محترم ومعتمد عليه من الجميع ، فهو ذو صفات عالية وخصال حميدة من كل الوجوه .
وبما ان الامن مستتب الان فى القاهرة وفى جميع المديريات ، بفضل الحضرة السلطانية السنية ، وان جميع السكان من اهالى واجانب فى غاية من الراحة والاطمئنان ، فلا نرى لزوما لارسال قوات عسكرية من الهيئات العالية الى هنا » .
وهكذا يتضح من البرقيات المتبادلة بين القاهرة واستامبول ان الخديو يؤكد بنفسه بأن الثورة فى مصر وليدة افكار حرة كرهت الاستبداد التركى وعافت نظم الاقطاع ، وانها ليست ثورة جيش فحسب وانما هى ثورة شعب ، وكذلك يعترف بان الصحافة من العوامل الهامة التى اشعلت نيران الثورة .
وبعد ان كان الخديو يستغيث ويطالب الباب العالى بارسال عشرين طابورا لتأديب المصريين ، عاد يقول ان الامن مستتب والطمأنينة تشمل السكان كافة ، فلا حاجة اذن لارسال المدد العسكرى الى مصر . ويبدو لنا ان الفقرة الاخيرة من تقريره كتبت بايحاء من مستشاره السياسى ادوارد مالت حتى يهيىء لبريطانيا فى المستقبل الانفراد بشئون مصر والحيلولة دون تدخل الباب العالى .

أزمة الدستور

الكفاح فى سبيل الحرية ـ الدستور وثيقة حرية الشعب المصرى ـ برنامج الحزب الوطنى ـ التآمر على الدستور ـ تطور الوعى السياسى ـ وزارة الثورة ـ هتاف الشعب .

ان كفاح الشعب المصرى من اجل الدستور هو كفاح دموى ، شاق مرير ، يذكر فى الصفحات الاولى من كفاح الشعوب التى نبتت فيها بذور الديمقراطية وترعرعت ، فلم ين الشعب عن الكفاح لحظة واحدة فى ظل الاستعمار العثمانى قبل ان تعرف تركيا شيئا اسمه « المشروطية و « مجلس مبعوثان » ، وكذلك فى ظل الارهاب او الحكم المطلق الذى فرضته اسرة محمد على على البلاد.

كان هدف الثورة منذ مشرقها انشاء مجلس نواب يمثل رغبات الشعب ويعمل على احترامها ويدافع عن الحقوق التى اغتصبها الاغراب الا ان رياض لم يقم وزنا لهذه المطالب ، وكان من رأيه ان وجود مثل هذا المجلس مما يفوت على الحكومة المضى فى تنفيذ البرنامج الاصلاحى الذى رسمته لنفسها . وكان من ثمار المظاهرة العسكرية ان اذعن الخديو لمطالب قادة الثورة ، وفى مقدمة هذه المطالب قيام مجلس نواب تكون الوزارة مسئولة امامه ، وقد سبق لعرابى ان خطب فى حفلة ٥ ابريل ١٨٨١ بعد ان رضخ الخديو لمطالب الجيش والشعب فقال :

« نريد الاصلاح واقامة العدل على قاعدةالحرية والاخاءوالمساواة، ولا يتم ذلك الا بانشاء مجلس النواب وايجاده فعلا » ...

وفى الاشهر السبعة التى مرت بين حادث قصر النيل الذى وقع فى اول فبراير وبين مظاهرة ٩ سبتمبر كانت البلاد مسرحا لحركات سياسية مملوءة بالنشاط والعمل ، وكان ذلك ايذانا خطيرا بتطور الثورة ، والتف حول عرابى زعماء الاصلاح وجندت الاقلام والكفايات للدعوة الى الحركة الدستورية .

شكل محمد شريف وزارته ورسم برنامجها الذى يرمى الى رفع

مستوى الشعب واعادة الطمانينة الى الخواطر ، والقيام بالاصلاح القضائى ، وتمتع المواطنين بحياة حرة كريمة .

وكانت أول خطوة اتخذتها الوزارة المبادرة باطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، واعادة المنفيين ، ورفع المظالم عن كاهل الشعب ، وتنفيذ القوانين العسكرية التى ماطل رياض فى تنفيذها .

وزار عرابى محمد شريف عقب تشكيل وزارته بيومين على راس وفد من الضباط الاحرار ، وخاطبه بقوله :

ـ اننى بلسان قومى اعرض اننا جميعا واثقون بصداقة دولتكم وخلوص طويتكم لمحبة الوطن واهله ، وجازمون بأن هذه الصفات التى تحلت بها ذاتكم الشريفة تكون وقاية لبلادنا وسببا فى استتباب الراحة العمومية فيها ، واننا نعلم واجباتنا والفروض التى تحتمها علينا وظائفنا العسكرية ، واعظمها حفظ البلاد ومن فيها ، ولذلك فنحن نقر باننا القوة المنفذة ، لما يصدر من الاوامر التى تكون فى خير ، وقاضية باصلاح شئون البلاد ، الا ان لنا حقوقا معلومة يمنحها لنا القانون ، ونرجو الله ان يحسن الينا بنوالها بمساعدة دولتكم وتوفيق الله تعالى ، ونساله سبحانه ان يوفقنا جميعا لما فيه الخير والصلاح » .

ثم زار وفد من الوجوه وزعماء الاصلاح رئيس الوزارة وقدموا اليه تعهدا وقع عليه ١٦٠٠ مواطن يمثلون طوائف الشعب جميعا بأن يعاون الجيش الوزارة فى مشروعاتها ، ومع التعهد مذكرة بطلب مجلس للنواب .

وقد اجابهم شريف : بأن تشكيل مجلس النواب هو الوسيلة الوحيد لما نقصده من الاصلاح ، والسبب القوى لما تبتغونه من النجاح .

وفيما يلى نص هذه المذكرة التى تعد من الوثائق الهامة فى تطور الوعى السياسى والاجتماعى :

« لما كان لاينتظم نظام العالم ، ولا يقوم قوام الهيئة الاجتماعية الا بالعدل والحرية حتى يكون كل انسان آمنا على نفسه وماله ، حرا فى افكاره واعماله ، مما فيه سعادته وحسن حاله ، وهذا لا يتاتى الا بايجاد حكومة شورية عادلة لاتشوبها شوائب الاستبداد ، ولا تتطرق اليها طوارق الفساد ، اتخذت الممالك المتمدنة العادلة مجالس ملية من نبهاء أممها ، ينوبون عنها فى حفظ حقوقها تجاه

هيئة حكوماتها ، ويكونون الواسطة الحقيقية فى تنفيذ ما تصدره الحكومات من الاحكام العادلة ، وعلى هذه القواعد ولاجل هذه المقاصد كان قد اتخذ لحكومتنا مجلس نواب فى العهد السابق ، وبما ان مقاصد خديوينا جميعها خيرية ونياته سليمة فطلبا لحفظ بلادنا من بوائق الدهر تجاسرنا بعرض هذا راجين من المراحم الداورية صدور الامر الكريم بتشكيل مجلس نواب لأمتنا المصرية له ما لمجالس الامم الاوربية المتمدنة من الحقوق الشرعية ازاء هيئة الحكومة ، وبذلك تكون الحضرة الفخيمة الخديوية قد خولتنا نعمة لا تعادلها نعمة وتصير حكومتها العادلة انموذجا شريفا يبرهن على حسن نتائج العدل والحرية امام العالم ، واننا على يقين من قبول التماسنا هذا وفقا لارادة ولى النعم » .

ولم تجد الوزارة مفرا من ان تستجيب الى مشيئة ممثلى الشعب ، فاستصدرت مرسوما فى ٤ اكتوبر ١٨٨١ اى بعد ثلاثة اسابيع من ثورة ٩ سبتمبر باجراء الانتخابات فعمت الفرحة ارجاء البلاد ، وتطلعت الانظار الى قوائم المرشحين ، واقيمت الحفلات والمآدب ، واضيئت المآذن ، وتليت الادعية والاوراد ، واقبل الخطباء يعتلون اعواد المنابر ويسهبون فى بيان المزايا التى ستنعم بها مصر فى ظل الدستور .

وبذلك اصبحت الكلمة للفلاحين بعد ان كانت للعثمانيين ، واصبح الجيش هو القوة الوحيدة التى تحمى الشعب من عسف الاغراب .

واستقبلت مصر عهدا جديدا تتطلع فيه الى الحرية ، وترنو الى المجد والكرامة ... عهد تعلو فيه كلمة الحق ويرتفع لاول مرة منذ ثمانين عاما صوت الشعب ، وكان هذا العهد من اسعد العهود التى مرت بتاريخها المجيد ، فكان المواطنون يلتقون فى الشوارع والمساجد والمحافل فيعانق بعضهم البعض الآخر على غير سابق معرفة ، ويتبادلون التهانى لانتصارهم الساحق وظفرهم بالدستور .

انبلج فجر جديد للحرية ، فاستطاع افراد الشعب ان يجتمعوا ويتحدثوا فى شئون بلادهم دون خوف او وجل ، والقيت الخطب من اعواد المنابر فى المساجد والمحافل مؤيدة للحركة ، مؤازرة لمطالب زعماء الجيش .

وبرز الحزب الوطنى جهارا الى النور بعد ان ظل يعمل سرا فى الظلام ، ونشر برنامجه الذى يهدف الى عدم العودة الى عهود

الاستبداد والاحكام الجائرة التى اورثت مصر الاذلال والهـوان ، والسعى الى تحقيق فكرة اقامة حياة نيابية ، واطلاق حرية الخطابة والكتابة ، وتحذير الخديو من الاصغاء الى المرجفين الذين يحبذون له الاستبداد والاجحاف بحقوق الشعب ، ونكث العهود والمواثيق التى قطعها على نفسه .

واشار الحزب فى برنامجه الى انه حزب سياسى وليس دينيا ، فانه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب ، واغلبيته مسلمون لان تسعة اعشار المصريين من المسلمين ، وجميع النصارى واليهود، وكل من يحرث ارض مصر ويتكلم بلغتها منضم اليه ، ثم تنـاول قضية الاموال التى كانت لا تنفق على المصلحة العامة بل انفقت فى شهوة حاكم ظالم ، فكان لا يسال عما يفعل ، وتناول البيان مركز الموظفين الاجانب « الذين لا يقدرون على القيام بواجباتهم ولا يراعون حقوق الشرف والاستقامة ، وبعضهم يتنـاول المرتبـات الباهظة بدون استحقاق مع وجود من يقوم بعملهم من المصريين على احسن اسلوب وبراتب لا يوازى خمس راتب الاجنبى ، وبهـذا يحكمون بوجود الظلم وخلل الادارة مادام هذا الاسراف خارجـا عن الحد .

وراح البيان يعجب من موقف الحكومة باعفائها الاجانب من دفع الضرائب وعدم خضوعهم لقوانين البلاد مع تمتعهم بخيراتهـا واقامتهم فيها .

واختتم البيان بقوله : ان المصريين قاطبة يعلمون بأن السكوت على حقوقهم لايخولهم الحرية فى بلاد الف حكامها الاستبداد وكـرهوا الحرية ، فان الخديو اسماعيل لم يمكنه من الظلم الا سكوت المصريين الذين عرفوا الآن معنى الحرية فعقدوا الخنـاصر على استكمـال تربيتهم القومية ، وهم يرجون ان يكون ذلك بوساطة مجلس نواب، واطلاق حرية المطبوعات وتعميم التعليم ونمو المعارف واطـلاق الحرية السياسية التى يعدونها حياة الامة .

ويرى الحـزب ان اعضـاء مجلس النـواب ربما اكرهوا على الصمت كما حصل لمجلس الاستانة ، وقد يستعان عليهم بالصحافة بجعلها آلة تفوق السهام فيتكدر صفو الراحة ويحرم ابناء البلاد من الوقوف على الحقائق ، ولذا فوض الوطنيـون امـرهم الى امـراء الجهادية وطلبوا اليهم ان يصمموا على طلبهم لعلمهـم ان رجـال

العسكرية هم القوة الوحيدة فى البلاد ، وهم يدافعون عن حريتهم الآخذة فى النمو ، فهم الان خراس على الامة التى لاسلاح لها » .

***

واراد شريف اقصاء عرابى عن القاهرة لتخليص الجيش من سيطرته وحتى يعود الى الحكومة سلطانها وسيطرتها ، واستطاع اقناع زعماء الجند بابعادهم مؤقتا مع قواتهم عن العاصمة – مهد الثورة – فاشترط عرابى الا يغادر مقره الا بعد صدور امر الخديو باجراء الانتخابات لمجلس النواب ، واخيرا نقل عرابى الى الشرقية وعبد العال حلمى الى دمياط .

وكان سفر القائدين على راس فرقتيهما مثار حماسة من جميع الطبقات ، كانت الشوارع غاصة بالالوف من المواطنين ، يهتفون باسم عرابى الذى انقذهم من اسار الذل والهوان ، وينثرون الورود والرياحين على رءوس الجند ، ويوزعون الشراب المحلى بالسكر ، المعطر بالزهر على افراد الشعب .

وكان وداع عرابى فى محطة القاهرة فى ٨ اكتوبر ١٨٨١ من المشاهد القومية الرائعة ... تبودلت الخطب الحماسية التى تعبر عن وجه مصر الحديثة ، وتناول الخطباء فى كلماتهم ، افضال الجيش الذى انقذ وطنهم من برائن الظلم وتقويض صرح الاستبداد ، ونشر روح الحرية .

ورد عرابى على الخطباء بكلمة رائعة تعد دستورا للثورة قال فيها :

« بكم ولكم قمنا وطلبنا الحرية وقطعنا غرس الاستبداد . ولا ننثنى عن عزمنا حتى نحيى البلاد واهلها ، وما قصدنا بسعينا افسادا ولا تدميرا ، ولكن لما راينا اننا بتنا فى اذلال واستعباد ولا يتمتع فى بلادنا سوى الغرباء ، حركتنا الغيرة الوطنية والحمية العربية الى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الامة .. اننا الآن فى نعمة جليلة وقد فتحنا باب الحرية فى الشرق ليقتدى بنا من يطلبها من اخواننا الشرقيين » .

واستقبل الزعيم فى المحطات التى وقف القطار عليها بحفاوة منقطعة النظير ، وهو فى كل محطة ينهض فيخطب المواطنين بكلمات

ترفع من روحهم المعنوية ، وتغرس فى نفوسهم بذور الثورة ، ففى محطة الزقازيق وقف يخاطب اهله وعشيرته بقوله :

« انا اخوكم فى الوطنية ، اسمى احمد عرابى ، ولدت فى هرية رزنه من قرى الشرقية ، فمن عرفنى منكم فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى عرفته بنفسى ، وهانذا واقف بين الاهل والخلان ، وقد بلغكم ما طلبناه من قطع عرق الاستبداد وتحرير البلاد واهلها » الى ان قال : لاتعولوا على الاراجيف وشائعات اهل الفساد ، واعلموا ان البلاد محتاجة الى الخدمة بالقوة والفكر والعمل ، فاما القوة فنحن رجالها ، ولا نثنى عن عزمنا وفى الجسم نفس ، واما الفكر فهو منوط بأميرنا ووزرائه الكرام ، واما العمل فهو منوط بكم فان القوة والفكر يعطلان بفقد الثروة تربتنا الطيبة المباركة ، وقد طلبنا لكم مجلس النواب لتكون الامور منوطة باهلها ، والحقوق محفوظة لذويها » .

ظل عرابى على راس فرقته فى تفتيش الوادى بالشرقية ، فلم يخلد الى الدعة او يتوان عن اداء رسالته ، بل ظل يتجول بين مختلف القرى والدساكر يستنهض الهمم ويغرس المبادىء الوطنية العالية فى النفوس ، ويفد على مقره الوف الفلاحين المحرومين فى الارض الطيبة يعرضون عليه ظلاماتهم ويطالبون بالانصاف .

وتوجس الخديو شرا من اتساع دائرة نفوذ عرابى ، واختلاطه بمختلف الطبقات وتفانيه فى خدمتها . . . . فوقع امرا باعادته الى القاهرة فى منصب وكيل وزارة الحربية والبحرية ، وكان وزيرها محمود سامى البارودى ، فعمل الزعيمان جنبا الى جنب فى سبيل مصر ، واصبحت دار عرابى التى اطلق عليها اسم « بيت الامة » قبلة الجميع من الصحفيين والاجانب ورجال السلك الديبلوماسى والوف المواطنين الذين يرفعون اليه عرائض تحمل الطلب بانصافهم من المظالم .

***

وجرت الانتخابات فى انحاء البلاد ، وكانت انتخابات حرة غير مشوبة بضغط او تدخل من قبل الحكومة او الجيش بل ترك الخيار للناخبين وحدهم ، واسفرت هذه الانتخابات عن اجتماع مجلس

النواب فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ فكان يوما حافلا مشهودا ، تجلت فيه ارادة الشعب وظفره بأول حق من حقوقه ، وكانت حفلة افتتاح المجلس بمثابة عيد من الاعياد القومية ورمز لانتصار الفلاح على الطبقة الحاكمة ، فغصت الشوارع بالالوف الذين قدموا من المدن والقرى لمشاهدة الحفلة ، وحيت الصحف هذا الحدث التاريخى بمقالات حماسية اشادت فيها بالشعب وباركت كفاحه ، ونوهت بأن الدستور هو وثيقة حرية الشعب المصرى .

وصدر الامر بتعيين محمد سلطان رئيسا للمجلس ، وعبد الله فكرى سكرتيرا عاما واديب اسحق مساعدا له ، وهم جميعا من انصار الحزب الوطنى ومن المؤيدين لمبادئه .

وفى ٢ يناير ١٨٨٢ جاء محمد شريف رئيس الوزارة الى المجلس مع سائر الوزراء وبعد ان هنأ النواب بثقة الامة التى اختارتهم قدم اليهم مواد الدستور الذى وضع طبقا لاحدث النظم ، وفى مقدمتها مبدأ المسئولية الوزارية ، والرقابة على اعمال الدولة ، وحق الاعضاء فى اقرار القوانين ومناقشة الميزانية العامة والتصديق عليها ، وعدم فرض ضريبة قبل الرجوع الى وكلاء الشعب ، وقال الوزير الاول فى كلمته :

« اننى اعد هذا اليوم مبدأ عصر جديد يعود على مصر بالتقدم والنجاح ، ومنذ سنوات ثلاث وانا ارى خلاص البلاد من الورطات التى كانت تتردى فيها هو توسيع نطاق الشورى واشتراك نواب الامة مع الحكومة . وكنت قد قدمت مشروعا لمجلس شورى النواب اجرى فيه تغييرات لم يتيسر للحكومة النظر فيها ، ثم طرأت احداث سياسية ومالية ترتب عليها تعويق اتمام المشروع .

ثم مضى يقول :

« ولما كانت لائحة النواب التى اجتمعتم على مقتضاها لاتلائم افكارنا جميعا كما اوضحت ذلك منذ ثلاث سنوات ، فقد عملت مع زملائى على اعداد لائحة توافق مشرب الجميع وقد تمت ، وهانذا اقدمها لحضراتكم للنظر فيها، ومع ان هذه اول مرة يجتمع فيها مجلس نواب حر ، وكان يلزم ان السلطة التى تعطى له لاتكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل باطلاقها بالتدريج ، لكن حيث ان مقصدنا جميعا واحد ، وهو خير البلاد ، فان الحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم وواجباتهم ومحبتهم لوطنهم ، فقد

اعطت لكم الحرية التامة فى ابداء آرائكم وحق المراقبة على اعمال موظفى الحكومة من اية درجة واى صنف وتصرح لكم بنظر الميزانية العامة وابداء رايكم فيها والنظر فى كافة القوانين واللوائح وقد التزمت الحكومة عدم فرض اية ضريبة ولا نشر اى قانون او لائحة مالم يكن مصدقا عليها منكم ، وكذلك تعهدت بأن تجعل الوزراء مسئولين امامكم عن كل امر يترتب عليه اخلال بحقوقكم ، ولا حجر عليكم فى اى شىء يصدر عنكم » .

ثم احيل مشروع « اللائحة الاساسية » الى اللجنة الدستورية برياسة حسن الشريعى ، وعضوية عبد السلام المويلحى وعبدالشهيد بطرس وهم من اعضاء مجلس شورى النواب ومن الذين قاوموا امر الخديو بحل المجلس .

***

كان من المنتظر ان يمضى المجلس فى سيره العادى من الانتاج والعمل ، ولكن الراسمالية الاوربية طاشت احلامها ، وساء الاجانب حصول الشعب على مطالبه وظفره بالحياة الدستورية وعد رجال السياسة فى لندن وباريس قيام مجلس نواب فى مصر خطوة جريئة لاتستقيم ونمو المصالح الاستعمارية ، وانه يقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق مطامعهم لا فى وادى النيل فحسب بل فى الشرق باسره ، فائتمروا جميعا بالمجلس وبدات الدسائس والمؤامرات تحوك خيوطها حوله .

وقبيل ان يجتمع المجلس بأيام معدودة اجتمع ليون جمبتا وزير خارجية فرنسا باللورد ليونز سفير بريطانيا بباريس وتناول الحديث بينهما حالة مصر السياسية فقال جمبتا :

ـ ليس فى وسع المرء ان يتنبأ بالخطة التى سيتبعها النواب ، فقد يتوخون الاعتدال ويؤيدون سلطة الخديو ، وقد ينضمون الى الجيش ويصرون على تنفيذ خطط الحزب الوطنى المعادية للاوربيين ، وقد يرضون بتدخل السلطان ضد انجلترا وفرنسا ، او قد يطلبون اليه ذلك من تلقاء انفسهم ، فمن الحكمة والحالة هذه ان تتفاوض الحكومتان فيما يجب اتباعه اذا ما وقعت فى مصر بعض الحوادث المحتملة الوقوع . ومن اولى الاشياء واهمها ان تتحد الحكومتان

اتحادا تاما ، وان يظهر هذا الاتحاد ظهورا جليا لانصارهما واعدائهما على السواء ، وفضلا عن هذا فان من الاهمية بمكان ان تقوى سلطة الخديو وتبعث فيه الثقة بمعونة انجلترا وفرنسا ، ونبث فيه روح الثبات والحزم ، واخيرا يحسن ان يقضى على ما يجرى فى استامبول من الدسائس ، وان يفهم الباب العالى انه لن يسمح له بالتدخل فى الامور فوق الحد المقبول .

فرد عليه ليونز بان حكومة بريطانيا ستنظر فى الخطة التى يجب عليها ان تسلكها مع فرنسا ازاء تطور الحالة فى مصر .

وفى يوم افتتاح المجلس جرى حديث آخر قال جمبتا فى خلاله للورد ليونز :

— ان احسن وسيلة لمنع وقوع فتن جديدة فى مصر ان يفهم المصريون ان فرنسا وانجلترا مصممتان على الا تسمحا بهذه الفتن .

واقترح ان ترسل مذكرة تدل عبارتها على اتحاد فرنسا وانجلترا فى عزمهما على تقوية مركز الخديو واضعاف الثورة .

وعلى ذلك تقدم ممثلا بريطانيا وفرنسا ادوارد مالت وسينكفيكز فى ٨ يناير بمذكرة استفزازية مشتركة — ثبت فيما بعد ان مسودتها كتبت فى دار وزارة الخارجية الفرنسية — واعلنا فى هذه المذكرة بان الحكومتين الفرنسية والبريطانية تؤيدان الخديو وتحميان عرشه ، وان تثبيت الخديو على العرش طبقا لاحكام الفرمانات التى قبلتها الدولتان رسميا هو الضمان الوحيد فى الحاضر والمستقبل لاستتباب النظام ولتقدم مصر ورفاهيتها ، وان الحكومتين متفقتان اتفاقا تاما على ان تمنعا كل اسباب الارتباكات الداخلية او الخارجية التى يمكن ان تهدد النظام القائم فى مصر ولا يداخلهما ادنى ريب فى ان جهرهما بما عزمتا عليه رسميا فى هذا الشان سيحول دون لاخطار التى قد تتعرض لها حكومة الخديو والتى لا بد ان تقاومها فرنسا وانجلترا معا ، وان الحكومتين تثقان بان الخديو سيستمد من هذا التاكيد ما يحتاج اليه من المعونة لتدبير شئون بلده وشعبه»

ومع ان مصر كانت لا تزال تابعة اسميا للدولة العلية فقد ضربت الدولتان الاستعماريتان بالفرمانات السلطانية عرض الحائط ، واخذتا تتدخلان بوقاحة فى شئون دولة شبه مستقلة ، وتفرضان لونا من الرقابة على اخص شئونها القومية ، وتغريان الخديو بالسعى الى استرداد سلطته المطلقة والعبث بالدستور ، وتفرقان بين

العرش والشعب .

وتقبل الخديو هذه المذكرة بالارتياح وشكر للدولتين حسن صنيعهما لحماية عرشه واستعدادهما لمؤازرته فى استرداد سلطته وضرب الحركة القومية فى الصميم .

اما الشعب فقد قابل هذه المذكرة المسمومة بالسخط ورأى فيها لونا من الوان الضغط ، وادرك النواب ان الغرض من تقديم المذكرة هو وضع حاكم البلاد فى كنف ممثلى فرنسا وانجلترا ، وعابوا عليه رضوخه واذعانه لسيطرة دول اجنبية تنعم بحياة نيابية صحيحة ولكنها تأبى على مصر هذه الحياة وتستكثر عليها ان ترفل فى ظل الدستور .

وعلق عرابى على المذكرة بقوله :

ـ لا بد ان سير ادوارد مالت يظن باننا اطفال ، لا ندرك معنى الكلمات ، انها قبل كل شىء لغة تهديد ، تهديد لحريتنا ، وان اتحاد كلمة انجلترا وفرنسا فى السياسة معناه ان انجلترا سوف تغزو مصر كما غزت فرنسا تونس ، ولكن كل رجل وكل طفل فى مصر سوف يحاربهم .

وكانت النتيجة ان استحكمت الروابط بين الشعب والجيش وصارا بمثابة روح واحدة فى جسدين ، تقف فى وجه انجلترا وفرنسا ، واصبحت الكلمة العليا للزعيم عرابى الذى خلع عليه المصريون لقب « الوحيد » .

وبادر محمد شريف بزيارة ممثلى الدولتين واحتج احتجاجا صارخا على انهما يشجعان الخديو على العبث بالدستور وعدم اعترافهما بسيادة الشعب ممثلا فى مجلس نوابه .

وكتب ادوارد مالت فى ٩ يناير الى وزارة الخارجية يقول : ان المذكرة ابعدت عنا كل ثقة . . . لقد كان كل شىء يسير سيرا حسنا ، وكان ينظر الى انجلترا كدولة بارة حامية لمصر ، اما الآن فالمصريون يعتقدون بأن بريطانيا القت بنفسها فى احضان فرنسا ، وان فرنسا تحملها اسباب خاصة بمركزها فى تونس على التدخل هنا » .

والواقع ان جمبتا كان يخشى ان تمتد حركة التحرير فى مصر الى تونس وغيرها من الشعوب الاسلامية التى تستعمرها فرنسا .

واعقب المذكرة المشئومة تدخل آخر مشين من فرنسا وبريطانيا اذ أوعزتا الى الرقيبين الماليين بارسال مذكرة مشتركة ابديا فيها

الاعتراض على حق النواب فى مناقشة ميزانية الدولة ، بحجة ان فى ذلك ضررا بالضمانات المقررة للدين العام وبقانون التصفية ، وجاء ممثلا الدولتين فأيدا مذكرة الرقيبين .

وحار الوزير شريف فى الموقف ، واراد ان يخفض للدولتين المتآمرتين جناح الشر من الرحمة الى ان تمر العاصفة بسلام ، فطلب الى النواب فى جلسة ٣١ يناير ترك مسالة المناقشة فى الميزانية معلقة الى ان تنكشف الغمة ، وعلق محمد عبده بأن الامة التى صبرت عشرات السنين وكافحت الى ان ظفرت بالدستور لا يشق عليها ان تنتظر بضعة اشهر للبت فى مصير مادة واحدة من مواد الدستور .

بيد ان الحماسة الوطنية كانت تفور فى الصدور ، وراح النواب يلقون اللوم على الخديو بسبب مسلكه المشين ، ويرددون بأن اشراف الامة ممثلة فى مجلس نوابها على الميزانية هو حق من حقوقها الطبيعية ، اذ كيف يتسنى للشعب أن يحكم نفسه بنفسه دون يكون له الاشراف على ماليته .

وبادر البارودى بالاتصال بالنواب وأوصاهم بالمعارضة فى فكرة التأجيل ، الى ان جاءت جلسة اول فبراير وفيها وافق النواب على وجوب تقديم ميزانية الدولة الى المجلس لمناقشتها قبل التصديق عليها .

وفى اليوم التالى ذهب الى عابدين وفد مؤلف من ١٥ نائبا وعرضوا المسألة على الخديو وقالوا له : ان الوزارة متوقفة عن التصديق على اللائحة ، وفى هذه الحالة يجب استبدال الوزارة بأخرى تكون اشد نزولا على رغبات المجلس .

وتظاهر الخديو بالمقاومة وفق خطة رسمها له من قبل مستشاروه الانجليز ، واخيرا اذعن لمطالب النواب .

ولما كان شريف لايزال متمسكا برايه فقد اضطر الى ان يتنحى عن الحكم بعد ان فقد ثقة المجلس ، فكانت وزارة محمد شريف هى اول وزارة اسقطها نواب الشعب .

***

كان من الطبيعى ان يتولى العسكريون زمام الحكم وهم الذين بعثوا الثورة وقادوا خطاها ، وساعدوا الشعب على التمتع بحياة الحرية ، وبعدما اصبح الجيش عنصرا من عناصر الحركة الدستورية .

وفى ٥ فبراير تسلمت وزارة الثورة برياسة محمود سامى البارودى مقاليد الحكم ، وقالت فى برنامج تشكيلها : انها تهدف الى القيام بعدة اصلاحات داخلية كتنظيم المحاكم ، واصلاح الجهاز الادارى ، وتعميم التعليم ، كما انشات وزارة لشئون السودان ، واجرت تعديلات فى السودان وتقسيمه اداريا على نسق جديد .

وقدم البارودى مشروع الدستور على الصورة التى ارادها نواب الشعب الى المجلس بجلسة ٨ فبراير ، والقى بهذه المناسبة خطابا سياسيا خطيرا استهله بقوله :

« احسب نفسى سعيد الطالع بحضورى بينكم ، حاملا الى حضراتكم القانون الاساسى الذى سيكون قاعدة لجميع أعمالكم ، ويسرنى اننى لم احمله اليكم الا بعد يقينى انه خير اساس يمكنكم ان ترفعوا عليه من الاعمال ما يعزز شان البلاد وينمى ثروتها ويقوى اصول العدالة فيها ، وهذه نعمة من الله سيقت الينا على حين احتياجنا اليها » .

الى ان قال : انى مؤمل فيكم ان تكونوا عضدا لنا وساعدا قويا على تتميم قصدنا ، فبذلك يستقر النظام وتتوفر لدينا اسباب الثروة والرفاهية ، وتحفظ الحقوق التى لنا ونؤدى الواجبات التى علينا ، ونوفى بجميع عهودنا لمن عاهدنا » .

وبذلك انهت الوزارة الازمة المعلقة على اصدار الدستور ،واقيمت بهذه المناسبة حفلات قومية فى شتى ارجاء البلاد ، جاءت صورة ناطقة من التطور السياسى وعنوانا للوعى الثورى ، كما كانت بمثابة انتصار ساحق لارادة الشعب وهزيمة نكراء للدول الاستعمارية وللخديو نفسه .

وكان فى طليعة هذه الحفلات الحفلة الجامعة التى اقامتها جمعية المقاصد الخيرية ودعى اليها البارودى وعرابى والوزراء والضباط والعلماء ، وخطب عبد الله نديم وابراهيم اللقانى ومصطفى ماهر ومحمد عبده واديب اسحق وفتحى زغلول ، فاشادوا بمزايا الدستور والحكومات الشورية ودعوا الى الوحدة والتضامن والثبات على المبدأ .

وكذلك أقام النواب حفلات فى القاهرة والاقاليم ابتهاجا بالحدث الجديد فى تاريخ مصر السياسى ، وتناول الخطباء وكان من بينهم علماء وضباط وجنود وطلبة من الازهر ومن المعاهد العلمية ـ اهمية

الكفاح الشعبى للمحافظة على الدستور ووجوب التمسك بالحقوق التى ظفروا بها ، ودعوا الى مساعدة الفلاح ونشر التعليم والتمسك باهداب الفضيلة ورعاية الذمة وحفظ العهود .

لم تشأ انجلترا وفرنسا التقهقر ولا التسليم بالامر الواقع مادامتا تجدان سندا وظهيرا من الخديو ومن الخوارج اعـــداء الشعب ، فأوعزتا الى الرقيبين الماليين ان يبديا سخطهما على صدورالدستور وتغيير نظم الدولة ومناقشة النواب ابواب الميزانية مناقشة قـد تؤدى الى العبث بمصالح الدول الاجنبية ، الا ان المجلس لم يابه لهذا اللون من التهديد ومضى النواب قدما فى اعمالهم ؛ فنظر المجلس فى لائحة نظامه الداخلى ، وطالب الحكومة بأن تعرض عليه نصوص المعاهدات والاتفاقات التى ابرمتها مع الدول الاجنبية ، ونظـــر فى وضع قانون جديد للانتخاب ، ومنع السخرة ، واصلاح المحـــاكم المختلطة التى آذت الفلاحين وانفق عليها ١٢ مليون جنيه من ثمار كدهم ، وازالة المساوىء الخاصة بمسح الاراضى الزراعية الـذى تم منذ ثلاث سنوات تحت اشراف موظفين انجليز ، وعالج المجلس مسالة تضخم المعاشات لموظفى الدولة ، وانشاء خزان على النيل عند اسوان ، الى غير ذلك من المشروعات التى ترمى الى رفع راية الشعب واعلاء كلمته .

ولم يتورع مستر روزل مدير الدومين عن ان يتهكم على اقتراح النواب بالغاء السخرة فكتب فى ذلك يقول : ان الحـاكم الشرقى اذا حرم كرباجه وحظر عليه ان يسجن من يشاء ، عجز عن القيـــام بسياسة قوم اعتادوا منذ القدم ان يخضعوا لحكومة فردية قوية » وبذلك كشف القناع عن نفسية المستعمرين الاوربيين وسوء نياتهم حيال المصريين .

وفى ٢٦ مارس انتهت دورة المجلس واختتمهـا البارودى رئيس الوزارة بخطاب رائع قال فيه :

« ان الفترة القصيرة التى اقمتموها ، الاعمـال الكثـيـرة التى باشرتموها تدل على شدة ميلكم الى النجاح وغيتكم فى تقدم البلاد ، وحيث ان هذا اليوم هو اليـوم المعين لانفضـــاض دورة المجلس بموجب لائحتكم الاساسية ، فقد اتيت بالاصالة عن نفسى وبالنيابة عن أخوانى لاقدم الشكر اليكم على مساعيكم المحمـــودة ، وارغب اليكم ان تشغلوا افكاركم فى فترة العطلة بالمنافع العامة » .

أما الخديو فقد كشف عن سوء نيته وما يضمره من الكيد لحركة مصر القومية ، ففى ١٩ فبراير تلقى محمد ثابت مندوبه الشخصى فى امير جان باستامبول الكتاب التالى :

« ان الاميرالايات الثلاثة الذين قاموا بحركة مخالفة للقانون فى سبتمبر الماضى بدلا من ان يندموا على اعمالهم راحوا بين حين وآخر يزعجون الحكومة بشتى المطالب التى اجيبوا اليها ، وقد ظنت هيئة النظار التى جاءت الى الحكم بعد ذلك انها لو سايرتهم وتمشت معهم لامكنها ان تصلح من شانهم وتقوم اعوجاجهم ولكن هيئة النظار السابقة لم توفق الى شىء من ذلك فاستقالت .

« وان الاميرالايات الذين عمدوا بعد ذلك الى ابعاد الاتراك والجراكسة والارناؤود والاكراد من الخدمة العسكرية جميعهم من المصريين الذين كانوا فى الاصل انفارا ، وهم يرفضون قبول الضباط الذين تخرجوا فى المدرسة الحربية .

« ولما كان مجلس النواب قد شكل وفقا لنفوذ ورغبات هؤلاء الضباط ، فان هذا المجلس لا يقوى بطبيعة الحال على مخالفة اوامر رؤساء الجيش ، وصفوة القول ان القوة العسكرية فى مصر انقلبت الى ما يشبه حياة الانكشارية .

« فاذا ما جاءت اوامر الحكومة متفقة ورغباتهم عمدواالىتنفيذها واذا كانت بالعكس خالفوا الاوامر ، ذلك لان القومية قد رسخت فى قلوبهم وهم من اجل ذلك يرفضون قبول الاتراك وغير الاتراك من العناصر الاخرى .

« فاعرضوا ذلك على الاعتاب الشاهانية بوساطة كاتب اول المابين الهمايونى » .

ما كادت الدورة البرلمانية تنفض بعد ان ظلت قائمة ثلاثة اشهر عقد المجلس فى خلالها عشرين جلسة ، حتى لعبت المؤامرات دورها من وراء ستار ... فالمستعمرون غير راضين عن عهد الحرية الذى تتمتع به مصر ، فهم يحاربونها فى الداخل والخارج ، واعداء الدستور من الطبقة العثمانية ساءهم تقلص ظل نفوذهم واعلاء شأن من كانوا يعيرونهم بكلمة « فلاح » وتغلغلالفكرة القومية فى نفوسهم . والضباط الجراكسة يوغرون الصدور ويتحفزون للايقاع بزعماء الشعب توطئة لاسترداد مكانتهم ، والخديو ينثر الذهب هناوهناك لاحباط النهضة الوطنية ، ويبتدع اساليب لا يلجأ اليها الا كل حاكم

مأفون ، ويكذب فى تقريراته التى يرسلها الى الباب العالى فيصور قادة الثورة على انهم خوارج يريدون الغاء الخلافة العثمانية واقامة خلافة عربية بدلا عنها ، وينشدون الاستقلال بمصر وبالبلاد العربية عن الدولة العلية ، وهم فى سبيل ذلك قد طردوا الاتراك والعناصر التى تنتمى اليهم من صفوف الجيش ومن سلك الوظائف المدنية .

كانت اولى هذه المؤامرات الشروع فى قتل عبد العال حلمى بدس السم له فى الطعام ، وكان للحادث وقع اليم فى النفوس مما اهاج خواطر الشعب ، ثم تبع ذلك محاولة دنيئة لاحداث فتنة دامية فى صفوف الجيش اذ حرض عثمان رفقى الضباط الجراكسة على اغتيال قادة الثورة والوزراء .

والواقع انه بعد ان تقلد احمد عرابى وزارة الحربية عمل على تحصين السواحل وعزز الحصون ونظم المدفعية ، ثم قام بحركة تطهير واسعة النطاق فى صفوف الجيش ، واحال الى الاستيداع العناصر التي لا يوثق بها والمناوئة للقومية المصرية ، وفى الوقت ذاته اهتم بترقية طائفة من الضباط المصريين الذين حرموا من الترقية سنوات عديدة ، ولكن اعداء الثورة صوروا حركة التطهير على انها استبداد عسكرى ، ودبرت المؤامرة التى نحن بصددها .

تقول المصادر المصرية ان هذه المؤامرة دبرها صنائع الخديو اسماعيل الذى بعث الى المتآمرين عن طريق وكيله السردار راتب باشا بمبالغ طائلة ، وان خيوط المؤامرة نسجت فى قصر محمدشريف الذى يمت بوشيجة القربى للسردار .

اما الخديو فيصور المؤامرة فى برقيته الى الباب العالى فى ٢٣ ابريل على ان القيادة العامة « ارادت ارسال ١٠١ من الضباط لاستكمال النقص فى جيش السودان ، وكان بين الضباط المقرر سفرهم ١٩ ضابطا من الجراكسة و ٦ ضباط اتراك والباقى اولاد عرب ، ولكن الجراكسة قروا فيما بينهم تدبير مؤامرة ضد عرابى ، ثم تبين ان الضباط المقبوض عليهم غير الضباط الذين تقرر ايفادهم . ونحن نلتزم جانب القضاء على هذه المسألة وعدم التوسع فيها ، وسينتهى التحقيق اليوم او غد وننهى الموضوع » .

كشفت هذه المؤامرة فى ١١ ابريل وقبض على المتآمرين وجرى التحقيق معهم ، وبلغ عدد المعتقلين ٤٨ شخصا من بينهم ثلاثة من المدنيين والباقون من الضباط الجراكسة وعلى راسهم الفريق عثمان

رفقى ثم شكل مجلس عسكرى لمحاكمتهم ، فاصدر احكاما على اربعين من المتآمرين بتجريدهم من رتبهم وطردهم من الخدمة العسكرية ونفيهم الى اعالى النيل .

وفى ٢٢ ابريل ابرقت الصدارة العظمى الى الخديو تقول :

« يؤخذ من الانباء التى اذاعتها وكالة هافاس ان احكاما صدرت بنزع رتب واوسمة الكثيرين من الضباط العظام فى الجيش المصرى الشاهانى ونفيهم الى السودان مؤبدا ، فكيف نطلع على هذه الانباء من البرقيات العامة دون ان توافونا بشىء عنها . ان من بين هؤلاء الضباط من يحمل رتبة الفريق ، ونزع مثل هذه الرتبة الرفيعة بدون استئذان ، فيه مساس بحقوق السلطنة التى منحت هذه الرتب ، فاذا كان الامر صحيحا ، وجب التدقيق فى مثل هذهالاحكام بصورة مشروعة مع العمل على صيانة حقوق السلطنة » .

وقد رد الخديو على ذلك فى ٢٥ ابريل بقوله :

« ان اعتقال الفريق عثمان رفقى والضباط الجراكسة وقع تحت عوامل الضغط ، ولم تكن لى اية حيلة سوى اتباع هذا السبيل ، وانا لا املك القوة التى تقف امام هذا الضغط ، وكان لزاما على رغبة فى عدم وقوع اى ضرر فى البلاد ان اتمشى مع الوضعولااقف فى وجوه الضباط وان اسايرهم فى رغباتهم . واما سبب اعتقال الفريق عثمان رفقى فيرجع الى ان اسمه ورد على لسان احد الاميراليات وكان ذلك بمجرد الاشتباه » .

وفى ٢ مايو ارسل الحكم الى القصر للتصديق عليه ، وهنا جمع الخديو الوزراء واعاد قراءة الحكم امامهم ثم قال معلقا :

— ان رتبة الفريق الحائز عليها عثمان رفقى لايمكن تجريده منها لان ذلك التجريد من حقوق الباب العالى فيلزمنى اولا ان اتخابر معه .

فاجابه عرابى :

— ولماذا صار تجريد الفريق جاهين كنج باشا من رتبته عندما غادر مصر الى ايطاليا ، وكان ذلك بدون امر الباب العالى ؟

فارتج القول على الخديو وقال :

— كان عين الظلم .

فقال عرابى متهكما :

— ولماذا لا يحصل من الخديو مثل هذا الظلم المبين .

ورای ادوارد مالت ان يتطفل على مسالة داخلية بحتة ، بقصد ايقاع الشقاق بين القصر والوزارة ، فنصح الخديو تحت ستار العدالة والنخوة الانسانية ان لا يعتمد الحكم بحجة انه انتقام سياسى فى صورة محاكمة عسكرية ، وان يامر باعادة المحاكمة .

واقتنع الخديو بهذا المنطق المعكوس ، وكان من اثر ذلك ان ابرق فى اليوم التالى الى الباب العالى يقول :

« قرات بامعان التقرير والمضبطة المقدمين من المجلس العسكرى، فوجدت ان التحقيقات مغشوشة ، والاحكام غادرة ، وقد تحقق هذا عندى ، ولا يقبل ايمانى ووجدانى التصديق بمحض رضائى واختيارى على هذه المضبطة ، ولكن فى حالة عدم القبول فانه من المحتمل ان يقوم العسكريون بعمل ضدى . فاذا كان من المستصوب لدى الحضرة السلطانية عدم تنفيذ هذا الحكم التمس ان يرسل المابين برقية مفتوحة بهذا المعنى : علمنا من برقية نشرتها وكالة هافاس ان ٤٣ ضابطا من العساكر الشاهانية المصرية حكم عليهم بنزع رتبهم ونياشينهم ونفيهم الى اقاصى السودان مدى الحياة . فنظرا الى ان هذا الحكم صارم جدا ، وبين الضباط المحكوم عليهم من هو فى رتبة الفريق ونزع هذه الرتب الرفيعة من اولئك الضباط بدون استئذان مما يخل بحقوق السلطنة السنية فقد صدرت الارادة السلطانية بارسال هيئة تحقيق برياسة مشير لاعادة التحقيق مع ايقاف الاحكام الى ان تصل الهيئة المذكورة » .

واستبطأ رئيس وزارة البارودى التصديق على الحكم ، فاقبل على الخديو يلومه على وقوفه موقف التردد والحيرة ، وافهمه بان الوزارة غير ملزمة باطاعة الباب العالى فى مسالة داخلية تعد من صميم السيادة ، ومن اختصاص الحكومة المصرية وحدها . .

ثم قابل البارودى بعد ذلك ممثلى بريطانيا وفرنسا وانهى اليهما بانه اذا حدث وحضر مندوب او لجنة من الدولة العلية بشان هؤلاء الضباط فانه سيعمل على اعادتها قهرا من الاسكندرية بالقوة العسكرية ، وتكون النتيجة نشوب الثورة ضد السلطان .

فساله مالت عما اذا كان يقول هذا الكلام بصفة رسمية ، فاجاب .

— نعم بصفة رسمية .

وعندئذ هرع القنصلان الى الخديو وابلغاه هذا الحديث وزادا

على ذلك بان جميع القناصل كتبوا بذلك الى دولهم . فساور القلق نفس الخديو وعقد اجتماعا مع القناصل وطلب تحكيمهم فى الازمة قبل ان تتطور ، فافتوا بنفى الضباط المتآمرين مع حفظ رتبهم العسكرية .

استحكمت الازمة بين القصر وبين الوزارة لا سيما بعد ان رضخ الخديو لمشورة القناصل فوقع على اوراق الحكم بنفى المتآمرين الى الخارج وليس الى اعالى النيل وعدم استبعاد اسمائهم من سجلات الجيش .

ولم يعترف البارودى بهذا القرار واعاده الى الخديو مشفوعا بقوله :

ـ انا لا اقبل هذا الامر وان مركزك اصبح فى خطر .

وبعد ان كرر هذا التهديد انصرف غاضبا .

اشار بعض الوزراء بعرض الخلاف على مجلس النواب . . . وكان لهذه الدعوة خطرها على مركز الخديو لان معناها التمهيد للاعضاء بالطعن فى شخص الخديو الذى يتجاوز حدوده ويتحدى الوزارة التى هى مسئولة امام المجلس . وفعلا طلب عرابى الى رئيس المجلس محمد سلطان دعوة النواب للنظر فى هذا الخلاف ، فابى رئيس المجلس اجابة هذا الطلب بحجة ان المجلس فى عطلة وان دعوته لا تكون الا بأمر خديو .

ولكن الوزارة تحدت الخديو ودعت النواب الى الاجتماع ، ذلك ان الثورة كانت مؤمنة بقوتها التى تستمدها من الشعب ، واثقة من ان وكلاء الشعب سيقفون الى جانبها وينصرونها ضد الخديو الذى سلك مسلكا معيبا يقضى على استقلال البلاد ورضخ لمشورة مستشاريه الاجانب الذين يضمرون البغضاء للثورة ، دون ان يفكر فى استشارة وزرائه .

وفى هذا الاجتماع التاريخى قلب النواب الخلاف على متباين وجوهه ، ولعبت الدسائس دورها فى تفريق كلمتهم ، واراد بعض المنافقين ان تمد الوزارة يدها لمصافحة الخديو فمضوا اليه فى قصره يعرضون عليه حلا وسطا ، فابى واستكبر وقال لهم ان اعضاء الوزارة هددوه بالخلع وهددوا افراد اسرته بالنفى .

وبادر بشرح تطور الازمة فى برقيته الى الباب العالى فى ١٠ مايو حيث قال :

« تقرر بجلسة مجلس الوزراء اليوم جمع اعضاء مجلس النواب الى اجتماع فوق العادة وارسلوا برقيات بذلك الى الاعضاء ، دون ان يرجعوا الى فى هذا الامر ولم يستأذوننى مع ان اجتماع مجلس النواب فى جلسة فوق العادة لابد أن يكون بامر خديو كما نصت على ذلك لائحة لمجلس ، وغرضهم من عقد هذه الجلسة هو اظهارهم اياى بمظهر المذنب امام المجلس توطئة لخلعى بعد الحصول على موافقة النواب بحجة اننى لم ارسل بالرفض على برقية الصدارة العظمى التى تقول بأن نزع الرتب من حقوق الدولة العلية .

« ومهما فعلوا من الحركات العدوانية فان خديوية مصر مفوضية الى عهدتى من لدن الحضرة السلطانية ، فلامجلس الوزراء ولامجلس النواب له السلطة فى خلعى مادمت حائزا لرضى ولى النعم ولم أفعل شيئا مغايرا للناموس ، ونظرا لما سيتمخض عنه عداونهم فنحن الآن فى فترة ثورة ، ولم يزرنى الوزراء منذ يومين » .

وقد تجنى الخديو على الحقيقة فى هذه البرقية ونسى ان خلع الحاكم الظالم حق من حقوق الشعب يمارسه حسب نصوص الشريعة السمحاء ، وان الشعب المصرى سبق له ان خلع الوالى أحمد خورشيد باشا ، كما ان الشعب التركى خلع فيما بعدالسلطان عبد الحميد الذى بعث اليه هذه الاستغاثة .

وكان من نتائج شكوى الخديو المرة والتهديد بعزله ان ارسلت الصدارة العظمى برقية الى مجلس الوزراء تستفسر منه عن حقيقة ما سرده الخديو فى برقياته ومسالة العزل ، فصودرت البرقية فى مكتب شركة التلغرافات فى القاهرة وارسلت الى القصر راسا ، فعاد القلق يستبد بنفس الخديو وبعث فى ١٥ مايو ببرقية الى مندوبه محمد ثابت باشا فى امير جان :

« اطلعت على مضمون البرقية المرسلة من الصدارة العظمى الى هيئة النظار فى مصر . . . ان امثال هذه الاتصالات لم تتم فى غضون ثمانين عاما بل جرت العادة ان تكون مع خديو مصر راسا ، فاذا ما أخل اليوم بهذه القاعدة المتبعة قديما فان هذا الوضع ستكون له نتائج سيئة ، ولا شك فى ان اتصال الباب العالى بهيئة النظار الموجودة الآن راسا لمما يشعر هذه الهيئة بالقوة والسيطرة اكثر من ذى قبل وينجم عن ذلك اضرار شتى . وهذا ما حملنى على الاحتفاظ بهذه البرقية وعدم اطلاع هيئة النظار عليها .

« ان الجهات العليا فى استامبول لا تنظر الى المسالة المصرية تلك النظرة الجدية التى تتفق وخطورتها ، بل تنظر الى هذه المسالة على انها فتور فى العلاقات بينى وبين هيئة النظار ، على حين ان المسالة على جانب كبير من الاهمية . فالبلاد اليوم فى قلق ورعب ، ومجلس النواب وجميع الاهالى يدركون ذلك ، كما ان الدول الاجنبية واقفة على الحالة ، وقد اتصل بى ان اساطيل الدول ستصل الى الاسكندرية حتما خلال الايام القلائل المقبلة » .

***

وصدر الحكم اخيرا بنفى الضباط المتآمرين الى اى بلد يختارونه فوقع اختيار بعضهم على استامبول والاخر على ازمير او الشام ، اما الفريق عثمان رفقى فاختار جزيرة رودس ، وركبوا جميعا باخرة « البوستة الروسية » يوم الجمعة ١٨ مايو ، وعندما وصلوا الى استامبول اتصلوا على الفور باسيادهم القدامى واستبدلوا الملابس العسكرية باخرى مدنية .

وقد تضايق السلطان عبد الحميد من وجود هؤلاء الضباط المتآمرين فى عاصمة ملكه وتشاءم منهم ، فامر بوجوب التحفظ عليهم على الرغم من ان الخديو اجرى عليهم نفس المرتبات التى كانوا يتقاضونها فى مصر ، ولقد سال ذات مرة محمد ثابت باشا :

ـ هل ارسل الخديو هؤلاء الضباط الى هنا لانه يعتبر استامبول منفى أم ماذا ؟

ـ ان منفى مصر هو اعالى النيل ، ولا يعتبر الخديو اية جهة اخرى من الممالك المحروسة منفى سواه .

وفى ٢١ يوليو تلقى ثابت باشا برقية :

« استاذنوا العتبات السلطانية فى اعادة الضباط المصريين الموجودين عندكم وعددهم حوالى ٤٠ الذين صار نفيهم وابعادهم مع اركابهم اول باخرة » .

وعاد الضباط الجراكسة الى مصر فى ٢٥ يوليو اى بعد ضرب الاسكندرية باسبوعين ، عادوا ليقودوا شراذم الجند التى جمعها الخديو من العناصر المعادية للقضاء على الثورة واخماد صوت الشعب .

عبيد الباب العالى

مظاهرة بحرية لارهاب مصر – مذكرة بريطانيا وفرنسا لاسقاط حكومة الثورة ونفى زعمائها – استقالة البارودى – نشوء فكرة عزل الخديو توفيق – صلة عرابى بالسلطان – وفد نظامى باشا – وفد المشير درويش باشا .

كان انتشار الوعى القومى يسوء انجلترا ، فهى تعلم حق العلم بأن مصالحها فى وادى النيل قائمة على السلب والنهب ، وان مصر اذا ما ظفرت باستقلالها وفرضت كلمة ابنائها على شئون الحكم ، فان هذا معناه تلاشى نفوذها وضياع هيبتها .

وكان تدخلها بوساطة ادوارد مالت قنصلها العام وكبير الدساسين فى الشرق ، فعقب ان قام مالت بزيارة استامبول لجس النبض فى دوائر الباب العالى ، والتداول فى سياسة مصر مع لورد دوفرين سفير بريطانيا ، كتب الى لندن فى ٢٥ سبتمبر ١٨٨١ يصور الحالة فى مصر تصويرا مغرضا ، وحرض حكومته على ضرورة ارسال قطع من الاسطول الى الاسكندرية لشد ازر الخديو والتخفيف من ذعر الجاليات الاجنبية اذا ما وقعت اضطرابات .

وصادفت هذه الفكرة هوى من نفوس رجال الاستعمار فى لندن وباريس ، خصوصا ، بعدما تطورت ازمة الدستور ، واستقر الراى على حل مجلس النواب بالقوة لمنعه من مناقشة الميزانية ، واسقاط حكومة الثورة بالتدخل المسلح .

وكانت سياسة جمبتا قائمة على ان تحتل فرنسا وبريطانيا مصر احتلالا فعليا ، وتقدم فريسنيه باقتراح يرمى الى ان ترسل فرنسا وبريطانيا بعض القطع الحربية لحماية رعاياهما فى الظاهر ، ولارهاب حكومة الثورة وحملها على التسليم ، ونصح مالت الخديو انه بمجرد وصول الاسطول المشترك فان عليه ان يسقط وزارة الثورة ويعيد شريف باشا وعند ذلك يمكن عزل عرابى ورفاقه من مناصبهم .

وعند فجر ٢٠ مايو وصلت الى شواطىء الاسكندرية قطع حربية

من الاسطولين البريطانى والفرنسى بحجة تثبيت مركز الخديو والمحافظة على عرشه ، وحماية ارواح الرعايا الاجانب ، مع ان الاجانب كانوا يعيشون فى طمأنينة وسلام ، ولم يتوجهوا بالشكوى الى احد .

وبادر الخديو بأن أخطر الباب العالى ببرقية فى اليوم نفسه قال فيها : رست اليوم فى ميناء الاسكندرية ثلاث سفن حربية بريطانية وثلاث سفن حربية فرنسية ، ولا نعلم الى الآن غرض الدولتين ، كما اننا لا نعلم التدابير التى اتخذها الباب العالى حيال هذه المسألة ، وتقضى عبوديتى ان ابلغ الدولةالعلية اولاباول عن مجريات الحوادث » .

واحتج الباب العالى احتجاجا صارخا على هذا الاعتداء السافر على حقوق السلطان ، ولكن لورد جرنفل اكد للباب العالى بأن وصول الاسطولين لم يقصد به اغتصاب حقوقه ، وانما اتخذت هذه الاجراءات لضمان المصالح الاوربية فى مصر ، وان الحكومة البريطانية لم تفكر مطلقا فى انزال جنود الى البر او تحتل وادى النيل احتلالا عسكريا .

وتلقى الخديو ردا على برقيته الى الباب العالى « بأن الدول جميعا بما فيها فرنسا وانجلترا كررت احترامها للسيادة العثمانية على مصر ، وان وجود الاسطول هو مجرد زيارة عادية ، وما كنا نعلم ، لا نحن ولا الدول الاخرى ، موعد مغادرة هذه المراكب الحربية قواعدها الى الاسكندرية ، وقد وعدت الدولتان مغادرتها المياه المصرية قريبا ، وطلبنا انه فى حالة ارسال بلاغات الى مصر ، ان يكون ذلك عن طريق الباب العالى ، ولا نشك فى ولائكم للدولة واحترامكم نصوص الفرمانات » .

وتضاربت الافكار والخواطر بشان هذه المظاهرة البحرية على شواطىء امة مسالمة ، وشاع فى بيك اوغلى « حى الاوربيين باستامبول » بأن الغرض من ارسال الاسطول التنكيل بالثوار وطلب حل الجيش المصرى واحلال قوة بوليسية « جندرمة » مكانه ، وان وزارة الحرب البريطانية تجمع المعلومات وترسم الخطط والاساليب لغزو مصر ، وان الخديو وقد اطمان الى وصول « سادته » فسوف يكون فى وسعه الانتقام من المواطنين شر انتقام .

والواقع ان انجلترا كانت تدرك تمام الادراك انه طالما ظل عرابى وزعماء الثورة قابضين على زمام الحكم فلا يمكن ان تكون مصر لقمة

سائغة فى افواه المستعمرين ، ولذلك تقدم ممثلا بريطانيا وفرنسا بمذكرة الى الخديو يطلبان فيها اسقاط الوزارة واخراج عرابى من مصر وتحديد اقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى الريف . ومع اغتباط الخديو بهذا الانذار الذى كان متفقا عليه الا ان البارودى احتج عليه احتجاجا صارخا اذ ان تدخل الدول الاجنبية فى شئون مصر فيه اجحاف بحقوق السيادة وفيه مساس بمصلحة الباب العالى .

***

وبدا محمد سلطان رئيس مجلس النواب يلعب دوره فى الخفاء ، فانحاز الى الانجليز واخذ يمالىء الخديو ، ويتصل بادوارد مالت ويفضى اليه بأن البارودى يرفض الاستقالة وانه يرى دعوة مجلس النواب متحديا بذلك سلطة الخديو ، وكان غرض سلطان من هذا توسيع شقة الخلاف ليخلف البارودى فى رياسة الوزارة .

وبعث ممثلا بريطانيا وفرنسا الى سفارتيهما فى استامبول بان تحملا الباب العالى على ارسال اى كتاب يكون فيه توطيد مركز الخديو ونفى التهمة التى اسندتها الوزارة من انهما يتدخلان فى حقوق السيادة ، وان يعمل الباب العالى على استدعاء زعماء الثورة الى استامبول بحجة الاستفسار منهم عن وجهة نظرهم فى الموقف .

وكان ادوارد مالت قد سعى فى حمل عرابى والبارودى وعبدالعال حلمى وعلى فهمى على ان يغادروا مصر من تلقاء انفسهم مقابل معاش سنوى سخى يدفعه بيت آل روتشيلد واحتفاظهم بالقابهم ، كما لوح لعرابى بدفع رشوة مقدارها عشرة آلاف جنيه ، ولكن عرابى وهو الفلاح الفقير رفض هذا العرض فى ازدراء ، لان غرضه من الثورة لم يكن بدافع شخصى ، وانما لتخليص وطنه من براثن الظلم والاستبداد ، وقد سبق له قبل ايام من تلقى هذا العرض ان كتب الى صديقه المستشرق ولفرد بلنت فى لندن يقول :

« ان غرضنا الاوحد ان نخلص بلادنا من العبودية والظلم والجهل ، وان نرفع بنى مصر الى مستوى يستطيعون معه ان يحولوا دون اية رجعة للاستبداد الذى كان يضع مصر فى الماضى فى زوايا الاهمال »

واستقر فى عزم عرابى على الا يتزحزح عن موقفه برغم التهديد والوعيد ، وان يدافع عن وطنه حتى آخر جندى وآخر قطرة من دمه .

ولم يدع البارودى الخديو وعملاء الاستعمار بمضون فى مؤامرتهم الدنيئة السافرة فقدم فى ٢٦ مايو استقالة وزارته محتجا على ما اجازه الخديو للدول الاجنبية من التدخل فى شئون مصر تدخلا يخل بحقوق السيادة ، واغتبط الخديو فى قرارة نفسه بالتخلص من حكومة الثورة التى اعلت من شأن الفلاحين ولقنت المصريين أسس الكفاح وغلت من يديه فى الحكم .

امست مصر بلا حكومة ، فعرضت الوزارة على محمد شريف فرفض ، وعلى مصطفى فهمى فاعتذر ، وبادر الخديو بأن يعث الى وكلاء الوزارات بتصريف الاعمال مؤقتا ، والى حكام الاقاليم يبلغهم بسقوط الوزارة ويأمرهم بوقف التجنيد وصرف «الرديف» ، وان يطمئنوا الخواطر عن الاسطول المشترك « الذى وصل لامر سلمى » .

هزت استقالة وزارة الثورة مصر من اقصاها الى اقصاها ، ووقعت هذه الاستقالة موقعا اليما من النفوس ، وتفاقم السخط على الخديو الذى ارتمى فى احضان المستعمرين والذى يريد احباط روح المقاومة ووسائل الدفاع عن البلاد بوقف التجنيد وصرف الاحتياطى . فقدمت مئات العرائض من العلماء والاعيان والموظفين يحتجون فيها على مسلك الخديو المشين واذعانه لمطالب الدول الاجنبية ، واستنجاده بالاسطول البريطانى ـ الفرنسى ويطالبون برفض المذكرة واعادة الوزارة المستقيلة او عزل الخديو الذى لم يعد أهلا للحكم .

فزع الخديو من المجاهرة بفكرة خلعه ، فكان يبكى فى وحدته ، ويستنجد بوكيله فى استامبول لحمل الباب العالى على ارسال وفد ينصح زعماء الثورة بالكف عن غلوائهم والعدول عن فكرة العزل .

واخيرا عقد اجتماعين فى قصره احدهما فى صباح السبت ٢٧ مايو والاخر فى مسائه . ففى الاجتماع الاول الذى شهده النواب والعلماء وكبار الموظفين والضباط اعاد الخديو عرض الوزارة على محمد شريف فأصر على الرفض ، وعرضها على عمر لطفى مدير مديرية الاسكندرية فاعتذر ، وفى اجتماع المساء أعلن الخديو انه سوف يشكل وزارة برياسته على نحو الوزارة التى قامت فى بداية

عهده بالحكم ، وانه سيتولى بنفسه وزارة الحربية وقيادة الجيش، فتحداه الضابط طلبه عصمت بقوله: ان الجيش لا يقبل سوى احمد عرابى وزيرا للحربية وقائدا عاما .

وفى الوقت ذاته تلقى الخديو برقية نزلت عليه نزول الصاعقة ، كانت هذه البرقية من ضباط حامية الاسكندرية وضباط البوليس فيها يعلنون تضامنهم وانهم لا يرضون بغير عرابى وزيرا للحربية وعلى راس القوات المسلحة ، وحددوا مهلة اثنتى عشرة ساعة ، فاذا لم يرجع عرابى الى منصبه فهم غير مسئولين عما تفضى اليه الحوادث .

وشهدت دار محمد سلطان رئيس مجلس النواب اجتماع شعبى حافل فى مساء اليوم نفسه حضره احمد عرابى وزعماء الثورة وقاضى القضاة والعلماء والنواب التشاور فى الموقف ، وكانت حديقة الدار غاصة بالعشرات من الضباط الاحرار ، فاخذوا يعددون مساوىء اسرة محمد على ، ويهتفون بقولهم : اعزلوا الخديو الذى دعا الاجانب الى التدخل فى شئوننا وتهديدنا بالاساطيل .

سرعان ما شاعت فى كل بيئة ومجتمع فكرة عزل الخديو ،واصبح عرش مصر فوق فوهة بركان . . . كان هناك حزب الخديواسماعيل الذى يعمل على اعادته الى العرش ، وحزب آخر يعمل لمصلحة الامير محمد عبد الحليم ويسعى الى تنصيبه حاكما على مصر ، وينشر الدعوة الى ذلك فى نشرات توزع على المواطنين او على صفحات جريدة « ابو نظارة » التى تصدر بباريس . . . وهناك فريق من قادة الراى وزعماء الاصلاح يرون ان المصلحة العليا للبلاد تقضى عليها بالتخلص من اسرة محمد على وعزل الخديو وتولية البارودى رئيسا للدولة .

وبلغ القلق بالاجانب مبلغا جسيما وبثوا قلقهم الى قناصلهم ، فذهب وفد من قناصل الدول ـ عدا انجلترا وفرنسا ـ الى دار عرابى فى يوم ٢٨ مايو وطلبوا اليه العمل على حماية ارواح رعاياهم، فاجابهم عرابى :

ــ لقد استقلت ولا صفة لى تخولنى تحمل هذه المسئولية ، وان الخديو وحده المسئول ،فقد جاهر بانه سيراس الحكومةويتولى قيادة الجيش معا .

فاستطردوا قائلين :

ــ نحن لا نعترف لاحد بالسلطة سواك ، ففى يدك اليمنى زمام الجند ، وفى الاخرى زمام الشعب .

وكان فى هذا اعتراف صريح بزعامة عرابى العسكرية والشعبية ، فلبى طلبهم وابرق الى قواد جميع الوحدات يطلب اليهم التزام جانب السكينة والمحافظة على الامن ، ومعاملة الجميع لاسيما الرعايا الاجانب معاملة طيبة .

ووجد الخديو نفسه امام الامر الواقع وبازاء ارادة الشعب الذى لا يعترف لاحد بزعامته سوى عرابى ، فرضخ لهذه المشيئة واصدر امرا الى عرابى يقول فيه : « ولو انكم استعفيتم ضمن هيئة النظار التى استعفت ، ولكن مراعاة لحفظ الراحة والامن استصوبنا بقاءكم على نظارة الجهادية والبحرية » .

وبذلك صار عرابى الحاكم الفعلى والزعيم الاوحد لمصر ،واصبحت سيادة الخديو حبرا على ورق .

***

والآن ماهو موقف تركيا لحماية « عبيد بابنا العالى » ــ كما كان يحلو للسلطان ان يصف المصريين فى المكاتبات الرسمية ــ من عسف الدول الاوربية وتدخلها فى شئون مصر ؟

لا ننسى انه كان على رأس الدولة العلية حاكم مستبد غاشم هو السلطان عبد الحميد ، اتبع سياسة التنكيل بالاحرار وواد الحريات العامة ، ومحاربة فكرة الدستور ومناهضة الحركات القومية فى البلاد العربية . وكان عبد الحميد ينظر بعين الريبة الى منح اية ولاية عثمانية حياة نيابية على حين ان تركيا نفسها لا يوجد بها دستور او برلمان . وكذلك كان السلطان يعمد الى قتل الشعور القومى الذى ازدهر على ضفاف النيل حتى لا تقوى شوكة الفلاحين ضد الاتراك .

ازعجت حركة مصر القومية دوائر الباب العالى ، وعبر حمدى باشا « كبير امناء الحضرة العلية » فى برقيته المؤرخة الى مصر فى ٦ اكتوبر عن هذا القلق بقوله : بما ان جلالة السلطان يهمه قبل كل شىء القضاء على اسباب الشغب والفتن التى تثار فى مصر منذ فترة غير قليلة ، وكذلك يهمه اعادة الامن الى نصابه وتامين سبل التجارة

وتسهيلها بكل وسيلة فان جلالته ينتظر بفروغ الصبر الوصول الى هذه النتيجة » .

وكان السلطان يخشى من ناحية اخرى ان يجاهر الشعب المصرى بالعداء ومحاربة زعمائه ، خصوصا انه خليفة المسلمين ، فقرر فى مستهل اكتوبر ١٨٨١ ايفاد بعثة رسمية من رجاله الى مصر برياسة على نظامى باشا احد رجال العسكرية القدامى وعضوية على فؤاد بك احد اعضاء شورى الدولة وصفر افندى ، وقدرى بك ، وسيف الله افندى من ياوران السلطان .

وكانت هذه البعثة بمثابة لجنة تحقيق عليها ، لاستجواب الخديو عن :

١ بواعث الثورة .

٢ ـ التدخل الاجنبى فى شئون مصر .

٣ ـ حمل الخديو على الذهاب الى استامبول لتقديم فروض الولاء السلطان .

٤ ـ تعيين مندوب رسمى للخديو فى استامبول لابلاغ السلطان اولا باول عن تطور الاحداث فى مصر وتلقى التوجيهات عنها .

٥ ـ اسباب منح الشعب المصرى الدستور مع ان هذه حقوق يملكها السلطان وحده .

٦ ـ الاصلاحات العسكرية وطلب زيادة عدد قوات الجيش المصرى مما يعد خروجا على الفرمان الشاهانى .

٧ ـ استجواب رئيس الوزارة محمد شريف عن حقيقة بعث الفكرة القومية وقيام دولة عربية فى مصر .

٨ ـ الاتصال بقادة الثورة والعلماء والاعيان للوقوف على ميولهم وتزويدهم بالنصائح وتقوية الوشائج بالخلافة الاسلامية .

والواقع انه لم يسبق للذين ندبوا فى مهام رسمية من قبل الدولة العلية ان تمكنوا من الاختلاط بطوائف الشعب او اتصلوا بالعلماء اتصالا مباشرا . ولذلك تعد بعثة نظامى حدثا فى تاريخ العلاقات الرسمية بين الدولة العلية ومصر ، وقد اخذت بريطانيا وفرنسا تضغطان على الباب العالى طالبتين استرجاع هذه البعثة من مصر على جناح السرعة ، والا فانهما ستضطران الى ارسال قطع من اسطوليهما الى المياه المصرية بحجة المحافظة على حقوق رعاياهما ، وفعلا اوفدت الحكومة الفرنسية سفينة حربية الى الاسكندرية ،

وكانت انجلترا والنمسا وايطاليا على وشك ارسال سفن اخرى ، لولا وصول برقية من المابين الى نظامى باشا فى ١٦ اكتوبر تقول : « اقتضت الارادة السنية التعجيل بالعودة الى استامبول ، لان فرنسا وبرطانيا تلحان تحت الضغط والتضييق بضرورة استرجاعكم » .

وصلت بعثة نظامى باشا الى الاسكندرية فى ٦ اكتوبر ١٨٨١ على ظهر اليخت « طليعت » دون ان يكون لدى الحكومة المصرية اية فكرة عن اسباب ايفادها ، واعد قصر النزهة فى حى شبرا لاستضافة اعضائها (١) .

وفى منتصف الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى قابل اعضاء البعثة الخديو فى قصر الاسماعيلية ، وعندما افضوا اليه بدوام العطف الشاهانى عليه ، نهض الخديو تعظيما لمقام السلطان وادى واجب الشكر وفروض الولاء . ثم قدموا اليه خطاب الصدارة العظمى المتضمن شرح مهمة الوفد الشاهانى ، وهكذا جرت المقابلة فى اطار من الحفاوة والتكريم .

وشرع على نظامى باشا فى المحادثات فقال :

ـ ان من اهم المسائل التى تمس وتضر بمصالح مصر والدولة العلية هى مسألتا تدخل الاجانب فى شئون مصر لتوسيع نطاق احتلالهم لها ، وخلق مسألة مضرة كبعث الفكرة القومية بين طوائف الشعب ، وان الطريقة المثلى للوصول بسفينة البلاد الى بر السلامة والنجاة هى فى العمل على تقوية جانب السلطنة السنية وجعلها دائما عزيزة الجانب ، مرهوبة القوى .

فاجاب الخديو بانه لا ينطوى على ادنى فتور فى ابراز الولاء والصداقة لولى نعمتنا مولانا السلطان ، كما اعرب عن عجزه وتقصيره

---

(١) هذه الحقائق تذاع لاول مرة ، وقد استقيناها من المحفوظات الرسمية وبرقيات الشفرة المتبادلة بين المابين الهمايونى ورئيس البعثة الشاهانية الى مصر .

فى ايفاء واجب الشكر على الثقة الغالية التى يبديها جلالة السلطان نحوه ، وان لا طريق امامه فى هذا الشأن سوى الاعتراف بالعجز والتقصير .

وعند ذلك قال نظامى باشا :

اذن يجب على جنابكم العالى ازاء هذه النعم الشاهانية ان تسلكوا الطريق التى تتفق والرضاء السلطانى فقط .

فأعرب الخديو عن شدة ولائه واخلاصه للسلطان وختم حديثه بانه ليس له على كل حال ملجأ وسند سوى ظل الحضرة السلطانية .

وهنا دخل نظامى باشا فى لب الموضوع فقال :

ـ بما ان ثقة مولانا السلطان واعتماده على الخديو لا تتزعزع فليس من شك فى ان السلطان يهمه كل الاهتمام العمل على المحافظة على حقوق الخديو من كل الوجوه ، وعلى هذا تتلخص مهمتنا فى تحقيق بواعث وعوامل « الحادثة المصرية » التى اجترا المشاغبون على اقترافها ، وفى الاطلاع على كنهها وحقيقتها . وهذا لايتم الا بالمحافظة على الاستاتوقو « مركز مصر القانونى » وبتمكين الخديو من القيام بأعباء الحكم فى امانة وراحة بال ، والا فليس الغرض من التحقيقات المطلوب اجراؤها ، الحط من كرامة الخديو باى وجه من الوجوه ، بل ان من واجباتنا الاساسية القيام بتلك التحقيقات بكيفية تعلى من شأن الخديو وترفع من قدرة السامى . فلذا نرى ان اقدام سموه على العمل على تسهيل مهمتنا وتعضيدنا فى هذا الشأن مما يؤدى ولا شك الى انجاز المهمة على خير وجه ، ويتفق مع المصلحة العامة .

فأجاب الخديو :

ـ انه بفضل الحضرة السلطانية تجرى الامور فى مصر على خير مايرام ، وان الجيش الآن فى غاية الطاعة والولاء ، والقائمون بالفتنة اقسموا على أن يكون مطيعين للاوامر والا يكرروا الحركات السابقة، كما ان رئيس الوزارة محمد شريف باشا يتمتع بثقتى وثقة الشعب، وانه محترم من الجميع ، وقد أصدرت أخيرا قرارا بدعوة مجلس النواب الذى من اختصاصه النظر فى المشروعات العامة التى تعود منها فوائد جمة على البلاد ، الى الاجتماع فى هذه الايام لاستئناف اعماله ، وهذا المجلس كان معطلا منذ خمس سنوات .

وقال نظامى باشا :

ـ لا حظنا ان الخديو يعتمد ويتكل كثيرا على الاجانب ، ونحن نرجو الا يتخذهم بمثابة مستشارين امناء له ، ولكن فى وسعه ان يجاربهم وبصانعهم على شرط الا يؤدى ذلك الى الاضرار بمصالح العالم الاسلامى ولا سيما مصلحة الدولةالعثمانية والاسرةالخديوية. هذا ما تقضى به قواعد الحكم السليم . كما ان من البديهى ان يعمل سموه من جانبه على وجوب حصر وتحديد تدخل الاجانب والمزايا التى حصلوا عليها لغاية الآن .

فأمن الخديو على هذا الراى وزاد على ذلك قوله :

ـ ان الطريق التى اسلكها فى الادارة مبنية على هذا الاساس ، وان اكثر الانباء القائلة باتساع رقعة النفوذ الاجنبى فى الشئون المصرية غير مطابق للواقع ، وانها اثر من آثار الدعايات المغرضة ، على ان اسباب وكيفية التدخل فى الامور المالية والقضائية لمصر ، معروفة وغير خافية على احد ، فكل ما هنالك هو انه اذا اقتضت المصلحة استخدام اجانب فى مصر فلا يكون هؤلاء الاجانب الا من قبيل العمال والموظفين مثل المدرسين والمهندسين الذين لا تنكر حاجتنا اليهم ، الى ان نحصل على التقدم المطلوب للبلاد .

وساله رئيس الوفد العثمانى عن مسألة بعث الفكرة القومية ، فأجاب :

ـ ان هذه الفكرة ليست موجودة بين افراد الشعب جميعا ، وكل ما يذاع من الانباء عبارة عن دعايات مغرضة تنشرها صحف الاخبار والحوادث ، فلذا لا ينبغى الالتفات اليها ولاتعليق ادنى اهميةعليها. على ان هذه الفكرة لايروج لها احد سوى انصار حليم باشا فى الصحيفة المعهودة التى تصدر بباريس ، فتدخل مصر خلسةوتوزع بالمجان على ضباط وجنود الجيش .

وهنا قال نظامى باشا :

ـ ان ضرر هذه الجرائد التى تتمتع بقسط وافر من الحرية من الحكومة المصرية لا يخفى على احد . فكان الواجب على الحكومة اذن عدم اطلاق الحرية لهاته الجرائد ، ومنع الصحف الاخرى من الدخول الى مصر ، واتخاذ اجراءات فعالة ضدها .

فقال الخديو :

ـ ان حكومتى شارعة فى اتخاذ التدابير الفعالة نحو هذا الامر . الامر .

وسأله نظامى باشا :

ــ بما أن اعادة فتح مجلس النواب فى هذه الايام ، بعد ان ظل معطلا خمس سنوات ، قد يؤدى الى تشجيع اصحاب الافكار الضارة وتقوية نفوذهم ، فلذا كان من الواجب التروى وعدم الاستعجال فى هذه المسالة لاسيما ان مطالب العسكريين كانت عبارة عن ثلاث مسائل : تغيير هيئة الوزارة . منح الدستور . اجراء تعديل فى الجيش . فالطلب الاول أجيب فى الحال . والثالث نفذ أخيرا . اما الدستور فتقرر منحه باعادة فتح مجلس النواب . فهلا يستنتج من هذا كله ان المطالب كلها قد اجيبت تحت الضغط العسكرى وثورة الجيش ، لاسيما تفسير الدستور بمجلس النواب؟ وهل لا يكون ذلك من اسباب طغيان الثوار وطمعهم فى المستقبل طمعا كبيرا ؟

فأجاب الخديو بانه واثق بشريف باشا المعين لرياسة الوزارة ، وان سلطة هذا المجلس لا تتعدى النظر فى المشروعات والاشغال العامة .

ولما سئل الخديو عن استخدام ضباط اجانب فى الادارةالعسكرية، اجاب : بانه لا نصيب لهذا القول من الصحة ، وكل ما هنالك انه اذا اقتضت الحال باستخدام ضباط اجانبفى الجيش فانهميستخدمون فى وظائف التعليم والتدريب ، وليس فى الادارة العسكرية او القيادة، الامر الذى لا يحبذهقط ،وزاد علىهذاالتاكيد بانه لميستقدمضباط اجانب منذ فترة بعيدة .

وبعد الظهر رد الخديو الزيارة لاعضاء الوفد فى قصر النزهة واستؤنف التحقيق معه ، فأجاب على سؤال خاص بالدستور ، بأن مجلس النواب أن هو الا مجلس ايالة عادى ليس له سلطة على المسائل السياسية ، واعترف بأن منح الدستور من حقوق السلطان فليس له ان يتعداها قط ، وانه متعلق بالحضرة السلطانية بكل قواه ويرى نجاته ونجاحه فى هذا التعلق والارتباط ، ثم كرر شكره على العطف السامى عليه .

وأجاب الخديو ردا على سؤال آخر بقوله : ان النظام الجارى

وضعه الآن لا ينطبق على اى نظام عسكرى لدولة ما معينـــة ، بل هو مقتبس من انظمة عسكرية شتى ، وقد لوحظ فيه مزاج وبيئة الاحوال فى مصر . ثم ان الحزب العسكرى ـ نظرا لعدم وجود نظام يحفظ حقوق الضباط فى المرتبات والترقيات والمعاش مما اقلق بالهم وجعلهم يثورون لاسيما بعد ان شاعت فى مصر الانباء بالغاء الجيش المصرى وكان لها صدى فى البرلمان البريطانى ـ قد تجاوز حدوده ، بداعى تامين معيشة ضباط وافراد الجيش ازاء هـــذه الظروف العصيبة والهواجس المحدقة بهم ، الا اننـــا لم نر من المستحسن استعمـــال الشـــدة معهم لئـــلا يتفاقم الشر ، وقد كانت المسالة متعلقة بجميع طبقات الجيش ، وكان الغرض الوحيد الذى نـــرمى اليه هو تهدئة الحالة وارجاع الهيبة للحكومة ، واعادة الامـــور الى مجاريها . وعلى هذا الاساس بادرنا بالاتفاق مـــع رئيس الوزارة شريف باشا الى العمل على تحقيق هذا الغرض ، فاعيد الامن الى نصابه ووضعت الانظمة التى تكفل ادارة الجيش وضبطه ، وصـــار الشروع فى اتخاذ التدابير اللازمة لعدم تكرار مثل هذه الحوادث من العسكريين . . . وصفوة القول ، ان الامن مستتب الآن ، وانه ليس هناك بفضل الحضرة السلطانية ما يقلق البال او يخشى منه .

واستدعت البعثة رئيس الوزارة محمد شريف للمثول امامهـــا فى قصر النزهة ، فلبى الدعوة فى صباح ١٠ اكتوبر ودارت بينهـــا وبينه احاديث كثيرة حتى وصل الحديث الى عـــلاقة مصر بالدولة العلية ، فقال نظامى باشا :

ـ ان حقوق الدولة العلية ومصالحها فى مصر ليست مادية فقط ، بل ان هناك حقوقا معنوية وروحية ايضا ، اذ ان مصر جزء من كيان الدولة ، فلا يسع الدولة العلية الا الاهتمام بهذا القطر على كل حال وفى اى وقت ، ولا يمكن ان تكون بمعزل عن الحوادث الجارية فى مصر ، وليس لمصر طريق نجاة وسلامة سوى الابقاء على تابعيتها للدولة العلية ، اعنى المحافظـــة على مركزها الحالى ، وهذا بديهى . وبما ان من المسلم به ان كلا من الخديو ودولتكم لا يضمر للدولة العلية سوى الاخـــلاص والولاء والعمل على تقوية الاواصر الموجودة وتوكيدها ، فلا شـــك فى ان الطريق الادارى وسبيل الاصلاح الذى اتخذته لابد ان يكون مبنيـــا

على هذا الاساس وقائما على هذه العقيدة ، وان التدخل الاجنبى وما يتردد صداه من المحاولة لانشاء حكومة عربية قد اقلق بال جميع المسلمين ، واصبح بمثابة سم ناقع لهم .

واجاب شريف على ذلك بقوله :

ـ ان انشاء حكومة عربية لا نصيب له من الصحة ، وليس له اصل ، فسكان مصر كافة على اختلاف طبقاتهم وميولهم لا تراودهم مثل هذه الافكار ، وهم لا ينشدون بديلا عن حماية السلطان صاحب الخلافة الاسلامية ومن تابعيتهم للدولة العثمانية ، ويعدون ذلك طريقا وحيدا للنجاة والنجاح .

واردف الى ذلك قوله :

ـ ان مبداى فى الادارة والسياسة مبنى على هذا الاساس القويم وتلك هى الطريقة المثلى .

ثم اقسم بدينه وشرفه على انه لا يعتنق من المبادىء والنزعات السياسية غير ما سبق شرحه . وبعد ذلك قال :

ـ ان اخطاء سلفه رياض باشا الادارية واغلاطه السياسية الكبيرة هى التى ادت الى حدوث هذه الاحوال المؤلمة ، ولولا اننى تمكنت من اخضاع الجند لاوامر الحكومة وحملهم على الطاعة والامتثال ، بفضل تفاهمى مع عمد البلاد ومشايخها باشعارهم بأن الحالة جد خطيرة ، لدرجة انها ستؤدى الى وقوع الكارثة وانطباق وصف خيانة الدين والدولة ، لولا هذا لكانت الحكومة فى مصر الآن فى فوضى لاقرار لها ، واننى بانقاذى مصر على هذه الصورة ، وتخليصها من الورطة ، قد خدمت السلطنة السنية ايضا واستطعت اعلان شعائر ولائى للخلافة الاسلامية .

فقال له نظامى باشا :

ـ نحن نقدر خدمتك هذه الجليلة ونشكرك عليها شكرا جزيلا . مع ابداء اسفنا على عدم توفيق الخديو فى اتخاذ مشير صادق ووزير حاذق كدولتكم قبل الآن بمدة .

وجرى الحديث الى ذكر حليم باشا فقال محمد شريف :

ـ ليس له اية قوة او اهمية او انصار واتباع فى مصر ، بدليل الاحوال والقرائن ، وان حادث المظاهرة العسكرية كان وليد اخطاء ادارية

فلا يمكن اذن الاعتقاد بأن لحليم باشا دخلا فى هذا الموضوع او له علم به .

وسئل محمد شريف عن مسألة الاصلاح والتعديل فى الجيش ، فطلب اعطاءه نسخه من قانون الاصلاح العسكرى الشاهانى للاجابة على ضوء المواد الواردة فيه .

ولما كانت التعليمات التى يحملها الوفد العثمانى ترمى الى الاتصال بقواد الجيش وضباطه والوجوه والعلماء وافراد الشعب اتصالا مباشرا للتحقق من نواياهم وأسداء النصائح لهم مخافة انقطاع الصلة بينهم وبين الخلافة ، فقد بادر اعضاء الوفد بمقابلة الخديو وبعد ان عرضوا عليه هذا الجانب من مهمتهم . ساورته الظنون وانتابه القلق ثم قال :

ــ بما اننا جميعا موجودون فى هذه القاعة فيقتضى ان نتداول فى الامر ونبدى آراءنا فى جلاء واخلاص ... ان اعتراضى الوحيد ان هذا الاتصال قد يؤدى مرة اخرى الى تكدر الاحوال التى اخذت تهدأ وتسكن بوساطة رجالى ، وربما يفضى هذا الاتصال الى تجدد الفتنة والاضطراب .

فقال نظامى باشا :

ــ ان الغرض الرئيسى من مهمتنا هو السعى الى المحافظة على مركز الخديو فى نظر الشعب ، وعدم تعريض مركز مصر القانونى للخطر ، او انتقاص الحقوق التى تضمنتها هاتان النقطتان . وحيث ان اغفال هذا الجانب من مهمتنا يستلزم مسئوليتنا وتعرضنا للمؤاخذة امام دولتنا العلية ، وفضلا عن انه قد يفضى الى تزعزع الثقة السنية بموقف سموه الذى اكد اخلاصه وولاءه مرارا للحضرة السلطانية ، لاسيما ان النصائح والوصايا التى سنسديها للضباط والعلماء مما يستلزم بقاء الخديوية سالمة وبعيدة عن العواصف الى ما شاء الله .

وعند ذلك اطمأن روع الخديو وصرح لاعضاء الوفد بلقاء القواد العسكريين ورجال الدين وتزويدهم بالنصائح وتوزيع الهدايا السنية والنياشين عليهم .

وعقد الوفد جلسة اخرى مع الخديو فى ١١ اكتوبر وجرى الحديث فيها حول توقع حصول شغب او فتن فى المستقبل ،واعطاء الدولة تامينات كافية فى هذا الشان ، ووجوب ندب واحد من رجال الخديو الموثوق بهم للسفر الى استامبول ، ولو بصفة غير رسمية. فاعترض الخديو على ذلك بان سفر المندوب سيؤل تاويلات سيئة من قبل المفسدين واصحاب الاغراض والغايات ، فتتولد منها اراجيف وشائعات متناثرة .

وساله على نظامى باشا :

ـ بما ان الامن استتب الآن فى مصر تماما ، فان الارادة السلطانية السنية تسمح وتاذن لسموكم بالقيام الى استامبول لتقديم فروض الولاء والاخلاص لجلالة امير المؤمنين والتشرف بعتباته السامية .
فاجاب الخديو :

ـ ان من واجبى المقدس ان اقوم بنفسى بالتشرف بعتبات جلالة ولى نعمتنا السلطان الاعظم ، الا انه نظرا لسوء الظروف المالية التى تمر بها مصر وتوالى الاحداث يوما بعد يوم ، فاننى قوى الامل للقيام بهذا الواجب المقدس قريبا .

وطلب المابين الهمايونى الى الوفد ابداء الراى فيما اذا كان من المناسب الانعام على الخديو وعلى شريف باشا بنياشين ، فرد نظامى باشا فى ٢٨ ايلول ١٢٩٧ « ١١ اكتوبر ١٨٨١ » يقول :

بما ان سموه يحمل الآن المرصع من كل من النيشان العثمانى والمجيدى فان الاقتراح العالى بالانعام على سموه نظرا لما ابداه من التعلق بالذات الشاهانية وبنعمة الاخلاص والولاء ، يستلزم ولاشك توثيق الروابط القلبية اكثر من ذى قبل ، فالامر بمنح سموه نيشانا عاليا يتفق ومكانته السامية منوط على كل حال بالارادة السلطانية ، كما ان الانعام على ناظر الجهادية بالطبقة الاولى من نيشان المجيدى لانه حامل الطبقة الثانية منه ، وعلى كل من خيرى باشا المهردار وقاسم باشا قومندان البحرية بالطبقة الثانية من النيشان العثمانى متوقف على موافقة الحضرة السلطانية .

وقد تمت مسألة التعديل والاصلاح العسكرى ، ووضعت لائحة عسكرية معدلة بقدر ما سمحت به احكام الفرمان الاخير الصادر للخديوية ، الا ان هذه اللائحة لم توافق عليها الادارة المالية فبقيت على حالها دون تنفيذ ، وكل ما امكن تنفيذه هو وضع قانون بمخصصات افراد الوحدات العسكرية وطرق ترقيتهم وكيفية احالتهم الى المعاش ، وبلغ عدد القوات العسكرية المصرية ١١٠٠٠ جندى .

وفى صباح ١١ اكتوبر توجه اعضاء الوفد الى ديوان وزارة الحربية فى قصر النيل فحيتهم كتيبتان التحية العسكرية وتقدم محمود سامى البارودى وطائفة من الضباط العظام ورحبوا بوفادة اعضاء الوفد ، وبعد ان استقر المقام بهم فى القاعة الكبرى ، خطب فيهم على نظامى باشا فقال :

« نشكر لزملائنا الجنود المصرية الشاهانية حفاوتهم وحسن وفادتهم بنا ، وانا لمسرورون من حسن اهتمام الخديو بقضية الامن والسلام بين صفوف الجيش وطبقات الشعب ، واظهاره الحرص الشديد فى ذلك .

وبما ان اخلاص جنابه العالى واعضاء حكومته لشخص الحضرة السلطانية وولاءهم الشديد لمقام الخلافة الاسلامية فى غاية الصدق والكمال ، فاننا بدورنا نزف البشرى بأن عطف جلالة السلطان على سمو الخديوى ، والتفاته السامى اليه لا يقل ايضا عن اعضاء حكومته .

وانتم تعلمون جميعا ان سمو الخديو نائب عن جلالة السلطان فى مصر ووكيل عنه ، فالطاعة لسموه طاعة لمولانا السلطان بعينها ، تلك الطاعة التى هى فرض وواجب علينا جميعا لاسيما الجنود ورجال العسكرية ، اذ نحن العسكريين عندما تحلينا بالشارات والعلامات العسكرية ، قد تحلينا بشىء آخر اهم من ذلك وهو قميص الطاعة والانقياد العسكرى الذى يعبر عنه بكلمة « ديسبلين » ؛ فبدون هذا لاينال المرء اسم هؤلاء الجنود الاشراف او ما يعرف « بالشرف العسكرى » . وليس من شك فى ان دولاب الادارة المصرية لايمكن ان يدور بنظام حسب الرغبة الشاهانية الا بأن تقوم العسكرية بواجب الطاعة والانقياد .

وحيث اننى فرد من افراد هذه الاسرة العالية التى يطلق عليها اسم « الجند » منذ اربعين سنة خلت ، فقد نلت شرف الوالد ومقامه فى هذه الاسرة ، والآن بهذه الصفة اقدم اليكم هذه النصيحة الابوية وارجو قبولها منى » .

وعند ذلك نهض الاميرالاى طلبه عصمت بك واقسم بالله انهم لا يضمرون لجلالة السلطان سوى الاخلاص والولاء ، وانهم لم يخلوا فى اى وقت من الاوقات بهذا الاخلاص ، على الرغم من انهم اضطروا فيما مضى بتأثير الصلابة العسكرية والظروف الحرجة التى احاطت بهم الى ان يقوموا ببعض الانتفاضات . وقدآلينا على انفسنا بالا نعود الى مثل هذه الاحوال بل اننا مستعدون دائما لاراقة آخر قطرة من دمائنا فى سبيل الحضرة السلطانية .

وبعد ظهر ذلك اليوم جاء الى قصر النزهةوفد من العلماءوالاعيان وعلى راسه شيخ الجامع الازهر ونقيب الاشراف ، وخطب فيهم على نظامى باشا بقوله :

« نحن لا نشك مطلقا فى ان كل واحد منكم يدعو لمولانا صاحب الخلافة الاسلامية بالبقاء والتأييد ، وانكم متجهون دائما نحو تحقيق نخبة الآمال والامانى الاسلامية المنشودة التى هى عبارة عن بقاء مصر فى ظل التابعية الاسلامية الى الابد ومتمتعة بالرخاء والامن والسعادة . وحيث انكم تعلمون اكثر من غيركم وجوب الخضوع والطاعة لمقام الخلافة وجوبا شرعيا ودنيا ، فلا حاجة بى الى ايراد المقال فى هذا الشان ، وبما ان السلطنة السنية هى بمثابة القلب للاسلام فان الطريق الوحيد لنجاة مصر هو فى الابقاء على الروابط التى تربطها بالدولة العلية ، وفى اجتناب الاعمال والتصرفات التى تؤدى الى قطع تلك الاواصر ، ولا شك فى انكم تقدرون اهمية الروابط لاسيما فى هذه الآونة ، وحيث ان سمو الخديو يعمل على توثيق هذه الاواصر وتوكيدها ، مما اوجب سرور جلالته سرورا لا مزيد عليه ؛ فالمأمول منكم الاخلاص للخديو وطاعة اوامره وتعضيده ماديا وادبيا فى جميع الاعمال والتصرفات ، وبما اننا متأكدون انكم قائمون آناء الليل واطراف النهار بالدعاء الى الله العلى القدير ، ببقاء ولى نعمتنا الاعظم فلا نرى لزوما لطلب ذلك منكم » .

وفى مساء ١٣ اكتوبر اقام الخديو حفلة ساهرة فى سراى الجزيرة

تكريما لاعضاء الوفد العثمانى ، وفى اثناء الحفلة اقترب مستر مالت قنصل انجلترا من على نظامى باشا ، فاخذ يصطنع الرقة والبشاشة، ثم سال عن صحة السلطان معربا عن تمنياته الخاصة ، الى ان قال :

ـ ان امل بريطانيا الوحيدفى مصرهو المحافظة عليهافى نطاق احكام الفرمان المبين مركزمصر الدولى وكذلك على تجارةمصر ورفاهيتها العامة واستتباب الامن فيها بصورة دائمة ، وبما ان نفوذ السلطان وشأنه فى مصر عظيم جدا ، فقد احدثت ماموريتكم تأثيرا طيبا فى مختلف الاوساط ، وارجو الا تعلقوا اهمية قصوى على السفن الحربيةالتى تفد بين حين وآخر من بريطانيا على ميناء الاسكندرية لان وجودها من قبيل المجاملات فقط .

وقد قابل اعضاء الوفد هذه التصريحات والتلميحات بالتحفظ .

وانتهت مهمة الوفد بعد ان قضى فى مصر ١٢ يوما وفى صباح ١٩ اكتوبر ابحر من الاسكندرية على ظهر اليخت « طليعت » عائدا الى تركيا ، وكان من نتيجة هذه الزيارة ان اوفد الخديو محمد ثابت باشا الى استامبول كمندوب عنه ، دون ان تكون له صفة رسمية . ليتلقى انباء مصر وتطور الحوادث ورفعها الى دوائر المابين والباب العالى وتلقى توجيهات السلطان وابلاغها الى الخديو .

وانعم على شريف باشا بمرصع النيشان العثمانى ، وعلى الخديو بنيشان الامتياز ، وكان الباب العالى يلح على الخديو بضرورة سفره الى استامبول للتشرف بمقابلة السلطان وتسلم النيشان من يده ، واما بقية النياشين فتقرر ارسالها الى مصرعن طريق القبوكتخدائية .

***

لم يحاول الوفد لعثمانى ابان اقامته فى مصر ان يتصل بعرابى زعيم الثورة ، وكانت هذه كياسة من رئيسه على نظامى باشا حتى لا يحرج مركز الخديو ، ولكن عرابى من ناحية اخرى كان على اتصال خفى بالسلطان ، وقد بدات هذه الصلة عندما لقى عرابى مصادفة احمد راتب باشا احد رجال المابين فى محطة الزقازيق وكان الباشا فى طريقه الى السويس ليبحر منها الى الحجاز ،فجرى بينهما حديث فى مركبة القطار تناول الاحوال الحاضرة فى مصر ، وكان خصوم الثورة قد صوروا للسلطان ان قادة الثورة وزعماء الحزب الوطنى بسبيل انشاء امبراطورية عربية ونقل الخلافة اليها ،

فنفى عرابى هذه الفكرة نفيا قاطعا ورجا راتب باشا ان يصحح هذا الوضع للسلطان .

وفى راس الوادى حيث كان مقر قيادة عرابى ، حضر الضباط والجنود الى المحطة وادوا التحية العسكرية لراتب باشا .

ولما اتصل بالسلطان نبأ هذه المقابلة كان لها وقع طيب فى نفسه ، فطلب الى الشيخ ظافر ، احد رجال الدين المقربين اليه ، ان يتصل بعرابى عن طريق احد قباطنة البواخر المصرية ، وكتب الشيخ ظافر الى عرابى يقول : ان السلطان ينشد الرجل الصالح الذى يدافع عن وطنه بأى ثمن ضد المطامع الاجنبية ، والا كان نصيب مصر ماحل بتونس من احتلال ، وان السلطان لا يهمه اسماعيل او حليم او توفيق بل يعنيه الرجل الذى يفكر فى مستقبل مصر .

وكذلك كان احمد اسعد ، وكيل الفراشة النبوية والنائب فيها عن السلطان على اتصال بعرابى والبارودى ، ويتضح من المراسلات التى تبودلت بينه وبينهما فى بداية عام ١٨٨٢ انه كان يقوم بدور الوسيط بين السلطان وبين قادة الثورة و « من اللازم الاهتمام باتحاد المسلمين والمحافظة على الامن والسعى الى الوفاق وعدم وقوع الشقاق بيننا بسبب الجنسية مادامت تجمعنا كلنا كلمة التوحيد » .

***

لم يكد الباب العالى يتصل به نبأ وصول الاسطول المشترك الى شواطىء الاسكندرية حتى ابرق الى الخديو فى ٢٧ مايو يسأله بان مبعوثا من لدن السلطان سيفد الى مصر اذا تلقى الباب العالى طلبا رسميا بذلك . فاجتمع الخديو بممثلى انجلترا وفرنسا وطلب اليهما الوقوف على راى حكومتيهما فى هذا الشان ، فكان من راى فرنسا انها لا تعارض فى قدوم المبعوث على ان تكون مهمته محدودة ومراقبته منوطة بهما .

وفى ٢ يونيو ابرق الباب العالى الى الخديو ينبئه بقرب سفر وفد شاهانى برياسة المشير مصطفى درويش باشا وعضوية لبيب افندى الرئيس الثانى بدائرة محكمة التمييز الجزائية ، وقدرى بك الكاتب الثانى وحامل الرتبة الاولى ، واحمد اسعد افندى ، على ظهر اليخت

« عز الدين » ، وطلب الباب العالى الا تخصص لنزول اعضاء الوفد اماكن حكومية بل يشرع فى اعداد مكان لهم تتوفر فيه وسائل الاقامة ويكون ايجاره على نفقة الجيب السلطانى .

وقد ساور القلق نفس الخديو من الفقرة الاخيرة من برقية الباب العالى فرد عليه يقول : ان من العادات القديمة الجارية استضافة جميع مندوبى الدولة الى مصر ، وان اقامة الوفد فى القصور المستاجرة ستحدث اثرا سيئا وتشجع طائفة الثوار تشجيعا كبيرا وتلقى اليأس فى قلوب اهل الشرف ، الثابتين على المبدا ، لذلك ترجو موافقة ولى النعم على اقامة درويش باشا ومن فى معيته فى احد القصور الاميرية » .

وصل الوفد الى الاسكندرية فى ٧ يونيو واوفد الخديو كبار رجال الحاشية لاستقباله ، واصدر تعليمات بان يحول بين اعضاء الوفد وبين اتصالهم بزعماء الثورة ، بيد ان عرابى بادر بان اوفد يعقوب سامى وكيل وزارة الحربية لاستقبال الوفد ، وان يشرح لاعضائه اسباب الخلاف بين القصر والحكومة ، ورحب درويش باشا بمندوب عرابى واستصحبه معه فى القطار من الاسكندرية الى القاهرة ووقف منه على اسرار زعم بأن الباب العالى كان يجهلها .

نزل اعضاء الوفد فى سراى راس التين للراحة ، وفى طريقهم من السراى الى المحطة كانت الشوارع غاصة بالالوف وهم يهتفون «اللايحة مرفوضة — اى — المذكرة المشتركة » . ابعدوا اساطيل الكفار .

وحيا المصريون اعضاء الوفد فى المحطات التى وقف القطار بها ، مما جعل درويش باشا يظهر دهشته من قوة الراى العام ، ورأى مصر اليوم غيرها بالامس بعد ان خلعت عن عنقها سلاسل العبودية .

نزل اعضاء الوفد ضيوفا على الحكومة فى سراى الجزيرة ، ثم توجهوا الى قصر الاسماعيلية لمقابلة الخديو ، فأخذ يعاتب المبعوث على استقباله وحفاوته بمندوب عرابى وساله عما اذا كانت مهمته تنحصر فى تنفيذ ارادة السلطان او تشجيع الخارجين على القانون ؟

وفى اليوم التالى زار مالت الخديو ، فقد كان متلهفا على الاستفسار منه عن نتيجة المقابلة التى جرت بينه وبين المبعوث السلطانى ، فاظهر له الخديو عدم ارتياحه الى المسلك الذى سلكه المبعوث من ترحيبه بمندوب عرابى .

وعاد المبعوث الى مقابلة الخديو مرة ثانية واستمرت هذه المقابلة طويلا جرى فيها الحديث حول تقريب وجهات النظر بين القصر والجيش ، وقال الخديو لرجال الحاشية معقبا : اذا اقتضى الحال، فسأتولى قيادة الجيش بنفسى لاخضاع الثوار .

وزار ممثلا بريطانيا وفرنسا درويش باشا ، وسألاه العمل على تأييد سلطة الخديو ، فأجابهما بانه منذ وطئت قدماه ارض مصر فان الخطر على حياة الخديو قد زال ، وانه عند صدور اشارة منه تحضر فرقتان من الجيش العثمانى الى مصر .

وظهر فيما بعد ان مهمة المبعوث تنحصر فى : توطيد سلطة الخديو، والقبض على زعماء الثورة باستدراجهم لزيارة استامبول بحجة المثول بين يدى خليفة المسلمين ، وزيادة نفوذ الباب العالى ،والنظر فى ايفاد قوات عسكرية الى مصر لاقرار السيادة .

اما مهمة احمد اسعد نائب المبعوث فكانت تنحصر فى الافادة من الثورة لاستعادة نفوذ الخليفة فى مصر ، واسداء النصح للعلماء والاعيان على ما ابدوه من مظاهر الولاء لامير المؤمنين ، وابهام ضباط الجيش بان الباب العالى ليس فى نيته ارسال قوات عسكرية الى مصر .

اى ان سياسة « رجل اوربا المريض » التى حملها الوفد العثمانى كانت سياسة مزدوجة ، ذات وجهين ، فكان درويش باشا يزعم للخديو بانه مؤيد تأييدا مطلقا من قبل الباب العالى ، ثم يلتفت الى عرابى ويخاطبه بقوله : انت وحدك الآمر الناهى فى مصر .

وفى ١٠ يونيو التقى درويش باشا بعرابى والبارودى وبعض قادة الثورة وخاطبهم بقوله :

ـ نحن هنا أشبه باخوة ، واننا جميعا « عبيد السلطان » وهدفنا جميعا مقاومة الدخيل والعمل على ابعاد السفن الاجنبية لان فى وجودها اهانة للسلطان .

ثم اخذ يغرى عرابى باعتزال منصبه ويلوح له بضرورة مغادرته مصر مع اخوانه ، واخيرا التفت اليه وقال :

ـ مع كونك وزير الحربية فان فى قبضتك السلطات العليا جميعا

فرد عليه عرابى بما معناه : ان السلطات التى يلوح بها ليست سلطات مغتصبة بل ان الشعب هو الذى وثق به ومكنه منها ولذلك

فلن يقدم على خيانة الرسالة التى بين يديه .
واستطرد يقول : ان الممثلين السياسين للدول الاوربية يعاملوننا معاملة الخوارج مع انهم اجانب فى بلادنا ولا يحترمون لنا شيئا ، ونحن على استعداد للجهاد والتضحية ، واذا متنا جميعا فان الاجانب سوف يدخلون بلدا خربا ، وسيكون لنا مجد الاستشهاد فى سبيل وطننا .
وتوجه وفد من العلماء والنواب والاعيان لمقابلة درويش باشا ، وخطب الشيخ عليش احد رجال الازهر بقوله :
ــ ان الجيش المصرى خلص البلاد من الوقوع فى ايدى الكفار .

وبعد ان اثنى على قادة الثورة وصدق وطنيتهم ، عطف على الخديو فقال انه لايصح شرعا ان يكون حاكما لانه يبيع مصر للاجانب، وان مصر من اقصاها الى اقصاها تؤيد عرابى .
فاستاء درويش باشا من هذه اللهجة فى وصف الخديو ورد على الشيخ عليش ينهره بقوله :
ــ ماجئت لاصغى الى نصائحكم .
واتصل نبأ هذه الاهانة بطلبة الازهر فقاموا بمظاهرة احتجوا فيها على مسلك رئيس البعثة العثمانية بازاء العلماء وشيوخ الدين، ثم قدمت عشرات العرائض الى درويش باشا وقع عليها المئات من رجال الازهر والاعيان برفض المذكرة المشتركة واستنكار طلب ابعاد عرابى من مصر .
وطلب درويش باشا الى الباب العالى مائتى وسام لتوزيعها على الضباط العظام ومنها المجيدى الاول لعرابى ، دون ان يستشير فى ذلك الخديو ، ووصلت الاوسمة ومعها البراءات فى اول يوليو فقام المبعوث العثمانى بتوزيعها ، وانتهز هذه الفرصة للضغط على عرابى بضرورة شخوصه الى دار الخلافة لتقديم واجبات الشكر الى السلطان، ولكن عرابى فطن الى الفخ المنصوب له فيما لو وصل الى استامبول وهو القبض عليه وجعل جثته طعاما للاسماك فى البوسفور ، فاعتذر بلباقة وقال ان واجبه يقضى عليه فى الظروف الراهنة بعدم مغادرته مصر .
لم ينتج الوفد العثمانى اية ثمرة فى مصلحة البلاد ولم يحقق ولو مغنما ادبيا للدولة التى اوفدته ، بل عمل اعضاؤه على اغتنام الفرصة للكسب والاثراء والجرى وراء منفعتهم الشخصية .

واستطاع الخديو ان يتبع مع المشير درويش باشا ما كان يعمد اليه ابوه مع عالي باشا ومدحت باشا وفؤاد باشا وغيرهم من رجال الدولة اى رشوتهم بالمال ليغضوا الطرف عن مساوىء حكمه ، فاستمال الخديو درويش باشا اليه برشوة مقدارها خمسون الف جنيه ، عدا خمسة وعشرين الفا وزعها على ٥٨ شخصا من اعضاء الوفد ، وقدم اليهم حلي ومجوهرات ، وزود « المطبخ السلطانى » فى استامبول بالوف الاطنان من السكر المكرر والبطيخ والشمام ، وكانت هذه الرشاوى والهدايا ثمنا لبيع حرية الشعب المصرى .

وبعد احتلال الاسكندرية ادرك درويش باشا بان مهمته انتهت ، فغادرها فى ١٩ يوليو حاملا معه الرشاوى والهدايا التى غنمها من عرق وكد الشعب الذى خانه وخذله فى محنته ، واشيع فى دوائر الباب العالى بانه استدعى على عجل لانه لم يتصرف فى مأموريته طبق التعليمات الصادرة اليه ، ولانه قبل رشاوى من الخديو ، وسيقدم الى المحاكمة .

***

كان موقف التردد والجمود الذى وقفته تركيا من الخديو موضع دهشة واستنكار الدوائر العثمانية فى مصر ، ففى سبتمبر ١٨٨١ حث الخديو الباب العالى على اسعافه على جناح السرعة بقوة عسكرية مقدارها عشرون طابورا على ان تكون قيادتها العامة منوطة به ثم عاد وطلب صرف النظر عن ارسال القوة العسكرية ، ولكن الباب العالى رأى ايفاد بعثة برياسة نظامى باشا فى اكتوبر ١٨٨١ للتحقيق فى بواعث التذمر والثورة واستطاعت البعثة ان تقنع الباب العالى بأن الحالة فى مصر لا تدعو الى ارسال حملة عسكرية اليها ، ثم اوفدت بعثة درويش باشا فى ٧ يونيو ١٨٨٢ ولما شعر الباب العالى بأن البعثة اخفقت فى مسعاها كلف الغازى مختار باشا بالسفر الى مصر ، ونقلت امتعته فعلا الى الباخرة فى ٢١ يونيو ١٨٨٢ ولكن فى اللحظة الاخيرة صدر الامر بوقف السفر .

وقرر مؤتمر الاستانة بجلسته المنعقدة فى ٦ يوليو وجوب التدخل فى مصر لاخماد الثورة ، وان يعهد الى الدولة العلية بهذه المهمة وارسال قوة كافية من الجند الى مصر لاعادة الامن والنظام ، واشترط

المؤتمر ، ان يحترم الجيش الذى ترسله تركيا مركـز مصر الدولى والامتيازات التى نالتها بموجب الفرمانات والمعاهدات ، وان يعمـل على اخماد الثورة العسكرية واعادة السلطة الى الخديو ، وان تحدد اقامته بثلاثة اشهر على ان تتحمل مصر جميع نفقاته ، وان يعـين قواد الحملة بالاتفاق مع الخديو .

فاتخذت تركيا موقفا ملتويا ولم تشأ ان ترد على هذا القـرار ، واعتمدت فى رفضها على تقريرات مبعوثها الذى كان يزعم بأن الحالة مستتبة فى مصر وليس هناك مايدعو الى ارسال حملة عسكرية .

ثم كرر المؤتمر الدعوة عقب ضرب الاسكـندرية فوعـد وزير خارجية تركيا بارسال جنود الى مصر .

وفى ٢١ يوليو ابرق الخديو الى الباب العالى « بأن ترك الحـالة الراهنة الى القوات الاجنبية لتتولى معالجتها وتسويتها سيزيد فى اعتقاد الشعب اكثر فاكثر بان البلاد ستقع فى ايدى الاجانب . واذا كانت الارادة السنية اقتضت ارسال قوات عسكرية الى مصر فيجب ان تصل فى الحال ، فان مياه الفيضان اخذت فى الارتفاع منـذ ٣٥ يوما ، وبعد ١٥ يوما على الاكثر سيرتفع الفيضان ، فلو تأخر وصول القوات العسكرية لاصبح من الصعوبة ان تتحرك فى داخل البلاد ، اذ لو تدفقت مياه الفيضان من اى سد لغمرت الاراضى ومحت معالم الطرق وعاقت الحركات العسكرية .

« وعرابى عنده قوات عسكرية نظامية ، وقد اعلن النفير العـام وراح يجمع الرجال حوله باسم الجهاد فى سبيل الله وكلما اتسـع الوقت امامه زاد فى قوته » .

وقد رد محمدثابت باشا مبعوث الخديو يطمئنه على قرب وصول الحملة العسكرية العثمانية ، ببرقية فى ٩ اغسطس مفادها :

« بدا اعداد وتدارك لوازم العساكر الذين تقرر ايفادهم الى مصر ، وسمعت بان بعض بواخر نقل الجنود ارسلت الى موانى البانيـا وسلانيك حيث تبحر منها العساكر الى مصر ، وعلمت ايضا بانه قد صار اعداد فرقة من الاسطول العثمانى للاشتراك فى الحملة ، وان الجنود لايبحرون راسا الى الاسكندرية بل انهم سيحتشدون فى ميناء صوداء فى كريت ، وقد رئى من المناسب ان يكون عدد افراد الحملة خمسة آلاف جندى بقيادة سرور باشا الذى عين قومسيرا فوق العادة » .

وما كادت هذه الانباء تصل الى الانجليز حتى اشترطوا ان يكون مكان نزول الحملة فى بور سعيد وليس الاسكندرية وان تكون تحت قيادة القائد العام البريطانى .

ودب اليأس الى قلب الخديو من عدم وصول الحملة العثمانية ، وصار عرشه مهددا ونهبا للمخاوف والقلق ، فكتب الى مبعوثه فى استامبول فى ٢ اغسطس يقول :

« وصلت الى مكاتبات سعادتكم المؤرخة ١٠ رمضان وتلوتها واحدة بعد اخرى ، وكان لاخباركم وتصرفاتكم السديدة اثر الامتنان عند شخصى الضعيف ، وانى الآن انا ووالدتى والاسرة وجميع افراد معيتى وتوابعى تقيم فى الاسكندرية بصفة مؤقتة لاجئين فى حمى الرب المستعان .

« وانى كما سبق ان عرضت بوساطة سعادتكم والى العتبات الشاهانية فاضت الحاجات راسا ، واسترحمت والتمست دفع شر الثوار وانقاذ المملكة الشاهانية من خراب عام وتخليصها من مصائب متعددة ، واعادة الامن والسلام اليها ، والمحافظة على خمسة ملايين وكسور من اهل الاسلام والعجزة والنساء والاطفال ان يداسوا بالاقدام . كل ذلك متوقف ومرهون بحضور العساكر الشاهانية ووصولها الى مصر ، ولما كان ذلك من الزم الضروريات اكرر هنا ما سبق ان التمسته من الباب العالى ورجوته » .

وفى الوقت ذاته بعث الخديو بالجاويش حسين اغا الى الاناضول لاستقدام ثلاثمائة شخص من ولاية اطنه والروملى ليتخذ منهم حرسا خاصا ، وكذلك جلب كمية من البغال بقصد ان يستخدمها الجيش البريطانى فى مصر فى العمليات الحربية . ولكن السلطات التركية قبضت على حسين اغا وعلى اخيه وتابعه المرافقين له ومنعت سفر هؤلاء الاشخاص الى مصر ، واحتج الخديو على ذلك فى كتابه بتاريخ ٢٨ اغسطس الى محمد ثابت باشا بقوله :

« ان تقوية نفوذ الحكومة وتأييد روابط الامن متوقفان على وجود عدد من الجنود الاتراك والكرد والارناءود هنا لاستخدامهم فى اعمال البوليس والجندرمة ، لذلك اوفدنا الباشجاويش حسين اغا لجلب ثلاثمائة شخص من الاناضول ، ولكن بلغنى ان المذكور اعتقل وسجن كأحد الجناة وصار منع سفر الاشخاص الى مصر ، نرجو العمل على اخلاء سبيله » .

اذن فما هو الباعث على موقف الجمود الذى اتخذته تركيا بازاء حماية « عبيد الباب العالى » من غزو الاجانب ؟ والواقع ان الاوامر صدرت فعلا بارسال حملة عسكرية من جزيرة كريت الى مصر واحلال فرقة معسكرة فى استامبول محلها ، لولا ان بعض المرتشين بأموال الانجليز من رجال الحاشية حذروا السلطان من اخلاء العاصمة من حاميتها لئلا ينتهز الشعب الفرصة فيخلعه كما خلع سلفه السلطان عبد العزيز ، ولذلك خشى عبد الحميد على عرشه من ناحية ومن سطوة بريطانيا وفرنسا من ناحية اخرى ، فاستعاض عن الحملة العسكرية بايفاد مبعوثين الى مصر .

***

الخيـــانة العظمى

مذبحة الاسكندرية ـ فرار الخديو من العاصمة ـ التجاؤه الى حمى الاسطول البريطانى ـ العدوان الاستعمارى الغاشم ـ حريق الاسكندرية ـ القوات الاجنبية تحتل اول بقعـــة طاهرة من ارض الوطن ـ انسحـــاب الجيش المصرى الى استحكاماته فى كفر الدوار .

كبر على الانجليز نجاح الحركة القومية ، والتفاف الشعب حول الزعامة الرشيدة بقيادة احمد عرابى . واتحاد الكلمة لتخليص مصر من ادران الماضى ، فارادوا النكاية بهذه الحركة وتشويه سمعة مصر امام الراى العام فى اوربا بتدبير الفتن وبذر بذور الشقاق ، واتباع سياسة « فرق تسد » ، وكان لريفرز ولسون نصيب فى تدبير جانب من هذه المؤامرات ، فانه عقب عودته من مصر قصـــد توا الى آل روتشيلد فى باريس ونجح فى تخويفهم على مصير قروضهـــم ، وحملهم على ان يفزعوا الى بسمرك وجمبتا وجلادستون لياخذوا بناصرهم ، فثارت ثائرة بريطانيا بغية الابقاء على نفوذها السياسى ومركزها الاقتصادى فى وادى النيل .

والواقع ان مصر لم تكن تناهض الخديو وحده لانه كان من السهل القضاء عليه بضربة واحدة ، وانما كانت تكافح النفوذ العثمانى الذى يسند عرشه ، وتحارب الرجعية والاستعمار والرأسمالية الاوربية التى استمرات البقرة الحلوب .

وقد وقعت مذبحة الاسكندرية بتدبير محكم ، ففى الساعة الثانية بعد ظهر ١١ يونيو جاء شخص مالطى ثهل ، يعمل اخـــوه فى دار القنصلية البريطانية بالاسكندرية ، واكترى حمارا ، ثم اختلف مع المكارى على دفع الاجر المستحق ، ووقع جدال بينهمـــا انتهى بأن اقتحم المالطى حانة فى الطريق وتناول سكينا من المائدة وطعن بهـــا المكارى فلفظ انفاسه على الفور .

وقد وقع الحادث على مقربة من ساحة المنشيـــة حيث تقطن الجاليات الاوربية ، وفى يوم من ايام الاحاد حيث المقاهى غاصـــة

بروادها . وحاول بعض افراد الشعب نجدة مواطنهم والانتقام له بالقبض على الجانى ، ولكنه فر منهم الى منزل يقطنه يونانيون ومالطيون ، فتجمهروا حول المنزل وشرعوا فى حصاره . بيد ان سكانه اجابوهم باطلاق النار عليهم من النوافذ والشرفات ، ثم وقعت معارك بين الجانبين استخدمت فيها الهراوات والاسلحة البيضاء وتبادل اطلاق النار . ووقع الكثيرون من القتلى والجرحى ، وكان الوطنيون يتجمهرون فى الشوارع ويتكتلون فى الساحات وهم يصيحون : جاى يا مسلمين ، بيذبحوا اخواننا .

اين كانت قوات البوليس وحفظة الامن فى إبان هذه الفترة العصيبة ؟

لقد تباطأ المحافظ عمر لطفى فى القدوم الى مكان الحادث واصدار الاوامر بالقضاء على الفتنة والقبض على المشتركين فيها . واثبتت التحريات انه المحرض على الفتنة .

ففى ٩ يونيو سافر عمر لطفى الى القاهرة ليقف بنفسه على خطة المؤامرة مع القصر ، وكانت هذه الخطة قد رسم خطوطها مالت وكوكسن وحيدر يكن وزير الحربية السابق ، ثم اتفق مع عصابة من قبيلة اولاد على التى كانت على صلة وطيدة بالخديو بالتنفيذ ، ووزع على افرادها الهراوات والاسلحة ، وامر المحافظ رجال الشرطة بعدم التعرض للمعتدين ، والاستحواذ على مكتب التلغراف ليكون على اتصال بالخديو يطمئنه على نجاح المؤامرة .

والتقى به ساعة وقوع الحادث احد معارفه فى منطقة « زيزينا » فى الرمل حيث كان يرتاض ، وسأله :

ـ كيف تتنزه هنا والمذابح على قيد خطوات منك ؟

فكان جوابه :

ـ لست بقائد وهذا لا يعنينى .

فعاد يقول له :

ـ يكفى ان تحضر على جوادك ، شاهراسيفك ، على راس خمسين رجلا من البوليس فينتهى كل شى .

فنهره بقوله :

ـ انصرف ، ليس هذا شأنك ، وهل انت محافظ المدينة .

ثم تمتم بقوله :

ـ دع اولاد الكلب يموتون .

واحتج مدير البوليس فى الاسكندرية بمرضه فلم يبرح داره طيلة اليوم ، وقيل انه كان متواطئا مع المتآمرين . اما قائد حامية الاسكندرية اسماعيل كامل باشا فلم يتصل به نبأ المذبحة الا بعد مرور ساعتين من وقوعها . فبادر على الفور على رأس الكتيبتين الخامسة والسادسة الى ساحة المنشية ، ووزع قوات كبيرة من رجال الجيش فى الشوارع ،وبذلك استطاع وقف سيل المذبحه والسيطرة على الموقف ، ولكن بعد ان ازهقت ارواح زهاء خمسين شخصا من الفريقين بخلاف الجرحى والمفقودين .

اما الدافع للخديو على تدبير هذه الفتنة فيرجع الى رغبته فى اقامة الحجة على عرابى بانه عاجز عن حفظ الامن وحماية الارواح وصيانة ممتلكات الأجانب ، ومن ثم يسهل على القوات البحرية البريطانية النزول الى المدينة واحتلالها تحت ستار انقاذ الرعايا الاجانب . وقد سخر الخديو محافظ المدينة فى تنفيذ المؤامرة لما له من سلطة شاملة على رجال البوليس ومنعهم من التعرض للمشاغبين ، وكان المحافظ متصلا بالخديو مباشرة بعد ان نقلت اختصاصات وزارة الداخلية الى القصر .

وادرك العقلاء من رجال الجاليات الاوربية ان المذبحة من تدبير مالت . وان الهراوات والبنادق ظهرت فى وقت واحد فى الاحياء الاوربية ، وفى ايدى البدو ، وان رجال الشرطة بدلا من ان يقوموا بواجبهم اشتركوا فى اثارة القلاقل وتحريض المشاغبين والاشتراك فى حوادث السلب والنهب ، وتجريد المخازن التجارية من محتوياتها ، واخيرا طالبوا بضرورة سحب مالت من مصر . ورحيل الاسطول من المياه المصرية . لان فى ذلك الضمان الوحيد لاقرار الامن والسلام وصفاء الجو بين القصر وقادة الثورة .

استقبلت الدوائر العسكرية فى العاصمة وقوع الحادث بالاستنكار وعلقت عليه بانه مؤامرة مدبرة من اعداء مصر الذين يهمهم تلويث سمعتها ، وتشويه حركتهـا الوطنيـة . على حين شاعت امارات البهجة على وجوه موظفى القصر وصاروا يتندرون على عرابى ومبلغ جهده فى المحافظة على الامن .

واوفدت القيادة العامة الى الاسكندرية لجنة تحقيق برياسة يعقوب سامى وكيل وزارة الحربية ، وصدرت الاوامر باتخاذ

التدابير الكفيلة بمنع وقوع حوادث اخرى مشابهة فى المستقبل . ولكن الخديو خشى ان يفتضح امره فاصر على ان يكون المحافظ رئيسا للجنة التحقيق ، مع انه المشرف على تنفيذ المؤامرة ، على ان اللجنة لم تستمر فى اداء مهمتها على وجه مرض ، فقد اوعز الانجليز الى مندوبيهم فى اللجنة بالانسحاب من التحقيق وترك المحاكمة معلقة حتى لايفطن القضاة ولا الرأى العام الى الفاعلين الاصليين .

ثم دارت المباحثات بين قناصل الدول على كيفية القاء القبض على كل اوربى يطلق النار على احد المصريين او الجنود ، وتقرر ان يعين كل قنصل معتمدا يعين له المحافظ قسما من اقسام البوليس يقيم فيه ، حتى اذا اطلق احد الاجانب النار بادر المعتمد ومعه رجال الشرطة الى منزل ذلك الاجنبى للقبض عليه .

وفى اليوم التالى لوقوع المذبحة كثر عدد النازحين من الاوربيين الى السفن الراسية فى الميناء ، ولم تعارض الجمارك فى فتح الصناديق والطرود التى يحملونها ، وكذلك اغلقت المخابز والمطاعم والاسواق وظلت مغلقة بضعة ايام ، ووقفت حركة البيع والشراء فى المدينة .

ووجه قناصل الدول نداء الى رعاياهم ناشدوهم فيه التزام جانب الهدوء والسكينة ، وقالوا فيه :

« وقعت بالامس بالاسكندرية حوادث رهيبة ، ولكن الجيش المصرى اعاد الراحة والطمانينة ، وتعهد رؤساؤه بالمحافظة على الامن ، ونحن على ثقة من ذلك فضلا عن كوننا متفقين مع المسئولين المدنيين والعسكريين على ما يجب اتخاذه من التدابير اللازمة لصيانة الامن ، لذلك نتقدم اليكم برجاء ان تساعدونا بحكمتكم على القيام بهذا الفرض فلا تتقلدوا اسلحة ، والزموا منازلكم ما استطعتم وتجنبوا اسباب المشاجرات والمنازعات ، وحرصا على المصلحة العامة تمت الموافقة بين جميع القناصل على ان يكون لقواصة القنصليات الاختصاصات الممنوحة لرجال البوليس فنكلفكم ان تمتثلوا لهم » .

وكذلك اذاع الزعيم احمد عرابى بيانا ناشد فيه المواطنين اطاعة القانون والتزام السكينة ، واوعز الى شيخ الأزهر باذاعة بيان آخر وقع عليه كبار العلماء .

ووجد الخديو الفرصة سانحة امامه للفرار من العاصمة التى تكتلت فيها قوى الشعب وعناصر الزعامة الرشيدة ، وبعد ان شعر بأن مركزه بات محفوفا بالخطر لاسيما عقب افتضاح امره فى تدبير مذبحة الاسكندرية ، اعلن عن رغبته فى الانتقال الى الاسكندرية بحجة السهر هناك على الامن وتدارك الاخطار فى المستقبل مع ان مركزه يجب ان يظل فى العاصمة لتوجيه دفة الحكم .

وفى صبيحة ١٣ يونيو غادر الخديو القاهرة بالقطار واصطحب معه المشير درويش باشا واعضاء الوفد العثمانى ، وافراد اسرته ليكونوا جميعا فى حماية الاسطول المشترك .

وقد بلغ الاستياء بافراد الشعب مبلغا عظيما ، فشيعوه على طول الطريق من عابدين الى القاهرة بمظاهر السخط ، وقابلوه بالسباب والشتائم ، واهالوا التراب فوق نوافذ المركبات التى تقل افراد اسرته

وظلت القاهرة فى حالة استياء صامت ، فقد ادركت ان الخديو والرجعية والاستعمار يتآمرون على الشعب ، ويعملون على تقويض نفوذه وتحطيم دستوره ، وانهم جميعا قد استعانوا بالاسطول المشترك لتهديد الكنانة واعادتها الى حكم الفرد وعصر الظلام .

وقوبل نبأ انتقال الخديو والوفد العثمانى من العاصمة الى الاسكندرية بالدهشة فى دوائر الباب العالى ، فبعث يسأل الخديو فى ١٥ يونيو بقوله : ان جلالة السلطان عرف ان عرابى باشا كلف بالمحافظة على الامن الداخلى بسبب الفتنة التى وقعت فى الاسكندرية ، وبناء عليه يقتضى عودة الخديو ودرويش باشا فورا حال وصول هذه البرقية الى القاهرة بدلا من اقامتهما فى الاسكندرية ، لان هذا هو المناسب لظروف الحالة وموافق للرضاء السلطانى ، كما يجب ان يؤكد الخديو لعرابى باشا بوجوب اليقظة نظرا للمسئولية الجسيمة التى تعهد بها مع افهامه بأن تعهده المذكور عرض على العتبات السلطانية .

وقد اجاب الخديو على ذلك بقوله :

« لما حضرنا الى الاسكندرية رأينا الاهالى فى قلق وخوف ، والمتاجر مغلقة ، فطمأناهم شفويا وجعلناهم يعدلون عن فكرة الهجرة ، فلما سمعوا نبأ اعتزامى العودة الى القاهرة زارونى وابلغونى انهم سيغادرون المدينة عقب مغادرتى لها . وحيث ان سكان الاسكندرية

فى حالة اضطراب بسبب وجود السفن الحربية فيها وشروع الاجانب فى مغادرتها . وحيث ان المعتاد سنويا الاقامة فى الاسكندرية فى هذا الموسم فقد راينا انه فى حالة عودتنا الى القاهرة بخلاف المتبع سيؤول تاويلا سيئا بين الاهالى مع ان الحالة فى مصر مستتبة وليس فيها ما يخشى عواقبه وغير منظور وقوع حوادث اخرى » .

وهكذا برر الخديو مسلكه فى البقاء فى الاسكندرية بحجج ملتوية، اما الفقرة الخاصة بعرابى فقد تناول الخديو الرد عليها فى برقية اخرى بقوله :

« لما كان مولانا ولى النعم قد علم بمسعى درويش باشا للتوفيق بينى وبين عرابى ورجاله ، فان رايى فى الموضوع : مادام مصدر الفتنة ومنبع الفساد يقيمون فى مصر ، فليس من الممكن ان يستقر الحال فى مصر ويسود النظام فيها الا بعد اخراج هؤلاء المشاغبين من مصر ، وان اخراجهم متوقف على ارسال قوة عسكرية شاهانية الى هنا » .

واوحى الشعور بالعزة القومية الى قادة الثورة ان يقاوموا الخديو والاستعمار والخوارج من اعداء الوطن ، فشرعوا فى تحصين الطوابى والاستحكامات فى الاسكندرية استعدادا لدفع غارة الاسطول عنها .

وقدم الى قصر الخديو قنصلا المانيا والنمسا وتحدثا الى الخديو فى المسالة المصرية بلهجة التهور والتهديد ، وكان مما قالاه :

ـ عندما اتصلت الخديوية بالدولة العلية بصدد المسالة المصرية لايجاد حل ملائم لهذه المسالة ، اكتفت الدولة العلية بايفاد لجنة الى مصر دون ان تبعث بقوات عسكرية ، وان عرابى ورجاله سيقاومون نزول هذه القوات ، وعندئذ تقع فى مصر اضطرابات وحوادث خطيرة ، ونحن تفاديا لمثل هذه الحالة وضمانا لسلامة الوطنيين والاجانب نرى وجوب اتخاذ هذه الوسيلة .

وبادر الخديو بارسال تفصيلات هذه المحادثة الى الباب العالى فى ١٦ يونيو ، وعلق على ذلك بقوله :

« وقد تبادلت الراى مع درويش باشا ورأينا اننا اذا اغفلنا راى القنصلين اغفالا تاما كان لذلك اثره العميق فى نفسيهما، واذ ذاك

يعمد كل قنصل الى الاتصال بحكومته ويعرض المسألة عليها على النحو الذي يروقه ، وحينئذ يزداد الموقف تحرجا .

« وان وصول السفن الحربية الى الاسكندرية قد اهاج شعور الاهالى وهم يزعمون بأن الخديو هو الذى اتى بهذه السفن ليسلم البلد الى الكفار » .

***

كانت مصر لا تزال تحكم بدون وزارة مسئولة منذ قدم البارودى استقالته ، وكان من مصلحة بريطانيا وفرنسا ان تظل مصر بدون حكومة لتعم الفوضى وتستفحل الفتن وبذلك يكون الطريق معبدا امام الاحتلال ، كان الخديو يرى أن وجود وزارة معناه سحب السلطة من قبضته ، وان تحكم البلاد حسب نصوص الدستور الذى يحاول ان يسلبه منها . غير أن بعض قناصل الدول من الذين يعطفون على حركة مصر الوطنية والعمل على تسكين الخواطر واستتباب الامن . سعوا لدى الخديو لتشكيل وزارة تتسلم مقاليد الحكم ، واستشار الخديو شريف ومصطفى فهمى وعمر لطفى فى الامر فابوا جمعيا الاضطلاع بمهمة تشكيل وزارة ، واخيرا توسط المشير مصطفى درويش فى حل الازمة ، فاتفق مع عرابى على ان يعهد الى اسماعيل راغب بها ، وكان راغب رجلا محدود الافق ، فى العقد السابع ، وليست لديه ايه فكرة صائبة عن الموقف السياسى

شكلت وزارة راغب فى ٢٠ يونيو وفيها احتفظ لعرابى بمنصب وزير الحربية والبحرية ، وكان فى طليعة ما اهتمت الوزارة به استئناف التحقيق فى فتنة الاسكندرية ، واستصدار عفو عام عن الذين اشتركوا فى الاحداث السياسية — عدا حادث الاسكندرية — وعدم توقيع عقوبةعلى اى مواطن الا بعد محاكمته قانونا ، واعادة الوئام بين المصريين والاجانب .

***

اطمأن الانجليز الى وجود الخديو فى كنفهم ، وانتقال الوفد العثمانى فى ركابه ، وكان مالت قد تلقى اوامر من وزارة الخارجية

فى لندن بضرورة مرافقته الخديو فى تحركاته .

واخذ الانجليز يبذلون قصارى جهدهم فى تتبع انباء قادة الثورة ويستطلعون اسرار الاستعدادات العسكرية ، وكان بورج قيس من رجال القنصلية البريطانية فى القاهرة يقف اولا باول بوساطة عيونه على عدد ضباط وجنود الجيش المصرى ومبلغ قوتهم وما عندهم من مهمات وذخائر واسلحة . وفى ٢٥ يونيو رفع الى مالت تقريرا يعد وثيقة من وثائق التجسس قال فيه :

« علمت من مصادر اركن اليها بأن الجيش المصرى قرر اذا نشبت الحرب ودخل الانجليز الاراضى المصرية ، تنقل عائلات الضباط الى القلعة ويتحصنون جميعا بداخلها للدفاع عن انفسهم ، وانهم قد شرعوا الآن فى اتخاذ التدابير اللازمة لذلك وصرفوا فى الايام الثلاثة الاخيرة معظم اهتمامهم الى هذا الامر ، فملأوا الشون والمخازن بالذخيرة والعتاد الحربى ، وجابوا كميات وافرة من الدقيق ، ومن الاغنام والمواشى . وعلى الرغم من الماء المنصرف الى القلعة من مستودعات شركة المياه لايزال جاريا اليها فانهم اعتنوا باصلاح بئر يوسف ليجعلوا ماءها احتياطيا ؛ وقد خزنوا فى مستودعات بولاق ٣٥٠٠٠٠ اقة بقسماط ، وركبوا فى القلعة ٤٢ مدفعا بعيد المرمى ، بخلاف ٤٩٧ مدفعا جبليا ، ولديهم ١٣٠٠٠٠ بندقية و ٢٠ مليون قذيفة .

ومضى التقرير يسرد ما يملكه الجيش من عتاد وذخيرة . وعلى اثر ذلك جرت المشاورات سرا بين الخديو والانجليز للحد من النشاط العسكرى ووضعت الخطط على اساس التحرش بالمصريين توطئة لاثارة الحرب ضدهم ، فوزعت الاسلحة على الاجانب من دار القنصلية البريطانية فى الاسكندرية ، وتمارض مالت فانتقل الى الباخرة « منغوليا » من بواخر الشركة الشرقية وبقى فيها الى يوم ٢٧ يونيو ثم زايل الاسكندرية الى برنديزى ، وكذلك تنحى كوكسن قنصل بريطانيا فى الاسكندرية عن عمله بحجة المرض ، وحذا حذوه بقية موظفى القنصليات البريطانية فى مصر .

وبناء على التقريرات التى بعث بها الادميرال بوشامب سيمور قائد الاسطول البريطانى فى الاسكندرية الى حكومة لندن ، حيث اثار فيها مخاوفه ووصف الحالة فى مصر فى صورة مفزعة ، صدرت

اليه الاوامر بأن يختلق اية وسيلة للتحرش بالمصريين . ثم وصلته من مالطة باخرة مشحونة بمائتى طن من المهمات والذخائر فجرى توزيعها فى الحال على قطع الاسطول الراسية فى الميناء .

وفى ٢ يوليو تلقى سيمور امرا من الادميرالية البريطانية ليتصل بقائد الاسطول الفرنسى فى المياه المصرية ويشركه معـــه فى ضرب الاسكندرية بالقنابل ، فاذا لم يقبل القائد الفرنسى ذلك العرض فلا يجب ان يمنعه هذا الرفض من القيام بالضرب وحده .

والواقع ان حكومة فرنسا شعرت فى اللحظة الاخيرة بانها تورطت فى الموقف ، وان بريطانيا استدرجتها فى المسألة المصرية لتنفـرد وحدها بالغنيمة ، وفضلا عن هذا وذاك فقـــد عارض النواب فى البرلمان الفرنسى فى القيام بمغامرة حربية اخرى فى حوض البحر الابيض المتوسط بعد مغامرتها فى تونس .

وتلقى الخـديو امرا من السلطان بوجـوب وقف العمل فى الاستحكامات منعا للفت انظار الاجانب الى مثل هذا الامر الدقيق .

وعلى اثر ذلك بعث الادميرال سيمور الى طلبة عصمت باشـــا قائد منطقة الاسكندرية يسأله الكف عن اعمال التحصين التى تجرى فى الاستحكامات ، ومنع المراكب المحملة بالحجارة بقصد سد بوغاز الميناء .

وقد دافعت الوزارة عن ذلك بأن ميناء الاسكندرية مملوء بالسفن الحربية وفى وسع هذه السفن اذا ماشاهـدت اى مركب مصرى ينقل الحجارة والطوب ان تعمد الى اطلاق النار عليه .

وزادت الوزارة على ذلك بأن بعثت الى السلطان عن طريق الخديو بالبرقية التالية فى ٢ يوليو :

« عندما شرع فى القيـام ببعض الترميمات فى استحكـامات الاسكندرية قبل مدة اعتبر الادميرال البريطانى ان فى ذلك تهـديدا له ، وكتب الى حكومته بوجوب وقف العمل فى الترميم ، وعرضت الحكومة البريطانية ذلك على الحضرة العلية السلطانية ، واذ ذاك صدرت الارادة السنية بوجوب وقف العمل فى ترميم هذه الاستحكـامات فامتثلنا للامر واوقف العمل فعلا .

« بيد اننا فى خلال الايام الثلاثة الماضية نشاهد بعيوننـا السفن البريطانية والفرنسية الراسية فى مينا الاسكندرية وقد احاطت

اماكن الاتها ومراجلها بالسلاسل الحديدية الضخمة ، واقامت حول خنادقها استحكامات من اكياس الرمل ، واتخذت التدابير المعتاد اتخاذها فى حالة الحرب والقتال . كما ان البرقيات الواردة من عواصم اوربا على التوالى تشير الى ان الانجليز والفرنسويين سيسيرون جنودهم الى مصر .

« فاذا كان مجرد ترميمنا لاستحكاماتنا يعتبر تهديدا عند الدول فمن البديهى ان نعذر حين نعتبر نحن ايضا ان هذه الاستعدادات القائمة على التوالى فى السفن انما هى تهديد لنا كذلك .

« ولئن كنا ندرك ان من الواجب علينا شرعا ان نعمل على تقوية هذا البلد الاسلامي المهدد وان نبذل قصارى الجهد فى سبيل تقويته وسلامته ، بيد ان الارادة السنية الصادرة بوقف العمل فى الاستحكامات تغل ايدينا وتحول دون قيامنا بهذا الواجب ، على اننا نعلم فى الوقت ذاته ان سلامة بلادنا وحفظها من كل سوء امر يهم الحضرة السلطانية ، ونحن لاندخر وسعا فى سبيل اعداد الاسباب والوسائل الكفيلة بالدفاع عن بلادنا ، الا ان من الواجب ايضا ان نحصل على ارادة سنية تسمح لنا بذلك » .

وفى ١٠ يوليو بعث الادميرال سيمور بانذار آخر الى طلبة باشا يطلب اليه فيه تسليم البطاريات المنصوبة فى شبه جزيرة راس التين وعلى الشاطىء الجنوبى لميناء الاسكندرية لتجريدها من السلاح ، والا ضرب الحصون بقذائف الاسطول .

واحدث هذا الانذار حالة من الفزع ، فتقاطر الاوربيون على السفن الراسية فى الميناء ، وقابل القنصل البريطانى الخديو فى ذلك اليوم وقال له :

ـ على الرغم من التاكيدات التى ذكرتها الحكومة المصرية بشان وقف العمل فى ترميم الاستحكامات او تسليحها فان الادميرال قد شاهد استمرار العمل فى هذه الاستحكامات على الضوء الكهربائى ابان الليل ، وان الادميرال يرى انه حر التصرف ازاء هذه الحالة بعد مضى اربع وعشرين ساعة .

واوفد الادميرال نائب قنصل بريطانيا الى جميع القناصل ، واعلنهم بهذه المهلة ، واشار عليهم بضرورة الانتقال الى البواخر الراسية فى الميناء حتى اذا نفذ الادميرال وعده ابحرت البواخر بهم الى عرض

البحر بعيداً عن الميناء ، فلم يمتنع سوى قنصل ايطاليا الذى آثر البقاء فى المدينة .

وابرق الخديو الى الباب العالى فقال :

« اذا كان لى راى فى هذا الوضع فهو ان نعمد غدا الى معاينة استحكامات الاسكندرية بطريقة علنية حتى اذا ما ثبت من هذه المعاينة عدم حدوث اية تجديدات فيها اقنعنا الادميرال بذلك واذا كان الامر بالعكس عوقب المسئول وقدمنا الترضية المناسبة . ولكن اذا ابى رجال العسكرية تقديم الترضية اللازمة فاننا بمجرد ان يخرج القناصل الى عرض البحر سنغادر نحن ايضا قصر راس التين وننتقل الى قصر الرمل . اذ اننا لن نسمح اذ ذاك بمقاومة الانجليز ، وبهذا الوضع نقع بين نارين » .

وفى هذا اليوم ايضا غادر رجال القنصليات البريطانية المدينة ولجأوا الى البواخر الراسية فى الميناء ، واخطر كارترايت نائب القنصل العام رئيس الوزارة اسماعيل راغب بذلك واشعره بأن العلاقات الدبلوماسية قطعت بين البلدين .

واجتمع راغب باشا بقناصل ايطاليا وفرنسا والمانيا والنمسا وروسيا لبذل المساعى لدى الادميرال سيمور والحيلولة دون اطلاق المدافع على المدينة وتخريبها فقالوا له :

ــ ان الادميرال يذهب الى ان التدابير العسكرية لا تزال قائمة فى الطوابى .

فكذب راغب باشا ادعاء سيمور ، واستطاع ان يقنع القناصل بتكوين وفد منهم تستوضحه كتابة حقيقة هذا الامر ، الا انهم اجابوه بأنهم يثقون بكلامه ولا يرون حاجة الى كتابة شىء فى هذا الصدد . ومع ذلك بعث راغب باشا بكتاب اليهم يقول فيه :

« ان جميع الطوابى القائمة على الشواطىء ، من المستطاع احصاء عدد مدافعها دون الدخول اليها ، ونحن نأذن لمن ينتدبه القناصل او الادميرال سيمور باحصاء عدد المدافع فى الطوابى دون التصريح له بدخولها ، فاذا ما اتضح ان ثمة مدافع قد جىء بها الى هذه الطوابى علاوة على المدافع التى احصى عددها يكون الادميرال على حق فى ادعائه » .

وشعر اسماعيل راغب بانه اخفق فى هذا المسعى فتوجه الى مقر قيادة الادميرال فى المدرعة انفنسبل وطلب اليه منح الحكومة مهلة ، ولكن سيمور اصر على الرفض ، وبدا يفرض الحصار البحرى على الشواطىء المصرية واقصى الاسطول الفرنسى عن الاسكندرية .

وعاد راغب باشا الى قصر الخديو وعقد اجتماعا عاجلا شهده الوزراء وعرابى والرؤساء العسكريون واعضاء الوفد العثمانى والنواب وكبار الموظفين والاعيان . وجرت المداولة فى الموضوع فقرر المجتمعون عدم تسليم الطوابى لانها موجودة للدفاع عن الوطن والذياد عن حياضه ، وان الاستعدادات لتحصين شواطىء مصر لا تعد عملا هجوميا وانما هى فى نظر القانون الدولى دفاع شرعى .

وكذلك قرروا « بان البلاد من املاك السلطان وان تسليم اية قطعة منها خارج عن نطاق حدودنا لاسيما ان الفرمان العالى مصرح فيه بانه ليس من الجائز تسليم اى جزء من الاراضى المصرية الى الغير او التنازل عنه . واذا اراد الادميرال اخراج جنوده الى هذه الطوابى فمن البديهى ان الجنود المصريين الموجودين بها سيثبتون فيها ولن يجلوا عنها ولن يستسلموا ماداموا احياء » .

وفى المساء عقد مجلس الوزراء جلسة فوق العادة لتداول الراى فى الحالة وبعد ان ناقش الموقف من جميع وجوهه كتب ردا الى قائد الاسطول البريطانى فى مياه الاسكندرية هذا نصه :

« ان مصر لم تعمل شيئا يقضى بارسال هذه السفن الحربية المتجمعة ، ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية اى عمل يسوغ مطالب الادميرال الا بعض اصلاحات اضطرارية فى ابنية قديمة ، والطوابى الآن على الحالة التى كانت عليها عند وصول هذه السفن

« ونحن هنا فى وطننا وفى بيتنا ، فمن حقنا بل من الواجب علينا ان نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع اسباب الصلة السلمية التى تقول الحكومة الانجليزية انها باقية بيننا ، ومصر الحريصة على حقوقها ، الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها ، لا يمكنها ان تسلم اى مدفع او اية طابية دون ان تكره على ذلك بحكم السلاح ، فهى لذلك تحتج على البلاغ الذى وجهتموه اليوم ،

وتوقع مسئوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم اما عن هجوم الاسطول او عن اطلاق المدافع على الامة التى تقذف وسط السلام القنبلة الاولى على الاسكندرية ، المدينة الهادئة ، مخالفة بذلك احكام حقوق الانسان وقوانين الحرب » .

وليس من شك فى ان الخديو كان متواطئا مع الانجليز على ضرب الاسكندرية بالقنابل توطئة لاحتلالها بعد ما فشلت مؤامرة المذبحة، وان موافقته وهو على راس مجلس الوزراء بجواز محاربة الانجليز كان خدعة منه ، فبعد ظهر ١٠ يوليو جاءه اوكلند كلفن يساله عن مهمة الوفد العثمانى ، فاجابه بانها باءت بالفشل ولا مفر من قدوم قوات برية بريطانية الى مصر لاعادة الامن والنظام !

فأجابه كلفن بأن القوات البرية فى طريقها فعلا الى مصر . وانه يجب عليه الانتقال الى قصر الرمل ، فانتقل الخديو عند الغروب مع افراد اسرته وحاشيته وناموا جميعا على فرش مصفوفة على الارض فى قاعة كبيرة كما هو الحال فى مستشفى للاوبئة ، ولجأ الكثيرون من الامراء والاميرات ورجال الطبقة الحاكمة العثمانية للفرار الى عواصم الغرب .

وجاءه احد ضباط الحرس يساله :

— ما مصير الاسكندرية لو ضربها الانجليز بالمدافع .

— فى ستين داهية !!

— ولكن السكان سيحرقونها فارجو التوسط لدى الادميرال ، والوقت لا يزال يسمح بذلك ، استدعوا ذو الفقار باشا واصدروا امرا اليه للمحافظة على المدينة ، فان عنده من رجال الشرطة الكفاية

— فلتحرق المدينة جميعها ولا تبقى فيها طوبة على طوبة ... حرب بحرب ... كل ذلك يقع على راس عرابى وعلى رءوس اولاد الكلب الفلاحين ، وسيذوق الاوربيون الملاعين عاقبة هروبهم مثل الارانب .

***

فى الساعة السابعة من صباح الثلاثاء ١١ يوليو بدات المجزرة الرهيبة وتحركت الشهوات الوحشية المتعطشة الى الدماء ، فاطلق الاسطول البريطانى قذائفه الجهنمية بقصد دك الحصون وتعطيل

المدافع ونسف المبانى والقاء الرعب والذعر فى قلوب افـراد شعب مـسالم .

كانت حصون الاسكندرية تمتد على طول الشاطىء من العجمى الى ابى قير وعددها ١٨ حصنا ، بخلاف حصنى كوم الدكة وكوم الناضورة ويقعان بداخل المدينة ، وكان هناك ٤٩ مدفعا من طراز ارمسترونج و ٢٢٩ مدفعا من الطراز القديم القصير المرمى مركبة فى هذه الحصون .

وكانت مدفعية السواحل مكونة من ١٧٦٢ مقاتلا تعززهاكتيبتان من الفرسان وحامية الاسكندرية مكونة من اربعة لواءات مشـــاه مجموعها ١٢٫٠٠٠ جندى و ٧٠٠ جندى من المدفعية .

اما الاسطول البريطانى فكان مكونا من ثمانى مـدرعات وخمس سفن مدفعية وسفينة للطوربيد واخرى كشـافة ، وهى مزودة جميعا بسبعة وسبعين مدفعا من طراز ارمسترونج .

وفى اليوم السابق من نشوب القتال تولى احمد عرابى القيـادة العامة للدفاع عن الاسكندرية ، واتخذ مقر قيادته فى ديوان البحرية « الترسانة » يعاونه المهندس محمود فهمى باشا وزير الاشغـال وطلبة عصمت باشا قائد حامية الاسكنـدرية ومحمـد كامل باشا وكيل الوزارة للشئون البحرية .

ومنذ فجر ١١ يوليو احتلت كل مدرعة مكانهـــا امام الحصن المعهود اليها بتدميره ، وما كادت عقارب الساعة تتجاوز السابعـة باربع دقائق حتى انطلقت اول قذيفة من المدمرة انفنسبل مقـــر قيادة الاسطول واستمر الضرب الى الساعة الحادية عشرة ظهرا ، وبعد الطلقة الخامسـة فتحت المدافع المصرية افواهها لترد عليها ، وابدى جنود مصر بسالة وحماسة فى القتال ، ثم استؤنف تبـادل اطلاق النيران من الجانبين حتى الساعة السادسة بعد الظهر .

سمع المصريون دوى المدافع فثارت العاطفة القومية فى الصـدور وسرت فيهم الرغبـة فى القتال والدفاع عن كـل شبر مـن ارض الوطن ، فتطوع من بقى من سكان الاسكندرية فى ساحـة الشرف وصد غارات المعتدين ، كان الرجال والنساء يقومون بنقل الذخائر والمؤن الى المقاتلين وتقديم الماء لهم وحمل الجرحى وتضميد جراحهم ونقلهم الى المستشفيـات . اما الاجانب فقد وقفـوا فى الشرفات وفوق اسطح منازلهم التى حصنوها باكياس

بمناديلهم ويرفعون قبعاتهم في الهواء مشفوعة بالتمنيات لسيمور ان ينتصر على المصريين .

وكان للجاسوسية البريطانية التي وقفت على قوة الاستحكامات ورصدت ما فيها من المدافع ومخازن الذخيرة اثرها في تفوق الاسطول . وكذلك كان لتدرب الانجليز على فنون القتال في البحر وقوة مدافعهم ومهارتهم في الاعتصام بسفنهم بين سحب الدخان التي تغطيها في اثناء الضرب ، كل ذلك كان من بواعث تفوقهم حتى دكت الحصون .

وبعد الظهر اشتد العدوان الغاشم . فتناثرت القنابل في الجو . وغطت المدينة سحب الدخان والشظايا ، واصابت القنابل المدارس والمستشفيات ودور العبادة والمساكن ، ووجهت القذائف الى مسجد قايتباي حتى هوى المسجد على المصلين وعلى الجرحى الذي آووا الى صحنه ودفنوا احياء تحت الانقاض .

وفي الليل خيم سكون رهيب على المدينة حتى بدت كمدينة خالية من سكانها . اما في قصر الخديو فقد عقد اجتماع فوق العادة ضم المندوب العثماني ورئيس مجلس النواب والاعيان واشار الخديو في هذا الاجتماع بان الاسطول اذا عاود الضرب في اليوم التالي فان الراية البيضاء يجب ان ترفع ، شارة الهدنة . وكان الخديو قد اخذ يتنقل بين قصره وبين مراكز المخابرات ليتلقى انباء العدوان ، يحيط به فريق من الخونة ، غير مكترث لما حاق بالوطن من اضرار .

لم يكتف سيمور بالتخريب الذي بثه الى مدينة الاسكندرية بل اسكرته اللذة الوحشية في القتال فعاود الضرب منذ الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ووجه قذائفه الى ما بقي من الحصون والقلاع ، فرفعت الاعلام البيضاء فوق الترسانة وفوق الحصون ، ومضى طلبة عصمت لمقابلة مندوب الادميرالية على ظهر اليخت المحروسة وقال له : ان الطوابي خربت والمدافع التي كنتم ترغبون في ازالتها قد رفعت ، ولم يحصل بيننا وبين الحكومة البريطانية مايخل بالعلاقات الودية .

فاجابه ضابط الاتصال بان الادميرال سيمور يطلب امرا صريحا من الحكومة بالترخيص لجنوده بالنزول الى البر واحتلال طوابي العجمي والدخيلة والمكس والاراضي التي تقع خلفها وان تكون بمثابة معسكرات لجنوده واذا لم تجب طلباته المذكورة استانف

الضرب ، فذهب طلبة الى قصر الرمل وعرض الرد ، فعقد الخديو مجلسا وكان عرابى من جملة الذين حضروه ، وتقرر ان يكون الجواب: لا يحق لمصر ان تسمح بنزول جنود اجنبية فى اراضيها . ولكن سيمور لم يعبأ بهذه الحجة المقنعة فأمر باستئناف الضرب فى الساعة الرابعة بعد الظهر .

وقد بلغ عدد الضحايا من المصريين فى غضون يومين الفى قتيل بخلاف الجرحى اما خسائر البريطانيين فلم تتجاوز حسب ماورد فى احصائهم غير ٥ قتلى و١٩ جريحا واصيبت سبع دوارع باضرار ودفعت الحمية الوطنية ضباط الجيش الى ان يحاصروا الخديو فى قصر الرمل حتى لا يعمد الى الفرار ويعلن انضمامه جهارا الى الاعداء ، وكان سليمان اباظة باشا قد أبان لهم موقف الخديو بقوله:

— اذا لم تتحفظوا على الخديو او تقتلوه فانه سيهرب الى الاسطول البريطانى .

وكذلك اشفق عرابى على سمعة حاكم البلاد واراد انقاذ آخر نقطة من كرامته فجهز قطارا خاصا وقف فى محطة سيدى جابر ليستقله الى العاصمة . بيدان الخديو اشتد به الهلع وادرك ان الغرض من الحصار هو القبض عليه وارساله مخفورا الى العاصمة ، فأوفد زهراب بك الارمنى — من رجال حاشيته — الى الادميرال سيمور يستغيث به ويعلنه بنبأ اعتزامه الانتقال الى قصر رأس التين ليكون فى حماية جنوده .

لم يجد الخديو مفرا من ان يسفر عن وجهه الحقيقى فغادر قصر الرمل فى الساعة الرابعة بعد ظهر ١٣ يوليو واستقل مركبة والى جانبه درويش باشا يحيط به سبعون فارسا ، تعلو رءوس حرابهم الرايات البيضاء ، ووراءهم مركبات تقل افراد أسرته وحاشيته ، وقبل ان يصل الموكب الى قصر راس التين كانت هناك ثلاث مدرعات من الاسطول البريطانى ترسو بازاء القصر ، وقوة مكونة من سبعمائة جندى من القوات البحرية البريطانية تحرسه . وتلقاه فى ساحة القصر الاميرال بوشامب سيمور يحيط به أركان حربه ومن حولهم محمد سلطان رئيس مجلس النواب وبعض الموظفين الاجانب ورجال الحاشية وهنأوه بسلامة الوصول ثم عينوا له ضابط اتصال بريطانيا يقيم فى القصر ويراقب كل مايجرى فيه . اما فى الداخل ، اى فى

منطقة الحرم ، فقد كان هناك فردريك الخادم الانجليزى الخاص ، وهو من عيون المخابرات البريطانية ، يرصد كل حركة ويقدم تقريرا عنها . . . وبذلك وضحت نية الخديو السيئة وانحيازه جهارا الى جانب العدو ، واستعداؤه الانجليز على الشعب .

وبرر الخديو مسلكه امام الباب العالى الذى ساله عما اذا كان حقا يبيت فى المراكب البريطانية وينزل منها نهارا الى القصر ، ولماذا لم يحتم باليخت « عز الدين » فأجاب الخديو ببرقية مؤرخة فى ١٤ يوليو يسوغ فيها اجرامه السافر :

« منذ اطلقت المدافع على الاسكندرية ، أقمنا على اثر ذلك بقصر الرمل ، وكانت حياتنا مهددة بالاخطار العظيمة الى حد جعلنا نيأس من الحياة ، بيد أننا بعد انتقالنا الى قصر راس التين فى ظل الحضرة السلطانية قد زالت عنا المخاوف والاخطار التى كانت محدقة بنا ، وسنقيم فى راس التين نهارا وفى اليخت عز الدين او المحروسة ليلا .

« ان السفن الحربية البريطانية هدمت بمدافعها استحكامات الاسكندرية وخربتها تخريبا تاما ، ومن ثم أعلن الادميرال انه سيخرج جنوده الى البر ، وعلى اثر ذلك اصدرت الامر الى عرابى بالمقاومة ، وبدلا من ان يفعل ذلك ويقاوم جمع حوله من اطاعه من الجند المرابط فى الاسكندرية وانسحب الى كفر الدوار ، وبهذا الوضع اتيح للانجليز ان ينزلوا الى البر فى راس التين دون ان يطلقوا رصاصه واحدة »

« وقد اعتذر الادميرال عن صنيعة هذا بقوله ، انه لا يثق بجنود مصر وليس ثمة قوات عسكرية هنا من قبل الدولة العلية ، ولذا عمد الى اخراج عساكره الى البر لحفظ البلد وتوطيد الامن » .

ولا ندرى كيف اجترا الخديو على ان يسوق مثل هذه الافتراءات فى برقية رسمية الى الباب العالى يسوغ بها الاحتلال البريطانى ، ويزعم انه اصدر امرا الى عرابى بالمقاومة مع ان اوامر الخديو كانت تنص صراحة على منع المقاومة ووسائل الدفاع والتجنيد وكتاب راغب باشا الى الادميرال سيمور فى ١٧ يوليو يبلغه «مخالفة عرابى لاوامر الخديو فيما يقوم به من وسائل الدفاع والكف عن التجهيزات » .

بعد ظهر ١٢ يوليو شبت الحرائق فى مدينة الاسكندرية ،وشوهد افراد من قبيلة اولاد على من الذين اشتركوا فى مذبحة ١١ يونيو يشتركون فى عمليات الحريق والسلب والنهب ، وفى اليوم التالى كانت الجثث تملأ الشوارع ، والكلاب تتجمع عليها لتنهشها،واصبح الجو مزيجا من اللهب والدخان والحرارة التى تلفح الوجوه ،وليس من شك فى انه كان للاستعمار اصبع بارزة فى هذا الحريق حتى يمهد السبيل للاحتلال ، وفعلا نزلت القوات البحرية البريطانية الى المدينة بحجة اطفاء الحرائق والمحافظة على الامن ، واشتركت معها قوات امريكية ويونانية وروسية والمانية كانت مراكبها ترسو فى الميناء . وصدرت الاوامر بتعيين اللورد شارلس برسفورد حاكما عسكريا لمدينة الاسكندرية ، وحظر التجول فى الشوارع بعد الساعة السادسة مساء .

وبعد ان استقر الانجليز فى المدينة وجه الادميرال سيمور كتابا الى قباطنة السفن بضرورة سحب جنودهم حيث ان جنود الاسطول البريطانى اصبحوا وحدهم المسئولين عن الامن فى المدينة، ثم علق اعلان على جدران الشوارع هذا نصه :

« ان ادميرال القوات البحرية البريطانية فى المياه المصرية كلف من قبل الخديو بالمحافظة على الامن وان يامر باطلاق النار على كل من يحرق بيتا او متجرا ، وان يساق الى السجن كل شخص يوجد فى حالة نهب او تقع عليه شبهة » .

وشرع السكان ينزحون عن المدينة الى داخل البلاد وهم فى حالة من الذعر والهلع ، فتدفقت جموعهم الى محطة السكك الحديدية يستقلون القطارات ويتسلقون اسطح مركباتها ، ومنهم من هام على وجهه فى العراء دون ان يدرى المصير .. كانوا اشبه بافراد أسرة طردوا من ديارهم ، ولكن سكان القاهرة والاقاليم اكرموا وفادة هؤلاء المهاجرين وفتحت ابواب المساجد والمدارس والمساكن امامهم

واضطر عرابى ازاء هذه الخيانات المتراكمة الى ان يخلى الاسكندرية من قواته بعد ان راى الجنود الاجانب يحتلونها بأمر الخديو ، واستقرت هذه القوات فى كفر الدوار حيث شرع فى تنظيمها واقامة الاستحكامات فيها وبلغ عدد هذه القوات حسبما وردت فى احصائية الخديو فى كتابه الى الباب العالى المؤرخ فى ١٦

يوليو : ٤ آلايات كل آلاى عبارة عن الف نفر ، وآلاى مدفعية ، و٣٦ مدفع كروب و ١٢ مترليوز .

وفى الوقت ذاته ابرق عرابى الى الباب العالى يقول :

ان الخديو ومصطفى درويش لجآ الى الانجليز وسلما اليهم البلاد والعباد . كما كتب الى يعقوب سامى وكيل وزارة الحربية فى القاهرة يقول : ان الخديو وافراد اسرته لجأوا الى الانجليز اعداء البلاد وهو الآن مقيم فى مراكبهم .

***

هذه هى ماساة ضرب الاسكندرية ، ماساة البغى والعدوان على شعب مسالم اعزل ، وكان من نتائج هذا العدوان الغاشم ان استقال جون برايت احد اعضاء وزارة جلادستون احتجاجا على هذا الاجرام السافر ، ووزعت فى شوارع لندن نشرة عنوانها « السطو على المصريين — قصة فاضحة » أورد فيها كاتبها بعبارات جلية مستمدة من المكاتبات الرسمية مجمل دسيسة الدائنين الذين حرضوا الحكومة البريطانية على الوقوف ضد المصريين والاعتداء المسلح عليهم .

ونشرت احدى الصحف الفرنسية اعلانا طريفا من باب التهكم والسخرية جاء فيه :

محل البيسون وشركاه — لمبيع الدساتير الجديدة بأثمان رخيصة للدول الصغيرة — مستعد لتوريد السفراء والمعتمدين الرسميين . وتوريد الاساطيل لاطلاق قذائف التدمير والهلاك .

ان هذا المحل المعروف بأقدميته وبراعة وكلائه يتعهد بتوفير اسباب السعادة للشعوب بنفقات قليلة .

وهو على استعداد لان يعالج الاصلاحات المطلوبة وشعاره الكتمان والثقة .

الثورة الوطنية الكبرى

تعبئة الوعى القومى ـ صحافة الثورة ـ الادب والخطابة ـ دور البارودى ـ خادم المصريين عبد الله نديم ـ التطوع فى صفوف الجيش ـ ضباط أجانب يؤازرون الثورة .

كانت ثورة عارمة ضد الظلم والطغيان اللذين استشريا ، وضد كبت الشعور القومى منذ انحلال الزعامة الشعبية بقيادة عمر مكرم ورفاقه المجاهدين الابرار من العلماء وحملة الشريعة وقادة الراى

وكان يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ من الايام الرائعة المشهودة فى حياة الشعب المصرى المجيد ومن المفاخر القومية التى يزدان بها تاريخ الجندى والفلاح والصانع ، وهو بمثابة حد فاصل بين عهدين : عهد الظلم والطغيان ، وعهد الحرية والنور . وكانت المظاهرة العسكرية التى قامت فى ذلك اليوم المشهود هى الشرارة الاولى التى أوقدت الشعلة فى الصدور ، ثم انتشرت الحركة القومية واحتضنته قادة الراى وزعماء الاصلاح والصفوة المختارة من تلاميذ الافغانى الذين تضامنوا على العمل وايقظوا الوعى الثورى فى النفوس ، وتبصير المواطنين بحقوقهم ، واثارة موجة استياء شاملة ضد الحكم الاستبدادى .

كانت انتفاضة عرابى وصحبه هى صيحة الجهاد لطرد الدخلاء ، وكان للثورة التى قادها أثرها العميق فى اذكاء النخوة القومية ، بل انها كانت مظهرا نبيلا من مظاهر اعتزاز المصريين بشخصيتهم وفرض ارادتهم .

وقد شعر المصريون منذ ان وطئت اقدام البريطانيين ارضهم الطيبة بأن فى ذلك اعتداء صارخا على استقلالهم ، وان وجود الاساطيل الاجنبية فى مياههم اعتداء على كرامتهم . فتوحدت كلمتهم وتآلفوا جميعا على طرد الغزاة ، وبذلوا مافى وسعهم من المال والرجال للدفاع عن بلادهم .

والثورات والمحن تشحذ الفكر ، وتصقل الروح ، وتجرى احداثها حكما على الاقلام والالسن ، لذلك كان على قادة الثورة أن يسعوا جهدهم الى تعبئة الوعى القومى ، وتجنيد الكفايات ، وكان عرابى نفسه خطيبا مفوها ، يسحر الجماهير بطلاقة لسانه وفصاحة بيانه ، وكان ايمانه عميقا بحق وطنه عليه .

كان للصحافة اثرها فى ترقية المدارك والافكار بما كانت توالى نشره عن التنويه بحركات الكفاح فى سبيل الحرية فى الغرب ، وكان لها دورها فى الطعن فى مساوىء العهد البائد مثل الظلم فى اقرار الضرائب ومحاباة الاوربين على حساب الكادحين من الشعب ، وسيطرة آل روتشيلد على منابع الثروة فى البلاد . وكثرة الوظائف الرئيسية التى يشغلها الافرنج ، واعانة دار الاوبرا بالوف الجنيهات سنويا على حين ان الشعب فى اشد حالات الضنك ؛ وكذلك حملت الصحافة حملات شعواء على المواخير وبيوت الميسر التى اخذت تنتشر فى القاهرة والاسكندرية تحت ستار الامتيازات الاجنبية ، ثم اخذت تستثير حمية الاحرار بالحملة على الخديو وعلى اعوانه من الانجليز ، وتنشر مقالات ملتهبة ، فمن ذلك : قومى ايتها الامة المصرية فقد فتحت امامك ابواب الحرية . يجب قتل الاتراك والقاء عظامهم فى البحر حتى لا تتلوث بها ارض مصر . العساكر الانجليز هم الذين احرقوا الاسكندرية واتهموا العساكر المصرية بذلك .

كانت معظم الصحف العربية يملكها ويحررها أغراب متمصرون مثل الاهرام لتقلا ، والمحروسة لسليم النقاش ، ومصر لاديب اسحق ، وهذه الصحف كانت تدافع عن العرش ، ولا تنى تدس السم بين السطور لمناهضة الثورة ، ثم هى تحتمى بالامتيازات الاجنبية حتى لايبطش القانون بأصحابها .

والى جانب هذه الصحف ، ولدت جريدة « البرهان » التى يحررها الشيخ حمزة فتح الله فى رحاب القصر لتسبح بحمد الخديو وتحرق البخور أمام العرش ، وتصف عدو مصر الاول بانه « آية من آيات الدهر » ثم تمضى فتقول : « ان الملوك ظل الله على الارض ولا يجوز الخروج عن طاعتهم ولا البغى عليهم » ، وتحمل على مجلس النواب وتزعم بأن « الشورى ليست واجبة حتما على أولى الامر فى الاسلام » . وتتناول عرابى واقطاب الثورة بالاكاذيب

والمفتريات ، وتصف الحرب بين المصريين والانجليز بأنها ناشئة عن حب الذات والمصلحة الشخصية ، وان عرابى يخاطر بدماء المسلمين واعراضهم وبلادهم وكلما اوقد نارا اطفاها الله .

واذا عرفنا ان محرر هذه الصحيفة ليس مصريا قحا بل هو من الاغراب المرتزقة ، وينحدر من سلالة المغاربة الذين استوطنوا الاسكندرية ، ادركنا على الفور سر نقمته على الثورة ورجالها .

وبدت طلائع نهضة فنية وثابة على صفحات الصحف التى يملكها ويحررها المصريون ، وظهرت روح التجديد والابتكار فى الموضوعات التى تعالجها ، فهاهى صحيفة « الحجاز » لمحررها ابراهيم المدنى ، تحمل على الاجانب وعلى الموظفين منهم الذين يتقاضون مرتبات خيالية دون ان يؤدوا عملا نافعا للدولة ، وترد على مطاعن الصحف الاجنبية الخارجية منها والمحلية ، وتفند الاخبار المقلقة التى تذيعها وكالات الانباء بقصد تشويه سمعة مصر ، وقد خشى الخديو من لهجة هذه الصحف التى تلهب شعور القراء بمقالاتها الحماسية ، فأصدر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ « قانون المطبوعات » الذى يخول الحكومة الحق فى انذار الصحف وتعطيلها .

وفى غضون الثورة اضطرت الصحف المتمصرة الى الانزواء والتخلف ، فاصبحت الصحافة قومية خالصة . وصارت لسان حال الثورة وقلبها النابض ، تدافع عن كرامة المواطنين وترفع من قدر العاملين منهم ، وتنوه بامجاد جيش مصر المظفر ، وتفصل ماخفى من مساوىء اسرة محمد على ، وتهيب بالمصريين على التمسك بحقوقهم التى سلبها الاغراب منهم .

وظهرت من صحف الثورة جريدة « الفسطاط » لمحررها عبد الغنى المدنى ، وكانت خطتها مشبعة بالتطرف ، فهى تحرض الشعب على الالتفاف حول راية عرابى ونبذ طاعة الخديو ، ثم صحف « السفير والنجاح والمفيد » لمحررها حسن الشمسى ، وهى جميعا تمثل روح الثورة وتنشر المقالات الضافية التى تغرس بها بذور القومية فى النفوس ، وتحمل على الوان الظلم والاستبداد ، وتبصر المواطنين بمعانى الحرية والدستور والاستقلال ، وكثيرا ماكانت صحف الشمسى تحتجب الواحدة تلو الاخرى لبطش حكومة الخديو بها فيتحايل على اصدارها بطرق شتى .

وكان عبد الله نديم يحرر صحيفة اسبوعية اسمها « التنكيت والتبكيت » فطلب عرابى الى ادارة المطبوعات تسميتها باسم «لسان الامة » نظرا الى « دخولنا فى عصرجديد وفوات زمن التنكيت»بيدان محررها اختار لها اسم « الطائف » وعطفت عليها حكومة الثوره ماديا وادبيا ، وخصتها وحدها بنشر مضابط مجلس النواب ، وانتشرت الطائف انتشارا واسع النطاق ، وصارت تعالج الموضوعات السياسية الخطيرة ، اما بقلم النديم الذى كان شعلة من نار أو مساعده احمد سمير ، وتدافع عن اقطاب الثورة وترد على مزاعم الصحف المعادية وكانت هذه الصحيفة بمنجى من مقص الرقيب لانها انتقلت الى « معسكر كنج عثمان » مقر قيادة الجيش المصرى وصارت تحرر من هناك .

وقد نشرت « الطائف » سلسلة مقالات عن الخديو اسماعيل ومباذله ومآثمه ، وردت اليه كيده فى نحره عندما افضى بتصريحات الى الصحف الاجنبية محاولا النيل فيها من عرابى وزعماء الثورة ، ثم انتقلت الى الحملة على الخديو توفيق فى لهجة قاسية عنيفة ، فهى تعيره بارتمائه فى احضان اعداء الوطن وتتهمه بالتآمر على مصر وصارت « الطائف » تنشر البلاغات الرسمية التى تصدرها القيادة العامة عن الحرب بين المصريين والانجليز .

ولعبت جريدة « ابو نظارة » دورا خطيرا فى الثورة باعتراف الخديو نفسه فى تقريره الى الباب العالى ، فهى تطلق على عرابى اسم « سيد العرب » وتصف الخديو « بالواد الاهبل » وتحرض المصريين على خلعه ، وتمضى فتقول : يوم استعراض المحمل العساكر المصرية ، وهم عابرين امام الحضرة الخديوية ماحدش منهم قال يعيش توفيق ، والحق فى ايديهم لان الجهادية ، اصبحت ذليلة تحت الوزارة الرياضية ، يرسلوهم فى المأموريات اللى ماينتج منها الا العار والممات ، وللجركس يعطوا الرتب العظيمة ، والسرارى الحلوة ، والانعامات الكريمة ، لكونهم من جنس عثمان رفقى ناظر الحربية ، مساح جوخ الحضرة الرياضية ، فاشتكى الضباط الجدعان للواد وللوزير ، من ناظرهم عديم التدبير » .

وقد عمدت حكومة رياض الى مصادرة هذه الصحيفة ومعاقبة كل من توجد فى حوزته نسخة منها بالسجن والغرامة . ومع ذلك

فقد كانت نسخ الصحيفة تصل سرا الى ايدى الاحرار على الرغم من المصادرة والبطش ، ومضت فى حملتها ونصائحها ، واعلن محررها سخطه على « رجال مصر الذين سلموا فى حقوقهم فجعلوا انفسهم مطايا للوزراء والخديويين الذين استنزفوا اموال مواطنيهم وقبلوا الذل فاصبحوا عبيدا بين امم لا سيد فيها ولا مسود » .

وتشتد حملة صنوع على الخديو فيتهمه صراحة بتدبير حريق الاسكندرية بالاشتراك مع ماليت ، الى ان يقول : « ارقصى وغنى ياتوفيقه ، وسلى عشيقك كلب البحر سيمور » .

***

وتولدت نهضة فكرية فى الادب والفنون ، ورائدها بعث الوعى القومى والاقتداء بالامم الحرة فى الثورة على الاستبداد والتطلع الى الحرية ،وصار الشعراء ينشدون قصائدهم الحماسية فى المحافل والمجتمعات ، والكتاب يوقفون أقلامهم على التغنى بأمجاد الوطن ، والخطباء يعتلون اعواد المنابر فى المساجد والمجالس والنوادى للدعوة الى الثورة ونبذ طاعة الغرباء والتحريض على الجهاد ضد الانجليز ، وكان عرابى والبارودى وعبد العال حلمى يتصدرون هذه الحفلات، فيقابلهم المواطنون بالتكبير والتهليل ، وظهر عرابى فى صورة البطل المنقذ ومحرر الوادى ووزعت الوف النسخ من صورته فى انحاء البلاد كافة واحتلت مكان الصدارة .

وانجبت الثورة عددا من رواد النهضة الفكرية ، من بينهم الشيخ الحسين المرصفى من اساتذة دار العلوم الذى وضع كتاب « الكلم الثمان »بقصد ان يعرف الشباب بمعانى : الامة والوطن والحكومة والعدل والظلم والسياسة والحرية والتربية ، وهى الكلمات التى كانت تجرى على الالسن ، ويلهج المواطنون بذكرها فى كل مكان ، فاراد هو ان يزيدهم تعريفا بمعانيها ، وان تكون بمثابة النبراس يهتدون بضوئه فى كفاحهم الشاق المرير .

وكذلك قاد الوعى الثورى ، البارودى وعبد الله نديم ومحمد عبده وحسن العدوى وسعد زغلول وفتحى زغلول ، الى غيرهم من حملة الاقلام الذين استطاعوا أن يبصروا بنى قومهم بما يخطبون وما ينشرون من الكفاح فى سبيل التحرير .

كان البارودى على راس شعراء جيله ، فهو زعيم سياسى ، وقائد عسكرى ، وشاعر مطبوع صادق الشاعرية ، فى عصر انصرف فيه غيره الى الزخرف والصنعة ، فاستطاع ان يوجه الحياة الادبية، وان يكون مدرسة مستقلة لا تتخلى عن الموسيقى الشعرية فحسب ولكنها تعنى الى جانبها بصدق الشاعرية .

وقد انحدر البارودى من سلالة يرقى نسبها الى حكام مصر من المماليك ، تلك هى سلالة السلطان برسباى ، ولكنها كانت قدتمصرت منذ اجيال ، وغلبت عليها العادات والتقاليد المحلية واللسان العربى فطبعتها بالطابع المصرى العظيم .

واندفع البارودى منذ شبابه يطالع الشعر العربى القديم حيث سجل العرب فى قصائدهم أروع الحروب وصوروا شتى ميادينها واشادوا بابطالها ، فتحركت نفسه لقول الشعر الحماسى، والافتخار بماضى الجدود من عرب وعجم ، وانفرد فى شعره عن غيره من شعراء عصره الذين كانوا يتكسبون بقصائدهم ويتخدون الشعر ملهاة وتجارة ومورد رزق .

وسافر الى استامبول عقب تخرجه فى المدرسة الحربية حيث التحق هناك بمنصب فى وزارة الخارجية العثمانية ، وعكف على دراسة اللغتين التركية والفارسية واستظهر ادابهما ، على ان السليقة العربية كانت اصيلة فى نفسه فتغلبت على ما تعلمه عن الاتراك والفرس .

ثم عاد الى وطنه وقد اكتمل شبابه واستوى ذهنه ونضجت افكاره ، فولى قيادة احدى كتائب الفرسان فى الجيش ، واسهم فى حروب كريت وروسيا والبلقان اى الحروب التى كانت مصر تساعد فيها الدولة العلية ، واخيرا عين كاتم اسرار الخديو اسماعيل فمديرا للاوقاف .

واتصل البارودى بالافغانى ومحمد عبده ودعاة الاصلاح والشورى واعضاء الحزب الوطنى وجماعة الماسون الاحرار ، فعرف مطالب الامة وما تحتاج اليه الحكومة من رقابة واصلاح ، وكان مخلصا فى اسداء النصح ، يمقت الرياء والمداهنة ، صريحا الى ابعد حدود الصراحة . ونازعت نفسه الحيرة : ايظل على ولائه لصاحب

العرش ام يصادق الشعب الذى اختصه بمحبته وتغنى فى شعره وادبه بامجاده وامانيه ؟ .

واندفع فى الثورة يؤازرها بما يملك من عقل راجح ونسان طلق مبين وايمان برسالة عرابى وزعامته ، فكان البارودى احدى عبقريات الثورة ، نفحها باخلاصه ووقف عليها خطرات فؤاده واختصها بنفثات يراعه .

ومن شعر البارودى الذى يمثل ثورته على الضيم والاستبداد ، ويحرض بنى قومه على الا يركنوا فى كفاحهم الى التوانى والتواكل :

فياقوم هبوا انما العمر فرصة … وفى الدهر طرق جمة ومنافع
اصبرا على مس الهوان وانتم … عديد الحصى انى الى الله راجع
وكيف ترون الذل دار اقامة … وذلك فضل الله فى الارض واسع
ارى ارؤسا قد اينعت لحصادها … فاين ، ولا اين ، السيوف القواطع
فكونوا حصيدا خامدين او افزعوا … الى الحرب حتى يدفع الضيم دافع
اهبت فعاد الصوت لم يقض حاجة … الى ، ولبانى الصدى وهو طائع
فلم ادر ان الله صور قبلكم … تماثيل لم يخلق لهن مسامع
فلا تدعوا هذى القلوب ، فانها … قوارير محنى عليها الاضالع

وقال البارودى يعرض بالحاكم المستبد :

يايها الظالم فى ملكه … اغرك الملك الذى ينفد
اصنع بنا ما شئت من قسوة … فالله عدل ، والتلاقى غد

وصور حالة مصر فى ظل حكم اسرة محمد على وهاجم بعنف حكامها :

من كل وغد يكاد الدست يدفعه … بغضا ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت … قواعد الملك حتى ظل فى خلل
واصبحت دولة الفسطاط خاضعة … بعد الاباء وكانت زهرة الدول
بئس العشير وبئست مصر من بلد … اضحت مناخا لاهل الزور والخطل
ارض تأثل فيها الظلم وانقذفت … صواعق الغدر بين السهل والجبل

ووصف ثورة الشعب على الظالمين وتوقع الحرب بين لحظة واخرى بقوله :

تنكرت مصر بعد العرف واضطربت
قواعد الملك حتى ريع طائره
واستحكم الهول حتى ما يبيت فتى
فى جوشن الليل الا وهو ساهره
انى ارى انفسا ضاقت بما حملت
وسوف يشهر حد السيف شاهره
شهران أو بعض شهر . أن هى احتدمت
وفى الجديدين ما تغنى فواقره

وكذلك قصيدته التى ذم فيها الخديو توفيق :

وما انا بالمغلوب دون مرامه
ولكنه قد يخذل المرء جهده
ابى الدهر الا ان يسود وضيعه
ويملك اعناق المطالب وغده
تداعت لدرك الثأر فينا ثعالة
ونامت على طول الوتيرة أسده
اذا المرء لم يدفع يد الجور ان سطت
عليه فلا يأسف اذا ضاع مجده
ومن ذل خوف الموت كانت حياته
اضر عليه من حمام يشوده

وتعد قصائد البارودى السياسية نغمة جديدة دخلت الى الشعر العربى وفيها تصوير دقيق لحالة مصر رسمتها ريشة فنان عبقرى

وحذا حذو البارودى طائفة من الشعراء الاحرار ، ومن بينهم احمد عبد الغنى احد علماء الازهر الذى نظم قصيدة مطولة يحث فيها مواطنيه على الجهاد ومنها :

لعمرك ليس ذا وقت التصابى ... ولا وقت السماع على الشراب
ولا وقت الجلوس على المقاهى ... ولا وقت التغافل والتغابى
ولكن ذا زمان الجد واف ... وذا وقت الفتوة والشباب

ووقت ليس فيه يليق الا الا قامة بالقلاع والطوابى
ووقت فيه الاستعداد فرض لتنفيذ الاوامر من عرابى
وقوموا بالثبات على الاعادى وقولوا فيهم فصل الخطاب
وان سالوكم من بعد هذا فما غير المدافع من جواب

ومن قصيدة للشيخ احمد سيف عبد البارى :

اذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابيا يمينا

وانشا الشيخ المرصفى قصيدة مطلعها :

ياصاح قم واشكر الهك واحمد فالدين منصور على يد احمد

وطبع الشيخ يحيى عبد الغنى السلاوى قصيدة على ورق فاخر ذات مقاس كبير وبماء الذهب اهداها الى « سعادتلو احمد عرابى باشا ناظر الجهادية والبحرية ورئيس الامة الفائزة المصرية » وقد استهلها بقوله :

« يقول الراجى غفران المساوى خادم وطنه واخوانه يحيى بن عبد الغنى ابن احمد السلاوى . لما كانت المآثر الخيرية من اهم ما يذكر والغيرة الاسلامية على الحقوق الوطنية مما يثاب عليه المرء، فقد عنيت بذكرى مناقب الامة المصرية والعصابة العسكرية الذين وفقهم الله على رأس هذا القرن الجديد المانوس بناموس دولة الملك الاجل المجيد ، فأعزوا كلمة الحق بالاتحاد ، وحفظوا حقوق وطنهم بزوال الاستبداد » .

والقصيدة تقع فى نحو مائة بيت ومطلعها :

شغل العدا بتشتت الاحزاب والله ناصرنا بسيف عرابى
وقولوا يا عرابى مر بامر فانت ذو الامر المجاب

ونظم الشيخ محمد النجار زجلا جاء فيه :

افضل اقضى العمر فى كانومان ياودن طنى كل ساعة حبر

وجاء فى قصائد اخرى :

وانا لقوم لانرى القتل سبة اذا ما رآه ولسلى وسيمود

وقال شاعر آخر :

نوال المعالى من طعان الكتائب ... ونيل الامانى من ثمار المتاعب
وقهر الاعادى بالتدبر أولا ... وبعد باشهار السيوف القواضب
ومن كعرابى فى البرايا وحزبه ... اولى العزم اصحاب القنا والقواضب

وكان الجنود المصريون ينشدون فى المعارك الحامية الوطيس ضد الانجليز الشعر الحماسي ومنه :

بنى العرب هيا لايعيش جبان ... فجسمي وروحى همة وجنان
انا النار تذكو غيران لهيبها ... به العرض فى وسط الوجود مصان

ونظم يعقوب صنوع قصيدة مطولة بعنوان « القول الوجيز فى دخول الانجليز » نجتزىء منها قوله :

ياراوى الدهر حدث عن ابى العجب
واندب زمان التصافى يا اخا العرب
ما بين جهل وحقد ضاع سؤددنا
واستأصلتنا يد الارزاء والكرب
هذا العزيز تخلى عن سيادته
للانجليز ولم يقبض سوى الكذب
مصر الفتاة ابو سلطان اسلمها
وانما سلم الاسلام بالذهب

***

ونشطت الخطابة السياسية بفضل جهود طائفة من علماء الدين وشيوخ الازهر الذين كانوا يضمنون خطبة الجمعة الآيات البينات فى الحث على الجهاد ونصرة المؤمنين ومن بينهم عبد الله نديم ، وعلى المليجى وحميدة الدمنهورى ومحمد ابو الفضل ومحمد فتح الله وحسن العدوى ، واصبح اسلوب الخطابة خاليا من قيود السجع والصنعة ؛ متضمنا الكثير من المبادىء والافكار التى تقوم عليها حركة التحرير ، منوها بمبادىء الدستور والتمسك بحقوق الوطن ، والحث على رعاية الواجب المفروض على كل مصرى نحو امته ، ويدعو الى التمسك بأسباب القوة والاتحاد وقهر الاعادى .

فمن ذلك ماجاء فى خطبة الشيخ محمد ابو الفضل اذ قال :

« ان مصرنا قد كادت ان تكون دار حرب لادار سلام ، فقد اهين فيها الوطنى وعظم اللئام حتى صاروا رؤساءالدواوين فطغواوبغوا» .

وقال الشيخ حميده الدمنهورى فى خطبة الجمعة :

« قوموا لمحاربة اعداء الله واعدائكم الطغاة البغاة وقاتلوهم حتى يكون الدين كله لله ، وان الجهاد قد أصبح فرضا علينا واجبا لدخول الاعداء فى بلادنا » .

وقال الشيخ على المليجى :

« قد شرع رئيس المجاهدين احمد عرابى المؤيد بنصر من عندالله فى المدافعة عن حوزة الامة ورد من كانوا السبب فى تشويشها ، وقد باع نفسه وجيشه فى سبيل الله » .

وطفق العلماء فى الازهر وفى جميع المساجد يقرءون البخارى ويدعون لمصر بالنصر والتأييد ، وكان الشيخ الابيارى فى طليعة المتحمسين للدعوة فنشر قصيدة ابراهيم دريد فى غارة التتار على بغداد واضفى اليها ابياتا من نظمه فكان افراد الشعب يتلونها فى صوت مرتفع عقب قراءة البخارى .

وكذلك وضع الشيخ حسن العدوى دعاء يتلوه ائمة الوحدات العسكرية هذا نصه :

« اللهم ان تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعدها فى مصر . اللهم عليك بالانجليز ، اللهم اشدد وطاتك عليهم ، وانزل بهم بأسك الذى لاترده عن القوم المجرمين ، اللهم انا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم ، اللهم أحصدهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا ترد منهم أحدا ، انك على كل شىء قدير » .

***

وبدت فى شخصية عبد الله نديم — خطيب الثورة وبوقها — صفات المعلم الاول ، وتمثلت فيها صورة اديب الشعب وخادمه ، ولذلك خلع الكتاب الاوربيون عليه لقب « خادم المصريين » .

والواقع ان نديم خرج من بين صفوف الشعب ليقود خطاه نحو مواطن الخير ، فكان يجوس خلال المدن والقرى يدعو المواطنين الى نصرة الثورة ويستفزهم الى الاستماتة عن حقوقهم وطرد الدخلاء والمغيرين ، وكانت اناشيده الحماسية يتغنى بها الشعب ويرويها

الاطفال فى غدواتهم وروحاتهم اعجابا بها واحتفاظا بأسلوبها ولحنها المشجى السهل ، فمن ذلك :

فلوسنا راحت المانيا والا ايطاليا
والا فرنسا فى الهزيان
بدال ما اقلد اوربى فى اكلى وشربى
ما اقلده فى حب الاوطان
واللى يشوف صرف اموالنا فى أهوالنا
يقول بلادنا دى مرستان
كانت بلادنا دى جنة وشنة ورنة
صبحت لاهليها خسران

وكان النديم قوى الحجة : فصيح اللسان ، عذب المنطق ، خبيرا بعادات جميع طوائف الشعب وميولهم ، فطفق يجوب انحاء البلاد من اقصاها الى اقصاها ، يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ويقص عليهم احاديث مؤثرة عن اجدادهم ، وما حل بهم من جور واستعباد وما الم بمصر من تخريب ودمار ، وكان يرقى منابر الخطابة فى المساجد وفى الحفلات وفى الاعراس فيخطب الساعات وعيناه تذرفان الدمع وصوته يتهدج حتى كان يخلب الباب سامعيه ويستولى على عقولهم .

وقد ولد عبد الله نديم من والد يعمل خبازا فى احد الاحياء الوطنية بمدينة الاسكندرية ، وأراد أبوه ان يخلق منه عالما دينيا وشيخا معمما ، فدفع به الى مسجد الشيخ ابراهيم ،وكان التدريس يجرى فيه على نمط الدراسة فى الازهر ، فلم يصادف هذا اللون من التعليم هواه ولا اتفق مع مزاجه ، بل سرعان ماهجر الدرس ، وصار يغشى المجالس الادبية ، يستمع الى قصائد الشعراء ونوادر الظرفاء وأحاديث الطبقة المستنيرة ، وتاقت نفسه الى ان يغدو اديبا من الطراز الشائع فى عصره ، ولكن من اين له المال الذى يعيش منه ، ان صناعة القلم كانت لاتطعم صاحبها خبزا ، وكانت حرفة الادب هواية اكثر منها احترافا .

وحاول ابوه ان يوجهه وجهة اخرى حينما يئس من تعليمه، فدفع به الى من يدربه على فن الاشارات التلغرافية . وسرعان ما اصبح النديم عامل تلغراف فى مدينة بنها ، ثم نقل الى مكتب تلغراف القصر العالى حيث تقيم الاميرة خوشدار والدة الخديو اسماعيل ... فى

هذا القصر الباذخ المطل على النيل والذى يغص بمئات الجوارى والخدم والخصيان ، استطاع النديم ان يرى عن كثب الوانا من الترف والنعيم ترفل فيها الطبقة الحاكمة وان يقارن ذلك ببؤس واملاق الطبقات الشعبية التى خرج منها .

وفى القاهرة اتاحت له الفرصة ان يتردد فى اوقات فراغه على مجالس الادباء ، وكانت هذه المجالس تعقد فى « سلاملك » القصور وفى « منادر » المنازل حيث يفد فى المساء سمارها من علية القوم والادباء والشعراء والظرفاء ، وهى اشبه بالصالونات التى انتشرت فى فرنسا فى غضون القرنين الماضيين .

كان فى طليعة هذه المجالس ندوة الشاعر محمود سامى البارودى ، وكانت تضم خلاصة الطبقة المثقفة ، فاتصل النديم بها ، وتوثقت الصلة بينه وبين روادها وسمارها ، فشرب من منهلهم ، وانطبعت فى ذهنه صور حية من افكارهم وطراز تفكيرهم ، وصار يحاكيهم فى انتاجهم ، الى ان تجلت موهبته فى الكتابة والنظم ، ووجد فى نفسه القدرة على ان يصور حياة الطبقات الكادحة وان يرسم لوحات حية من بؤسها وشقائها .

وحدث ان ارتكب هفوة فى عمله بالقصر العالى ففصل منه وسدت ابواب الرزق فى وجهه ، فانتقل الى مدينة المنصورة يقيم عند احد العمد ويعلم ابنه القراءة والكتابة ، ثم ساعده احدالموسرين بمبلغ من المال واعانه على افتتاح دكان يبيع فيه عصابات للرأس ، ولكن النديم اخفق فى تجارته اذ حول المتجر الى ندوة ادبية تجمع الادباء والشعراء ، فيقضون ساعات برمتها ينشدون الشعر ويتحدثون فى الادب وفى التعليق على المسائل السياسية التى تشغل وطنهم ، وسرعان ما اغلق المتجر ويمم وجهه شطر مدينة طنطا يلتمس الرزق عند حاكمها ، فاخذه الى مجلسه . ينشد الشعر ويروى النوادر ويساجل طائفة من الشعراء المتجولين الذين يتكسبون بما ينشدونه من شعر المديح امام بيوت السراة .

وهفت نفسه للعودة الى مسقط راسه ، فرجع الى الاسكندرية واخذ يتردد على ندوات الادب التى الفها فى نشاته غير انه الفاها على غير ما تركها منذ سنوات ، كانت هذه الندوات يوم ان فارقها

النديم لا تردد سوى الشعر القديم ولا تمدح سوى شخص الخديو ومن يلوذون به من رجال الطبقة الحاكمة ، ولا تروى سوى النوادر الغثة الممجوجة ، ولكنها اليوم تخوض فى المسائل القوميـــة التى تشغل الاذهان ، تتحدث عن حالة مصر وما اصابهـــا من غبن ، ووقوعها فى قبضة الاستعباد الاقتصادى . واخيرا سمع عن جماعة تعرف باسم « مصر الفتاة » يجتمع انصارها سرا فيتـــداولون فى شئون وطنهم ويشخصون امراضه ، ويرسمون الخطط لانتشاله من وهدته ، ويرددون تعاليم الافغانى وخطبه وبياناته السياسية ، فانضم النديم اليهم واحتل مكانة مرموقة بينهم .

ترك هواية الادب والشعر والزجل واقبل على معالجـــة فنون السياسة ، تارة على صفحات الصحف ، واخرى خطيبا فى المحافل والاندية ، وهداه تفكيره الى ان يخرج بهذه الجماعة من الظلام الى النور ، ومن السرية الى العلنية ، فدعا الوجـوه وقادة الـراى الى المساهمة فيها . وبذل المال فى سبيل بث الشعور القومى ، وتعريف النشء معانى الوطنية . وقامت الجمعية بانشاء مدرسة على طراز جديد ونهج قويم ، فكانت تقوم بتلقين النشء دروسا فى حقـــوق الوطن وتبصره بالحياة الكريمة الحرة .

والواقع ان افكار النديم كانت تدور حول اذكاء روح الحماســة الوطنية بتعليم الشعب وتنمية مداركه القومية ، والشعب لايتحمس الا اذا تعلم تعليما قوميا واحس وادرك ان له مثلا اعلى يجب ان يسعى الى تحقيقه ويستمد منه قوته ، حينئذ يصبح شعبا رشيدا لا يغضب الا لحق ولا يرضي بباطل ، ولا ينظر للرجـال بل يزن اعمالهم ، لان كل فرد بمثابة حارس امين لمصالح الامة ، فتهـذيب الشعب تهذيبا قوميا فى نظره ليس مسايرة للظروف ولا مجـاراة للمدنية ، بل هو ضرورة وطنيـــة لتفهم الامـــة ماتريد وما يراد منها ، اردا بخطته هذه ان يحارب الحاكم المستبد بجنود لايراها : الوطنية المتقدة ، والمدنية الصحيحة ، فقد حوت الفكرة كل معـانى التضحية والقوة .

لقد عبر هذا الاديب الشعبى فوق الحاضر وجاء من جانب المستقبل يحمل معه حماسة الوطنى المستقل وشجاعة المتفانى فى العقيـدة ، وعزيمة المضحى بما يملك وعناد المؤمن بقضيته .

استمد النديم من عقيدته قوة لتنفيذ افكاره ، نادى بتعبئة القوات الوطنية العاملة ، الاتحادوالتعليم والثورةوالاصلاح الاجتماعى كل هذه جيوش قاهرة من مظاهر الحياة القومية لو عبأها الوطن لاستمد قوته من نفسه ، من قلوب بنيه التى تشتعل كالجمر ، فيقدح الشرر منها فى اغراض الطامعين فيحرقها ، قلوب تثبت ان مصر لم توجد لتؤكل وتسخر ، ولم تخلق لتذل وتهان ، بل لتعلن للعالم انها وطن عزيز موفور الكرامة ، وان الوطنية فيها طوفان يغرق كل ما يعوق الامة عن نهوضها .

اخذ النديم يلقى دروسا على طلاب مدرسته فى فنون الخطابة والالقاء والتمثيل ، ووضع لهم مسرحيتين قوميتين هما : الوطن والعرب . تجلت فيهما روحه الوطنية واشاد فيهما بامجاداسلافه، واجرى لغة الحوار فيهما بالعامية لان الشعب هو الذى يمثلها ، اما بطلها فهو الوطن الجريح ، وقد اشار فى الاولى الى عدم اكتراث العامة بمصالح البلاد القومية وانصرافها الى الخمول وشرح امراض الشعب وجعل اساسها الفقر والجهل وصور الوطن وهو يتميزغيظا اذ يشهد الفاجعة تمثل بين بنيه على ارضه .

واتجه الى الصحافة ينشر على صفحاتها ثمار مبادئه وظلال افكاره ، فكانت مجلته « التنكيت والتبكيت » فى طليعة صحف عصره ، عالج على صفحاتها المشكلات الاجتماعية وحارب الخرافات والبدع المستهجنة ، ورسم خطط الاصلاح ، ونقد السياسة العليا وشئون الحكم باسلوب اخاذ مزج فيه الهزل بالجد .

ولما خرجت الحركة التى يقودها عرابى الى صميم الشعب وجد النديم فيها بشيرا لوطنه ولمس فى مبادئها اتفاقا مع الافكار التى كان يعمل على بثها ، فانضم بجوارحه اليها ، يدعو اليها بلسانه وقلمه، ويتنقل بين المحافل والمساجد والمجتمعات يخطب مبينا مزايا الحركة ، شارحا الفرق بين الظلمة والنور ، والاستبداد والحرية والرجعية والاصلاح .

وانتشر تلاميذ النديم فى كل بيئة ومجتمع ، يعتلون اعواد المنابر ويهزون النفوس ويدعون الى التمسك بحقوق الوطن وتعميم التعليم وسن القوانين التى تكفل حرية الفرد وانشاء مصرف مالى يحمى الفلاح من استغلال المرابين ويشهرون باضاليل الاجانب .

كان النديم لسان الثورة الناطق ، يخطب فى الازهر وفى المساجد

وفى كل بيئة ومجتمع ، وكان مواقفه مشهودة واحاديثه معدودة ، فساعد على ايقاظ الشعور القومى وتكوين الراى العام .

واختار لصحيفته اسم « الطائف » تيمنا باسم مدينة الطائف بالحجاز ، والى انها تطوف بأرجاء المعمورة كما كانت صحيفة « الجوائب » لاحمد فارس الشدياق تجوب انحاء البلاد العثمانية ، واخذ ينقد على صفحاتها تصرفات الخديو اسماعيل التى أوردت مصر موارد التهلكة ، ويشرح بؤس الفلاح بين السخرة وفداحة الضرائب ويعير الخديو توفيق بارتمائه فى احضان المستعمرين ، واخيرا نقل مقر صحيفته الى معسكر الجند ، يحرضهم على الدفاع والاستبسال ويهيب بأفراد الشعب ان يلتفوا حول الجيش ويؤازروه بما يملكون من مال ومؤن .

***

وكانت حكومة توفيق عندما نفت الافغانى من مصر قد عمدت الى اكبر تلاميذه محمد عبده فعزلته من منصب التدريس فى دار العلوم والزمته بالاقامة فى قريته فلا يبرحها ، اذ اتهم بانه كان قد دبر خطة لاغتيال الخديو اسماعيل ثم صرف النية عن ذلك وسعى الى خلعه بالاتفاق مع الافغانى وقناصل الدول ، واخيرا تدخل بعض الخيرين فى الامر لدى رئيس الوزارة رياض فعهد اليه برياسة تحرير الصحيفة الرسمية ، حيث خصص فيها قسما للنهضة الادبية ، واخذ يحارب على صفحاتها التقاليد والخرافات الدينية التى أفسدت روح الاسلام والحياة الاجتماعية .

كانت شخصية محمد عبده متعددة الجوانب ، فهو مصلح دينى واديب جهير ، وصحفى نابه ، ومعلم للشعب ، بيد ان مايعنينا من هذه الجوانب جميعا ابراز علاقته بالثورة .

كان اقطاب الثورة ينظرون الى محمد عبده كقائد افكارهم والمعلم الاول لهم ، ويحلفون بيمين الطاعة للوطن وما فيه نفعه بين يديه ، ثم نشر سلسلة مقالات يؤيد فيها نظام الحكم النيابى واثره فى تقويم الحاكم ومراقبة تصرفاته كما نشر مقالات اخرى عن حب الوطن والذود عنه ، ومن مواقفه المأثورة القسم الذى وضعه للضباط ، حيث جمعهم فى تكنة عابدين وحلفوا على المصحف :

« والله العظيم — ثلاث مرات — قاهر السموات والارض، المتسلط على القوى والقدر ، وحق ما فى كتاب الله تعالى اننى وانا فلان لا اخون وطنى ، ولا اخون نفسى ، ولا اغش احدا من اهل بلادى ، واحافظ على عرضى وعلى دينى ، وعلى عرض اهل بلادى ، ولا ادع احدا ايا كان يتعدى على احد من اهل بلادى مادمت قادرا على منعه ، واننى احافظ على النظام ، وعلى القانون العسكرى بكل ما يمكننى وبقدر استطاعتى ، واذا حنثت فى يمينى هذه ، اكون مستحقا لقطع الرقبة ، وشق الصدر ، واكون محروما من مزايا الانسانية والآداب »

***

ظن الانجليز بعد تخريبهم قلاع الاسكندرية ثم احراق المدينة ان الثورة ستقمع وتطفأ شعلة الوطنية التى تتأجج فى الصدور ، بيد ان احلامهم طاشت عندما رأوا الشعب يلتف حول راية عرابى ويتفانى فى الدفاع عن ارضه ... وانهالت طلبات التطوع فى صفوف الجيش ، من الوف الفلاحين والعمال والصناع ، يحفزهم جميعا الشوق الى قتال الانجليز ، وتقدم الكثيرون من الضباط الايطاليين والالمان والسويسريين لنصرة الجيش المصرى ، وقال الزعيم جاريبالدى فى رسالة له الى عرابى انه يعلن انضمامه بفرقة من خيرة جنوده الى مصر ، وقامت فى الهند حركة بين المسلمين تشايع مصر وتؤازرها فى وثبتها ، وابدى الالوف من الهنود رغبتهم فى التطوع للدفاع عن مصر ، وفى بنى غازى وافريقية الشمالية اسس الشيخ زعير جمعية لاعانة عرابى وامداده بالمال والرجال ، بيد انه لم يمكن لمتطوع واحد الوصول الى مصر نظرا للحصار البحرى الذى فرضه الاسطول البريطانى على شواطئها .

اعلنت الحرب بين المصريين والانجليز رسميا بصدور قرار مجلس الوزراء فى ١١ يوليو ١٨٨٢ اذ جاء فيه : « حيث بدأت الحرب بيننا وبين الانجليز ، فبمقتضى القانون تكون الادارة تحت الاحكام العسكرية والخيول والبغال الموجودة جميعها بالمديريات والمحافظات ترسل لديوان الجهادية بأثمان موافقة » .

نشبت الحرب ولم يكن فى خزانة الدولة قرش واحد لان المراقب المالى كلفن سطا على اموال الحكومة وشحنها فى خزائن حديدية

واودعها فى مراكب الاسطول البريطانى ، وكذلك حمل اعضاء صندوق الدين الاموال المودعة فى عهدتهم الى الاسطول .

وقد جمعت نفقات الجهاد من تبرعات المجاهدين ، فى سبيل الدفاع عن وطنهم وحفظ كرامتهم وشرفهم ، وانهالت التبرعات على قيادة الجيش من مختلف طوائف الشعب ، فامتلأت المخازن الحكومية بالخيل والحبوب والمؤن والبقول والسمن والاقمشة والاربطة لتضميد جراح الجنود ، ومن المواطنين من تبرع بنصف ما يملكه من القمح والمواشى ، ومن عرض اولاده جميعا للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه .

وفى الاجمال فقد اظهر الشعب نبلا وكرما مما لم يسبق له مثيل فى اية حقبة مرت به ، فبلغ عدد المتطوعين زهاء المائة الف ، وقيمة التبرعات ما يزيد على المليون جنيه ، واظهر الموظفون جميعا غيرة وحمية فى جمع المؤن وتجنيد المطلوبين للخدمة العسكرية ، فكانوا يقولون للرجل : انك ستحامى عن وطنك وعرضك وتدفع عنهما شرور المغيرين .

وكان الشبان يمرحون فى العاصمة ليلا يتغنون بمديح عرابى ، وفى اى اجتماع يجرى فيه ذكر الجهاد كانوا يدعون الله بطلب النصر للجيش المصرى الباسل ، ويهتفون بقولهم : الله ينصرك ياعرابى بجيش المؤمنين .

تغلغلت الثورة فى اعماق النفوس وظهرت القومية المصرية فى اجلى معانيها ، وقويت شوكة الفلاحين ، فكانوا يقبلون على الاقطاعيين من العثمانيين الذين يمتنعون عن دفع التبرعات ويقولون لهم :

— هل اتيت من بلادك باطيان ؟ فما هذه الارض الا ارضنا ، ونحن ابناء الوطن لايحق لغيرنا ان ينتفع بها ، اتيمتونا فقراء لاتملكون ارضا ولا فلسا فصرتم الآن اصحاب تفاتيش زراعية وعقارات تحرموننا من خيراتها .

وكان بعضهم يعمد الى قطعة الارض ويقتسمونها بقولهم :

— هذه الارض لك وهذه لى .

ثم يلتفتون الى صاحب الارض التركى ويقولون له :

— اخرج من بلادنا كما جئتها .

اما الافرنج الذين كانوا يقيمون فى القاهرة فى ابان الثورة وفى اثناء

الحرب بين مصر وبريطانيا فلم يمسسهم ضرر لانهم كانوا بعيدين عن مركز الفتن والقلاقل التى مصدرها الاسكندرية فضلا عن ان حكومة الثورة رتبت للفقراء منهم ثلاثة آلاف وجبة طعام فى اليوم ومنحت الراهبات الفرنسيات اعانة قدرها الفى جنيه .

والواقع ان هذه الثورة كانت ثورة شعب بمعنى الكلمة ، وقد ايقظت المعانى النبيلة المستكنة فى النفوس ، فقوى شعور الاعتزاز بالوطن وهب المصريون كرجل واحد لطرد الغزاة ومكافحة الاغراب الذين يلوذون بهم .

—•—

عرش مصر فوق بركان

هزمنا الانجليز فى كفر الدوار ـ الحرب الباردة بين القصر والثورة ـ وثيقة عزل الخديو توفيق ـ نشوء فكرة الجمهورية ـ التطاحن حول العرش ـ تدفق المدد على الانجليز ـ الخيانة والرشوة .

—•—

انسحبت حامية الاسكندرية فى اعقاب ضرب المدينة بمدافع الاسطول البريطانى ، الى كفر الدوار حيث اقيمت خطوط الدفاع عن شمال الدلتا . وعين المهندس محمود فهمى باشا رئيسا لهيئة اركان حرب الجيش المصرى ، فرسم خطة الدفاع على اساس انشاء خمسة مواقع منيعة الجانب . فى كفر الدوار ، ورشيد ، والبرلس ، ودمياط ، والتل الكبير ، مع سد ترعة المحمودية لمنع المياه العذبة عن الاسكندرية .

وامتدت الاستحكامات من عزبة خورشيد الى كفر الدوار ومن ترعة المحمودية الى الملاحة ، واستخدم فى انشائها ثمانية آلاف عامل من الصعيد .

كانت هناك ثلاثة خطوط للدفاع يبعد كل واحد عما يليه بنحو اربعة كيلو مترات ، وامام كل خط خندق بعمق خمسة عشر قدما ، واقيمت المعاقل على جميع المرتفعات والاكام وثبتت فيها المدافع . وكانت بحيرة ابى قير وملاحة مريوط جناحى خطوط الدفاع ، فاصبحت بفضل تلك الاستعدادات غاية فى المناعة .

كان خط الدفاع الاول يمتد مما بعد المحلة بمسافة الف متر على طول الخط الممتد من الرملة الى البيضة ، وجعل ماوراء هذا الخط من المرتفعات والتلال مواقع بلغ مجموعها خمسمائة موقع ، وكذلك اجريت امثال هذه الاعمال الدفاعية من كفر الدوار الى ابى حمص ، اما دمنهور فقد عززت بالمواقع ، وجعل مقدمة الجيش المصرى فى الزاوية بقصد المحافظة على الطريق الكائنة بين العطف

ودمنهور ، وكذلك عززت ابتاى البارود بقوات وافرة ، واتخذت الزاوية ثكنة للجنود .

وبمجرد ان استقر الجيش المصري فى كفر الدوار اصدر عرابى الاوامر بجعل منطقة ابى قير تحت قيادة خورشيد طاهر ورشيد بقيادة ابراهيم فوزى ، ودمياط بقيادة عبد العال حلمى ، ومريوط بقيادة على الروبى ، والصالحية بقيادة محمود فهمى البارودى ، ورابس الوادى بقيادة راشد حسنى ، وكفر الدوار بقيادة طلبة عصمت ، وعقد محالفة مع السنوسى لئلا ينتهز الفرصة ويهاجم مصر من الغرب .

وبعد ان سمح الخديو للادميرال سيمور بانزال جنوده الى الاسكندرية واحتلالها شرع فى تكوين قوة عسكرية قوامها الضباط الجراكسة الذين طردتهم الثورة من الخدمة العسكرية ومن جنود متطوعين من فلول المالطيين واليونانيين والاتراك والعناصر الدخيلة .

على ان اللغز الذى يحير الالباب : هل كان الخديو اسيرا تحت أمرة الدولة المحاربة او انه انحاز بنفسه اليها ؟ فان كانت الاولى فكيف اباح لنفسه ان يكون اسيرا وحاكما فى وقت واحد ينظر فى مصالح البلاد ؟ واذا كانت الثانية وهى الاعجب فكيف ينحاز الى الجيش البريطانى الذى نادى على الشعب المظلوم بمحاربته بغيا وعدوانا منه ؟

ذهب بعض المؤرخين الى ان انجلترا ارسلت اسطولها لتثبيت سلطة الخديو ، فاذا صح هذا الراى فكيف جاز له ان يعقد مجلسا فوق العادة ينادى فيه باشهار الحرب ضد دولة اتت لنصرته وتمكينه من السلطة ، ويتحمس هو نفسه امام الذين اشتركوا فى هذا المجلس ويلبس مسوح الابطال الفدائيين فيصرح بقوله : ساحمل السلاح واكون فى مقدمة الجند .

***

اما وزارة اسماعيل راغب فكان أمرها أعجب من موقف الخديو ، ففى ١٧ يوليو تطوع رئيسها بان ابلغ الادميرال سيمور بكتاب مفاده ان عرابى منصرف الى اعداد وسائل الدفاع مما يعد مخالفة لاوامر الخديو الذى عزم على عزله من منصبه ، وان عرابى وحده

المسئول عما يحدث الآن ، ثم يرجوه ان يبلغ ذلك الى حكومة جلالة الملكة .

وكتب الخديو الى عرابى فى كفر الدوار فى اليوم ذاته ينبئه بأن الادميرال اعلن بأن الحكومة البريطانية لاتضمر العداء لمصر ، وان اطلاق النار على الطوابى والاستحكامات انما وقع بسبب ما وجه الى الاسطول من التهديد والاهانة ، وانه اذا كان لحكومة الخديو جيش منظم فلا يتوانى عن تسليمه الاسكندرية ، وسوف ينسحب الاسطول من المياه المصرية دون تردد اذا ما وصل الجيش العثمانى، ومن ثم فانه يجب على عرابى صرف النظر عن حشد الجند وجمع المعدات الحربية ، والحضور فى التو الى الاسكندرية لتلقى التعليمات وتنفيذ القرارات التى تصدر عن مجلس الوزراء .

ورد عرابى على هذه الرسالة بانه متمسك بقرار المجلس الذى عقد فوق العادة برياسة الخديو وقضى برفض مطالب الادميرال لانه مجحف بحقوق الوطن ، وبوجوب زيادة عدد الجيش العامل الى خمسة وعشرين الف جندى ، الى ان قال : ان الاوامر صدرت بذلك الى المديريات ، واعلنها رئيس الوزارة كما صرح ان الحرب بين مصر وبريطانيا قد اعلنت ووضعت البلاد تحت الاحكام العرفية ، ومع ذلك فان الجيش المصرى المنظم على استعداد لان يتسلم مدينة الاسكندرية فى حالة مغادرة الاسطول البريطانى المياه المصرية لانه لاثقة له بوعود الانجليز » .

وبعد ان ايقن عرابى انحياز الخديو صراحة الى جانب العدو كتب الى يعقوب سامى وكيل وزارة الحربية فى القاهرة يقول :

« ان الذى أوقعنا فى هذا البلاء هو الخديو نفسه ، بدليل انه انتهز فرصة انصرافنا الى اعداد معدات الدفاع فامر رئيس الوزارة باذاعة منشور يحث فيه سكان الاسكندرية على العودة اليها وعدم تقديم اية مساعدة الى الجيش المصرى بحجة ابرام الصلح » .

وتلقى عرابى من مجلس الوزراء قرارا أصدره فى ١٨ يوليو ، وفحواه « ان المجلس عرض على السدة الخديوية فى ١٧ يوليو برقيته التى يتمسك فيها بقرار المجلس الذى عقد تحت رياسة الخديو بحضور درويش باشا ، وقد تقرر اعلانه بان المحاربة والمصالحة هى من حق الجناب الخديو النائب عن جلالة السلطان وان عليه الامتثال لذلك والا كانت العاقبة وخيمة ، وانه تقرر ابطال

الادارة العسكرية بمنشور عمومى ، وان مدينة الاسكندرية لخلوها من العساكر احتلها الجيش الانجليزى لمنع السلب والنهب ، وان الامة المصرية تابعة للدولة العلية تحت حكم خديو نائب من طرف السلطان ، ولها مجلس نواب ، فليس هو بنائب عنها حتى يتصدى لامورها ، وانه قد صار الغاء الادارة العسكرية واصبح لا امر له ولا نهى لنظارة الجهادية الا فيما هو من اختصاصها » .

وكان رد عرابى على ذلك ان اصدر تعليمات الى المحافظين والمديرين يعلنهم فيها انضمام الخديو الى الانجليز ويحذرهم من اتباع اوامره ويدعوهم الى الاستعداد وجمع ما يلزم للقتال ، وكذلك اعلنهم بان الوزراء اسرى عند الخديو الذى يتخذهم اداة لتنفيذ اغراضه فى شل حركة الدفاع عن الوطن .

وعلى اثر اذاعة هذه التعليمات بادر مجلس الوزراء بعقد جلسة فى مقره بسراى راس التين واتخذ عدة قرارات اذاعها فى صورة بيان موجه الى الامة المصرية ، وقد استهله بقوله :

« غير خاف على علم العموم جميع مخالفات احمد عرابى باشا وما حصل من تلطيفه تارة وتوبيخه أخرى من طرف الجناب الخديو الافخم لاجتنابه ذلك حتى لازالة خوفه ، وقد استحصل عطو فتلو راغب باشا على العفو العمومى من لدن الجناب العالى عن كل من عليه مسئولية او له اشتراك فى الحوادث الصادرة لغاية تاريخ التقرير المتقدم منه للحضرة الخديوية ، ولم يثمر كل ذلك . ولكون حصل منه بعد هذا التاريخ حوادث كمثل ذهابه الى كفر الدوار مستصحبا العساكر واخلاء ثغر الاسكندرية وطوابيها من غير امر يصدر اليه وتوقيف حركة السكة الحديدية وقطع جميع المخابرات التلغرافية ومنع ورود البوستة وحجز مياه المحمودية عن الاسكندرية بقصد حصول الضرر لجناب الخديو الاعظم وهيئة النظار وسائر سكانها . وكذلك منع المهاجرين وغيرهم من الحضور الى الاسكندرية وعدم اجابته الى الامر العالى الصادر بطلبه الى الاسكندرية وتشبثه بالاعلان افتراء على الجناب الخديو بانه سلم الاسكندرية للانجليز وحبس هيئة النظار .فضلا عن تجاسره على عزل ونصب المديرين وغيرهم ، وجميع ذلك يعد عصيانا للخديو الاعظم النائب عن أمير المؤمنين . ولذلك صدر امر عال بعزله .

« وحيث ان دولتلو درويش باشا اخبر بحضور الجناب الخديو

وهيئة النظار ان الادميرال سيمور قد اخبره بانه ليس للدولة الانجليزية عداوة لا مع الدولة العلية ولا مع الحكومة المصرية بل ان ما حصل من ضرب المدافع والتخريب انما هو مقابلة التهديد والتحقير الذى حصل باجراء عمليات الطوابى بامر احمد عرابى باشا بعد صدور الامر السلطاني بمنع ذلك ، وقد اكتفى بما وقع ، وانه اذا كان للحكومة الخديوية عساكر مطيعون ومؤتمنون فهو مستعد لتسليم الاسكندرية وطوابيها ، وبالفعل سلم بعض جهات منها لمن حضروا طائعين من العساكر ، وانه عما قريب ستحضر عساكر من سائر جهات السلطنة السنية وتجرى استلام الاسكندرية جميعها مؤقتا .

« وعلى الخصوص فانه بتاريخ ٢٦ يوليو ١٨٨٢ عرض الادميرال المومى اليه للجناب الخديو الافخم بمضمون ان الحكومة الانجليزية لم يكن من مقصدها التغلب على القطر المصرى لنفسها ولا المداخلة فى حرية المصريين ولا فى دياناتهم . وفقط مقصدها حماية الجناب الخديو مع اهالى القطر المصرى من العصاة ، وازالة العصيان ورجوع النظام فى القطر المصرى ، فيعلم للعموم من هذا التوضيح ان جناب الخديو الاعظم ما سلم الاسكندرية للانجليز ولم يخطر ببال سموه اصالة ولا فى نياته الجليلة ابدا ولا من غرض الدولة المشار اليها الاستيلاء عليها ولا على قطعة منها ، وكذلك لم يصدر امر الخديو الجليل بحبسنا — معاذ الله — ولا نوى ذلك بل ان نياته معروفة ابدا الى راحة ورفاهية العباد مع عمارية البلاد ، وان تشبثات احمد عرابى باشا فى تجهيز اللوازم الحربية فى النقط التى صمم على اتخاذها مركزا للحرب تعتبر تهديدا لجميع الدول ، وهذا التهديد ينتج عنه مضرات جسيمة ، ومثلها واقعة اسكندرية ، لانه بناء على ما علم من الحوادث ، استقر الرأى بالمؤتمر ابقاء حقوق الدولة العلية مع سائر الامتيازات المصرية على اصلها ولزوم ازالة العصيان الواقع بالقطر المصرى ، وقد قبلت الدولة العلية ارسال عساكر لذلك ، علاوة على عساكر انجلترا وفرنسا وايطاليا ، فتشبث احمد عرابى باشا مع المساعدين له على تدارك تجهيزات حربية لمقاومة جميع الدول العظام لاغراضه الشخصية وغاياته النفسانية الموجبة لخراب البلاد ، وسفك دماء العباد .

« وحيث ان كل من عصا الله ورسوله واولى الامر وسعى فى

الارض فسادا ، اعنى كل من اراد او يريد الفساد او يساعد على ذلك مالا وبدنا سيدخل تحت حكم الآيات الشريفة والحديث المبين باعلا هذا المنشور .

« فننصح كل من يكون فى قلبه ذرة من الايمان من اخواننا ان يتقى الله فى الوطن وفى نفسه والله المستعان » .

وفى ٨ اغسطس اصدر الخديو منشورا الى جميع المصريين ، هذا نصه :

« نحن خديو مصر ، نعلن لجميع المصريين ان عرابى باشا قد ارتكب آثاما فظيعة جلبت خسائر لاوصف لها على مصر واهلها وجعلت الدول الاوروبية ناقمة عليها ، فانها باتت الآن تعتبر المصريين امة غير متمدينة . فهذه الجرائم والآثام منحصرة فى عصيان عرابى المذكور ، وتحريضه للقوم على السير تحت لواء العصيان ، وفى الدسائس التى نشأت عنها مذبحة الاسكندرية وغيرها من البلاد ، فاوقفت فيها حركة التجارة وعطلت اعمال الزراعة ثم فى عصيانه لاوامر جلالة السلطان الاعظم وهى الاوامر التى صدرت اليه بالانقطاع عن التظاهر بالعدوان فى الاستحكامات والحصون مما بات معلوم النتيجة من هلاك نفوس وتدمير قلاع وخراب ابنية .

« وبعد ان بدد عرابى فى اقل من ساعة شمل سكان الاسكندرية الذين نهبهم اضرم النار فيها ، وخرج منها بجيشه قاصدا كفر الدوار حيث عسكر بقومه من غير علمنا وبغير ارادة منا ، فبعث ذلك على نزول الانجليز الى المدينة لاطفاء النار المضرمة فيها ، ومنع النهب والمحافظة على الراحة .

« وفوق ذلك منع المهاجرين من العودة الى اوطانهم وقطع مابينهم وبين اهلهم وسائر الصلة والعلاقة ، وقطع الماء عن الاسكندرية واعلن جهرا عصيانه باكاذيبه الظاهرة ، فبذلك عد عاصيا ومستحقا لاشد العقوبات بمقتضى الشرع الشريف .

« وهو لا يزال مع ذلك عاملا على تعميم الخراب بمساعدة جنده والاهالى المتحزبين معه المنقادين لآرائه الوخيمة ، وقد تجاوز الحدود بعصيانه مما يفوق الوصف ، فقد استولى على اموال الضرائب وعزل كثيرين من موظفى الحكومة ، واستبدلهم بغيرهم فى حالة كونه معزولا من وظيفته معدا للعقاب الصارم الشديد .

« ولقد راينا ان قلوب كثير من رعيتنا لا تزال قاسية مائلة الى

عرابى بالرغم من اوامرنا السابقة ، فلذلك اصدرنا هـذا المنشور الآخر معلنين فيه ان كل شخص يعرف عنه انه ذو ضلع مع عرابى وميل اليه ، عددناه عاصيا ، مستحقا لجزاء العصيان .

« فرحمة بمصر واهلها ، نستانف الآن اعلاننا للمصريين عموما والجند خصوصا ان كل من أصر على عصيانه وانقياده الى عرابى كان مذنبا امام الله ، غير مقبول العذر لدينا ، فنجرده مـع ولده وذويه من جميع الرتب والرواتب ومعينـات التقاعـد وسـائر الامتيازات التى يكون متمتعا بها .

« وليعلم المصريون اننا نحن اميرهم ومولاهم وان لا يرتكبوا عصيانا علينا وليعلم كل منهم ايضا انه اذا ادى للعاصى عـرابى او لاتباعه اموال الضرائب ، كانت تأديته للمال غير محسوبة لدينـا بل اننا نطالبه بها يوم تنقشع عن سماء مصر غيوم النكبات العرابية » .

وهكذا اعلن الخديو بهذا الاسلوب الوقح وهذه الخيانة السافرة ترحيبه باعداء البلاد ورغبته فى تقديم ايه مساعدات يطلبونها ، بل هكذا وضع الاصفاد فى اعناق الشعب وأرغمه على الذل والخضوع لقاء عرض زائل هو بقاء التاج على راسـه ... ولو ان بريطانيـا سخرت اجهزة وزارة للدعاية لما استطاعت ان تظفر بمثل هـذا المنشور الذى كله مغالطات ودفاع عن الباطل وتبرير الاحتـلال الغاشم .

***

تطورت الاحداث السياسية تطورا خطـيرا واصبحت فى مصر حكومتان ..

الاولى حكومة رجعية برياسة الخديو فى الاسكنـدرية وتضم زعانف العثمانيين والاقطاعيين وعيون الاستعمـار والخونة الذين تسندهم الحراب البريطانية .

والثانية حكومة الثورة بزعامة احمد عرابى ومقرها القاهرة وهى الحكومة الشرعية وتضم العناصر الرشيدة والرءوس المفكرة ومن ورائها ملايين العمال والموظفين والفلاحين الذين يخضعون لهـا عن رغبة ونخوة قومية .

دعت حكومة الثورة اربعمائة شخص يمثلون مختلف الطـوائف

والاديان ، الى اجتماع حافل عقد بديوان وزارة الداخلية فى مساء ١٧ يوليو لدراسة الموقف السياسى من وجوهه كافة ، فاجمعوا الراى على وجوب الاستمرار فى الدفاع عن البلاد ، مادام العدو رابضا فى مياه الاسكندرية وعلى ارض الوطن ، وطالبوا بضرورة انتقال الوزارة الى العاصمة .

واوفد المجتمعون لجنة منهم للسفر الى كفر الدوار للاجتماع بقادة الثورة ، والى الاسكندرية لابلاغ هذه القرارات الى الخديو .

وانتقلت السلطات العامة الى هذه الجمعية التى اطلق عليها اسم « المجلس العرفى » ، وصار يعرض عليها أولا بأول تطورات الموقفين السياسى والحربى واتخاذ قرارات حاسمة بشأنهما .

وعلى اثر اطلاع الخديو على القرار الذى اتخذه المجلس العرفى ، بادر فى ٢٠ يوليو بعزل عرابى . والغاء حالة الطوارىء ، وبنى امر العزل على مخالفة الزعيم اوامره واستمراره فى الاستعدادات العسكرية .

فهل شهد احد او سمع عن منطق معكوس وعقلية فاسدة كعقلية هذا الحاكم الابله ، زعيم شعب وقائد عسكرى يجرى استعدادات للدفاع عن وطنه والذب عن حرمة بلاده ، فيأتى حاكم جاهل ويمنعه من الدفاع عن ارض الوطن ويقول له فى وقاحة : لاتستعد ولا تقاوم ولا تحارب بل دع الاعداء يحتلون ارضكم ويذلون شعبكم ؟

وكانت الجلسة التى عقدها المجلس العرفى فى ٢٢ يوليو من الاحداث الخطيرة فى تاريخ الكفاح الشعبى ، شهدها نحو خمسمائة شخص من بينهم الرؤساء الرحانيون والوجوه والاعيان والنواب والقادة ، وفى هذا الاجتماع الحافل قرر المجتمعون وجوب التمسك بعرابى على رأس الجيش والشعب . وافتى من علماء الازهر المشايخ: عليش والعدوى والحلفاوى وغيرهم من رجال الشرع « بأن الخديو توفيق ، باع الوطن للانجليز ، وانه بذلك قد خان الشرع الشريف والدين الحنيف ، والقانون المنيف ، وانه مرق من الدين مروق السهم من الرمية لخيانته وطنه وانحيازه الى اعداء البلاد ، فليس له بعد ذلك سلطة على العباد ولا حكم على البلاد .. ولذا وجب خلعه » .

وكان نص الفتوى التى رفعت الى رجال الشرع كالتالى :

« ما القول فى حاكم ولى من طرف خليفة المسلمين على ان يعدل فى الناس ويقضى بأحكام الله ، فنقض العهد واحدث الفتن بين

المسلمين وشق عصاهم ، ثم انتهى به الامر الى ان اختار ولاية غير المؤمنين على ولاية المؤمنين ، وطلب الى الامم الخارجة على الدين القويم ان ينفذوا قوتهم فى بلاد حكومته الاسلامية وامر رعاياه ان يذلوا ويخضعوا لتلك القوة الاجنبية ، وبذل عنايته فى المدافعة عنها، ولما دعاه المؤمنون للرجوع عن ذلك ابى وامتنع واصر على الخروج عن طاعة السلطان والمروق من الشريعة ، فهل يجوز شرعا ان يبقى هذا الحاكم حاكما حتى يمكن قوة الاجانب من السلطة فى بلد اسلامى او يتعين فى هذه الحالة عزله واقامة بدله ، يحافظ على الشرع ويدافع عنه ، افيدوا الجواب » .

ووافق المجتمعون وهم يمثلون طوائف الشعب جميعا أتم تمثيل، على خلع الخديو توفيق ، واعلنوا بأن عرابى هو حامى حمى الديار المصرية وبعثوا بصورة من قرار الخلع الى السلطان ...

وجرت فكرة « الجمهورية » على الافواه ، فقد كان عرابى وقادة الثورة يتناقشون فى انظمة الحكم ويفضلون النظام الجمهورى ويرسمون الخطة لتنفيذه بغية التخلص من اسرة محمد على ومن مساوىء الملكية ، بيد ان ما عاقهم عن اعلان هذا النظام هو ارتباط مصر بالخلافة ، ولم يكن العلماء ورجال الشرع على استعداد لقبول هذه الدعوة بحجة انها قد تفصل مصر عن الجامعة الاسلامية ورابطة الخلافة .

كان عرش مصر اذن على فوهة بركان ...

وكان امر الخديو توفيق مفروغا منه وانما ظل الخلاف قائما حول من يخلفه ، وعلى رأى السيد حسن موسى العقاد : « ان خديويته الهبلية صارت فى خبر كان بعد عزله من البرنسات والذوات والعلماء والاعيان » .

فهناك من المصريين من كان يحبذ النظام الجمهورى او اقامة نظام آخر يقوم على راسه البارودى .

وفى برقية من ثابت باشا الى الخديو فى ٢٠ يوليو يقول فيها :

« ارسل سفير بريطانيا الى الباب العالى مع ترجمانه الاول مذكرة جاء فيها ان عرابى ورجاله يتولون بعد ظهر اليوم خلع الخديو ، وانهم سيعمدون الى طرد قنصلى فرنسا وانجلترا واى قنصل يقدم على محادثة الخديو بعد خلعه » .

وانتهز الخديو السابق اسماعيل فرصة المساومة على عرش مصر ، فاخذ ينثر الذهب فى عواصم الغرب وفى استامبول توطئة لعودته الى العرش ، وكانت امه خوشدار تغذى هذه الحركة ماديا وادبيا ، وتقدم مختلف المساعدات العينية الى الثوار لاحبا فى القومية المصرية وانما بغضا لتوفيق .

واخذ الخديو يتوجس خيفة من ناحيةابيه ويفرض رقابةصارمة على اعوانه فى مصر ، وقد صور مخاوفه فى برقية بعث بها فى ٢١ جمادى الاولى ١٢٩٩ الى ثابت باشا فقال :

« ان والدى اسماعيل باشا أرسل حرمه الثانية على سفينة الى الاسكندرية بحجة انها مريضة جدا ومشرفة على الموت ، ورعاية لحقوق الابوة كلفت محافظ الاسكندرية وبعض الاطباء بالكشف عليها حتى اذا ما كانت مريضة حقا يجرى لها العلاج اللازم ويسمح لها بالنزول الى البر .

« فلما وصلت الى ميناء الاسكندرية فى ١٦ الجارى توجه المحافظ ومعه الاطباء الى الباخرة فتهورت عليهم وثارت فى وجوههم وقالت انها تريد الخروج بدون كشف اطباء ، وتفوهت بكلام غير مناسب، وأصرت على النزول من الباخرة ، وكان معها ٢٥ شخصا من الاتباع والجوارى .

« والذى يفهم من ذلك ان المذكورة غير مريضة وانما ارسلها الخديو السابق ومن معها ليكونوا مقدمة لارسال بقية من فى معيته

« وبما ان حضور مثل هؤلاء فى الظروف الراهنة ، التى تنشر فيها الصحف انباء مفادها ان الخديو السابق قد يعود الى عرشه ، فقد وجدت من المناسب اعادتها الى نابلى حتى لايكون وجودها سببا فى القيل والقال » .

وكان للامير محمد عبد الحليم الذى ينحدر من صلب محمد على مباشرة نشاط ظاهر فى هذه الحركة ، سواء فى استامبول او باريس او القاهرة ، فكان الامير يصحب زوجته لزيارة دور السفارات الاجنبية فى استامبول للمساومة على عرش مصر ، وكان ينفق بسخاء على صحيفة « ابو نظارة » التى تنشر الدعاية له ، ويرشو رجال الباب العالى لاستصدار قرار بخلع توفيق ، حتى اشيع بان بعثة درويش باشا كانت لديها تعليمات بالعمل على خلع الخديو توطئة لتنصيب حليم على العرش ، وتقدم السلطان باقتراح الى

بريطانيا عقب ضرب الاسكندرية وصف فيه حليم « بانه حاكم ممتاز من الطراز الاول وان تعيينه يحقن الدماء ويرضى عنه كل انسان » . كما ان حليم عرض على السلطان اعتزامه السفر الى مصر للالتحاق بجيش عرابى ، فلم يسمح له الانجليز بذلك ، وبعث الخديو الى ثابت باشا يقول : اذا شعرت باية حركة من الخديو السابق او حليم باشا فاعرض عنها فى الحال ، وانى ارى عدم التصريح لحليم باشا بمغادرة تركيا فى الوقت الحاضر .

وقد عبر السيد حسن موسى العقاد عن رأى بعض طوائف الشعب فكتب الى حميد ستيت احد الوجوه الذين تبرعوا بسخاء للجيش المصرى فقال :

« لا تصدقوا ان السلطان يحارب اهل مصر لاجل بقاء توفيق واليا عليهم بل لابد ان يراعى خاطرهم كما هى عوائده الملوكية الفخيمة، وهذا شيء جرت به العادة فى جميع الولايات ، اعنى عندما يطلب الاهالى رفع الوالى الذى عليهم ويقدمون محضرا للحضرة الشاهانية ، فحالا يحصل رفعه ، ولولا توسط الانجليز لتوفيق لما بقى لحد الآن » .

واتصلت انباء هذه المناورات بالخديو ، فبلغ الهلع منه مبلغا كبيرا ، وبعث الى الباب العالى بكتاب كله رياء ومداهنة ، قال فيه:

« اننى اعتبر نصائح جلالة السلطان واوامره لى تعطفات من جلالته وتكريم لى وانى اعفر وجهى فى تراب اقدامه ، واقدم صادق الولاء والعبودية ، وساحتفظ بنصائح جلالته الغالية كتميمة ، وساسعى جهد طاقتى للعمل بها » .

كان يتزعم حزب حليم فى مصر عثمان فوزى باشا وكيل دائرة شقيقته زينب والسيد حسن موسى العقاد والشيخ حسن العدوى . واتهم الخديو ببرقيته فى ١٤ فبراير ١٨٨٢ الى ثابت باشا « اتصال عرابى وامراء الآلايات الاخرى بمندوب حليم باشا » .

ونشط انصار حليم فى نشر الدعاية له بمختلف الوسائل وقالوا انه سيصير توليته قريبا وانما الانجليز متوقفون لبعض الشروط وسيصير اقناعهم قريبا ، كما شرع العقاد فى اعداد الزينات لاستقبال حليم باشا بوصفه خديو مصر .

ظل جيش مصر الباسل صامدا فى الميدان خمسة اسابيع التحم فى خلالها مع الانجليز فى عدة معارك ، وابدى من الثبات واليقظة

ما ادهش اعداؤه وجعل القلق يستبد بهم وخشوا ان يحل بهم ما حل بحملة الجنرال فريزر فى عام ١٨٠٧ من الاخفاق الذريع ولا غرو فهو جيش يحمل تقاليد ومفاخر جليلة ، له ماض مجيد ، وفيه بقايا حضارات تالدة تجعل ادراك جنده على مستوى عال من البطولة والبسالة .

ففى ٢٦ يوليو حاول الانجليز احتلال منطقة سيدى بشر للتقدم منها الى ابى قير فاشتبكت قواتهم مع طلائع الجيش المصرى التى اضطرتهم الى الفرار بعد قتال دام عدة ساعات ، واراد الانجليز ان يرفعوا روح الخديو المعنوية فدعوه مع رجال حاشيته الى حديقة انطونيادس لمشاهدة القتال بالمنظار المعظم .

وفى ٥ اغسطس حاول الانجليز مهاجمة القوات المصرية فى منطقة عزبة خورشيد — من ارباض الاسكندرية — فهزمهم المصريون وتلاحمت القوتان بالسلاح الابيض وتقهقر الانجليز تحت جنح الظلام بعد ان تكبدوا خسائر فى الارواح والعتاد .

واراد الانجليز اقتحام خطوط الدفاع الاولى فى كفر الدوار ، ففى ٧ اغسطس تقدمت قوات كبيرة منهم ... الجناح الايسر من جهة الرمل على جسر ترعة المحمودية ، والجناح الايمن بطريق السكة الحديدية من القبارى ، والقلب من طريق كوبرى المحمودية ، فانبرى المصريون لهم وابلت المدفعية المصرية فى هذه المعركة بلاء حسنا ودام القتال نحو اربع ساعات وكانت هزيمة نكراء للانجليز .

وفى ١٣ اغسطس اذاع عرابى منشورا على رؤساء الجيش فى المراكز الحربية وعلى المحافظين والمديرين فى الاقاليم هذا نصه :

« قد اوجب الله علينا اعداد ما نستطيعه من القوة لقتال الامة الانجليزية التى اعتدت على البلاد طمعا وشرها ، وبادأتنا بالحرب بغيا وعدوانا . وقد قام به احسن قيام على قدر شان كل حر مخلص شهم عالى الهمة ، شريف الذمة من رجال البلاد عموما ونظراء سعادتكم من حضرات المديرين خصوصا . وبعناية الله واتحاد الجميع ذلك الاتحاد الذى هو اثر الغيرة الوطنية والحمية الانسانية وقد ادركت البلاد فى زمن يسير من عظيم القوة وجليل الاستعداد مالم يخطر بالبال قبل الآن . ولا يخفى انه من اجل ماتجب القيام به الحرص الزائد على الدقيقة الواحدة ، بل اللحظة الواحدة فى زمن المحاربة ، فلا تفوت الا وتكون قد صرفت فى حسن التدبير واصالة

الراى فى النكاية بالعدو ، رده الله على عقبيه خاسئا خاسرا .

« ومما أوجب اعداده لذلك زيادة الجند خمسة وعشرين الف جندى ، فبناء على ذلك وماتراءى من ان هذا العدد اذا شرع فى جمعه بحسب القرعة العسكرية ، فقد يجتمع من الشبان مايلزم لتدريبهم وتمرينهم على حمل السلاح وحركات الدفاع وقت لايحسن تقويته الا باعظم مايمكن من الفائدة .

« وحيث ان خفراء البلاد المرتبين من الاهالى هم بالطبع اكثر من غيرهم تعودا وتمرنا على حمل السلاح والحركات الدفاعية واشد قوة وباسا ، واثبت جاشا لدى المقاومات العدائية ، وقد يتيسر جدا جمع هذا العدد من هؤلاء الخفراء وحشده مع الجيش فى زمن وجيز وبحالة اقرب واسهل مما لو جمع من غيرهم بالقرعة العسكرية — فعليه يجمع هذا العدد من المديريات ، بحيث يسرع فى جمعه من الخفراء المذكورين — وكل بلدة وما يخصها منه ، وقد خص مديرية سعادتكم من العدد المذكور كذا ، فالقصد مزيد الاعتناء والاسراع فى جمع العدد الموما اليه بعد تخصيصه على بلاد المديرية من نفس الخفراء المذكورين ، ثم يجرى تفهيم كل واحد منهم بانه فى نظير تلبيته لدعوة هذه الخدمة الوطنية الشريفة مع المسرة والبشر شان الحريص على شرف قومه فانه بعد انتهاء الحرب بنصرنا ، وظفرنا بفضل الله تعالى ، يكون معافى من الخدمات العسكرية ، ويصير ارسال الانفار المذكورة بالافادات المقتضية كالجارى ، اما الخفراء الذين يلزم ترتيبهم بدلا من المذكورين فيجرى انتخابهم وتعيينهم فى محلات دركات اسلافهم فى الحال ، حسب مايلزم ، وقد اقتضى تحريره ونشره للاجراء على مقتضاه » .

***

دب اليأس الى قلوب الانجليز وادركوا ان القوات المصرية من المناعة بمكان ، وحان تنفيذ بقية الخطة الموضوعة لغزو مصر واحتلالها ، فطلب الادميرال سيمور المدد من القوات البرية ، ووصلت الى الاسكندرية فى اوائل اغسطس قوات بريطانية وهندية ، وفى ١٤ اغسطس وصل القائد العام الجنرال جارنت ولسلى ، وهو ارلندى الاصل ، اشترك فى حرب القرم وفى بعض الحروب الاستعمارية

فى افريقية ، واستقبله الخديو بحفاوة واقام المآدب تكريماله وللقواد البريطانيين وامدهم بالخرائط العسكرية وزودهم بالبيانات التى تعد من اسرار الدفاع عن البلاد وبالخطط التى تكفل النصر لهم ضد قوات اقل منهم عددا وعدة ، وكان القنصل مالت لايفتأ يزور قصر رأس التين يوميا ويجتمع بالخديو ويتداول الموقف معه ، وقرر مجلس الوزراء عدم تحصيل رسوم جمركية عن كل مايرد الى القوات البريطانية من مهمات وذخائر ومؤن .

كان عدد القوات البريطانية التى وصلت الى الاسكندرية زهاء خمسة وعشرين الف جندى ، اما قوة الجيش المصرى النظامى فكانت عبارة عن تسعة عشر الف مقاتل منهم ثمانية آلاف فى كفر الدوار وثلاثة آلاف وخمسمائة فى ابى قير ، والفين وخمسمائة فى رشيد ، وخمسة آلاف فى دمياط ، فضلا عن مئات الالوف من المتطوعين والعربان ، وهذه القوات تكون ثمانية آلايات من المشاة ، وثلاثة آلايات من الفرسان ، وآلايين من المدفعية البرية ، وثلاثة آلايات من مدفعية السواحل ، وآلاى من سلاح المهندسين، وثمانين مدفع كروب ، وكان فى القاهرة مصنع للاسلحة الصغيرة ، وآخر للذخيرة ، وثالث فى بولاق لصب المدافع ، ومصنع حربى فى طره للمدافع والبنادق .

بعد ان تلقى الانجليز المدد من الجنود البريين ، تحركت قواتهم فى ١٩ اغسطس من القبارى والرمل والسيوف وحجر النواتية لاختراق خطوط دفاع الجيش المصرى فى كفر الدوار ، تعززها القطارات المصفحة والمدافع ، فلما وصلت الى مقربة من خط الدفاع الاول ، تصدى المصريون لها بقيادة طلبة عصمت ودام القتال نحو ثلاث ساعات ارتد بعدها الانجليز على أعقابهم ، ثم كرر الانجليز الهجوم فى الايام الثلاثة التالية بيد انهم هزموا شر هزيمة .

وفى ٢٢ اغسطس اصدر الخديو منشورا الى قواد وضباط الجيش المصرى يقول فيه :

« لما كان الغرض الوحيد من الاعمال العسكرية التى يقوم بها السير جارنت ولسلى هو استتباب الامن فى مصر فقد صرحنا له باتخاذ التدابير العسكرية التى يرى لزوما لاتخاذها ، فيجب عليكم حال وصول امرنا هذا اليكم ان تبذلوا المساعدات اللازمة له . وتطيعوا اوامره كما لو كانت صادرة منا ، فمن يخضع له فكانه

خضع لنا شخصيا ، ومن خالفه يعد عاصيا لنا ، ويعامل معاملة العاصي » .

واذاع الجنرال ولسلي منشورا على المصريين يقول فيه :

« يعلن الجنرال ولسلي قائد الجيوش الانجليزية ان الدولة البريطانية لم تقصد بارسال الحملة العسكرية الى مصر الا تأييد سلطة الجناب الخديو ، فجنودنا لذلك لاتقاتل الا كل من يكون شاكي السلاح ، خالعا طاعة الخديو ، اما سائر الاهالي الذين يكونون في هدوء وسكينة فيعاملون بالتؤدة ومقتضى الشعائر الانسانية ، فلا يمسهم اذى بل سيحترم دينهم وتصان مساجدهم وعائلاتهم . وان ما يلزم للجيش من زاد وميرة يؤدى ثمنه . ولذلك ندعو الاهالي الى تقديم مالديهم مما يحتاج اليه الجيش .

« ثم ان الجنرال قائد الجيوش يسر كثيرا وينشرح صدرا من زيارة مشايخ البلاد وغيرهم ممن يود المساعدة في قمع العصيان والقاء القبض على العصاة الذين عقوا الجناب الخديو امير البلاد وواليها الشرعي المعين من لدن الحضرة السلطانية » .

***

لم تستطيع وزارة اسماعيل راغب ان تواجه العاصفة ، فاشير عليها بالتخلي عن الحكم فاستقالت في ٢٤ اغسطس ، واستقدم الخديو مصطفى رياض من اوربا ، وبعد وصوله الى الاسكندرية دعى محمد شريف الى تشكيل الوزارة وفيها اسندالى رياض منصب وزير الداخلية ، والمعروف ان هذه الوزارة كانت وزارة التسليم للانجليز على طول الخط ، ومساعدة الخديو على بيع البلاد اليهم .

وعقب تشكيل هذه الوزارة اخذ الخديو يحض المصريين على مساعدة الانجليز ، وصرح في منشور اذاعه بان الانجليز نائبون عنه في تاديب الجيش المصري ، ومما جاء في هذا المنشور :

« مراعاة للمصلحة العامة قد رخصنا لحضرة القائد العام للجيش البريطاني بالتجول وقمع حركات العصاة واستعمال الوسائل القاهرة لتبديد شملهم وسرعة القبض على رؤسائهم بما يستحقون من اشد العقاب .

« وبما ان العساكر الانجليز فى هذه الحالة يعدون نائبين عنا فى قطع دابر المفسدين وتطهير البلاد منهم حتى يستتب الامن والراحة ويزول الشقاء عن العباد ، ومن كانت هذه صفتهم فانهم جديرون بالمعاونة والمساعدة ولا يرتاب احد فيهم بوجه من الوجوه ، فينبغى ان لايرهب منهم احد ولا يظن فيهم سوءا او مكروها ، وعلى كل مصرى يحب وطنه ان يعاملهم لقاء حسن نياتهم بالاكرام اللائق بهم ولا يتاخر احد عن مساعدتهم فى تقديم مايحتاجون اليه من المؤونة، ومن يخالف ذلك فقد عرض نفسه للتهلكة » .

ووجه الخديو كتابا الى الحكام ورجال البوليس قال فيه : « قد صرحنا للجنرال ولسلى باتخاذ التدابير التى يرى لزوم اتخاذها ، ويجب على جميع الحكام اطاعة اوامره كما لو كانت صادرة عن الخديو نفسه ، وكل من يخضع له كانه خضع للخديو شخصيا ومن يخالفه يعد عاصيا » .

ورخص الخديو للبحرية البريطانية بفرض الحصار على طول الشواطىء المصرية وضبط المهمات والعتاد الحربى والفحم الذى يكون فى طريقه الى الجيش المصرى ، وكل من لا يمتثل لهذا الامر تصير محاكمته ومصادرة الاشياء المضبوطة .

وكذلك وقع على امر ــ بناء على تعليمات الباب العالى ــ بضبط الاسلحة التى تكون فى طريقها الى الحجاز او الشام حتى لاتمتد الثورة المصرية الى هناك .

وسيطر الانجليز على بوليس الاسكندرية ، ولم يكن مسمرحا لاحد بالتجول فى الشوارع بعد الساعة السادسةمساء الابكلمةالسر .

كانوا ينهون افراد الشعب عن التقاط ما يعثرون عليهفىالشوارع منثورا من بقايا الامتعة المسلوبة ، فاذا خالف احدهم ذلك تعرض لاطلاق النار عليه . فكان الجنود الانجليز اذا رأوا احدا ينحنى الى الارض ليلتقط شيئا اطلقوا النار عليه فى الحال فيظل ذلك المنكود محنى الظهر معدا للقبر ، ودب الهلع الى النفوس ، فكان اذا سقطت من يد احدهم عصا او غيرها مما يكون فى يده فلا يجسر على التقاطه خشية اصابته بالرصاص .

واصبحت انجلترا لاتحارب جيش مصر بسلاح السيف والمدفع وانما باسلحة اربعة اشد فتكا :

اولها تسخير اسم الخديو وسلطته فى حض الضباط والجنـــد والحكام وطوائف الشعب على الانفضاض من حول الزعامة الشعبية والعسكرية والانضمام الى اعداء البلاد .

والثانى صوت الوزراء الذين يرددون نغمات سيدهم ويزعمـون بأن الانجليز لايحاربون مصر وانما يحاربون « العصاة » وان الجيش الزاحف هو جيش الخديو .

والثالث السعى الى الحصول من السلطان على اعلان باعتبـــار عرابى عاصيا مغضوبا عليه من الخلافة .

والرابع سلاح الجاسوسية والرشوة .

وهى جميعا اصوات تنادى بأن عرابى رجل عاص وتدعو الى نبذ طاعته والالتفاف حول راية الخديو الذى باع نفسه ووطنه للانجليز .

***

وكان للجاسوسية والرشوة اى السلاح الرابع الذى حـاربت به انجلترا اثره الفعال فى النفوس الضعيفة .

واستطاع الانجليز ان يلبسوا مسوح نابليون عندما احتلت قواته ارض مصر وزعم بأنه قدم لمحاربة المماليك الذين يتحكمون فى البلاد وان الفرنسيين هم اصدقاء السلطان واعدى أعدائه ، فنشر الانجليز دعاية كاذبة مفادها انهم قدموا لمحاربة العرابيين لانهم قوم عصاة ، وان الجيش الزاحف هو جيش الخليفة ويشمله الخديو بتأييده .

وكان مقر الجاسوسية « قسم المخابرات » بالاسكندرية ، ويعمل فيه الموظفون الاجانب فى الحكومة المصرية ، وفريق من الاقطـاعيين برياسة محمد سلطان رئيس مجلس النواب ، فكان يبعث بالنشرات والرسائل الى قبائل البدو والاعيان والحكام واعضاء مجلس النواب يدعوهم فيها الى عصيان عرابى والالتحاق بالجيش العثمانى ! اى الجيش البريطانى الذى جاء لاخضاع « العصاة » . وحمل اعوانه رسائل الى محافظى الاسماعيلية والسويس بأن يتركا مركزيهما مع بقية كبار الموظفين واللجوء الى الاسطول البريطانى حـين تخترق سفنه مياه القناة ، مع اصدار الاوامر الى رجال البوليس والخفراء بالفرار صوب الصحراء حـين تقع ابصارهم علي طـلائع الجيش البريطانى وافساح الطرق والمسالك امامه .

اما الجواسيس الانجليز فكان من بينهم نفر من المستشرقين ، جيوبهم مفعمة بالمال ، وقلوبهم تنطوى على الغدر والخيانة ، فكانوا يتكلمون العربية الفصحى ويحفظون الشعر القديم ويرتدون الجلباب والعقال ، ثم هم فوق هذا وذاك يعرفون طريقة التفاهم مع البدو ، يشترون رؤساء القبائل بالذهب ، ويخدعون الاتباع بالشعر وبآيات من القرآن الكريم .

وكان على راس هؤلاء الجواسيس مستشرق داهية اسمه بالمر ، استطاع ان يستميل البدو فى الصحراء الشرقية الى صفوف الانجليز ، يزامله الملازم شارنتون ، والكابتن جيلز الذى حصل من وزارة البحرية على عشرين الف جنيه لتوزيعها على رجال القبائل ، وعلى قائمة محررة بخط الخديو نفسه تحوى اسماء مشايخ البدو فى الصحراء الشرقية وقطاع سيناء وغزة ، كما زوده الخديو بأمر عال الى « محافظ الاسماعيلية ومشايخ العربان فى ١٧ رمضان ١٢٩٩ ـ ٢ اغسطس ١٨٨٢ . بان مستر جيلز الضابط الانجليزى متوجه اليهم بقصد الاستقصاء والتحرى ، فالمرغوب منهم مقابلته ومساعدته فيما يحتاج اليه » .

كان ادوارد هنرى بالمر مدرسا للغة العربية بجامعة كمبردج والى جانب ذلك يحترف الصحافة والتاليف ، واشتهر بعدة مؤلفات لغوية وبكتابه عن حياة هارون الرشيد ، وكان يتقن عدة لغات اوربية وشرقية اتقانا تاما الى حد انه كان يتكلم بجميع لهجات البدو ويقرض الشعر بالعربية ، وقد سبق له ان زار الشرق العربى لاول مرة فى عام ١٨٦٩ واختلط بقبائل جنوب الشام وشبه جزيرة سيناء ، واشتهر بين سكانها باسم « الشيخ عبد الله » .

وكان بالمر يعيش فى نطاق راتب محدود يدره عليه منصبه فى الجامعة وفى الصحافة ، وزادت اعباء الحياة لديه عندما تزوج فى عام ١٨٨٢ ، لذلك رحب بالدعوة التى وصلته من لورد نوثبروك عن طريق الكابتن جيلز من رجال المخابرات البريطانية لاستمالة القبائل فى منطقة القناة وقطاع غزة ، لمصلحة الجيش البريطانى وعدم التعرض لجنوده فى اثناء اجتيازهم الصحراء .

غادر بالمر لندن فى ٢٦ يونيو ١٨٨٢ بعد ان دفع اليه مبلغ خمسمائة

جنيه حيث عين مراسلا لجريدة « ستراند » . وكانت الخطة المرسومة لبالمر فى وزارة البحرية ان يقابل عند وصوله الاسكندرية الادميرال بوشامب سيمور لتلقى التعليمات منه ، ثم يمضى على الفور الى يافا ، ويجوب الصحراء جنوب غزة وشرقيها وهو بلباسه الشرقى ، ويعمل على الاتصال بقبيلتى « طباها » و « طرابين » .

وابحر بالمر الى يافا فى زورق بخارى تابع للبحرية البريطانية ومعه مسدس وبندقية ورجلان من البحارة ، وفى يافا نزل ضيفا على القنصل الانجليزى ، ثم قابل بعض افراد من قبيلة طرابين واوهمهم بانه ضابط سورى اسمه عبد الله افندى يقصد الى مصر .

واستطاع بالمر بتاثير مبلغ ثلاثة آلاف جنيه وزعها على مشايخ القبائل ان يحرضهم على قطع الاسلاك التلغرافية وحرق اعمدتها ليمنع الاتصال بين عرابى وتركيا . وبعد ان نجح فى هذه المهمة قدم الى منطقة القناة حيث صدرت اليه التعليمات بمرافقة القائد البريطانى للاستيلاء على مدينة السويس ، فنزل الى المدينة فى الثانى من اغسطس ومعه ثلاثة مدافع وخمسين جنديا وامر المحافظ بأن يسلم المدينة اليهم ومبلغ خمسة آلاف جنيه كانت فى خزانة المحافظة .

وقدم اليه فى السويس القبطان جيلز بتعليمات من سير فردريك جولد سميث وسلمه مبلغ عشرين الف جنيه لتوزيعها على مشايخ القبائل فى سيناء ، فاحتجز بالمر لنفسه منها مبلغ الف جنيه ارسله الى زوجته فى لندن .

وسافر بالمر وبرفقته القبطان جيلز والملازم شارنتون فى ٨ اغسطس ، وتوغلوا فى فيافى الصحراء يساومون البدو ويتنقلون بين مضاربهم .

ومر اسبوعان وانقطعت اخبار الجواسيس الثلاثة ، فاوفدت المخابرات البريطانية المستشرق فوست لاستقصاء اخبارهم ، وهناك علم بأن البدو فى ناحية « نخل » بصحراء سيناء جردوهم من نقودهم وامتعتهم وربطوهم فى الاشجار ثم اعدموهم رميا بالرصاص .

وهاجت الخواطر فى بريطانيا هياجا تردد صداه فى جنبات مجلس العموم ، وسرعان ما أوفدت بعثة رسمية لاقتفاء آثار القتلة ، وسيق محافظ قلعة نخل ومشايخ القبائل الى السويس وجرى تحقيق

معهم مصحوب بالوان القسوة والتعذيب ، شهده قنصل انجلترا فى السويس ، ثم قدموا الى المحاكمة فى ٣٠ اكتوبر حيث صدر الحكم على احد عشر اعرابى بالاعدام وعلى ١٢ بالسجن مددامختلفة وعلى اليوزباشى على حسين محافظ قلعة نخل بالسجن سنةواحدة وطرده من الخدمة العسكرية وان تصادر جميع ممتلكات قبيلة ابو صفيح التى اتهمت بالاشتراك فى قتل الجواسيس الثلاثة .

واخيرا ادرك محمد سلطان بأن توزيع الاموال بوساطة الانجليز قد لايجدي نفعا ، فاخذ على عاتقه توزيع نقود بنفسه تارة باسم السلطان واخرى باسم الخديو ، واختار الشيخ سعود الطحاوى فى الصالحية ، ومحمد البقلى فى وادى الطميلات والشيخ ابو سلطان من عربان الهنادى بالشرقية لبث الافكار الهدامة وتحطيم الروح المعنوية فى نفوس رجال العسكرية وافراد الشعب .

وامر الخديو بمضاعفة الاعانة التى تدفعها الحكومة المصرية الى وكالتى انباء روتر وهافاس وجعلها الفى جنيه فى السنة لكل منهما بغية تضليل الراى العام الاوربى ضد امانى مصر القومية وتشويه الثورة ، وكانت الانباء التى تبعث بها هاتان الوكالتان عن طريق القنصلية البريطانية احيانا وبايحاء من الخديو فى احيان اخرى .

وكذلك لعب الوزير على مبارك دورا خسيسا من ادوار الخيانة السافرة ، ومع ان هذا الرجل كان موضع ثقة عرابى الى حد ان اوفده مندوبا عنه الى الاسكندرية لعرض قرارات المجلس العرفى على الخديو ، الا ان هذا الرجل العالم لم يانف من ان يشتغل بالجاسوسية ، واقبل يوزع النشرات والرسائل على العمدوالمشايخ يحضهم فيها على الخيانة والاثم ، ومحاربة الحركة القومية .

صراع فوق الرمال

اختراق حيدة القناة ـ خـدعة دى لسبس ـ السلطان يعلن عصيان عرابى ـ يامولانا ياعزيز أهلك عساكرالانجليز ـ تفشى الرشوة والخيانة ـ معارك الميدان الشرقى ـ الموقعـة الفاصلة فى التل الكبير .

كانت المنطقة التى تقع فيها قناة السويس منـذ حقب موغلة فى القدم شريان المواصلات الى الشرق ، ومن اجل ذلك ظلت ميدانا للصراع الدولى ، وقد بذلت محاولات عدة لاحتلال مصر بقصـد السيطرة على هذا الطريق الحيوى الذى يفضى الى ابواب جزيرة العرب والهـند والصين ، والى استراليـا ونيوزلندا وجزر الهـند الشرقية فى العصور الحديثة .

وكان الاستعمار البريطانى الذى اختصم الاستعمـار الفرنسى منذ القرن السابع عشر حول هذا الطريق قد سوى مشاكله معه ، بعد ان قنع الانجليز بالاستحواذ على جانب كبير من اسهم شركـة القناة ، والاشراف على الخط الحديدى من الاسكندرية الى السويس ولكن عندما استيقظت القومية المصرية وتغلغل الوعى الثورى بين مختلف الطبقات والبيئات الشعبية ، ادركت انجلترا بأن مصالحها فى الشرق باتت مهددة ، فحاولت ماوسعتها المحاولة ان تستدرج فرنسا الى فكرة الدفاع المشترك عن القناة ، ولـكن فرنسا رفضت فى اللحظة الاخيرة هذا العرض الذى ينطوى على مخـاطر ليس فى مقدورها ان تتحمل تبعاتها بعـد مغامرتهـا فى تونس فانسحبت باسطولها من المياه المصرية قبيل ضرب الاسكندرية ، وتركت انجلترا وحدها فى الميدان .

واستطاع الجيش المصرى ان يسحق قوات الاستعمار الزاحف فى معارك ابى قير وكفر الدوار ، فراى الانجليز ان الوصول الى القاهرة عن طريق الدلتا من ضروب المستحيل ، فهناك استحكامات كفـر الدوار المنيعة الجانب ، وهناك دلتا النيل التى تغمرها شبكـة من

القنوات وتغطيها مياه الفيضان فى اشهر الصيف ، وهناك ايضـا الفلاحون الذين يحملون البغضاء لاولئك الغزاة الذين يحـاولون الاعتداء على ارضهم .

وبدات القيادة العامة للجيش البريطانى تدرس بالاشتراك مع الخديو واعوانه الوسائل الكفيلة بتحقيق خطة اخرى للزحف على القاهرة راسا ، واستقر راى الانجليز على ان يضربوا بحياد القناة عرض الحائط ، وان تتسلل قطع الاسطول الى القناة ثم تتخـذ من الاسماعيلية قاعدة للزحف على العاصمة ، واحراز نصر يقوم على الخيانة وبذل الرشوة .

وكان عرابى قد استبان هذه الخطة المنطوية على الغدر والاستهانة بحرمة الحياد المزعوم ، فعقد فى اواخر يوليو مجلسا حربيا لوضع الخطط الكفيلة بتخريب القناة ونسف منشآتها بالمواد المتفجرة مع ردمها فى حالة اعتداء الانجليز عليها ، وبعد ان قلب المجلس المسالة على مختلف وجوهها راى وجوب تعطيل الملاحة فى القنـاة حتى يعجز الجيش البريطانى عن الوصول الى المدن الواقعة على ضفتيها، ومنع اتصال القوات الوافدة من الهند عن طريق السويس بالقوات القادمة من منطقة البحر الابيض المتوسط .

وكان فرديناند دى لسبس قـد وصل الى مصر عقب ضرب الاسكندرية وهو يتوقع ان تقوم الثورة بحركة ترمى الى تخريب القناة ، فبعث الى عرابى فى ١٤ يوليو يسأله رايه فيمـا يختص بموقف مصر من القناة ، فاجابه بانه لن يتعرض بسوء لحرية الملاحة التجارية مادامت القناة على الحياد ، وبشرط الا يستغل هذا الحياد لمصلحة المراكب الحربية البريطانية .

واتصل بدى لسبس القرار الذى اتخذه المجلس الحربى فاخـذ الهلع منه كل ماخذ واعاد الاتصال بعرابى واعلنه « بان القناة منطقة حياد لاتجوز الاعمال الحربية فيهـا ، ولا يستطيع الانجليز ان يعرضوا انفسهم لسخط الدول اذ هم اخترقوا هذا الحياد ، واذا أتى المصريون اى عمل من شانه تعطيل الملاحة فى القناة فان الدول باسرها تقف ضد عرابى ويفقد عطف العالم الحر » .

واقسم دى لسبس بشرفه على انه سيقوم على حراسة الحياد ، وموه على عرابى بان فرنسا تدافع عن حقوقها فى هذه المنطقـة ، وكرر قوله بانه من المحال ان يدخل الانجليز القناة .

وخدع عرابى بهذه الوعود البراقة ووثق بها وصرف اهتمامه الى حصر المقاومة فى كفر الدوار ، فلما وصلت السفن الحربية البريطانية الى بور سعيد ، ارسل دى لسبس الى عرابى اشعارا يقول فيه :

« لاتحاول ان تنتهك حرمة قنالى . فانا هنا ولا تخشى من هذه الناحية ... لن يجرؤ جندى بريطانى واحد على النزول الى البر مالم يكن مصحوبا بجندى فرنسى وانا المسئول عن ذلك » .

فرد عليه عرابى : شكرا خالصا ، تأكيداتكم تعزيتى لكنها ليست كافية فى الظروف الراهنة ، فالدفاع عن مصر يقتضى تخريب القناة تخريبا مؤقتا .

وهنا ساور القلق نفس دى لسبس ، أيقف ساكتا وهو يرى مجهوده الذى لقى المصاعب فى تحقيقه يكاد يقضى عليه ام يتخذ موقفا آخر ؟ فبادر فى هذه المرة بالاتصال بالمهندس الحربى محمود فهمى الذى عهد اليه المجلس وضع خطة تخريب القناة فى مدى اربع وعشرين ساعة ، وقال له :

ـ ان القناة فى عهدتى ولا يمكن لاية سفينة حربية المرور منها حسب نصوص المعاهدات الدولية ، واذا ارادت اية سفينة العبور فيلزمنى تغريق بعض « الشلوات » فيه ومنع المراكب الحربية من اجتيازه ولا يخشى عرابى من جهة القناة مطلقا .

والواقع ان عرابى كان لايزال مخدوعا بمناورات دى لسبس وتوهم ان حياد القناة من الامور المقررة فى العرف الدولى ، فلو اقدم هو على تخريبها لتألبت الدول ضده وفقد عطف العالم .

وعندما اطمأن الانجليز الى ان خدعة دى لسبس قد نجحت : استغل القائد العام البريطانى هذا الظرف وصمم على التسلل الى القناة ، وتمهيدا لذلك أجرى مناورة بحرية وهمية أمام شواطىء الاسكندرية ، ثم تسللت قطع الاسطول تحت جنح الظلام ووجهتها بورسعيد ، ووقفت اول مركب حربى امام مدخل القناة يوم ٢٠ اغسطس ، فتظاهر دى لسبس باعتراض طريقها ، ولكن الادميرال هوسكنس افهمه بأن مياه بور سعيد ومياه بحيرة التمساح من المياه المصرية وان العلم المصرى يخفق فوق كليهما ، فضلا عن انه يحمل تفويضا كتابيا من الخديو باحتلال جميع المواقع التى يرى احتلالها لكسر شكيمة الثوار .

وانبرى فيكتور دى لسبس للادميرال البريطانى وقال له :

ـ نحن لسنا اعداء انجلترا وان وجود الراية المصرية فى بورسعيد ليس من شانه ان يجعل للبحرية البريطانية او لغيرها حق خرق حياد القناة .

ولكن القرصنة البريطانية ضربت بهذه الحجج عرض الحائط وتمكنت من احتلال بور سعيد ، واتخاذ مبانى ادارة الشركة فى المدينة مركزا للاعمال الحربية ، ثم انطلق البحارة الانجليز الى قرية العرب التى يقطنها عمال شركة القناة من المصريين واخذوا يطلقون لنار على النساء والاطفال ، فكانوا يفرون من وجوههم الى الصحراء ويملأون الفضاء بصراخهم .

وعمد الانجليز الى تعطيل الملاحة التجارية فى القناة ثلاثة ايام وقطعوا الاسلاك التلغرافية بين الاسماعيلية والسويس ، وحالوا دون ارسال المحمل وسفر الحجاج من السويس الى الاراضى المقدسة فى الحجاز ، حتى تمت لهم السيطرة على مداخل القناة واخيرا اعادوا افتتاحها للملاحة ودفعوا الى الشركة الرسوم المقررة عن العتاد الحربى وحمولة السفن التى عبرت القناة .

وفى صباح ٢١ اغسطس وفد على الاسماعيلية الادميرال سيمور والجنرال ولسلى والادميرال هوسكنس ، ونزل عشرون الف جندى الى المدينة وتم احتلالها .

هكذا خدع عرابى بمناورات افاق عالمى هو فردیناند دى لسبس له من ماضيه مايوحى بانه رجل متقلب الاهواء ، منافق ، لايؤمن جانبه ولا تهمه سوى مصلحته الخاصة وتحقيق المآرب للاستعمار ، وقد عقب الجنرال ولسلى فيما بعد بقوله :

ـ لو ان عرابى خرب القناة وردمها لكنا لانزال الى هذه اللحظة فوق مياه البحر نحاصر مصر ، ولكن تاخر عرابى ولو لفترة اربع وعشرين ساعة كتب لنا النجاة وانقذنا .

***

واهتم الانجليز بتعطيل المواصلات بين مصر واستامبول حتى لا يتصل زعماء الثورة بالسلطان . وكان هذا الاتصال يهم انجلترا من الوجهة السياسية بعد ان عمدوا الى تسميم الافكار فى تركيا ضد الثورة .

وكانت المفاوضـــات لاتزال دائرة بين لورد ايرل اوف دوفرين سفير بريطانيا فى استامبول وبين الباب العـــالى ، للحصـــول على « ارادة سنية » بعصيان عرابى ، واستخدمت الرشاوى فى سبيل اعلان هـــذا العصيـــان . واخـــيرا وجهت بريطانيا انذارا الى البـــاب العالى فى ٣٠ يوليـــو قالت فيه انها تعد نفسهـــا مكلفـــة بمهمة اقرار النظام فى مصر ، وانها ستمنع القوت العثمانيـــة من النزول الى الاراضى المصرية الا اذا اعلنت الدولة العلية ان عـــرابى عاصيا وخارجا على الخلافة وعلى القانون .

ومع أن جميع رجال الدين فى تركيـــا كانوا يؤيدون عـــرابى فى موقفه ، وكذلك كان معظم الضباط فى الجيش العثمانى فى صفه، فقد وقع السلطان فى الشرك الذى نصبه الاستعمـــار البريطانى ووافق عـــلى اصدار بيان يطعن به الثورة فى ظهرها ، وفيما يلى نص هذا البيان الذى نشر فى ٥ سبتمبر :

« معلوم عند الجميع ، ان خديوية مصر بموجب الفرمانات العالية والامتيازات المقررة ، مودعة من جانب الخلافة العظمى الى عهـــدة واستيهال حضرة فخامتلو محمد توفيق باشا ، فهو فى ادارة الامور المصرية ، وكيل مطلق من طرف السلطنة السنية ، فاوامره مطاعـــة ومخالفته توجب على عاملها طائلة المسئولية ، ومع ذلك فان عرابى باشا ارتكب ذنبا بتعرضـــه لوظائف الحكومة ، بما هو مخالف صريحا للاحكام القانونية ، فسلب الراحة ، واخل بالامن فى المملكة ، واضاع عددا من الانفس ، واضر بالاموال ، ولم يقف عند هذا الحـــد ، بل سبب تداخلا عسكريا اجنبيا ، لانه اجبر دولة بريطانيا المخلصـــة الوداد مع السلطنـــة السنية ، على ان تطلق مـــدافع سفنها عـــلى استحكامات ثغر الاسكندرية ، وكان ذلك ناجما عن زيادة التجهيزات ووضع المدافع العديدة فى طوابى الاسكندرية ، حتى امست سفن الدولة المشار اليها هدفا لهذه التعرضات ، فتسبب عنها عدم امنية الدولة المذكورة .

« ومع قطع النظر عن البحث فيما يترتب على مرتكب هـــذه الامور من العقاب ، فالشريعة الغراء لم تصرح بوجوب المدافعـــة الا بشرط الاستطاعة ، فلو تفكر لهذا الشرط الشرعى ، لما قام لتنفيذ مآربه باراقة الدماء واتلاف النفوس ، وادخال القطر المصرى تحت مخاطرة مداخلات عسكرية اجنبية .

« ومما زاد فى المشكلة ارتباكا ، هو انه عقب انهزامه فى الاسكندرية حاضر سراى الحضرة الخديوية مرة ثانيــــة ، فاضطر الادميرال الانجليزى الى اخراج عساكره الى البر للمحافظة على الامن، فكانت هذه الحالة مبدأ المداخلات العسكرية البرية .

« وكان القصد من ارسال وفدنا السلطانى ، المؤلف من دولتلو درويش باشا وكل من عطوفتلو قدرى افندى ولبيب افندى وحضرة الشيخ احمد اسعد افندى ، اجراء التبليغات والتنبيهات الى عرابى باشا بأن يحضر الى دار السعادة ، ويرجع عن مسلكه المعوج الذى سلكه على غفلة من الاهلين ، وذلك حتى لاتكون الدولة العليـــة مضطرة لاجراء الحركات العسكرية العنيفة ، فى حق الافــراد من الاهالى الذين يتبعون قوله لجهلهم وعدم معرفتهم الخير من الشر .

« اما الوفد ، فقد بذل مافى وسعه من النصائح الدينية والشرعية والعقلية المناسبة لظروف الحال ، ولم يكن جواب عرابى عن ذلك كله الا ثباته فى سلوكه المعوج ، وتمادى فى تمــرده الى ان قال : ان كل من اتى القطر المصرى من اجنبى وغيــره ، حتى ذات العساكــر العثمانية ، فهو يقابلها بالقوة ، ولا يرضى بدخولهم البــلاد ، وقــد عرض لدينا ذلك الوفد العثمانى بتقرير رسمى موقع من الجميع .

« ولا يخفى ان مايحصل من وخامة العاقبة ، عن تعدى الموما اليه لتشكيل هيئة مخصوصة لادارة البلاد ضد الحكومة الشرعية ، وما اجراه عرابى باشا قبــل التهــديدات التى حصلت له من الانجليز ، كتنويهه بمقاومة العساكر الشاهانيــة بالسلاح ، ومطلق حــركاته الاخرى ، كلها امور تستدعى معاقبته بأشد العقاب ، ومع ذلك كما استعطف الحضرة الخديوية الجليلة ، فطلب العفو والتجأ الى المراحم السنية ، واعطى التامينات الى دولتلو درويش باشا رئيس الوفــد عنه وعن العساكر المصرية ، كما جرى الاعلان فى اوراق الحوادث ، نال التعطفات ، ولاجل تأمينه وتوثيق انقياده وصداقتــه ، احسن اليه بالنيشان العالى طبقا لانهاء درويش باشا المشار اليه ، اما عرابى فلم يعرف قدر تلك الالطاف ، وجهل مزيتها ، فاصر على افكاره السقيمة وحــركاته المضادة للشرع المنيف ، ببث واعــلان البغى والعصيان ، وعليه فهو باغ عاص .

« وليعلم الجميع ، ان الجناب الخديو هو امين السلطنة ومعتمدها وهو اعظم اركان الدولة العلية ، فحفظ حيثيته الذاتية ، وما حازه

من الامتياز والاقتدار ، انما هو من الامور الملتزمة ، وما اجراه عرابى باشا وتجاسر عليه من اجراء تلك الحركات ، مغاير للرضى العالى ، فبغيه وعصيانه هما نتيجة افعاله واعماله ، اما الحضرة الخديوية فنفوذها مؤيد ، وامتيازها مقرر من الدولة العلية » .

وقد نشرت صيغة هذا الاعلان فى صحيفة الجوائب التى يصدرها بالعربية فى دار الخلافة احمد فارس الشدياق ، وطبع منه مئات الالوف من النسخ ، حصل الانجليز على نحو مليون منها لتوزيعها فى الهند والبلاد الاسلامية ، وقام محمد سلطان وعملاء الاستعمار بتوزيع مليون نسخة اخرى فى الشام والعراق والحجاز وبين صفوف الضباط والجنود فى كفر الدوار والتل الكبير ، وكان ولاء المصريين فى ذلك الحين للخلافة ينطوى على الانقياد والطاعة العمياء فاثر اعلان العصيان فى نفوسهم واضعف من روحهم المعنوية ومن حماستهم للثورة . على ان عرابى استطاع بايمانه الوطنى ان يحبط مؤامرات الخونة ، واقنع الضباط بأن لاجريمة فى معصية الوالى اذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم واستعان بأعداء الوطن على اذلال الشعب ومما قاله لهم :

ـ ان هذا المنشور مخالف لاحكام الدين الاسلامى لاننا انما نقاتل اعداء المسلمين الذين يريدون ان يستولوا على بلادنا وان الجهاد فى سبيل حماية الدين والمال والوطن والعرض فرض واجب علينا ،وان خليفة المسلمين لايسمح بمثل هذا المنشور بل هو دسيسة انجليزية تمكنوا من تنفيذها بالرشوة ، ولو فرض وصدر مثل هذا المنشور من الخليفة لوجب على المسلمين خلعه لمخالفته لاحكام الدين .

وعمد بعد ذلك الى قطع الخطوط التلغرافية لمنع المخابرات بين الاسكندرية وداخل البلاد ، كما طلب احمد رفعت بك مدير المطبوعات باسم حكومة الثورة الى اتحاد البريد فى برن عدم قبول برقيات شفرة الى مصر .

اكتفى عرابى بأن جعل من منطقة التل الكبير قاعدة حربية يتحصن فيها لصد الهجوم عن الدلتا ، فحشد فيها ٢٤ طابورا من المشاة وثلاثة آلايات من الفرسان وستة آلاف مقاتل من البدو ، وفى رواية اخرى للمستشرق بلنت ان مجموع القوات المصرية فى القطاع كله لم

تكن تزيد على اثنى عشر الف جندى مدرب والباقون من المجندين الاحداث .

وتقع التل الكبير على الضفة اليسرى من ترعة الاسماعيلية ، على هضبة تعلو مستوى الخط الحديدى بنحو ثلاثين مترا وهى تمتد بانحدار طفيف نحو الصالحية والقصاصين . وتبدأ خطوط الدفاع من الخط الحديدى على طول ستة كيلو مترات ، وتتجه من الجنوب الى الشمال ، وتحمى معاقل الجند خنادق بعرض ثلاثة امتار وعمق مترين ، ووراء الخطوط الامامية خطوط اخرى مساعدة تصل الى مكان الثكنات .

وقد تجمع الوف من الفلاحين فى هذه البقعة من الصحراء . وفى ايديهم الفؤوس والمقاطف لحفر الخنادق واقامة الاستحكامات من الطين والرمل تحت اشراف المهندس الحربى محمود فهمى ، كانوا يعملون من الصباح الى ساعة متأخرة من الليل وهم يتغنون بقولهم : يامولانا ياعزيز ، اهلك عسكر الانجليز .

لم يكن هؤلاء الفلاحون يقرءون او يكتبون ، ولكنهم كانوايحسون بالموقف احساسا كافيا ، فالانجليز قد اعتدوا على ارضهم . وهم بسبيل القضاء على الثورة التى حررتهم من الاضطهاد والاستبداد ، وهؤلاء قادة الثورة فلاحون مثلهم ، يقفون فى وجه الخطر دفاعا عن الارض الطيبة ، فمن واجب هؤلاء وهؤلاء ان يتكتلوا ويكونوا يدا واحدة فى مناهضة الاستعمار ، ومكافحة الاتراك والجراكسة الذين يتآمرون مع الانجليز ليشاركوهم فى الاستبداد بالمصريين ... وقد فاجأتهم الحرب والخزانة خاوية بعد ان سرقها لصوص الاستعمار ، وليس فى البلد جيش قوى منظم او ذخيرة ، حتى الملابس التى يرتديها الجند لاوجود لها ، بيد ان كل مواطن اخذ يستغنى عن جزء مما يملكه ، وانهالت على الجيش الاقمشة والابقار والمواشى والحبوب ... الاغنياء والفقراء سواء .. المشايخ فى المساجد يقرءون البخارى ويرفعون الابتهالات ، والنساء فى البيوت يجهزن الاقمشة واربطة الجرحى ، والمزارعون يهجرون الحقول للتطوع فى صفوف المجاهدين ، أو للمشاركةفى حفر الخنادق واقامةالاستحكامات لقد وهبوا ارواحهم للدفاع عن امهم الكبرى مصر .

بعد ان تم احتلال بور سعيد واصل الاسطول البريطاني اعتداءه الآثم ، فاطلق قذائفه على معسكر الجيش المصرى فى نفيشة . واحتل جنوده الخط الحديدى بين الاسماعيلية والسويس لاستخدامه فى الاغراض الحربية وتضييق الحصار على مصر من الشرق .

واخذ الجيش المصرى يقيم الاستحكامات بجوار المسخوطة . ويضع السدود على ترعة الاسماعيلية لمنع تغذية مدن القناة بالمياه العذبة ، وفى ٢٣ اغسطس داهم الانجليز مواقع الجيش المصرى فى المسخوطة بتأثير خيانة البدو ، ونشب القتال بين الفريقين ، وابلى الفريق راشد حسنى بلاء حسنا الى ان استطاع اجلاء الانجليز عن المواقع التى احتلوها . ثم كرت القوات المصرية على الانجليز لاسترداد القصاصين وهددت جناحه الايمن واوشكت ان تبلغ هدفها لولا النجدات التى توالت على الجنرال جراهام مما حمل القوات المصرية على الرجوع الى الوراء .

اقضت هذه الانتصارات مضجع الخديو . فكان لاينى — فى غضون هذه الفترة العصيبة التى تمر بها البلاد — يبعث بالرسائل الى كبار الضباط بالوعد والوعيد ، مبينا لهم ان الجيش البريطانى لم يأت الى مصر الا بأمر السلطان لتأييد السلطة المحلية ، ثم يوفد الجواسيس من رسله الى ضباط الجيش المصرى لافساد روحهم المعنوية ومحاولة العبث بشرفهم العسكرى ويصور لهم الثورة على انها نزاع شخصى بينه وبين عرابى .

وقام المرتدون من اعداء الوطن امثال محمد سلطان وعلى مبارك ومحمد زكى وعمر لطفى واحمد عبد الغفار عمدة تلا والسيد الفقى العضو بمجلس النواب بتوزيع الرسائل « لتغيير افكار الاهالى ومطابقتها لافكار العدو » .

وتوالت « الاوامر الخديوية » يوما بعد يوم ، ففى ٢٠ اغسطس تلقت السلطات المحلية فى منطقة القناة امرا فحواه « ان ادميرال الاسطول البريطانى وقائد عام الجيوش البريطانية قدما الى مصر لاعادة الامن والنظام اليها ، ومن ثم فقد سمحنا لهما باحتلال جميع الاماكن التى يريان وجوب احتلالها ، مما يساعد على قمع العصيان ، ومن يخالف امرنا هذا ينزل به اشد العقاب » .

ووجه امر فى ٢٨ اغسطس الى مديرى الدقهلية والغربية والشرقية والقليوبية « بان مرور الانجليز فى القرى والبلاد المصرية هو لاعادة

الامن فى القطر واخماد الثورة ، وليس فى نيتهم الاستيلاء على البلاد ، فيجب تفهيم الاهالى بذلك وان يمدوا الانجليز بالمؤونة اللازمة بالثمن اللائق ، وان الجناب العالى قد اناب عنه محمد سلطان باشا لمرافقة قائد الجيش وتنوير الاهالى » .

وبعث تشريفاتى الخديو فى ٢٨ اغسطس الى محافظ السويس بأمر يقضى بضرورة تكليف العربان الموثوق بهم بمساعدة الجيش الانجليزى بعد استمالتهم بالدراهم .

وامر آخر الى حكمدار شرق السودان ووكيل مصوع ومحافظ سواكن ومحافظ القصير « بانه سيتوجه اليهم وابور حربى انجليزى به عبد الله فوزى بك بقصد المرور على سواحل البحر الاحمر لاستطلاع الحالة فيجب استقباله والاستماع لاوامره » .

وهناك اربع برقيات من محافظ بور سعيد الى « سر تشريفاتى خديو الاول » الاولى فى ٢١ اغسطس تفيد بأن معظم المراكب المشحونة بعساكر انجليز وصلت الى الاسماعيلية ، والثانية فى ٢٣ اغسطس بأن العساكر الانجليز تفرقوا فى انحاء البلد وان معظم الاهالى نزحوا عنها والحالة العامة غاية فى السكون ، والثالثة فى ٢٥ اغسطس بأن المراكب الحربية البريطانية الراسية فى بور سعيد عددها أحد عشر . والرابعة فى ٢٦ اغسطس بأن معاون الاسماعيلية اخطر بأسر ثمانية آلاف شخص وان الانجليز قد استولوا على ثمانية مدافع وسيضربون التل الكبير قريبا .

***

تتابعت المعارك بين الجيش المصرى والجيش البريطانى ، ففى ٢٥ اغسطس التحم الفريقان فى معركة عنيفة انتهت بالاستيلاء على المسخوطة واسر المهندس محمود فهمى رئيس هيئة اركان حرب الجيش ، وفى اليوم ذاته استولى الانجليز على المحسمة بحيث صاروا على مرحلة اربعة وعشرين كيلو مترا من التل الكبير ، وفى ٢٨ اغسطس هاجم المصريون مواقع الانجليز فى القصاصين وكان هجوما قاسيا عنيفا بحيث استولوا على المواقع الامامية وخسر الانجليز فى هذه المعركة ثمانية من القتلى وواحدا وستين جريحا .

بعد هذه المعركة قدم عرابى الى الميدان الشرقى ، وكذلك قدم على فهمى من القاهرة ، واحمد عبد الغفار من كفر الدوار وعقد مجلس حربى شهده قواد الجيش المصرى لرسم خطة لمهاجمة مواقع الانجليز فى القصاصين حيث حشدوا فيها جانبا كبيرا من قواتهم ، لاسترداد موقع السدود والقصاصين .

وكانت الخطة تقضى بأن تزحف القوات المصرية فى الساعة الثانية بعد منتصف ليلة ٩ سبتمبر بقيادة الفريق راشد حسنى ، وان يتحرك محمود سامى البارودى بالقوات التى يقودها من الصالحية ليلا فيصل الى خط القتال عند مطلع الفجر للاحداق بميمنة العدو ، وعند التحام القوتين ادرك المصريون بأن الانجليز على بينة بالخطة العسكرية التى وضعوها ، ثم اتضح فيما بعد أن الخائن الاميرالاى على يوسف خنفس سرق صورة منها وسلمها الى الجنرال ولسلى ، وان عربان الطحاوية الذين كانوا يرشدون قوات الصالحية عملوا على تضليلها فى مفاوز الصحراء بحيث لم تصل فى الموعد المقرر .

وكانت النتيجة ان انقلبت المعركة من الهجوم الى الدفاع ، وعلى الرغم من ذلك فقد أوقع المصريون بالانجليز خسائر فادحة وزحزحوهم عن مواقعهم ، وكاد لواء النصر يعقد للمصريين لولا ان أصيب القائدان راشد حسنى برصاصة فى قدمه وعلى فهمى بجرح عميق فى ساقه .

ونظرا الى ان هذه المعركة تعد من المعارك الكبيرة التى التحم فيها الفريقان ، نورد هنا البلاغ الذى اذاعته القيادة العامة عنها :

« علمنا من الانباء الواردة الينا عن معركة يوم الاثنين الماضى — ٢٨ اغسطس — من مركز الجيش الشرقى أن عساكرنا غنموا من جيش العدو غنائم كثيرة من ضمنها سبعون انجليزيا وعددوافرمن الخيول الافرنجية ، ولا تزال القوات المصرية تعثر على الخيول الانجليزية شاردة فى سهول اراضينا فتاخذها عساكرنا الى مركز جيشنا ، وكذلك مقادير وافرة من الاسلحة . وقد ترك الانجليز قتلاهم فى ساحة المعركة بعد ان ولوا منهزمين فالتزم عساكرنا بدفنهم حسب القانون العسكرى الذى يقضى على الغالب بدفن قتلى المغلوب اذا لم يأت لدفنهم . فالذين دفنوا فى هذااليوم ثمانمائة

قتيل وجدوا مجندلين بأسلحتهم وملابسهم وذخيرتهم ، وهم غير الذين سيعثر عليهم فيما بعد ، والذين امكن للعدو حملهم الى مراكزه او احراقهم ، وقد ورد الينا من على فهمى انه شاهد حريقا فى جهة الكوبرى فارسل الى تلك الجهة من يكتشف هذا الحريق فاخبر المرسلون انه حريق القتلى الهنود .

« وقد استشهد من عساكرنا فى هذه الحرب ستون شهيدا وجرح خمسة وثمانون وارسلوا الى القاهرة فوصلوها عصر يوم الثلاثاء . ولدى وصولهم ذهب عرابى باشا اليهم بنفسه ليقتبس من بركاتهم ويحييهم ووجدان ثلاثة ارباع الجراح من فعل السيوف وحراب البنادق ساعة الالتحام واستعمال السلاح الابيض ، ورأى نحو الستين منهم جراحهم خفيفة ، يؤمل شفاؤها قريبا ، والباقون لاخطر عليهم وان احتاجت جراحهم الى علاج اطول من علاج اخوانهم وعندما كان عرابى باشا يحييهم ويلاطفهم ويسألهم عن احوالهم ليخفف عنهم بعض مابهم من الآلام نطقوا بلسان واحد :

اننا نتمنى الشفاء الآن ونرجع الى مواقع القتال لننتقم من اعدائنا المعتدين ونبيض تاريخنا بأعمال تذكر على مدى الايام .

« وزارهم عرابى باشا فى هذا اليوم « الخميس » وعندما لمس من مدير المستشفى نوعا من التقصير والاعمال فى وظيفته ابدله بغيره بمن فيه الكفاءة والاهلية لاداء واجبات وظيفته ، ثم أوصى الاطباء والمرضين بأن يميزوا الجرحى فى المعاملة والاطعمة والاشربة عن سائر المرضى ، وكذلك نبه بأن يحضر لهم جميع لوازم المأكل والمشرب من اصناف اللحوم والطيور والفواكه والشربات وما أشبه ، ونبه بأن الخبز الذى يقدم اليهم من النوع الممتاز .

« وفى هذا اليوم — الخميس — ورد لنا من مركز الجيش الشرقى بما يفيد ان الكشافين من عربان الفوايد والرماح تقابلوا مع كشاف العدو وكانوا خمسة عشر خيالا بجهة الكوبرى فحصلت بينهم مناوشة حربية نحو ساعة ، وفى اثناء المناوشة انضم الى كشاف العدو خمسة وعشرون من الامداد ، ومع ذلك تمكن عرباننا من رد الاربعين على اعقابهم منهزمين حتى تركوا الكوبرى وولوا هاربين تاركين موقعهم الاصلى ، وغنم كشافونا منهم خياما وبعض مهمات حربية وحضروا الى خط النار مستبشرين » .

لم تبق الا ان تدور المعركة الفاصلة ...

وكان الانجليز قد حصلوا على معلومات وثيقة وتفصيلات دقيقة وافية عن مواقع الجيش المصرى وتوزيع قواته ، ومن بينها خطة عسكرية كان البارودى قد وضعها بالاشتراك مع بقية القواد وهى ترمى الى تطويق القوات البريطانية ، فسرقت هذه الخطة ووقعت فى ايدى الاعداء ، وبذلك ضاع على مصر ، عنصر المفاجأة التى كان يؤمل من ورائها النصر .

وفى ليلة ١٣ سبتمبر جاء سعيد الطحاوى الى عرابى فى مقره بالقيادة الشرقية واقسم له على ان الانجليز لن يهجموا قبل اسبوع واحد على الاقل ، ثم تسلل خارجا الى صفوف الانجليز ليقود طلائعهم لمهاجمة جيش مصر .

ووفد فى اثر الطحاوى ، الخائن على يوسف خنفس واشاع بانه علم من مصادر لايرقى الشك اليها ان الانجليز لن يبرحوا مراكزهم فى تلك الليلة .

وبعد منتصف الليل بساعة زحف الجيش البريطانى بقوات هائلة مكونة من احد عشر الفا من المشاة ، والفين من الفرسان وستين مدفعا ، بعد ان اطفأ انواره وتسربل بالظلام الدامس وترك نارا خلفه ليوهم المصريين بانه لم يتحرك ولم يتقدم .

كان الجنرال جرانت ولسلى على راس الجيش الزاحف ، وكان مع فرسانه فى الميمنة بطاريتان ، وفى الميسرة فرسان بقيادة الجنرال جراهام ، وفى المقدمة والمؤخرة فرسان بقيادة دوق اوف كنوت ، وكان عن يسار الفرسان سبع بطاريات و ٤٢ مدفعا على خط واحد ومعهم آلايان من جنود الجبال ، وكان فرسان الميمنة مكلفين بقطع خط الرجعة على الجيش المصرى عند بزوغ النهار ، وقد رسمت هذه الخطة على اساس الهجوم كرة واحدة على التل الكبير وتطويقه .

استمر الزحف تحت جنح الظلام ، يتقدم الجيش البريطانى عربان الهنادى والطحاوية بصفة ادلاء يرشدونه الى الطريق ، وبين صفوف القوات البريطانية عبد الرحمن حسن وعلى يوسف خنفس وزهراب وغيرهم من الضباط الخونة الذين باعوا وطنهم لقاء عرض زائل وثمن بخس . وقطع الجيش خمسة عشر كيلو مترا دون ان

يشعر به احد من المصريين . فالارض خالية ، وكان يجب ان تكون فى المخافر الامامية كتيبةمن الفرسان ،وبدلا من ان تهب الكتيبةلمنازلة العدو وتوقف تقدمه ، سارت امامه كأنها تقود خطـــاه الى النصر الزائف الملوث بالخيانة .

ولمحت طلائع جيش العدو عن بعد مصابيح متباعدة تضيءجوانب الطريق ، انها المصابيح التى وضعها الضابط عـلى يوسف خنفس خوفا من ان يضل الجيش البريطانى الهدف ، ياللخيانة السافرة!!لقد ظلت جحافل الجيش الزاحف تمر فى هدوء وسكينة حتى اذا لاحت اضواء الفجر ، كان قد كون نصف دائره محكمة حـول مواقـــع واستحكامات الجيش المصرى ، بل حول قلب مصر .

وفى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين صباحا صدرت اشارة الهجوم ، فانطلقت القذائف من ستين مدفعا ، ومن احد عشر الف بندقية ، تقذف جميعا الهول ، وتنشر الرعب والدمار ، من الامام ومن الخلف . وصوبت الفا حربة الى صدور جنودنا البواسل الذين هبوا من رقادهم على صيحة واحدة ، هى صيحة الفزع من الصاعقة التى انقضت عليهم .

وكان عرابى يؤدى صلاة الفجر حين باغته الهجوم ، وبدء ربه ، فسقطت قنبلة مباشرة على خيمته من بطارية تصب مقذوفاتها على مقر القيادة العامة ، فترك الخيمةطعمة للنيران ،واسرع يمتطى صهوة جواده ، ثم نزل ساحة المعركة ، فماراعه وامضه الا ان يرى جنده يفرون مذعورين على اصوات دخيلة تدعوهم الى الفـرار والتنحى عن اسلحتهم ، وتسللت بينهم جموع الخونة من البدو وضبـــاط الخديو ، وتكاثرت الخيول والابل مولية ظهورها للساحة ، ثم انعقد الدخان والغبار فوق الجميع فباتوا كأنهم فى ظلام دامس . ووقف عرابى يحاول عبثا ان يثنى الجند عن الفرار ، ويحضهم على الثبات، ويذكرهم بحماية الـدين والعـرض والشرف والوطن ، ويصرخ بأن هناك مكيدة مدبرة ، ولكن التيار كان جارفا ، فضاع صـوته بين هزيم المدافع وأزيز الرصاص وانات الجرحى ،وكادت قذيفةتصيبه لولا ان لوى خادمه عنان جواده قهرا عنه .

وكان فى مقدمة خط النار الاميرالاى البطل محمد عبيـد الذى سبق له ان هاجم « ديوان قصر النيل »واطلق سراح عرابى وصحبه

وقد استطاع ببسالته وقوة تأثيره ان يجعل الكتيبة التى يقودها تصمد بأكملها فى خط القتال فى مواجهة العدو وان تصليه نارا حامية وعلى الرغم من ان جنده اخذوا يتساقطون كأوراق الخريف امام القذائف الجهنمية التى اخذت تنصب عليهم ، فلم تتزحزح اقدامهم عن مواطئها ، بل كانوا مثالا يحتذى للشهامة العسكرية ، وللجندى المصرى الصميم الذى لايسلم سلاحه قبل ان يذوق الموت ، وتقدم عبيد ليحتل مكان جندى سقط مجندلا فصرعته قذيفة ،واستشهد فى المعركة ، وتطايرت اشلاؤه وامتزجت بعشرة آلاف شلو بعثرت فى الصحراء ووراء التلال والمنحدرات ، فدفن بلا قبر ولا وطن .

ونجحت المدفعية التى يقودها حسن رضوان فى اصابة العدو بخسائر جسيمة ، ولم يخفت صوتها حتى نفذت ذخيرتها ، وسقط حسن رضوان جريحا فحمله الانجليز الى قائدهم العام الذى طلب اليه ان يحتفظ بسلاحه اعترافا منه بشجاعته واقدامه .

ولقى الجرحى من الجيش المصرى كل ضروب الوحشية والبربرية من الجنود الانجليز الذين رفضوا ان يقدموا اليهم اى لون من الوان المساعدة ، ونستشهد بما نشرته صحيفة « لاجازيت دى كولون » بعددها الصادر فى ٢٦ سبتمبر ١٨٨٢ لمراسلها العسكرى فى ميدان التل الكبير :

« شاهدت مع زملائى من مراسلى الصحف الجرحى المصريين وهم مطروحون ارضا فى ساحة المعركة ،يتاوهون ويتوجعون من فرط الالم دون ان يعنى احد بنقلهم الى اقرب مستشفى ، وقد فكرنا ان هؤلاء الابطال يفضلون الموت البطىء على ان يطلبوا الى اعدائهم اسعافهم . وخلف هؤلاء الجرحى والقتلى شاهدنا قطع ملابس وبقايا أسلحة مهشمة ، وبعض زمازم من الصفيح الابيض نصفها مملوء بالماء القراح .

« ولقد تولانا الذهول عندما وقعت ابصارنا على بعض جنود الدارجون وهم يعمدون الى تفتيش جيوب وملابس الذين اسلموا ارواحهم من الضباط والجنود المصريين البحث عن نقود او ساعات أو اشياء ذهبية لكى يسلبوهم اياها .

« وفيما انا افكر فى هذا العمل الوحشى الذى تقشعر له الابدان . اذ قطع على سبيل تفكيرى صراخ من الخلف فتطلعت مرة اخرى واذا بصوت يهتف « احترس فانه لم يمت تماما » واذا بجندى بريطانى يطلق النار على رأس ذلك الجريح .

« وبعد ان ارتقينا سفح التل الصغير وقعت ابصارنا على عشرات من الجنود الايقوسيين وهم يعمدون الى ازهاق ارواح الجرحى المصريين والاجهاز عليهم ، وفى وسعى ان أؤكد بان جميع فرسان الانجليز لم يتركوا جريحا مصريا واحدا على قيد الحياة ،بل قتلوهم جميعا » .

وعندما غربت الشمس وراء كثبان الرمال ، وبدات الظلمة تطرد النور رويدا رويدا ، كانت الدماء التى بيعت تخضب رمال الصحراء وكانت الذئاب والطيور الجارحة قد اقبلت لتنهش الجثث الملقاة فى الخنادق وحول الاستحكامات التى اقامها الفلاحون على عجل من الطين والعرق والدموع .

ان مصر لن تنسى هؤلاء الابطال الصناديد الذين قاوموا الخيانة فى بسالة واقدام ، وضحوا بأرواحهم فى سبيل مصر . سنظل نبكيهم ونشيد بأعمالهم الباهرة . لقد راحوا ضحية الغدر .خانهم الذين ائتمنوهم على أرواحهم ، لقاء الذهب الذى اشتراهم به اعداء الوطن .

الصفحات السوداء

محاولة الدفاع عن العاصمة ـ الولس كسر عرابى فى تل البقشيش ـ دخول الخديو الى القاهرة فى ظلال الحراب البريطانية ـ الخائن محمد سلطان ـ موقفه من الشعب ـ ماساة الثورة وختامها .

ماكاد الانجليز يطوون راية مصر فى ساحة التل الكبير ويرفعون مكانها اعلام الامبراطورية البريطانية ، حتى بادر الخائن محمد سلطان المرافق لجيش الاحتلال ، يبشر الخديو ببرقية يقول فيها : ان جيش العصاة قد تشتت وتمزقت اوصاله اربا . وهنا هرع المنافقون والخوارج وحثالة الافرنج الى راس التين يهنئون الخديو لا على انكسار جيش مصر فحسب وانما على تغلغل النفوذ الاستعمارى فى وادى النيل ، وبلغت القحة بهؤلاء المنافقين ان هتفوا فى ساحة القصر : ليحى توفيق الاول . لتحى ملكة بريطانيا . ليحى الجنرال ولسلى . وكان الاجانب يخلعون قبعاتهم ويقذفون بها الى سقوف قاعة التشريفات ابتهاجا بما زعموه انه النصر ، وامر الخديو بتوزيع اكواب الشربات والحلوى على المهنئين ، بين عزف موسيقى الحرس بنشيد « انغام الظفر » . وفى المساء اقام الخديو مادبة عشاء اعقبتها حفلة ساهرة ، ودعا اليها الضباط البريطانيين ، البريين والبحريين ، وبعث ببرقية الى هيئة اركان حرب الجيش البريطانى يشكرها على انقاذ عرشه ويهنئها على ما اسماه « انتصارها الساحق على العصاة » .

وبادر بارسال برقية الى محمد ثابت باشا فى استامبول يقول فيها :

« يسرنى ان ازف اليكم بان هزيمة العصاة فى التل الكبير قد تبددت ، وقد تم الاستيلاء على ستين مدفعا وعلى المعسكر كله مع كميات هائلة من الاسلحة والذخائر والمؤن ، وقد وصلت القوات

الهندية فى الساعة الرابعة من بعد ظهر امس ووجدت السكان فى هدوء تام ، ومن ثم اتجه الفرسان الانجليز الى بلبيس .

« ويأمل القائد العام ان يصل بالقوات الرئيسية الى بنها اليوم ، ومن هناك يمضى الى قليوب ثم يتجه راسا الى القاهرة .

« وقد هرب عرابى الى المحروسة ، ووقع فى الاسر راشد حسنى باشا وعلى فهمى باشا الذى جرح ، ووصل وفد من القاهرة مكون من رءوف باشا وبطرس غالى باشا الى كفر الدوار ويلتمس الوفد مواصلة السفر الى الاسكندرية . وتلقينا عريضة من اعيان القاهرة يعلنون فيها التنصل من الرؤساء العسكريين والجيش ، ويرفرف العلم الابيض على كفر الدوار ، وبذلك يمكن اعتبار الثورة قد سحقت » .

***

اما الشعب فبكى بدل الدمع دما ... بكى على عاهله الذى استعان بالجيوش الاجنبية لتدنس ارض مصر فى سبيل ان يوطد اركان ملكه ، بكى وهو يرى امثال الخائن محمد سلطان يسير فى ركاب جيش العدو ويمده بالمعلومات ويزوده بأسرار الدفاع وينشر البغى والفساد فى ارض الكنانة ... بكى لان بعض الضباط الذين اشتروا الضلالة بالهدى امثال : على يوسف خنفس واحمد عبد الغفار ومحمد نسيم حنثوا فى يمينهم وباعوا مصر للمستعمرين ، وكذلك قبائل الهنادى والطحاوية الذين خانوا جيش مصر وكانوا من بواعث انكساره وتخضيب الارض الطيبة بدماء الابرياء .

وقدم عرابى الى القاهرة على عجل ، وقد استقر رايه على انشاء خط دفاع امام المطرية ، يستند يمينا الى الجبل ، وشمالا الى ترعة الاسماعيلية ، ثم ينعطف غربا على الترعة المذكورة الى النيل على مقربة من شبرا ، بيد انه صدم صدمة عنيفة عندما الفى ان حامية القاهرة من الضعف وقلة العتاد والذخيرة بحيث لاتقوى على رد غارة المعتدين .

ودعا عرابى المجلس العرفى الى عقد جلسة طارئة للتداول فى كيفية الدفاع عن العاصمة ، ولكن حفنة من الخوارج وعلى راسهم

خليل يكن قاوموا ارادته فى الدفاع وشقوا عليه عصا الطاعة ، ونادوا بفكرة التسليم خوفا من تدمير وتخريب العاصمة ، كما دمرت الاسكندرية من قبل .

يعيب بعض المؤرخين على عرابى بانه لم يتحصن فى الصعيد ويدافع عنه كما فعل مراد بك امام القوات الفرنسية ، وتساءلوا :

ولماذا لم يلجأ الى السودان ، اذ كان هناك جيش لمصر عدته خمسة وعشرون الف مقاتل ؟

وقد كفانا عرابى مؤونة الرد على هذا السؤال اذ قرر فى مذكراته بانه عند ماجاء القاهرة دعا المجلس العرفى الى الانعقاد وابلغ اعضاءه خطته وهى تقضى بمقاومة الانجليز عند العباسية ، فاذا تغلبوا عليه فانه يستأنف المقاومة عند الجيزة ، فاذا تبعوه فانه يقيم خط دفاع عند بنى سويف فاسيوط فاسنا وهكذا . . . فاما ان تكون الغلبة له او ينضم اخيرا الى القوات المهدية ويتحالف معها على محاربة الانجليز .

ولكن اعضاء المجلس اعترضوا على هذه الخطة ، وفهم من ذلك انهم يعبرون فى هذه المعارضة عن راى طوائف الشعب ، اذ سممت الدعاية أفكارهم وزعمت بأن الانجليز يحاربون تحت راية الخليفة وباسم الخديو .

وتلقت القاهرة انباء انكسار جيشها فى معركة التل الكبير فى كثير من الوجوم والاسى ، واحتشدت الجموع فى الشوارع وفى المساجد تظللهم سحابة من اليأس والكمد ويستبد بهم القلق والحيرة ، وصاروا يستطلعون انباء الهزيمة ويطالبون بالمزيد من التفصيلات ويرومون التحقق من هذا النبأ اذ كانوا بين مصدق ومكذب .

واخيرا ايقنوا بأن جيش مصر لم يهزم فى الميدان عن خور أو ضعف أو جبن بعد ان صمد فى الميادين الاخرى شهورا كان النصر فيها حليفه ، وانما هزمه الانجليز بالرشوة والخيانة والغدر والخديو توفيق .

واجمع شعب القاهرة الراى على ضرورة الدفاع عن العاصمة بما يملكون من اسلحة بيضاء وهراوات وعزائمهم قوية ، واستعادوا فى الاذهان صفحات كفاحهم ضد الفرنسيين ، والانجليز انفسهم فى معركة رشيد ، وخرج سكان باب الشعرية والحسينية والعطوف

ـ نقط المقاومة القديمة ـ يحملون الهراوات ويمسكون في ايديهم الاسلحة البيضاء ووراءهم الاطفال يهللون ويكبرون ، وينادون بعبارات الويل والثبور لاخراج الذين اعتدوا على ارضهم .

واتاهم ابراهيم فوزى مامور ضبطية العاصمة فاخذ يثبط من عزائمهم ويضعف من روحهم المعنوية ، ويناشدوهم الخلود الى المسالمة بالفاظ كلها نفاق وخداع ومواربة ، ثم يقول :

ـ لافائدة ياابنائى من المقاومة .. ان مصر سلمت .

فردوا عليه فى صوت قاصف :

ـ ان شعب مصر لم يسلم ... ولكن الخديو هو الذى باع البلد ان الولس كسر عرابى فى تل البقشيش والتدليس » .

وفى صباح اليوم التالى بدات جيوش الاحتلال تزحف صوب العاصمة ...

وكان القائد العام الجنرال ولسلى قد قسم قواته الى قسمين احدهما يسلك طريق الزقازيق فبنها فقليوب فشبرا والثانى عن طريق بلبيس فالخانقاه فالعباسية .

ووقف الجنرال دروري لو ، وقد خال نفسه نابليون بونابرت فى معركة الاهرم قبل ان تسلم له القاهرة ، فقال يخاطب جنده :

ـ سندخل اليوم القاهرة عاصمة افريقية . ومن هذه العاصمة ستحكم بريطانيا الشرق باسره .

ونفخ فى البوق فصهلت الخيول ، وعزفت الموسيقى ، وتحرك سبعة آلاف جندى مع شروق الشمس الى ان وصلوا الى مشارف العاصمة مع الغروب ... كانما اشفقت الشمس ان ترى عاصمة الاحرار تتحول فى مدى ايام قلائل الى عاصمة العبيد .

وكان الجنود الهنود الذين قدموا عن طريق شبرا يخترقون شوارع العاصمة وهم يرددون فى صوت مسموع :

لا اله الا الله ، محمد رسول الله ... وذلك بامر من قيادتهم حتى يوهموا السذج والبسطاء بان الجيش المحتل قوامه المسلمون وانه جيش الخليفة وليس جيش ملكة بريطانيا .

باتت القوات البريطانية ليلتها فى ثكنات العباسية وعند الصباح تأهبت قوة مكونة من ثلاثة آلاف جندى لاحتلال ثكنات القلعة وعابدين وقصر النيل ، وكان الخائن الضابط على يوسف خنفس يتقدمها حاملا معه مفاتيح القلعة .

ظل عرابى واركان حربه فى منزل القائد على فهمى يتلقون أنباء الهزائم ، وكان القائد جريحا تنزف الدماء منه ، وصاروا يتلقون نبأ الفاجعة تلو الاخرى فتنفطر قلوبهم اسى وحزنا ، انهم يرون أرضهم الطيبة تمزق اربا ولا يستطيعون الدفاع عن شبر منها لان ايديهم اصبحت مغلولة .

وفى الساعة السادسة تلقى عرابى مذكرة من رضا باشا قائد منطقة العباسية تفيد وصول طلائع القوات البريطانية ، فامسك عرابى القلم وهو يرتعش فى يده وحرر امرا برفع الرايات البيضاء ، ثم التفت الى من حوله وقال :

ـ سينتصر أولادنا من بعدنا ، ويستعيدون مافقدناه .

وارسل مدير البوليس ابراهيم فوزى الى عرابى يقول : ان الجنرال لو يود مقابلته فى العباسية .

وانطلق عرابى الى منزله وارتدى لباسه العسكرى وتقلد سيفه ، وفى الساعة التاسعة مساء استقل مركبته هو وطلبه عصمت الى ثكنة العباسية اما البارودي فقد رفض ان يسعى الى التسليم واعتصم ببيته ، وتلقاهما الجنرال لو وهو جالس فى وقاحة . وخاطبهما بقوله :

ـ هل تقبلون ان تسلموا انفسكم اسرى حرب للدولة البريطانية؟ فأجابه عرابى :

ـ نعم ، بشرط أن نكون فى ذمة الدولة البريطانية وشرفها ، ولو كان عندنا من القوات العسكرية مايمكننا بها الاستمرار فى الحرب والدفاع عن البلاد لقاتلناكم الى النهاية .

ثم أمسك عرابى سيفه ، وسلمه الى القائد هذا السيف الذى طالما حمى الكنانة ورد عنها غوائل المغيرين ، فكأنه سلم به استقلال مصر وحياة ابنائها .

وعقب عرابى على ذلك بقوله :

ـ لقد سلمنا انفسنا وسلمنا سيوفنا لذمة بريطانيا وشرفها ... ان صوت اولادنا وصوت الانسانية يطالب بريطانيا بحقوقنا .

وأمر الجنرال باعتقال عرابى وطلبه عصمت فى غرفة بالثكنة ، وأرسل برقية الى القائد العام يستحثه فيها على دخول العاصمة بقوله : ان عرابى سلم نفسه .

وجاء الجنرال ولسلى ، القائد العام ، الى القاهرة فى ١٥ سبتمبر

وفى ركابه الخائن محمد سلطان يهيىء قصر عابدين لنزوله، ويشرف على اعداد وسائل الراحة له ، ويقيم بابواب القصر الحراس والحجاب ، ويعد جناح الحرم لاقامة اركان حرب القائد العام .

ودخل الجنرال ولسلى العاصمة . فاذا بالشوارع خالية من المارة، والحوانيت والمخازن التجارية مغلقة فى وجهه ، على حين وقفت نساء الحكام الاغراب فى النوافذ والشرفات يحيينه بالزغاريد ،شكرا له على اطفاء شعلة الحرية .

وانتشر الجنود الانجليز فى شوارع العاصمة يطوفون بها ويخاطبون العامة بعبارات التحية ، ويغشون الحانات ، ومنهم من كان يعمد الى بيع ملابسه او سلاحه لشراء الخمر ، وكان الجنود الانجليز الذين احتلوا ثكنة قصر النيل — مقر ديوان الحربية — قد اخذوا يجمعون ما فى الديوان من فرش وبسط وطنافس وثريات ويعرضونها للبيع بابخس الاثمان ، او بقليل من التبغ والخمر ، واحرقوا سجلات الوزارة واوراقها وقذفوا بها فى النيل .

وقصد الجنود الهنود الى الاحياء الوطنية فى الحسين والسيدة زينب والجمالية وجعلوا يحيون من يلقونهم بقولهم السلام عليكم ،نحن مسلمون مثلكم ... لقد اتينا لتخليصكم من العصاة المارقين .

وعلقت على جدران الشوارع منشورات حكومية تحظر على السكان شراء اسلحة او ملابس عسكرية من جنود جيش الاحتلال ، ومنشور آخر جاء فيه :

« لقد من الله سبحانه وتعالى على سكان القاهرة بل وسكان جميع القطر بان انقذهم من غوائل المفسدين الذين خرجوا على طاعة الحكومة السنية وعصوا الله ورسوله بعصيانهم لولى الامر وهو الجناب الخديو الفخيم الذى هو صاحب السلطة العامة . وكانوا مصممين على ما كانوا مصممين عليه من الاتلاف والاضرار بالمخلوقات ، وقد استتب الآن الراحة وعاد الامن الى نصابه ولم يبق لتلك الحوادث اثر يذكر اذ انه علم لكم ماحل بالعصاة من الخسران والدمار » .

اما فى كفر الدور وغيرها من مراكز الدفاع والمقاومة ، فانه عندما شاع نبأ اندحار الجيش المصرى فى معركة التل الكبير ، تداول الضباط فى الموقف ، وجاءهم الخائن محمد نسيم بامر يحمل توقيع

الخديو بالتسليم ، واخيرا قصد الجنرال وود على راس قواته الى عزبة اصلان اول مركز للمقاومة ، فتسلم من الضباط والجنود اسلحتهم وامر بنسف الاستحكامات ، وسيق الضباط الى الاسكندرية حيث اودعوا السجون والمعتقلات .

وكان عبد العال حلمى على راس حامية دمياط فابى ان يستسلم للانجليز وحمل سكان المدينة على الاعتقاد بأن عرابى لم يهزم وانه لابد من القتال الى الفناء . وفى ليلة ٢١ سبتمبر طوقت السفن الحربية البريطانية طابية الجميل ، مقر قيادة عبد العال حلمى ، ثم نزل الجنود الى البر فزحفوا بعد منتصف الليل وحاصروا الطابية من جميع نواحيها وفى الساعة الثامنة صباحا رفعت الراية البيضاء فوق الحصن ، وتسلمها الانجليز فقبضوا على الضباط وصرفوا الجنود بعد تجريدهم من اسلحتهم .

***

اشترط الخديو لعودته الى القاهرة ان يقبض على جميع الضباط وعلى الذين اشتركوا فى الثورة وسرعان ماغصت السجون والمعتقلات بضباط الجيش من رتبة يوزباشى فما فوق وبالعلماء واعضاء مجلس النواب والاعيان والتجار وبلغ عددهم ٢٩٫٥٠٠ شخص .

واستقل الخديو القطار من الاسكندرية تحرسه كوكبة من الفرسان الانجليز حيث وصل الى محطة القاهرة ظهر يوم ٢٥ سبتمبر ، وكانت المحطة قد زينت بالاعلام وفرشت ارضها بالابسطة ، واطلقت المدافع البريطانية تحية للخديو ، وتلقاه على افريز المحطة قواد جيش الاحتلال ولفيف من حملة القماقم امثال حمزة فتح الله وعبد الهادى الابيارى واحمد السيوفى ومحمد سلطان ، وتقدم مصطفى رياض فهتف فى فناء المحطة : يعيش الخديو مؤيدا بالنصر .

ومر الموكب فى الشوارع الى قصر الاسماعيلية يحف به الخزى والعار بين صفين من جنود جيش الاحتلال بلغ عددهم خمسة آلاف جندى ، وجلس مع الخديو فى مركبته دوق اوف كنوت والجنرال ولسلى والقنصل ادوارد مالت ، فخلت الشوارع من المواطنين ، واغلقت نوافذ البيوت ، وكانت موسيقى الجيش البريطانى تعزف الحانا اشبه بالالحان الجنائزية ، فتخيل الناس

ان المركبة لاتحمل عرشا وانما تحمل نعشا ، وعندما وصل الموكب الى سراى الاسماعيلية عزفت الموسيقى النشيد البريطانى .

واراد المنافقون ان يصرفوا الشعب عن مظاهر السخط التى تتاجج بين الجوانح وتنطوى عليها الضلوع ، فرفعوا معالم الزينات ونثروا الاضواء فى حديقة الازبكية وفى الساحات ، وعلى قصورهم ومتاجرهم وعلقوا اقواس النصر ولافتات تحمل عبارة « مرحبا بالمنقذين » . واقام رياض مادبة عشاء تكريما للقواد البريطانيين شرب فيها نخب ملكة بريطانيا ، كما وقف الجنرال ولسلى وشرب نخب الخديو .

ووصفت جريدة الاهرام فى عددها الصادر فى ٢٨ سبتمبر الليلة الختامية للحفلات التى اقيمت فى حديقة الازبكية ، فقالت :

« كانت زينة الليلة الفائتة اتقن واحكم من الليلتين الفائتتين وخصوصا زينة جنة الازبكية التى كانت العابها النارية بديعة الصنع ، بهجة للناظر ، ومسرة للخاطر .. وقد شرف الصيوان المرفوع فيها حضرات النظار الكرام والقناصل والعدد العديد من الاعيان والذوات ... وكان هذا الجمع يردد فى صوت واحد عبارات الدعاء بحفظ سمو توفيق الاول ، الخديو المعظم ، وهكذا استمرت هذه الالعاب الى منتصف الليل » .

كان الشعب فى ماتم يندب حظه العاثر واستقلاله الضائع ونجمه الذى توارى ... كان فى كل بيت مناحه ، الشيوخ والاطفال والنساء يبكون وينتحبون الى ما آل اليه مصير الزعماء الذين ذبوا عن حقوق الوطن ودافعوا ببسالة عن ارضهم ، على حين كانالخديو يولم الولائم فى قصر الاسماعيلية لضباط جيش الاحتلال ويقيم المراقص ، وتكتظ حدائق القصر بالموسيقيين والمغنيين والراقصات والملاهى والحواة ، وتطلق الصواريخ والالعاب النارية فى الفضاء ، واخيرا يقدم اليهم الاوسمة التى سبق للسلطان العثمانى أن اهداها الى الزعماء والضباط العظام فضن بها الخديو واخفاها فى خزائنه الى ان اتاحت الفرصة له ان يقدمها الى اعداء البلاد ، فظهر فى تلك الحفلات القائد العام ولسلى وعلى صدره الوسام العثمانى من الدرجة الاولى ، وكذلك الادميرال سيمور ، والجنرال لو واثنان وخمسون ضابطا من ضباط جيش الاحتلال .

وامر الخديو بضرب ميدالية من البرونز على شكل زاوية تحمل رسم الاهرام وابى الهول ، واهداها الى جميع الضباط والجنود البريطانيين الذين غزوا مصر واشتركوا فى قتال جيشها .

وبرر الخديو جراته على ضرب ميدالية دون اذن من السلطان فكتب الى الباب العالى يزعم بأن « ميدالية النجمة المصرية قد وزعت على الذين بذلوا حياتهم فى سبيل المحافظة على الشعب من طغيان العصاه ، وبالاخص فى حادث الرمل ، والى الذين ثبت اشتراكهم فى اطفاء نيران الثورة من ضباط وعساكر الجيش البريطانى وهى لاتخرج عن كونها تذكارا » .

أما الوسام المجيدى الاول الذى كان السلطان قد اهداه الى الزعيم احمد عرابى فلم يجد الخديو صدرا اليق بحملة سوى صدر الخائن محمد سلطان .

واراد الاقطاعيون وأنصار الهزيمة ان يتملقوا المحتلين لينعموا بالجاه والسلطان على حساب الشعب المقهور ، فتكونت لجنة منهم على راسها محمد سلطان واحمد السيوفى ومحمد الشواربى وعبد الشهيد بطرس وعبد السلام المويلحى ومحمود سليمان وشرعت فى تاليف لجان فرعية فى الاقاليم لفتح باب الاكتتاب لشراء هدايا للقواد البريطانيين ، فلما فشلوا فى ذلك اكتفوا بشراء مجموعة اسلحة فاخرة محلاة بالماس والاحجار الكريمة هدية باسم المصريين الى الادميرال سيمور لقاء تخريبه مدينة الاسكندرية وعدوانه الغاشم على المواطنين الآمنين ، والى القائد العام ولسلى والقائد درورى او مسدسين مرصعين بالماس مكافاة لهما على احتقارهما الامة المصرية واذلالها ودوس مجدها وشرفها ، ثم قصد وفد من هؤلاء المنافقين الى وزارة الداخلية فى ٢٨ سبتمبر لمقابلة رياض باشا ورفعوا عرضا جاء فيه :

« ان ما اتاه الجيش الانجليزى من تبديد شمل العصاة الفجرة المردة ، الظلمة ، وتلك الفئة الطاغية التى عصت أميرها ، ولما كانت وطنيتنا تقضى علينا بأن نبرهن لرؤساء هذا الجيش عن معرفتنا جميلهم ، فقد طالما تمنينا التخلص من اولئك البغاة ، حتى من الله علينا بهذا الجيش الذى انقذنا من ايديهم . وعليه فنرى من الواجب

ان نقدم ثلاثة سيوف فاخرة اقرارا لجميلهم وتذكارا من بلاد خدموها بدمائهم ومالهم ، وبما اننا نواب الامة ، وقد تحملنا من ظلم العصاة وخصوصا فى هذه القاعة مالا يحتمل ، فقد اتينا اليك ايها المولى سلطان باشا لانك رئيس المجلس واب لنا ، وقد انتهجنا منهجك القويم واقتدينا بوطنيتك الحقة » .

وعلق محرر « الاهرام » على ذلك بقوله :

« فسر سعادتلو سلطان باشا من ذلك وصدق على مطلبهم ، وتقرير ثلاثة سيوف ، واحد للقائد العام الجنرال ولسلى والثانى للضابط الذى دخل مصر فى مقدمة الجيش ، واما الثالث فلم نعلم الى الآن لمن ... واخيرا توجهوا يتقدمهم الهمام سعادة سلطان باشا الى نظارة الداخلية ورفعوا ذلك الى صاحب الدولة الوطنى النزعة رياض باشا ، فسر من حماستهم ، ومدح صنيعهم ، فرجاه سلطان باشا ان يكلف الحكومة بصنع السيوف الثلاثة ، واما الثمن فيدفعه حضرات النواب ، فأجابهم وانصرفوا ممنونين » .

وبعد ان تلقى الجنرال ولسلى هدية محمد سلطان وهى سيف وغدارة مرصعان بالماس والجواهر الكريمة كتب الى سير ادوارد مالت يقول :

« ان ناظر الخارجية المصرية بعث الى عن طريق ناظر الحربية السيف الذى اهداه الى اهالى القطر المصرى ، وانى ارجوكم ان تقدموا شكرى وامتنانى لسعادة سلطان باشا رئيس مجلس النواب ولاعضائه ، وكذلك لسكان مصر على مابرهنوا عليه من استحسانهم للخدمات التى ادتها الحملة العسكرية التى سلمتنى جلالة الملكة قيادها ، وانى اقبل هذا التذكار النفيس بكل امتنان وافتخار ، ولا اعتبره تذكارا ثمينا لذاتى فقط ، بل اعده ثناء على الجيش الانجليزى كله ... وان حسن النميقة المرسلة مع السيف لبرهان قاطع على ان مقاصد الحملة قد تمت بنجاح ، وان نتيجة اعمالها قد جلبت رضى سكان مصر ، وانى اشعر بالعجز عن تقديم ما يجب من الشكر والامتنان لسعادة سلطان باشا ، والى كل من اشترك فى تقديم هذا التذكار الفاخر ، ولى مزيد الامل فى ان تكون المساعدة التى قدمتها دولة انجلترا فى غضون الحوادث الاخيرة واسطة لتأييد نجاح الشعب المصرى وسلمه فى المستقبل » .

ولم يكتف هؤلاء المنافقون بهذا اللون السافر من الخيانة بل أرادوا تشييد نصب تذكارى يخلدون به ذكرى انتصار الجيش البريطانى على من سموهم بالعصاة .

واقام القائد العام الجنرال ولسلى مادبة فى قصر عابدين للضباط الانجليز والوزراء والاعيان من اعوان الاحتلال فى ليلة ١٤ اكتوبر وبعد ايام قابل القائد العام الخديو مستاذنا فى السفر بعد ان ادى مهمته فى احتلال البلاد ، ورد الخديو له هذه الزيارة وشكر له بدوره محافظته على عرشه ورد السلطة اليه ، ثم بارح العاصمة فى منتصف ليلة ٢٠ اكتوبر الى الاسكندرية ومنها ابحر عائدا الى بلاده ، وكذلك بارح الادميرال سيمور المياه المصرية باسطوله فى ٥ نوفمبر الى مالطة بعد ان ايقن بان الامر استتب للانجليز فى مصر .

***

كوفىء الخونة الذين ساعدوا البريطانيين على تثبيت أقدامهم فى البلاد بأن أقطعوا آلاف الافدنة ، كما أمر الخديو بصرف مرتب ثلاثة أشهر لرجال الحاشية ، واغلقت دواوين الحكومة يوم ٢٦ سبتمبر ابتهاجا بالنصر المزعوم .

وكان نصيب الخائن محمد سلطان ان خاطبه الخديو وهو يعلق الوسام على صدره بقوله : اشكر لك صدق خدماتك وبرهانا على رضاى عنك أقلدك الآن النيشان المجيدى الاول « الرفيع الشأن » ، واصدر أمرا بمكافاته بمبلغ عشرة آلاف جنيه ، وجاء فى قرار المكافأة :

« بالنسبة لما اظهره سعادة سلطان باشا من الصداقة لحكومتنا الخديوية ومعارضته للعصاة فى جميع امورهم وعزائمهم بالمخاطرة بحياته ، والى ماحصل له بسبب ذلك من الضرر والتعدى منهم على شخصه واقربائه وموجوداته ومقدار جسيم من مشروعاته ، قد استحق المكافأة من الحكومة ، فبناء على ماعرضه علينا مجلس نظارتنا أمرنا بأن يعطى بوجه الاستثناء لسعادته مبلغ عشرة آلاف جنيه من خزينة المالية محسوبا من الاحتياطى سنة ١٨٨٢ تعويضا للاضرار التى لحقت به ومكافاه لسعادته على صداقته » .

عقب عودة الخديو الى العاصمة بأيام ، جرى فى ساحة عابدين فى الساعة الرابعة من بعد ظهر ٣٠ سبتمبر استعراض عسكرى لقوات جيش الاحتلال ، اى فى الساحة نفسها التى شهدت مولد الثورة وارادة الشعب .

واعدت منصة وقف عليها حاكم البلاد بملابسه الرسمية ويخفق فوق راسه التى نكسها العار العلم البريطانى ويحف به قواد جيش الاحتلال والوزراء والحاشية ، واستمر الاستعراض ساعة ونصف ساعة ، وقد اتت الصحف على وصف ذلك الاستعراض فقالت الاهرام بعددها الصادر فى اول اكتوبر ١٨٨٢ :

« انشأوا فى بهرة ميدان عابدين كشكا للحضرة الخديوية الفخيمة تحفه الكراسى العديدة بصفة « انفيتياتر » تسع المئات من المتفرجين وكان حضرة الجنرال ولسلى واركان حربه فى كشك السراى .

وعند الساعة الثالثة والنصف وفدت عصمتلو دولتلو هانم افندى حرم خديو ، ووالده باشا ، ويتبعها عربات عديدة تقل حضرات الاميرات من العائلة الكريمة وامامها عربة تقل حضرات ولى العهد واشقائه الكرام وكان النظام محكما للغاية والعساكر على جميع الجوانب تمنع وقوع الخلل وعند الساعة الرابعة بزغ طالع التوفيق بموكبه الحافل والعالم يتيمن بمحياه البهج ومعه فى المركبة دولتلو شريف باشا وعطوفتلو عمر باشا لطفى وريثما حلت ركابه الشريفة امتطى حضرة الجنرال ولسلى والجنرال ادى رئيس اركان حرب جواديهما وسارا الى امام كشك سموه ، وقدما واجبات الاحترام والسلام فحياهما حضرته حرسه الله ، ثم وفد الاميرال سيمور والوزير مالت وكان بكشك سموه حضرات النظار الكرام والبرنس محمود بك والبرنس منصور باشا وحضرة قنصل ايطاليا ورجال المعية والجميع بالملابس الرسمية وهنالك ازدحام غريب لم يسبق له مثيل ، فكنت ترى فى اى شارع مر به الجيش ، الوفا من العالم متفرجين يمتدحون رجالا يعرفون واجباتهم الحربية وقوانينهم العسكرية ، وكان امام موقف الجنرال القائد رؤساء اركان حربه .

وعند الساعة الرابعة استأذن الجنرال سموه بالاستعراض فعزفت الموسيقى العسكرية ومر الاى الطوبجية فخلنا اننا فى ساحة

قتال منظم ، ثم عقب الطوبجية الاى الخيالة وكان الضابط بوصوله امام سموه يقدم واجبات السلام وسموه والجميع وقوف ، ثم مر الاى ثان من خيالة الحرس الملوكي ثم الاى خيالة الهنود ثم الاى الهنود الخيالة المرماحة ، وكانت الموسيقى تتفنن بالتلحين ، ولاتسأل عن خيول تأكل الارض بحوافرها ورجال اذا امتطوها سقوا الاعداء السم الزعاف .

مرت الطوبجية الهندية ثم المشاة بالاستقرار وكلها تامة النظام فريدة الترتيب ثم فرق تحمل الذخائر . وكنت ترى خلف الاى الهنود جنودا من حاملي الماء وآخرين سرائر مرضى حتى اذا ما اصاب أى جندى مكروه حملوه على الفور ، ثم مر الاى من العساكر البحرية ثم الاى التنظيم العسكرى واخيرا وفد سمو الدوق دى كنوت نجل الملكة فى مقدمة الاية من الحرس الملكى ثم الاى حرس الاكسوسة ثم الثالث ثم الرابع ، ثم الاى ١٨ ثم الرابع والثمانون ثم خيالة الكوميساريا ، وبعد مرور الاى البرنس رجع ووقف عن يمين الجنرال ولسلى ثم مرت فرقة المهندسين ثم الاى سباع الجبال الذين اشتهروا بالقتال ولم يعرفنا التاريخ انهم انكسروا فى حرب ومر الاى آخر ثم ثان ثم الاى الخيالة وبعده الاى المترااليوز بالجبخانة ثم الاى هندى ثم جبلى وهكذا الى الساعة الخامسة وثلث ، وبعد ان تم الاستعراض التفت الجنرال الى سموه وشكر له تنازله فتشكر الخديو واستودعه وركب العربة فرحا وانصرف الجمهور مرددا اجمل الامتنان لجيش خلص البلاد من عصاة بغاة » .

***

كان محمد سلطان رجلا مذبذبا منافقا اصله من قرية زاوية الاموات تجاه مدينة المنيا ، ولما بلغ اشده عين عمدة على قريته . وكان حسن الشريعى يشغل فى ذلك الحين منصب ناظر قسم قلوصنا اى « مأمور مركز » فصادف ان مر الوالى سعيد بالمنيا فى طريقه الى السودان وانتهز محمد سلطان هذه الفرصة فاقام مأدبة على طريقة البدو لبطانة الوالى وحرسه . وسأل الوالى حسن الشريعى عمن يصلح « ناظر قسم » بدلا عنه اذ صدر الامر بترقيته الى منصب وكيل مديرية ، فزكى محمد سلطان واثنى عليه ، وكان ان عينه الوالى ناظر قسم وسأله عما اذا كان فى وسعه ان يستضيفه

بالايجاب ، وشرع من فوره فى تشييد قصر يليق بنزول الوالى فيه وحشد لبنائه الوف الصناع والعمال واثثه بالرياش الفاخر حتى اذا عاد الوالى بعد شهرين او ثلاثة اشهر دهش من الهمة التى بذلها محمد سلطان فى اعداد القصر واقامة الوليمة ، فامر بترقيته فى الحال الى منصب وكيل مديرية بنى سويف فمديرا لها .

ظل محمد سلطان يتنقل بين المناصب الادارية المختلفة بسرعة الى ان جاء الخديو اسماعيل واسند اليه ادارة تفتيش الوجه القبلى والدائرة السنية ، واستطاع عن طريق السلب والرشوة ان يكون له ثروة خاصة تقدر بنحو ثلاثة عشر الف فدان فى مدى سنوات قلائل .

وفى اثناء الثورة الوطنية الكبرى اتصل بزعمائها يلتمس الزلفى والنفوذ عندهم ليكيد لعدوه مصطفى رياض الذى سعى الى عزله من الدائرة السنية ، وكان اقصى آماله ان تعيد اليه الثورة نفوذه الشخصى .

حالف محمد سلطان الزعيم احمد عرابى وعضد حركته ونادى بزعامته وجاهر بخلع الخديو وحرض على اغتياله ، فكان لايفتأ يردد بين ضباط الجيش : اقتلوا الثعبان ، سلالة الجناة الناهبين الذين باعونا للاجانب .

ولما رجحت كفة الخديو بتدخل اعوان الاستعمار ، قلب محمد سلطان ظهر المجن لزعماء الثورة ، ولعب دوراخسيسا ، فحرض النواب على عصيان عرابى ، واتصل بالمخابرات البريطانية فى الاسكندرية يغذيها بمعلوماته ، ووزع النشرات والذهب على رؤساء قبائل البدو وبعض الضباط ، ودعاهم الى ترك الخدمة فى جيش مصر والالتحاق بالجيش العثمانى ! اى الانجليزى ، الذى جاء لاخضاع العصاة وتوطيد العرش !! ثم ندبه الخديو « قائمقاما » لمساعدة الجيش البريطانى وتيسير مهمة الاحتلال ، وبذل مافى وسعه لنجاح مهمته وتفانى فى خيانة قومه ، فكان يهدد المشايخ والعمد والاعيان وكبار الموظفين ويمنيهم بالخلع والرتب والاوسمة والمناصب العالية

وفيما يلى صفحات من تقريرات محمد سلطان التى كان يبعث بها الى الخديو يوما بيوم عن ادوار الجاسوسية التى قام بها :

يقع التقرير الاول فى تسع صفحات عن ايام ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ اغسطس مجملها انه قام من الاسكندرية بعد غروب ٢٨ اغسطس عن طريق البحر قاصدا بور سعيد فوصلها فى ٢٩ منه وبعد ان قابل محافظ المدينة جمع العلماء والاعيان وخطب فيهم مبينا ما فعله عرابى وجماعته ، وان لانجليز ليس فى نيتهم احتلال البلاد وامتلاكها ولا التعرض للمصريين وانما غرضهم تأديب العصاة وطلب اليهم حض الاهالى الذين هاجروا للعودة الى المدينة ، ثم قابل الادميرال هوسكنس فى الباخرة موناركو واحاطه علما بمهمته وانه على استعداد لاداء اية خدمة تطلب منه ، وسلمه كتاب ادوارد مالت قنصل بريطانيا .

والتقى سلطان بأحد تجار اسيوط الذى افضى اليه بأن الامن مستتب فى البلاد وان عرابى قدم الى التل الكبير منذ خمسة ايام ومعه عشرون الف جندى ومقدار عظيم من المدافع والذخيرة ، وان تجنيد الخفراء لايزال مستمرا ، وكذلك عملية جمع الخيل والحبوب والتبرعات النقدية . وان عثمان عفت قابله وافضى اليه بأن قبائل البدو فى قطاع الوادى هربت بعدما اتصل بها ان الجهادية قدموهم امام العساكر وجعلوهم عرضة للخطر حتى ان شيخهم غالب الطحاوى قد جرح .

وقال محمد سلطان انه قام من بور سعيد بعد ظهر ٢٩ اغسطس الى الاسماعيلية بطريق القناة فوصلها فى الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم التالى ، وان زكى بك توجه الى مقر القيادة البريطانية ، واتفق مع الادميرال والجنرال على ميعاد لمقابلتهما ، وان زهراب بك وتور نيزن بك وموريس بك يقيمون فى خيام امام ديوان المحافظة اما يوسف ضيا وحسين رمزى فمع مقدمة الجيش البريطانى فى القصاصين . وقد فهم من زهراب بك انه فى ٢٩ اغسطس حدثت معركة فى جبهة القصاصين بين الفين من الانجليز وقوة مكونة من تسع اورط بقيادة عرابى واستمرت بضع ساعات الى ان هجم الفرسان الانجليز بقيادة دوق اوف كنوت واستطاعوا اختراق جيش عرابى فقتل نحو اربعمائة من المصريين وتشتت شمل الجيش تاركا ذخائره ومؤنه والكثير من الاسلحة من بينها احد عشر مدفعا ، ولكن حدث فى اثناء الليل ان عاد المصريون واستردوا مدافعهم دون ان يشعر الانجليز بهم .

وقال فى تقريره المؤرخ فى ٣١ اغسطس انه قابل الادميرال سيمور فى الساعة التاسعة والنصف صباحا وابلغه تحيات الجناب العالى وتحدثا فى الاحوال الحاضرة فاظهر الادميرال رغبته فى اجراء مخابرات مع مشايخ العربان لابعادهم عن عرابى وانه على استعداد لدفع اية مبالغ يطلبونها ، كما يريد ان يستاجر كافة مايمكن الحصول عليه من الجمال باى ثمن ، فاجابه بانه مستعد لبذل الجهد فى سبيل تنفيذ هذه الرغبات . ويامل الادميرال انه متى تمت الاستعدادات اللازمة فانه سيقوم بحركة عامة شاملة فى قطاع التل الكبير وستكون حركة ناجحة .

وجار محمد سلطان بالشكوى فى تقريره بسبب مالاقاه من الصعوبة فى ارسال برقياته بالشفرة للحضرة الخديوية ، حيث ان القومندان البريطانى يعارض فى ذلك . واخيرا اتى على وصف مسهب عن معركة القصاصين التى نشبت فى يوم الاثنين ٢٨ اغسطس وزاد عليه بانه عند انهزام العصاة ضبط الانجليز مكتب التلغراف فوجدوا برقية من عرابى الى راشد حسنى يخبره بانه صرف خمسة آلاف بندقية لعربان الحويطات فهربوا بها ويطلب اليه ضبطهم ونزع السلاح العسكرى منهم وان ما اذيع عن رغبة راشد باشا وخالد باشا فى الفرار لا اساس له من الصحة ، وقد علم من زهراب بك ان قوة الانجليز جميعها تبلغ عشرين الف نفر بما فيها الجنود الذين قدموا من الهند ، وان هناك خمسة آلايات من الفرسان كل آلاى مكون من ٥٠٠ الى ٦٠٠ فارس .

واهم ماجاء فى تقرير اول سبتمبر انه ارسل احد الجواسيس البدو بكتابين اولهما الى سعود الطحاوى شيخ قبيلة الهنادى فى الصالحية والثانى الى محمد صالح الحوت يستدعيهما لمقابلته ويتفق معهما على استمالة العربان .

وقال فى تقريريه عن يومى الاربعاء والخميس ٦ و ٧ سبتمبر ، انه ارسل نفرين من عربان العريش بكتاب منه الى اسماعيل اباظة بك يستدعيه ، وبداخله كتاب الشيخ العدل بيبرس العضو بمجلس النواب عن البحر الصغير ، وانه لقى تاجرا اسبانيا مقيما فى اسيوط سهل له العودة الى مقر اقامته عن طريق القصير بالسماح له بركوب السفينة الحربية التى يستقلها عبد الله فوزى بك على ان يقوم

بمهمة توصيل مكاتبات واوراق الى بعض مديرى واعيان الوجه القبلى ، فتعهد التاجر الاسبانى بذلك ، اما المكاتبات فقد أرسلت الى : جابر بك وزايد هندى فى جزيرة بيا ، والشيخ حنفى العريف عمدة ناحية بوش . وجرجس برسوم العضو بمجلس النواب عن مديرية بنى سويف . والى اسماعيل سلمان . وعلى حسن شعراوى . ويوسف عبد الشهيد اعضاء مجلس النواب عن المنيا . وسعيد غنيمة عمدة الكرم الشرقى . واسماعيل احمد . وعلى ابو طالب عمدة ناحية بنى حمد . ومحمود بك سليمان ، وتونى الريدى من اعضاء مجلس النواب عن اسيوط . ومحمد حماد بسوهاج ، وعبد الشهيد بطرس من اعضاء مجلس النواب عن جرجا . وهمام بك مامور المالية ، ومحمد بك احمد وكيل مديرية قنا . واحمد بك العديسى العضو بالنواب عن اسنا .

ووصف محمد سلطان المعركة التى وقعت بين المصريين والانجليز وكيف انها اسفرت عن جرح ضابط بريطانى ، وان فريد باشا سيتوجه الى السويس حسب امر الخديو ، وان الادميرال سيمور وقائد القوات الهندية قد تناولا طعام العشاء مع سلطان باشا .

وجاء فى تقرير ٩ سبتمبر ان القائد العام قام من الاسماعيلية حيث اتصل به ان العصاة هاجموا القوات البريطانية واستمر القتال الى الظهر فارتد العصاة دون انتظام الى استحكاماتهم فى التل الكبير تاركين ثلاثمائة قتيل واربعة مدافع وبيرقا وخسائر مقدارها ستون جريحا ، ولعدم وجود قوة كافية مع الانجليز لم يمكنهم ان يقتفوا آثار العصاة ، ومن المنتظر استئناف الهجوم فى المساء ، وكانت القوة التى اشتركت فى هذه المعركة مكونة من خمسة عشر الف جندى وان خط النار كان طوله خمسة اميال .

وعاد محمد سلطان الى ارسال برقية الى الخديو فى منتصف ليلة ٩ سبتمبر يقرر فيها « انه لم تحصل محاربة بعد الظهر وان الجرحى حضروا الى الاسماعيلية وعددهم خمسون من الانجليز وثلاثة من العصاة ، وعدد القتلى من الانجليز ستة جنود » .

وبعد ساعات ارسل برقية اخرى قال فيها : ان القائد العام كتب الى لندن بانه فى حالة الاتفاق على حضور قوات عسكرية عثمانية

فانهم يكونون بقيادة بكر باشا او درويش باشا لاغيرهما ، وان حضورهم يكون الى منطقة القناة وليس الى ابى قير او رشيد حيث ان القائد العام لايرغب فى ضرب الطوابى بمدافع الاسطول البريطانى ، وبدون هذا الضرب لايمكن نزول قوات عثمانية فى ابى قير او رشيد ولذلك فهو يستصوب ان يكون نزولها فى منطقة القناة .

وجاء فى تقرير ١١ سبتمبر بانه اوفد على ثابت الى القصاصين فعاد بكتاب من زهراب بك ينبئه بأن قوة الانجليز فى معركة البارحة كانت مكونة من ست اورط مشاه وعشرة مدافع وخمسمائة فارس ، وان قوة عرابى تتكون من اربعة عشر الفا من المشاة وخمسمائة فارس وثلاثة آلاف بدوى واربعة وعشرين مدفعا ، وقد اسر ثلاثون شخصا من بينهم سبعة عشر جريحا ، وان البارودى وسليمان سامى وراشد حسنى وعلى فهمى الديب كانوا فى المعركة ، وقد امر عرابى بضرب عشرة جنود بالرصاص لانهم ارادوا الفرار ، وبلغ مجموع الجنود فى التل الكبير ٨ آلايات مشاة وستين مدفعا .

وان عرابى كان ساعة المعركة فى احدى مركبات السكة الحديدية وان الضباط العظام الذين اشتركوا فى المعركة هم : على فهمى الديب ومحمد عبيد وعلى يوسف واحمد فرج واحمد عبد الغفار ، اما راشد حسنى فكان فى التل الكبير .

وقال فى تقريره المؤرخ فى ١٢ سبتمبر انه علم من «مبيض نحاس» انه منذ عشرة ايام صار تنزيل تمثال ابراهيم باشا وتماثيل الاسود الاربعة الموضوعة عند جسر قصر النيل وذلك بأمر الشيخ عليش ، وانه جمعت اعانة حربية من سكان القاهرة دفع فيها كل صانع عشرة قروش وان الشيخ احمد عبد الجواد من مديرية المنيا يحض المصريين على القتال ، وقد جرى تلاوة البخارى فى الازهر ومسجد الحسين ، ثم ذكر بان الجنود البريطانيين يقتربون من التل الكبير ، وقد استدعى محافظ العريش لاتخاذ الوسائل الكفيلة بمنع تعدى العربان على المبعوثين الانجليز الذين يجوبون الصحراء ، وان سكان القنطرة ارادوا الهجرة فمنعهم من ذلك .

ووصف معركة التل الكبير فى تقريره المؤرخ ١٤ سبتمبر فقال :

بدات المعركة فى الساعة الرابعة صباحا ، وفى الساعة السابعة استولى الانجليز على التل الكبير وتشتت جيش العصاة تاركا اربعين مدفعا ومائتى اسير والفين من القتلى . اما الجرحى فلا يعلم عددهم وان خسائر الانجليز من مائتين الى اربعمائة بين قتيل وجريح ، ومن ضمن جرحى العصاة راشد حسنى وعلى الديب ، اما عرابى فتوجه الى الزقازيق فتبعه الانجليز الى هناك .

وبعث سلطان ببرقية اخرى فى منتصف الساعة السابعة من صباح ١٤ سبتمبر قال فيها :

ان الانجليز دخلوا الزقازيق امس فى الساعة الرابعة والربع بعد الظهر واستولوا على خمسة قطارات وان المدير والاهالى سلموا .

واصدر الخديو امرا الى محمد سلطان بان يتوجه على الفور الى القاهرة فى ركاب القائد العام الجنرال ولسلى ويطلب اليه ضبط رؤساء العصاة المعلومين له وهم : عرابى والبارودى وعلى فهمى وطلبه وسليمان سامى وعلى الروبى ويعقوب سامى وان يحبسهم ويجرى التحفظات اللازمة على منازلهم ، وكذلك يعمل على ضبط احمد رفعت سكرتير عام مجلس الوزراء وعبد الله نديم وحسن موسى العقاد ويجرى اعتقالهم .

وبعد ان نفذ سلطان ارادة مولاه واستقر فى القاهرة بعث الى الخديو فى الاسكندرية ببرقية مؤرخة فى ١٦ سبتمبر يقول فيها :

« ان احمد عرابى وطلبه فى سجن العباسية تحت حراسة القوات البريطانية وان البارودى واحمد رفعت والشيخ محمد عبده فى الضبطية ، وعلى الديب فى منزله لمرضه وسينقلون جميعا الى تكنة عابدين تحت حراسة الانجليز ، اما يعقوب سامى وعلى الروبى فهما فى الاسكندرية ، وعبد الله نديم غائب وعلم نه توجه بقطار خاص الى كفر الدوار لتوصيل مكتوب الى المندوبين ، وقد امر مدير البحيرة بضبطه ، وان حسن موسى العقاد مختف وجارى البحث عنه ، وقد صار القبض على العلماء واودعوا سجون الضبطية ، اما الاحوال فى القاهرة ففى غاية الهدوء » .

وقد رد القصر على سلطان ببرقية فى ١٧ سبتمبر تتضمن انه بلغ الجناب العالى بأن الضباط الذين كانوا فى الجيش العاصى

يتجولون فى العاصمة وهم يتقلدون سيوفهم ويطلب الى الجنرال ولسلى تجريد جميع الضباط من رتبة الملازم الى رتبة لواء من سائر انواع الاسلحة ، وبدون ذلك لايمكن للجناب العالى دخول القاهرة ، وانه لايليق استعمال الرافة مع اى شخص سواء كان عسكريا او مدنيا .

وفى اليوم التالى تلقى سلطان امرا من الخديو بضرورة ضبط بدينى الشريعى وابراهيم الشريعى والبحث عن الشيخ عبد الجواد وعلى جابر والاستعانة بمديرى المنيا وبنى سويف واسيوط فى القبض عليهم . وكذلك يامر بسجن الشيخ عليش وولده وعثمان باشا فوزى وكيل دائرة الازبكية وان يهتم بالبحث عن حسن موسى العقاد وعبد الله نديم .

وبعث سلطان باشا الى الخديو بتقرير مطول جاء فيه ان محمد الهنتور وكيل مديرية الدقهلية من حزب الشقى ، والشائعات تحوم حوله بانه مرتكب السلب والنهب فى المديرية ويطلب الموافقة على اعتقاله وسجنه وتعيين بدله ، وان سكان شبين الكوم قاموابمظاهرة يقودها احد جنود البوليس وكانوا يهتفون بقولهم : الله ينصرك ياعرابى بجيش المؤمنين ، فقبض عليهم .

دخل الانجليز القاهرة وصارمحمد سلطان يلقب « بنائب الحضرة الفخيمة الخديوية » فاهتم بتوفير المؤن لضباط وجنود جيش الاحتلال ، وانشا ديوانا فى دار المحافظة يقوم بجمع الخبز والارز واللحم والسمن والشاى والسكر والبيض وكل مايلزم للجيش البريطانى ، وكان متوسط ماينفقه الديوان يوميا نحو الف وسبعمائة جنيه .

واطلقت يد سلطان فى التصرف فى الشئون العامة ، فنشط للتنكيل بافراد الشعب وظهرت سطوته وجبروته فى القبض على الوف الابرياء واذلالهم ومن بينهم ولى نعمته السابق حسن الشريعى كما أصدر الاوامر الى المديرين فى الاقاليم بالقبض على الوجوه والعلماء والعمد والموظفين الذين آزروا الثورة وأيدوها بدافع من غيرتهم القومية ، فانتهز الحكام هذه الفرصة للاثراء وصاروا يهددون الاثرياء بالقبض عليهم ويساومونهم على حرياتهم فى

مقابل دفع رشوة حتى استنزفوا بهذه الطريقة اموالا طائلة واثروا ثراء فاحشا وامتلكوا الاراضى والعقار .

اما البدو فلم يقبض على اى واحد منهم مع انهم جميعا اشتركوا فى القتال فى جميع الميادين ، ولكن صدر العفو عنهم سرا لقاء خيانتهم جيش مصر وبث روح الهزيمة بين الجنود .

وكافأ الانجليز محمد سلطان بلقب « سير » وبوسامى « سان جورج » و « سان ميشيل » جزاء اخلاصه لهم ، وتوجه ادوارد مالت الى منزله وسلمه الوسامين قائلا له : ان من شروط الوسام الاول ان تضعه جلالة الملكة بيدها على صدر المنعم عليه ، وقد اتيت اليكم نائبا عن جلالتها فى وضعه على صدركم جزاء اخلاصكم وولائكم للدولة البريطانية » .

ولم يرض محمد سلطان مبلغ العشرة الاف جنيه التى امر الخديو بها ، ومنصب رئيس مجلس شورى القوانين ، وزعم بانه انفق اضعاف هذا المبلغ فى شراء لحوم وخضر وفواكه الى الجيش البريطانى ، وكان سلطان يطالب بمنصب رئيس وزارة ، ولكن من عادة المستعمرين انهم يحتقرون فيما بعد كل من يخون وطنه حتى لو كانت هذه الخيانة لمصلحتهم وتوطيد اقدامهم ، فتخلوا عن سلطان ووقعت الفرقة بينه وبينهم .

وقد قال سلطان وهو على فراش الموت فى مدينة فيينا حيث كان يعالج من مرض خطير الم به : « انى معتقد ان الذى عجل بحياتى هو تبكيت ضميرى لى على خيانتى وطنى وبيعه للانجليز » .

وهكذا كانت مأساة الثورة وختامها ، فان الذين خانوا الوطن ومكنوا رقاب المصريين من الحراب البريطانية فازوا بالمناصب العليا وبالرتب وبالاوسمة والضياع والاراضى ، اما الذين دافعوا عن الشعب وذادوا عن الحقوق والحريات العامة فقد سجنوا وصودرت ممتلكاتهم وحورب ابناؤهم فى ارزاقهم وصاروا من المنبوذين .

وقد صدق البارودى حين وصف هذه المأساة فى قصيدة له فقال :

فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى
ذنب ادان به ظلما واغترب

تصفية الثورة

الغاء الجيش المصرى ـ لجان للتحقيق ـ جهود المستشرق بلنت لانقاذ راس عرابى ـ الخديو يتلقى اول انذار من المحتلين ـ محاكمة زعماء الثورة ومصادرة ممتلكاتهم ـ النفى الى سيلان ومصوع ـ تشويه الحركة القومية ـ تحت سماء الغربة

تحركت شهوة الانتقام فى نفس الخديو ونفوس المرتدين عن الوطن ، وذلك عقب استسلام عرابى وصحبه من قادة الثورة وانطفاء شعلة الوطنية ، وصار الخديو متلهفا على ان يظفر برءوسهم ليشفى غلته ، فاعد المشانق ، واوصى خدمه باقتحام المعتقلات والسجون لاهانة الذين كانوا سادة بالامس ، وكان فى وسعهم انتزاعه من العرش وطرده مع اسرته من ارضهم .

وتعجل الخديو الحوادث بالتمهيد للاحتلال البريطانى وتثبيت قواعده ، فاصدر امرا فى ١٩ سبتمبر ـ وهو لايزال فى الاسكندرية ـ بالغاء الجيش المصرى وتسريح الجند واعادتهم الى بلادهم ، والقبض على جميع الضباط الذين اشتركوا فى الدفاع عن وطنهم ، مع تجريدهم من رتبهم وشارات الشرف وحرمانهم هم وذريتهم من اى حق فى المعاش ، ولم يطبق هذا القرار بالطبع على الضباط الذين خانوا مصر وفتحوا الطريق امام جيش الاحتلال .

وكذلك الغيت الاوامر الصادرة فى ٢٠ ابريل ١٨٨١ و ٢٢ سبتمبر ١٨٨١ الخاصة بمرتبات الضباط والصف والعساكر ، واعادة هذه المرتبات الى ماكانت عليه من قبل ، والغاء قوانين الاعانة والضمائم والامتيازات العسكرية ، وتسوية حالة الضباط المستودعين ، وتفويض وزير الحربية والبحرية ان يطبق على رجال العسكرية احكام الامر الصادر فى ٩ ديسمبر ١٨٧٦ بشان مصاريف انتقال الموظفين الملكيين لحين وضع قانون عسكرى خاص .

وعمد الانجليز الى الاستيلاء على المدافع والبنادق والعتاد الحربى وغيره مما عثروا عليه فى كفر الدوار والتل الكبير ودمياط والقلعة والعباسية وشحنه بالبواخر الى انجلترا ، وكان من نتيجة

هذا الاغتصاب ان بسيم بك وهو « مراقب عثمانى غير رسمى فى مصر » بعث باحتجاج الى المابين السلطانى فى ١٩ سبتمبر يقول فيه:

« ان الانجليز يشحنون الى بلادهم جميع ماشتموه من المصريين من المدافع والبنادق والعتاد ، وبما ان هذه المهمات من املاك الدولة فهل من الصواب الاستيلاء على مهمات على هذا النحو وشحنها الى خارج البلاد ؟

وبعد يومين ابرق بسيم بك الى استامبول يقول :

« ان سمو الخديو وناظر الجهادية لايعترفان بمسالة شحن مدافع وبنادق الى انجلترا ويقولان ان كل ماهنالك هو شحن مقدار ضئيل جدا من السلاح كنماذج الى لندن وان الزائد عن الحاجة سيباع واضافة الثمن لحساب نفقات الجيش البريطانى » .

وقرر الخديو ان يصرف مبلغ ثمانية واربعين الف جنيه فى كل شهر بصفة مؤقتة تدفعها الخزانة العامة للدولة برسم جيش الاحتلال بحجة انه يحمى مصر .

***

وصدر امر خديو فى ١٩ سبتمبر بتشكيل « قومسيون » فى الاسكندرية للتحقيق فى حوادث مذبحة وحريق الاسكندرية ، و « قومسيون » فى طنطا للتحقيق فى حوادث القتل والنهب .

وامر آخر فى ٢٨ سبتمبر بتشكيل لجنة خاصة فى القاهرة للتحقيق واقامة الدعوى على كل من دافع عن الوطن سواء من زمرة العسكريين او المدنيين ، وتشكيل محكمة عسكرية فى القاهرة للحكم فى الدعاوى التى تقدم اليها من اللجنة ، وان تكون الاحكام التى تصدرها المحكمة قاطعة لاتستانف وتطبق على الاحكام مواد القانون العسكرى العثمانى ، كما شكلت محكمة مماثلة فى الاسكندرية للحكم فى الدعاوى التى تقدم اليها من لجنتى التحقيق فى كل من الاسكندرية وطنطا .

وبادر الخديو بعزل الحكام والمديرين وكبار الموظفين الذين آزروا الثورة بدافع من غيرتهم القومية ، وعين بدلا منهم رجالا من فلول الطبقة العثمانية ، وعزل الشيخ محمد الانبابى شيخ الجامع الازهر وولى مكانه الشيخ محمد العباسى المهدى .

وصدرت الاوامر الى الحكام الجدد بالقبض على جميع الاشخاص الذين تحوم حولهم غمامة شك ، وموافاة وزارة الداخلية بتقريرات يومية عما يقع فى نطاق مديرياتهم من حوادث ، وجمع الاسلحة من المواطنين ، وقد بذلت الهمة فى القبض على عدة اشخاص من العلماء وكبار الموظفين والوزراء من بينهم : حسن الشريعى واحمد الشبرى واحمد ابو الفضل واحمد عبد الغنى واحمد المنصورى واحمد الزمر ومحمد الصدر ، وجون نينيه الكاتب السويسرى الذى ابدى عطفا على عرابى ، كما تم القبض على القائمقام سليمان داود وحسن موسى العقاد وكانا قد عمدا الى الفرار الى جزيرة كريت فأعادتهما الحكومة العثمانية الى مصر مقبوضا عليهما .

وانقض رجال الخديو على منزل عرابى ومنازل زعماء الثورة بحجة التفتيش على اوراق تفيد التحقيق ، فقلبوا الاثاث راسا على عقب ، واعملوا معاول التحطيم فى كل قطعة منه ، واقبلوا على الفرش والوسائد والاغطية فمزقوها ، وعلى مجموعات من الكتب والتحف فاغتصبوها ، واخلوا بيت عرابى من سكانه ليستخدم مستشفى لجرحى الجيش البريطانى .

وضاقت السجون والمعتقلات واقسام البوليس بمن اعتقلوا فيها من المصريين الذين ذبوا عن وطنهم ، فحول ديوان الدائرة السنية الى سجن ، ونقل اليه عرابى وزعماء الثورة فى ٤ اكتوبر وتم تسليمهم الى الحكومة المصرية بعد ان كانوا معتقلين فى ثكنة عابدين تحت الحراسة البريطانية ، فاودع كل منهم فى غرفة على انفراد ، واغلقت النوافذ والابواب عليهم ، ومنعت الاضاءة عنهم ليلا .

وبدأت اللجنة الخاصة التحقيق مع عرابى وصحبه منذ ١٠ اكتوبر ، ولم يكن بين اعضاء اللجنة مصرى الا بالاسم ، اما الواقع فهم من العناصر الدخيلة ، وكان التحقيق يجرى فى جو من الارهاب والتهديد ، والقاء الذعر فى قلوبهم قبل مثولهم امام المحققين ، وبلغ من خسة الخديو ان صار يبعث الى زعماء مصر بخدمه من اجلاف الاتراك والارناؤود والجركس يهددونهم فى السجن ويسبونهم بعبارات بذيئة ، ويقتحمون عليهم غرفهم فى الظلام ليبصقوا فى وجوههم ، ثم يعمدون الى سلبهم ما يحملون من نقود وساعات ومصاحف ، وكان الحراس يلقون بالطعام اليهم كأنهم وحوش داخل اقفاصهم .

اما فى الخارج ، فكانت جموع الشعب تطوف بالسجن ، يتطلعون اليه بعين الحسرة والالم ، فيذرفون الدمع ويتضرعون الى الله ان يخرج عرابى وصحبه من السجن سالمين .

***

هال المستشرق ولفرد سكاوين بلنت وهو فى لندن الانباء التى وصلت اليه عن سوء المعاملة التى يلقاها زعماء مصر داخل السجن، وكان دعاة الاستعمار وعلى راسهم جلادستون قد عقدوا العزم على ضرورة التخلص من هؤلاء الزعماء باعدامهم . ففزع بلنت الى الصحافة وتصدى لانقاذهم من حبل المشنقة ، واستطاع ان يثير حملة شعواء على صفحات « التيمس » ذهب فيها الى ان عرابى ورفاقه لن يعدموا الا بعد ان يسمح لهم بالدفاع عن انفسهم امام المحكمة .

ترجع الصلة بين بلنت وعرابى الى ماقبل الثورة ، فاتصل بالزعيم واستقر المقام به حينا فى القاهرة فعاش وتزيا بالزى المصرى ولم يكن يتكلم فى مصر سوى العربية .

وقد استهل بلنت حياته كسياسى فجاب انحاء الشرق ، واظهر اهتماما بالغا بحالة الشعوب المضطهدة ، وقضى حياته مدافعا عن حقوقها ، وكان اهتمامه متجها بصفة خاصة الى الهند ومصر ووطنه ارلندا ، واتصل اتصالا وثيقا بجمال الدين الافغانى ومحمد عبده وبزعماء الاصلاح ، ونشر عدة مؤلفات سياسية هامة عن القضية المصرية وفى مقدمتها « تاريخ الاحتلال السرى البريطانى لمصر » ، أما عقيلته انة بلنت فهى حفيدة الشاعر لورد بيرون ، وكانت خبيرة فى الاسفار ، نشرت عدة مؤلفات عن العراق ونجد ، وترجمت المعلقات السبع الى اللغة الانجليزية .

قاد بلنت معركة الدفاع عن عرابى فى صحف لندن ومنتدياتها السياسية حتى استطاع ان يقنع حكومته بالسماح بسفر محامين الى مصر يتولون الدفاع عن قادة الثورة ، فوقع الاختيار على برودلى ، وهو محام نابه له خبرة بالشئون العربية ومؤلف كتابى « تونس فى ماضيها وحاضرها » و « كيف دافعنا عن عرابى » ، وتم

الاتفاق معه لقاء اتعاب قدرها ثمانمائة جنيه بخلاف نفقات السفر والاقامة ، وكذلك وقع الاختيار على المحامي مارك نابيير وكان من اعلام القانون والمحاماة ، واستطاع بلنت ان يقنع فريقا من الاحرار الانجليز بالاكتتاب لدفع نفقات الدفاع عن زعماء مصر .

وقبل ان يحضر برودلي الى مصر علم من نتيجة اتصالاته بالمسئولين فى وزارة الخارجية بلندن ان حكومة بريطانيا لاتستطيع الموافقة على الحكم بالاعدام على عرابى بسبب انها تتذرع بفساد الحكم لتسويغ الاحتلال فضلا عن ان عرابى يمثل الفلاح الذى تتذرع بريطانيا انها احتلت مصر فى سبيل حمايته وانقاذه ، فلذلك لايمكن ان تعاقب بالاعدام رمز الفلاح الذى ثار على الفساد ، ولكنها تكتفى بتوجيه التهمة الى عرابى بعصيان الخديو .

وكذلك فهم برودلى ان تهمتى مذبحة الاسكندرية وحريقهايجب استبعادهما من التحقيق والمحاكمة ، وعلى هذا الاساس تولى هو ونابيير الدفاع .

وحاول بلنت الحضور الى مصر ليقف الى جوار عرابى فى محنته، ولكن الخديو حال بينه وبين النزول الى الاراضى المصرية ، وبعث الى محافظ الاسكندرية فى ٥ اكتوبر يقول « علمنا ان بلنت الانجليزى المشهور ورفيق الشقى عرابى سيصل الى الاسكندرية على ظهر احدى البواخر ، فيجب اتخاذ الاحتياطات اللازمة لعدم تمكينه من النزول الى المدينة مطلقا » .

وفى ٧ نوفمبر وصل الى القاهرة لورد دوفرين سفير بريطانيا فى استامبول وابدى اهتماما بشأن قادة الثورة ووجوب معاملتهم فى السجن معاملة حسنة ، وحمل الخديو امر المحافظة على حياتهم وهدده بانه اذا مست حياة اى واحد منهم بسوء فانه يكون مسئولا عن ذلك ، ثم عين سير شارلس ولسون مندوبا عن حكومته لحضور جلسات التحقيق .

وجه دوفرين التحقيق والمحاكمة وجهة خاصة بقصد اخفاء جرائم لو جرى التحقيق مجراه الطبيعى فيها لادى الى فضح اعمال ونيات الحكومة البريطانية ، ولحسر اللثام عن أوجه اشخاص اراد الاستعمار ان تظل محجوبة ، ثم امر بالافراج عن المقبوض عليهم

من غير السياسيين ، اذ اتصل به بانه قد حشر فى زمرة المعتقلين الوف الابرياء ممن تناولتهم الرغبة فى الانتقام .

تغير اذن موقف الانجليز فجاة وبدات تظهر نواياهم فى التدخل. ثم طلبوا ان يكون المدافعون عن عرابى وصحبه من المحامين البريطانيين ، فرفضت حكومة الخديو هذا الطلب وقالت انها تفضل تسليم المتهمين الى الحكومة البريطانية لتجرى محاكمتهم بمعرفتها ، بيد ان لورد جرانفيل وزير خارجية بريطانيا رد على ذلك الاعتراض بانذار وجهه الى الحكومة المصرية جاء فيه : « ليس هذا اوان ظهور الحكومة المصرية بمظهر الممانعة والمعارضة ، وان استمرارها على الرفض يعرضها للفشل والخطر ، ولا تكون هذه النتيجة مقتصرة على الوزارة نفسها بل تتناول مركز الخديو نفسه ، واذا لم تقبل الحكومة المصرية طلب الحكومة البريطانية فلا يسعها ان تتحمل تبعة مايترتب على رفضها من النتائج السيئة بعد انقضاء ثمانية ايام على هذا الانذار » .

فلم يسع حكومة الخديو سوى ان تحنى راسها للعاصفة ، وان تحطم المشانق التى اعدتها لاشباع الشهوة فى الانتقام بتنفيذ احكام الاعدام .

واستقال مصطفى رياض وزير الداخلية احتجاجا على ماسماه (تدخل) وقد نسى انه شرب نخب الملكة احتفالا بدخول الانجليز الى عاصمة البلاد.

وكان من المقرر ان تعقد المحكمة العسكرية جلساتها فى قاعة مجلس النواب ، اى فى القاعة التى شهدت انتصار الشعب ورفعت على منبرها شعلة الحرية ، فعدل عن ذلك وخصص لهاجناح خاص فى مبنى الدائرة السنية .

وفى ٣ ديسمبر عقدت الجلسة الاولى برياسة رءوف باشا وثمانية قضاة ، وبحضور الجنرال اليزون قائد عام جيش الاحتلال واركان حربه وبعض الضباط العظام ، وسير شارلس ولسون القنصل البريطانى ، ومراسلو وكالات الانباء والصحف الاجنبية ورساموها ، وبعض السيدات الاوربيات ، ووجه رئيس المحكمة الى عرابى مايلى :

ــ يتبين مما أوضحه مجلس التحقيق انك عصيت وحملت السلاح ضد الحضرة الخديوية ، فكنت بذلك مخالفا للبند ٩٦ من

القانون العسكرى العثمانى ، والبند ٥٩ من قانون الجزاء العثمانى ، فهل تعترف انت بنفسك بذلك العصيان ؟

فوقف المحامى برودلى وقال :

ــ ان موكلى اعترف بارتكابه العصيان وانا المحامى عنه اصدق على ذلك ، واليكم اعترافا كتابيا منه فى هذا الشأن .

وبعد ذلك رفعت الجلسة على ان يستأنف انعقادها فى الساعة الرابعة بعد الظهر .

وعندما اعيد عقد الجلسة ، وجه الرئيس الى عرابى مايلى :

ــ بناء على اعترافك بالعصيان واقرارك بحمل السلاح ضد الحضرة الخديوية ، لم يكن للمحكمة الا ان تصدر باتفاق الآراء وعملا بالبند ٩٦ و ٥٩ من القانون العثمانى اللذين يقضيان على من ارتكب جريمة العصيان بالاعدام ، فالمحكمة قضت باعدامك » .

وبعد دقائق اردف الرئيس بتلاوة امر الخديو باستبدال القصاص المذكور بالنفى المؤبد من اراضى مصر وملحقاتها ، فاذا عاد اليها ينفذ فيه الحكم بالاعدام .

وهنا تقدم المهنئون الى عرابى يشدون على يديه والتف حوله مراسلو الصحف ، وتلقى باقات الزهر من بعض السيدات الاوربيات .

وشاعت الفرحة على وجوه سكان القاهرة ، واقبل انصار الثورة يوزعون الصدقات والملابس سرا على الفقراء ، واقيمت الصلوات ابتهاجا بانقاذ راس عرابى وصحبه من مخالب الخديو وبطانته .

وامتعض الخديو فى قرارة نفسه فقد كان يظن بان قضاء بريطانيا على الثورة والقبض على الزعماء معناه انسحابها بعد ذلك وعودة السلطة المطلقة الى يده ، ولم يدرك بان عودته الى العاصمة فى ركاب المحتلين ووقوفه منكس الراس تحت علم الاحتلال ، واستعراضه كتائب الجيش الذى قهر مصر واذل شعبها ، لم يجعل منه اكثر من راجاه ولاية هندية ، سلطته محدودة ويده مغلولة .

وجرت محاكمة طلبة عصمت وعبد العال حلمى والبارودى ومحمود فهمى وعلى فهمى ويعقوب سامى على هذا النحو .

استقبل الزعماء الحكم بوجوم ، ولكن برودلى قطع عليهم سبل التفكير فى مصيرهم عندما وفد عليهم فى السجن ، وافضى اليهم بان

الاختيار قد وقع على سيلان لتكون ماوى لهم وانه اغتبط بذلك القرار ، لان سيدنا آدم عندما خرج من الجنة هبط فى هذه الجزيرة

ثم قدم الى المحاكمة رهط من وجوه البلاد وزعمائها ، وكان اشجعهم موقفا الشيخ حسن العدوى من علماء الازهر ، فقد سئل عما اذا كان قد اصدر فتوى بعزل الخديو ؟ فكان جوابه : ولو انه لم تصدر منى فتوى فى ذلك ، الا انه جئتمونى الآن بمنشور يحوى هذه الفتوى فانى اوقعه على الفور ، وهل فى وسعكم وانتم مسلمون ان تنكروا ان الخديو توفيق مستحق للعزل بسبب كونه خرج على الدين والوطن ؟.

فلم يسع المحكمة الا ان تبرىء ساحته من هذه التهمة خوفا من التورط فى مسائل شائكة .

وحكم على حسن موسى العقادوعلى الروبى بالنفى لمدةعشرين سنة الى مصوع ، وعلى احمد رفعت سكرتير مجلس الوزراء بالنفى خمس سنوات ، وعلى الشيخ محمد عبده بالنفى ثلاث سنوات الى بيروت .

وقضى على الاعيان الذين آزروا الثورة بتحديد اقامتهم فى بلدهم وتجريدهم من الرتب والامتيازات ودفع غرامة تتراوح بين الالف والخمسة آلاف جنيه ، ومن بينهم : امين الشمسى واحمد اباظة وابراهيم الوكيل ومحمد جلال وعثمان فوزى وللوم السعدى وسعداوى الجبالى وحسين الدرملى واسماعيل دانش ومصطفى ثاقب . وتجريد طائفة من العلماء من الرتب وعلامات الشرف ومنهم المشايخ : حسن العدوى واحمد عبد الغنى وعلى الجمال .

وصدر الامر بفصل مائتى وخمسين ضابطا من ضباط الجيش من رتبة ملازم ثانى الى يوزباشى بتهمة اشتراكهم فى جريمة العصيان .

وحوكم القائمقام سليمان داوود ظلما بتهمة احراقه الاسكندرية، فحكم عليه بالاعدام ونفذ الحكم فى ميدان المنشية قبل ان تتاح الفرصة له بالبوح باسرار تدبير الخديو والانجليز . واثار اعدام هذا الضابط عاصفة فى البرلمان البريطانى ، فعقب راندولف تشرشل على الحكم بقوله : ان الامر الصادر بحرق الاسكندرية كان مختوما عليه من الخديو نفسه ، وانا اطلب للميدان كل وزراء حكومة

جلادستون اذا كان فيهم من يتجاسر على ان ينكر هذه الحقيقة ، واصر علنا بأن مستر جلادستون ووزراءه وحزبه قد ارتكبوا جناية من أقبح الجنايات بالاعدام على سليمان داوود ،وان دم هذا الرجل سيقع على رءوسهم الى الابد وهم المطالبون به » .

وجاء دور احمد المنشاوى فقدم الى المحاكمة على الرغم من انه خف الى نجدة الافرنج فى طنطا والمحلة الكبرى وآوى المئات منهم فى قصره خوفا من ان تتكرر مذبحة الاسكندرية . حتى ان مؤتمر الاجانب الذى عقد بفندق ابات بالاسكندرية وجه اليه كتاب شكر وتقدير « لانه دافع عن حقوق الانسانية ورعى ذمام التمدن بحمايته الابرياء » ، ولكن الخديو ساقه الى المحاكمة ليكفر عن هذه «الحقوق الانسانية » ، اما عمر لطفى مدبر مذبحة الاسكندرية فقد قبض ثمن الخيانة وكوفىء باسناد منصب وزارى اليه .

وبعث عرابى الى جريدة التيمس من سجنه بما سماه « وصيتى السياسية » وفيها يقول :

« عملا بما اشار على به المحاميان اللذان توليا الدفاع عنى مستر برودلى ومسيو نابيير ، اللذان لا استطيع ان افيهما حقهما من الشكر ، لما بذلاه فى قضيتى من الجهد والاخلاص ، اعترفت امام القضاء صوريا بتهمة العصيان والخروج على الخديو ، اذ ان وزراء بريطانيا طالما صرحوا بعصيانى ، وليس من المنتظر ان يعدلوا بغتة عن هذا الراى ، وليس فى وسعهم ان يفعلوا ذلك الآن ، وانا اقبل بكل ارتياح ان اتوجه الى اية جهة تريد انجلترا ان اقيم فيها اليها . وان ابقى فى المكان الذى تعينه لى الى ان يحل اليوم الذى تستطيع فيه ان تغير رايها وتعيد النظر فى امرى .

« ولست اشكو اليوم ما انتهى اليه امرى ولا من الحكم الذى صدر علي ، فانه يقرر على كل حال براءتى من تهم المذابح والحرائق التى لم يكن لى يد فيها ، ولا تتفق مع مبادىء السياسة والمدنية ، وقد صار الامر كله موكلا الى الحكومة البريطانية والى مكارم الشعب الانجليزى ، وانا اغادر مصر مع الثقة التامة فى حسن مصيرها ، لاننى اعتقد بأن انجلترا لا تستطيع ان تؤجل الاصلاحات التى قمنا للمطالبة بها وكافحنا من أجلها ، ولابد ان تبدأ بالغاء المراقبة الثنائية ، ولا تترك حكومة مصر فى ايدى الالوف

من الموظفين الاجانب وتحرم ابناءها من ادارة شئونها ، ثم تطهر المحاكم الاهلية من اوضارها وتضع القوانين والمشروعات اللازمة لنظام الادارة ، واهم من وضعها مراقبة تنفيذها ، ثم يشكل مجلس نواب يكون له حق الاشتراك فى ادارة شئون الامة المصرية ، وان يمنع المرابون من الانتشار فى القرى بين الفلاحين ، فاذا تمت كل هذه الامور وعادت على مصر بالتقدم والعمران وجب على الشعب البريطانى ان يعترف باننى كنت محقا فى الخروج والعصيان .

« ولما كنت من ابناء الفلاحين الذين يحبون بلادهم . فقد بذلت كل ما فى وسعى لاجراء هذه الاصلاحات ، ولكن لسوء حظى لم يتح لى ان تتم على يدى ، لكنى اؤمل ان الحكومة الانجليزية ستقوم باتمام مابدات به ، فاذا ادت انجلترا هذه المهمة وسلمت مصر للمصريين وضح للعالم جليا ماهو الغرض الجليل الذى كان عرابى العاصى يسعى اليه .

« ان جميع المصريين كانوا فى جانبى ، كما اننى وقفت نفسى على خدمة بلادى التى لن اتحول عن حبها الى نهاية حياتى .

« فلذلك ارجو الا تفتأ مصر تذكرنى عندما يتسنى لانجلترا ان تتم العمل الذى حاولت الشروع فيه ، وانى لاازال اكرر القول بانى غير حزين لما وصل اليه امرى ، بل ارانى مغتبطا مسرورا لاعتقادى بان ماحل بى من سوء العاقبة من البواعث لحصول مصر على ما هى اهل له من الحرية ورغد العيش ، فاذا اتمت انجلترا هذا العمل الجليل كنت على يقين بانها لابد تسمح لى بالعودة الى وطنى المحبوب ، حتى ارى بعينى راسى قبل ان ينقضى اجلى نتيجة اعمالها فى خدمة الانسانية » .

***

وفى ١٤ ديسمبر صدر امر خديو بتجريد الزعماء السبعة من رتبهم وممتلكاتهم وتصفيتها تعويضا للمنكوبين فى الحوادث التى وقعت بسببهم وفى مقابل المخصصات التى ستصرف اليهم فى المنفى ، وعلى اثر ذلك شكلت لجنة خاصة فى مركز ضبطية القاهرة

بحصر املاك المحكوم عليهم ، والممتلكات والموجودات التى تصرفوا فيها بالهبة أو البيع .

وكذلك صدر امر آخر فى ٢١ ديسمبر بتجريد عرابى وصحبه من جميع الرتب والقاب وعلامات الشرف ومحو اسمائهم من سجلات الجيش المصرى . وفى ٢٥ ديسمبر نفذ الحكم فى الزعماء السبعة فى ثكنة قصر النيل بان اصطفوا فى ساحة الثكنة وحولهم الحرس ، ثم تقدم على غالب وكيل وزارة الحربية وتلى الحكم عليهم ، وفى طريق عودتهم الى السجن كانت الشوارع غاصة بالالوف من المواطنين وهم يذرفون الدمع على ما آل اليه مصير الزعماء .

ومن بين النشرات التى عثرنا عليها الاعلان الذى نشره « رئيس قومسيون حصر الاملاك » خاصا ببيع مخلفات زعماء الثورة وقد جاء فيه :

« موجود بالقومسيون من تعلقات محمود سامى ومحمود فهمى واحمد عرابى التى صارت ملكا للحكومة بمقتضى الامر العالى الصادر بتاريخ ٣ صفر ١٣٠٠ عدة من نفائس الكتب المعتبرة المتنوعة فى سائر العلوم والفنون باللغات العربية والتوركية والفارسية والفرنساوية وجملة من خرط الرسم وسيحصل الشروع فى بيعها بالمزاد فى يومى الاحد والثلاث من كل اسبوع ابتداء من الاسبوع القابل لغاية ماينتهى تصريفها بشرط دفع الثمن فورا بالعملة الصاغ الميرى وقت السماح . واقتضى الاعلان عن ذلك كى كل من كان له رغبة فى مشترى شيئا منها فليحضر بمركز القومسيون بديوان ضبطية مصر فى اليومين المذكورين ابتداء من الساعة ثلاثة صباحا لغاية الساعة احدى عشر عربى » .

وفى الساعة العاشرة من مساء ٢٦ ديسمبر استقل الزعماء مع عائلاتهم وخدمهم قطارا خاصا من ثكنة قصر النيل تحرسهم شرذمة من الضباط والجند الانجليز والمصريين ووجهتهم السويس ، وجاء برودلى ونابير وشارلس ولسون لوداعهم .

وفى ميناء السويس كانت هناك الباخرة « مربوط » فاستقلها الزعماء وبرفقتهم محافظ سواحل البحر الابيض وعشرون جنديا مصريا برياسة الضابط على قبودان كريدلى .

وابحرت الباخرة فى الساعة الواحدة بعدالظهر دون ان يسمح لاحد بالصعود اليها لتوديعهم ، وقد صور الشاعر البارودى هذا الموقف ، وشعوره ساعة مغادرة ارض الوطن الى المنفى فى قصيدة مطولة نجتزىء منها هذه الابيات :

ولما وقفنا للوداع وأسبلت
مدامعنا فوق الترائب كالمزن
اهبت بصبرى ان يعود فبزنى
وناديت حلمى ان يثوب فلم يغن
وما هى الا خطرة ثم اقلعت
بنا عن شطوط الحى اجنحة السفن

وبمجرد ان توارت اشباح عرابى وزعماء الثورة ، تنفس الخديو وبطانته الصعداء وحسبوا أن الكنانة قد دانت لهم وعادت الى قبضتهم ذليلة طيعة ، فبادروا الى الاتصال برهط من الكتاب الاجانب ينفخون فى ابواق الدعاية لتشويه حركة مصر القومية وشفاء مافى نفوسهم من حقد نحو زعماء الثورة ، واخذوا فى تصوير زعيم الثورة فى صور تأباها الحقيقة وينكرهاالواقع ، فصوروه على انه « دجال متدين » ، وان الغرض من الثورة التى قام بها لم يكن تحرير طوائف الشعب ولا نشر المساواة وانما كانت ترمى الى هدم عرش الخديو ليجلس هو مكانه ، وان بعض امراء واصهار اسرة محمد على ممن يبغضون توفيق او يطمعون فى العرش دفعوا اليه مبالغ طائلة ليسعى فى اعادة الخديو المنفى اسماعيل الى العرش أو تولية الامير محمد عبد الحليم الطامع فى العرش ، واضافوا الى ذلك ان هدف عرابى من الثورة كان يقوم على نشر الاستبداد والانفراد بالحكم وانشاء حكومة عربية يكون هو على راسها ، وانه كان متصلا بجماعة من المغاربة يقرءون له الاحزاب والاوراد ، وانه كان متفقا سرا مع الانجليز على هزيمة الجيش المصرى فى معركة التل الكبير ، الى آخر هذه الترهات التى لاتصدر الا عن نفس مكلومة وحالة قنوط ويأس .

ووصفوا زعماء الثورة بانهم « غوغاء » و « عصاة » و «خارجون على طاعة الخليفة وامير المؤمنين » و « انهم شهروا السلاح فى وجه الحضرة الفخيمة الخديوية » .

واخفى الخديو توفيق الاسانيد والوثائق التى تنقض مزاعمه واباطيله ومضى يسترسل فى افكه وبهتانه ، يساعده فريق من المتملقين واذناب الاحتلال على تشويه هذه الحركة القومية الكبرى التى انبثقت من صميم الشعور الوطنى والنخوة القومية ، تلك الحركة التى كان من اهدافها تحرير مصر من نير اسرة محمد على ومن الاستعباد الاقتصادى والاجتماعى الذى فرضه المستعمرون على الكنانة ، وتنادى بحق الفلاحين فى اشراكهم فى حكم بلادهم .

***

تابعت الباخرة مربوط سيرها الى ان وصلت الى ميناء كولمبو فى ١٠ يناير فاستقبل الزعماء المنفيين على ظهر الباخرة نائب الحاكم البريطانى العام لجزيرة سيلان ، واصطحبهم الى « دار الملكة »حيث مقر الحاكم العام ، فتبادل الحديث معهم وشرح لهم ان حكومة الجزيرة قررت ان تستضيفهم ثلاثة ايام ، كما ان الحكومة المصرية ستدفع نفقات السكن والطعام لهم لمدة ثلاثة اشهر وبعد ذلك يتصرفون فى معيشتهم طبقا للمخصصات المقررة لهم .

وفى اليوم التالى هرع شيوخ الجزيرة لتحيتهم والحفاوة بهم ، وهم يحملون الموز وجوز الهند والخبز والماء على حسب عوائدهم ، وصاروا يتبركون بهم بوصفهم من اقطاب المسلمين المجاهدين واعدوا لهم المركبات التى تعينهم على التنقل فى انحاء المدينة وارباضها .

ماذا يعمل هؤلاء الزعماء السبعة فى جزيرة قاحلة لاتربطهم بالعالم ؟ ... لايتفاهمون بلغة سكانها ولا يلمون بتقاليدهم ، وليس هناك من وسيلة للتسرية عنهم سوى العبادة والقراءة .

كان اول مافعله هؤلاء الزعماء تحت سماء الغربة ان شرعوا فى تعلم اللغة الانجليزية ، وارسلوا اولادهم الى مدارسها فى الجزيرة ، وزاد محمود فهمى على ذلك بأن شرع فى تعلم اللغة الهندوستانية واللهجات التى يتكلم بها سكان الجزيرة ، واقبل على وضع سفره التاريخى الضخم « البحر الزاخر فى تواريخ الاوائل والاواخر » .

وظل مسلمو الجزيرة يصلون الزعماء بالزيارة للتحدث اليهم والترفيه عنهم ، وكان عرابى لايفتأ يتردد على المساجد لصلاة الجمعة فيحتشد المسلمون بأبوابها للتبرك به ولثم يده ، وكان السياح الامريكيون والاستراليون والانجليز ورجال الصحافة العالمية يحرصون على زيارته والتحدث اليه طويلا .

ومن بين الذين زاروه فى الجزيرة المستشرق بلنت وعقيلته والقس لويس صابونجى صاحب مجلة « النحلة » التى تصدر بالعربية فى لندن . ونزلوا فى ضيافته نحو ثلاثة اسابيع ، وكان بلنت يسعى جهده فى دوائر لندن للافراج عن المنفيين وعزل الخديو توفيق وتولية ابنه الطفل عباس حلمى مكانه .

وكان عرابى كلما وفد عليه احد الزوار العابرين اخذ يشكو اليه سوء صحته بسبب مناخ الجزيرة ورطوبتها وتربتها التى تؤثر فى صحته . وسمع بهذه الشكاية لبتون صاحب مزارع الشاى الواسعة الانتشار فى الجزيرة ، فارسل يدعوه هو واسرته الى الاقامة بعض الوقت فى ممتلكاته فى جبال كندى حيث ان الهواء معتدل فيها ، وصحب عرابى زميله على فهمى وقضيا قرابة الشهرين فى ضيافة لبتون ، تحسنت فى خلالها صحته .

وفى اواخر سنة ١٨٨٤ عرضت حكومة لندن على عرابى ان يكون سفيرا لدى المهدى لرفع الحصار عن جوردون فى الخرطوم ، على ان يعزل الخديو توفيق ويعين امير بدله بالاتفاق مع المهدى ، فاذا نجح عرابى فى مهمته امكن تعيينه رئيسا للوزارة ، ولكن عرابى رفض هذا العرض فى اباء وشمم .

ووفد على الجزيرة مستر جريجورى سكرتير ملكة بريطانيا واجتمع بعرابى الذى شكا اليه اضمحلال صحته فى هذا المنفى السحيق ، فوعده بأن يبذل جهده لنقله الى جزيرة قبرص ،وطلب اليه ان يكتب التماسا الى حاكم الجزيرة ويرفقه بشهادات طبية من اطباء معترف بهم ، واحال الحاكم العام الالتماس والشهادات الى وزارة الخارجية . ولكن الوزارة رأت ان تقف اولا على رأى افلن بارنج معتمدها السياسى فى القاهرة ، فأجاب « بأن حكومة الخديو لاترغب فى الحال او الاستقبال السماح للمنفيين بالعودة الى

وطنهم مادام الخديو متربعا على عرشه خشية ان يتسببوا فى اثارة الفتن والقلاقل » .

واخيرا اعلنت الحكومة البريطانية فى البرلمان بانها اطلعت على تقريرات المجلس الطبى الذى عقد فى كولمبو للكشف على صحة المنفيين المصريين وان مناخ الجزيرة ليس مضرا بصحتهم ، ولايمكن لحكومة جلالة الملكة ان تجبر الحكومة المصرية على قبولهم كمايتعذر على الحكومة الانجليزية نقلهم الى جهة اخرى .

دب اليأس الى قلوب المنفيين واستسلموا لمشيئة القدر ، وكان نفر من المصريين الاحرار الذين ظلوا ثابتين على العهد يصلون هؤلاء المنفيين بوطنهم عن طريق المكاتبات والهدايا ، ومن بينهم احمد المنشاوى ومحمد الزمر والنجدى وخضر خضر واحمد عبد الغنى ومحمد خليل الهجرسى وكان منفيا فى الحجاز فلما انتهت المدة المحكوم عليه بها رفض مغادرة منفاه الى مصر « حتى يعود عرابى او يعزل توفيق عن عرشه » .

وقضى عبد العال حلمى نحبه فى المنفى فى مارس ١٨٩١ ، ولحق به محمود فهمى فى يوليو ١٨٩٤ ، واصيب البارودى بفقد بصره ، ومرض طلبه عصمت مرضا خطيرا هدد حياته بالموت .

وقامت ضجة فى البرلمان البريطانى ونهض احد النواب الاحرار مطالبا حكومته بفك اسار المعتقلين المصريين فى سيلان ، وناشد الاعضاء النخوة الانسانية ، وذكر لهم كيف قضى عبد العال حلمى ومحمود فهمى نحبيهما نتيجة رداءة الطقس ورطوبة الجو فضلا عن ان الباقين وصلوا الى مرحلة الشيخوخة وهم يقاسون مرارة الفرقة والبعد عن الوطن لا لسبب سوي انهم دافعوا عن ارضهم .

وكان من نتيجة تلك الحملة ان وافقت الحكومة المصرية على اجابة طلب حكومة لندن بالترخيص لطلبة عصمت بالعودة الى وطنه اذ ساءت صحته وقرر اطباء الجزيرة انه لايعيش اكثر من اشهر معدودات ، وفعلا لم يعش بعد نقله الى القاهرة سوى عدة اشهر توفى بعدها فى يوليو ١٩٠٠ .

وانهارت صحة يعقوب سامى فى المنفى الى ان لقى حتفه فى اكتوبر ١٩٠٠ ودفن بجوار محمود فهمى .

ورخص للبارودى بالعودة الى مصر بعد ان فقد نور بصره وقرر الاطباء ضرورة عودته الى وطنه ، اى فى المناخ الذى نشأ وترعرع فيه ، فعاد فى سبتمبر ١٩٠٠ وعفا عنه الخديو عباس حلمى ورد اليه ممتلكاته الى ان توفى فى ١٢ ديسمبر ١٩٠٤ .

وظل فى المنفى كل من عرابى وعلى فهمى يقاسيان مرارة الفرقة والبعد عن الاهل والوطن ، وبذل بعض الاحرار الانجليز مساعيهم لدى حكومتهم للافراج عن بقية المعتقلين ، فعاد على فهمى فى اغسطس ١٩٠١ وعرابى فى اكتوبر من السنة نفسها .

هبط عرابى ثرى وطنه بعد غيبة دامت تسعة عشر عاما فاذا بجنود جيش الاحتلال يحتلون كل شبر من ارض الوطن ويسيطرون على الجيش والبوليس والمرافق العامة ويتدخلون فى كل صغيرة وكبيرة ، والخديو صفر على الشمال ، لا يملك من الحول والقوة مايدفع به شرور هذا العدوان . فبكى الزعيم حرقة وألما . بكى لان توفيق الخديو الغاشم فى سبيل انانيته واحتفاظه بعرشه اضاع البلاد واذل العباد .

وعكف عرابى فى عزلته بمنزله بالناصرية بالقاهرة على العبادة وتدوين مذكراته لتصحيح الاوضاع التاريخية التى لفقها الخديو والمستعمرون ، وكان المنافقون يفرون من وجهه ولا يلقونه ، ولكن افراد الشعب ظلوا على العهد ، يحفظون له الاحترام فاذا مر بالشوارع نهضوا من مجالسهم تبجيلا لشأنه واعترافا بخدماته فى سبيل الذود عنهم والمطالبة بحقوقهم وحرياتهم .

وظل عرابى يطالب بممتلكاته التى اغتصبها الخديو دون ان يظفر بطائل ، بل سلخ بقية حياته فقيرا ، يعيش فى مسكن متواضع الى ان قضى نحبه فى ٢١ سبتمبر ١٩١١ وبذلك اسدل الستار على حياة الزعيم الفلاح الذى قاد أول ثورة شعبية فى وادى النيل .

الحماية المقنعة

سموم الاستعمار ــ مهمة لورد دوفرين فى مصر ــ تقريره عن الجيش والدستور والقضاء والشئون الداخلية ــ تعويضات سخية للاجانب .

بعد ان استتب الامر للانجليز فى مصر . ونجحوا فى كسر المقاومة الشعبية ، وقفوا حائرين مذهولين وقد شعروا بان مركزهم فى مصر اصبح حرجا ومحفوفا بالمخاطر من الناحية الدولية ، فهذه البلاد لاتربطهم بها صلة ، اذ هى من وجهة النظر الدولية خاضعة للسيادة العثمانية فضلا عن انها من اراضى السلطان ، وهى لم تشهر الحرب رسميا عليهم حتى يدخلوها بوصفهم غزاة ويتملكوها بحق الفتح .

واحتار ممثل بريطانيا فى مصر ... فطلب الى حكومته تزويده بنصائحها وتعليماتها فيما يتعلق بخطط واساليب الحكم التى يتبعها او يطبقها ، وكانت حكومة لندن اشد حيرة منه ، فتخلصت من الرد بان صرحت له بان يستوحى الاوضاع المحلية فى تنفيذ ما يراه صالحا ، مع التوفيق بين مصالح الاستعمار « الامبريالزم » والآراء الحرة .

ومضى المحتلون فى عدوانهم الآثم ، فعاملوا مصر التى خرجت من ساحة الشرف مثخنة بالجراح معاملة نكراء بقصد اهدار كرامتها ومحو معالم القومية فيها ، وبدأوا ينشبون مخالبهم فى كل ركن من اركان البلاد ، ويسعون الى تقويض معالم الاستقلال والسيادة ، فسيطروا على ماتبقى من القوة العسكرية سواء فى الجيش او البحرية او البوليس ، وعمدوا الى الغاء الدستور والقضاء على الحياة النيابية .

ولكى يبرر الانجليز موقفهم امام الراى العام فى الداخل والخارج ، زعموا بانهم لايفكرون فى احتلال مصر احتلالا شرعيا ابديا ، بل ان لهم مهمة سياسية مؤقتة ، ورسالة حضارية ثقافية ، الغرض منها توطيد العرش ، وانقاذ مصر من الفوضى والظلام ، وازالة الآثار

المتبقية من الثورة . والمحافظة على مصالح اصحاب الديون ، وحماية الاجانب والاقليات ، وقناة السويس ،واصلاح حال الفلاح ، وادخال فنون الحضارة .

ورات بريطانيا ان تستنجد بسفيرها فى استامبول ، أرل أوف دوفرين ، وهو من اقطاب السياسة المحنكين الذين عرفوا خبايا المسألة الشرقية بوجه عام والمسألة المصرية بوجه خاص . فكلفته فى ٢٩ اكتوبر بالسفر الى مصر لوضع نظام اساسى للحكومة المصرية ، اما فى الباطن فكانت مهمته تنظيم الحماية المقنعة على مصر .

واثارت مهمة دوفرين ثائرة الباب العالى ، لان اعادة تنظيم الحكومة المصرية سيكون خارجا على قواعد الفرمانات ولكن هذه الفكرة لم ترق للمحتلين ، فزعموا بان تنظيم مصر لايمكن ان يقوم على قواعد الفرمانات ، وان مهمة دوفرين لن تؤثر فى العلاقات السياسية والودية بين البلدين .

وصل لورد دوفرين الى مصر فى ٧ نوفمبر بوصفه « مندوبا ساميا » . واراد المحتلون ان يلفتوا الانظار الى مقدمه فاعدوا له بالاتفاق مع الخديو استقبالا رسميا حافلا لايجرى لغير الملوك ورؤساء الدول ، فاطلقت المدافع فى الاسكندرية والقاهرة اشعارا بوصوله ، وخف الى استقباله فى الميناء وفى محطة القاهرة مندبون عن الخديو ورئيس الوزارة وقائد عام جيش الاحتلال وضباطه وكوكبة من الفرسان الانجليز ، واعد « قصر النزهة » بشبرا لاستضافته ، ثم انتقل منه بعد فترة الى قصر قطاوى فى حى الاسماعيلية ، وصار يستقبل افواجا من المصريين والاجانب الذين يدعون معرفة خبايا المسألة المصرية والالمام بنفسية مصر وعاداتها واخلاق سكانها ، وبث العيون والارصاد فى العاصمة وفى المدن والقرى لتاتيه بتقريرات عن رغبات المصريين وموقفهم من الاحتلال، ويكثر من الطواف بالشوارع ، والاختلاط بمختلف الاوساط فى المجتمعات لاستطلاع الاحوال الجارية ، وكذلك تلقى مئات من الشكاوى من اسر المعتقلين الذين سجنوا ظلما وانتقاما بامر الخديو او محمد سلطان ، وما يقاسونه من الوان العذاب ، فامر بالتحقيق فى هذه الشكاوى على الفور ، والافراج عن هؤلاء المعتقلين .

مكث دوفرين فى مصر زهاء ستة اشهر ، توفر فى خلالها على دراسة كل مايتصل بمصر من النواحى العسكرية والتشريعية

والدستورية وشئون التعليم والرى والضرائب ، ثم وضع برنامجا رسم بموجبه سياسة الاستعمار فى المستقبل ، مع ملاحظته التقيد بمركز مصر الدولى ، وتبعيتها للباب العالى ، وموقفها من الامتيازات الاجنبية والمحاكم المختلطة وصندوق الدين ، وحرص على اسداء النصح بضرورة تطعيم الاداة الحكومية بطبقة من المستشارين الانجليز ، يصبحون فى الواقع المرجع الاول والاخير فى كل ما يتعلق بشئون الحكم والادارة .

كان معظم ماجاء بتقرير دوفرين من مقترحات للاصلاح مقتبسا عن الانظمة السارية فى الولايات الهندية التابعة للتاج البريطانى ، ويعد هذا التقرير من الاسانيد التاريخية الهامة ، ونقطة تحول فى حياة مصر ، والدستور الذى سارت على هديه السياسة البريطانية فى وادى النيل زهاء نصف قرن او تزيد ، لذلك رأينا ان نجمله ونعلق عليه فيما يلى :

قدم دوفرين تقريره بفذلكة تاريخية وفلسفية نوه فيها بموقع مصر الجغرافى بين قارات ثلاث ، مما يجعل المسألة المصرية مصطبغة بصبغة دولية ، ثم انتقل الى الكلام على الشعب المصرى فقال : ان كل من ساد ارض النيل منذ اقدم العصور كان من الاغراب ، وان المصريين كانوا دائما تحت نير اقوام اجانب عنهم ، وقد ساس الحكم العثمانى البغيض سكان مصر على الذل والعبودية ، فضنوا بهذه وتلك على ان يزولا واستعذبوا الخضوع ، فاذا صادف فى فترة ثورة من الثورات ان قضى المصريون على سادتهم جعلوا يشترون بعد ذلك من يذلهم ، فقد اعتادوا ان يشد وثاقهم ايا كانت اليد التى تشد هذا الوثاق .

وقد افترى دوفرين على التاريخ بهذه الاكذوبة السافرة التى حشاها بالطعن فى كفاية المصريين ، ونظر اليهم من الزاوية الاستعمارية واذا كانت مصر قد استكانت فترات من الزمن منقطعة الحكم الاجنبى ، كما استكانت غيرها من الامم والشعوب ، فليس هذا معناه انها استعذبت الذلة والخضوع ، بل الواقع ان شخصية مصر الجبارة كانت تطوى الغزاة تحت جناحيها وتصقل الاغراب بطابعها .

وقد ظل الوعى القومى فى مصر اقوى منه فى اى بلد آخر . واذا كانت مصر لم تقم بثورات دامية ضد العثمانيين فان هذا مرجعه الى الرابطة الاسلامية ، فضلا عن ان العثمانيين كانوا يمثلون فى نظرها الخلافة المقدسة ومع ذلك فانه عندما تغلب الوجدان الوطنى على الوازع الدينى نزعت مصر الى الثورة وتمردت على حكامها المستبدين . وسبقت امم العالم قاطبة الى اعلان حقوق الانسان . وقد أدت يقظة مصر واكتمال وعيها القومى الى اهتمام الكثيرين بها ودخلت نهضتها من اوسع ابواب التاريخ .

وبعد ان اطنب فى مدح الخديو توفيق ووصفه بالدعة واللين وليس فيه شيء من القسوة والاستبداد اللذين امتاز بهما حكام الشرق ، نصح حكومته بالا تحكم مصر من لندن ، لئلا يثير ذلك شجون المصريين وشكوكهم ، وحتى لا يدفع ذلك انصار الامبريالزم الى ضم مصر نهائيا الى الممتلكات البريطانية فى المستقبل .

***

وجه دوفرين الجانب الاكبر من اهتمامه الى الجيش . فهو فى نظره مبعث الثورة ، ومنبع الخطر على مصالح الاجانب ومطامعهم فى الاستعمار ، وحامل لواء المعارضة فى وجوه الاغراب ، فضلا عن انه يمثل القومية فى مصر على احسن صورة .

ومع ذلك فهو لاينظر بعين الارتياح الى الغاء الجيش المصرى الغاء تاما ، بل يتذرع الى ايجاد قوة محدودة العدد بحجة انه يحتمل وقوع بعض الاحداث الجسام فى داخل البلاد وعلى حدودها مما يستلزم ان يكون تحت تصرف مصر بعض الكتائب المدربة على الفنون العسكرية البسيطة .

ولم يستطع دوفرين ان يصرح علنا بأن اعداد هذه القوات المدربة هو لقمع حركات الكفاح الشعبى والثورات التى قد تنشب ضد المحتلين كما حدث فى أيام الحملة الفرنسية ، ولكنه يشير الى انه كثيرا مايبرز فى بعض القرى متعصبون ودجالون من دابهم ايقاع البلاد فى خطر ، وايهام السذج والبسطاء انهم مكلفون برسالةخارجة عن حدود الطبيعة البشرية ، ولا يخفى ان هذه الدعايات الروحية

قد تنشأ عنها اضطرابات وقلاقل اذا لم يتلاف أمرها فورا باستخدام القوة والقبض على زعمائها وتبديد شمل انصارهم .

وكذلك قد يعمد البدو الى تكدير السلم وتهديد السكان الآمنين والقيام بثورات محلية .

ومن كان فى مركز الخديو — لاسيما بعد الحوادث الاخيرة — فانه يميل كل الميل الى استئجار قوة عسكرية اجنبية من جنود مرتزقة تحوط بعرشه كما كان يفعل حكام الشرق فى مختلف العصور .

وعلى ذلك فان دوفرين يقترح الحيلولة دون استخدام اى عنصر اجنبى فى الجيش الحديث سواء اكان من الارناؤود او الاناضوليين او غيرهم من العناصر التى كانت تحتكر الحكم والسلطان فى وادى النيل ، هذا الى ان مثل هذه القوة الاجنبية ستكون آلة عمياء للجور والظلم ، وستثير شعور المصريين من جديد .

ومن الميسور استخدام بعض الضباط من سلالة الاتراك الذين استوطنوا مصر منذ عهد بعيد ، ليبعثوا فى العساكر الفلاحين الذين تعودوا الكسل والخمول ، القوة والهمة والنشاط عن طريق التدريب والتعليم ، وبث روح النظام والطاعة .

ويرمى الاقتراح الذى تقدم به دوفرين الى تنظيم جيش مؤلف من ستة آلاف مقاتل ، على ان يكون خاضعا لقواد وضباط عظام بريطانيين ، ولكى لايكون وجود هؤلاء الضباط سببا فى عدم تقدم الوطنيين او حرمانهم من الرتب العليا ، فان المشاة يجب ان تنقسم الى لواءين ، ولا يستخدم الضباط الانجليز الا فى احدهما ، بمعنى انه ستوجد ثمان كتائب مشاة ، اربع منها ضباطها وصف ضباطها من الوطنيين ويتولى قيادتها لواء مصرى ، اما امراء الآلايات والقائمقامات فى كل من الكتائب الاربع الاخرى فيكونون من الانجليز وعلى هذا القياس يجرى تشكيل المدفعية على أساس ان تؤلف من اربع بطاريات بقيادة اميرالاى انجليزى ، ويعين ضابطان انجليزيان لبطاريتين منها وتتكون الواحدة من ستة مدافع ، اما البطاريتان الباقيتان فتتالف من اربعة مدافع بقيادة ضباط مصريين ، وتنظم كتيبة الفرسان من خمسمائة عسكرى ، ويتولى قيادتها ضابطان عظيمان بريطانيان ويلحق بها ايضا ضباط انجليز من ذوى الرتب الصغيرة .

وكذلك تؤلف كتيبة من سلاح المهندسين ، واخرى للهجانة ـ ويرفع راتب العسكرى من عشرين الى ثلاثين قرشا ، على ان تدفع هذه المرتبات بانتظام .

وعلى ذلك يكون مجموع الجيش الجديد ٦١٤٧ جنديا منهم : ٤٧١٣ مشاة ، و ٥٦٠ فرسان و ٤٦٤ مدفعية ، و ١٠٤ مهندسين و ٢٠٥ هجانة و ١٠٢ سواحل . ومجموع الضباط الانجليز ٢٧ ضابطا ، يستخدمون بموجب عقود ، ويشترط فيهم الالمام باللغة العربية وتأدية امتحان فيها بعد فترة زمنية محددة .

اما التجنيد فيجب ان يشرع فى تجربة طريقة التطوع فى كتيبتين من « الجندرمة » فاذا نجحت هذه الطريقة امكن التوسع فيها . ولكن لابد من ادخال الاصلاح فى الخدمة العسكرية ، وتحسين المرتبات .

وتنفيذا لهذه المقترحات ، تقرر ان يكون القائد العام للجيش المصرى اجنبيا ، ونصف الضباط العظام من البريطانيين ، على ان يظلوا محتفظين بجنسيتهم الاصلية ، وباقدميتهم فى جيش الامبراطورية ، وان توحد شعارات الجيش المصرى وزيه وجعلهما مماثلين للقوات الهندية البريطانية . وانقاص كميات السلاح والعتاد الحربى ، على ان تحتكر بريطانيا توريدها الى مصر .

سرعان ماشكلت لجنة فى وزارة الحربية برياسة سير فالنتين بيكر ، وهو ضابط بريطانى كان فى خدمة الجيش العثمانى ، فعهد اليه بعملية تنظيم الجيش الجديد ، واختيار الضباط ،وبعدان عكفت اللجنة على اداء مهمتها ، رفعت الى السلطات الرسمية اربع قوائم ، حوت الاولى اسماء خمسمائة ضابط من الذين كانوا فى الجيش العامل ولم يشتركوا فى الثورة واوصت بالحاقهم بالجيش الجديد .

اما القائمة الثانية فتحوى اسماء ٢٧٣ ضابطا يصلحون للخدمة بعد استنفاد الفئة الاولى . وفى القائمة الثالثة اسماء ٣٢٦ ضابطا يحالون الى الاستيداع ، وتحوى القائمة الرابعة اسماء ٢٣٦ ضابطا يطردون من الخدمة ويحرمون من معاشاتهم جزاء اشتراكهم فى الثورة .

وفى ٥ ديسمبر ابلغت الحكومة البريطانية الخديو بانها اختارت الجنرال افلين وود ليكون قائدا عاما للجيش المصرى ، ورئيسا

لهيئة اركان حربه . مع الانعام عليه برتبة فريق .

وبذلك صار الجيش المصرى - الذى كان يخشى خطـــره - فى قبضة المحتلين . . . وخاضعا لسيطرتهم . وبادر الانجليز بانوضعوا ايديهم على وزارة الحربية ، واقصوا عنها كل من تحوم حوله غمامة شك . وسنوا نظاما للبدل النقدى . يعفى بموجبـــه القادرون من ابناء الاعيان . عن حمل السلاح ، لتكون الجندية وقفا على الطبقات الفقيرة الكادحة . والغوا المدارس العسكرية المختلفة من اركان حرب وصف ضباط ومشاة ومدفعية وفرسان وبحرية لتجريد مصر من كل قوة . واقتصروا على مدرسة واحدة يلحق بها الذين نالوا قسطا طفيفا من التعليم الابتدائى وحصلوا على معلومات ضئيلة ومعارف سطحية . وصار التدريس فى المدرسة الحربية مقتصرا على القشور دون اللباب ، وكان غرض المحتلين من ذلك تخريج فئة من الضباط لايرقى مستواهم الثقافى عن معلومات الجنود السابقين . ووضع نظام الجيش الجديد على اساس الدفاع وليس الهجوم . اما بقيه النظم فصارت تجرى طبقا لما هو متبع فى الجيش البريطانى .

وشمل الالغاء البحرية . فبيعت السفن الحربيـــة ، واغلقت دار صناعة السفن « الترسانة » والمدرسة البحرية ، والمصانع الحربية ، وصفيت البواخر النهرية ، وبيعت الاتها وادواتها .

واخذ رجال الجيش الجديد يردون يوميا على العاصمة ، وصار من المالوف ان تقع العين على مناظر مؤذية حول ادارة القرعة . وقد وقف بابوابها اهل المجندين ، يلطمون الخدود ويشقون الجيــوب ، ويصيحون بعبارات مستخذية كانهم فى ماتم . ومن المجندين من كان يعمد الى بتر عضو من اطراف جسده او سمل عينيه حتى يعـــافى من الانخراط فى سلك الجيش .

***

وتناول التقرير نظام « الجندرمة » اى قوات الامن والحراسة ، فقال : لما كان مركز مصر محفوفا بالصحارى ومعرضا لغاراة البــدو فمن الواجب انشاء « جندرمة » من رجال ذوى ادراك ونشـــاط ، يتدربون على صد غارات البدو على المدن ، ويكون نظامهم من حيث التمرين والاسلحة والملابس مقتبســا عن الانظمة السارية فى الجيش .

واشترط ان تكون الجندرمة برياسة مفتش عام بريطانى ، وله مساعدون من الاوربيين ، بحيث لايتجاوز عددهم ثمانيــة عشر ضابطا ، وان تتبع الجندرمة وزارة الداخلية راسا « اذ لو الحقت بوزارة الحربية لبثت بين افرادها روح الجيش » .

وأشار التقرير الى ان مجموع قوات الامن والحراسة فى حدود ٥٦٥٠ جنديا ، من بينهم ١٣٥٠ للقاهرة والاسكندرية ، والباقون للمديريات ، مع افتتاح مدرسة خاصـــة بهم يتدربون فيها على الفنون والحركات العسكرية .

وفى ٨ يناير ١٨٨٣ صدر الامر بتعيين بيكر باشـــا مفتشا عاما للجندرمة .

ووجد دوفرين ان البوليس مكون من شراذم من الاتراك الاناضوليين ومن الالبانيين الذين لايحترمون عادات البلاد ، ولا يتفاهمون بلغة سكانها ، فاقترح أن يعهد بالمحافظة على الامن فى المدن الرئيسية الى بوليس مدنى يؤلف من الف وستمـــائة شرطى ، بينهم ٥٩٦ أوربيا ، وان يتم توزيع الشرطة الاوربيين على الاحياء وفى الشوارع الافرنجية فى العاصمة والموانى .

وقال : ان اعتماد الحكومة المصرية على بعض العناصر الاوربية فى البوليس مما يزيد من سطوتها ورهبتها ، ويوطد ثقة الاجانب فيها ، على أن تكون مرتبات الضباط والشرطة الاوربيين اكثر من مرتبات اقرانهم من المصريين .

وكذلك اقترح ان يكون رجال الجندرمة والبوليس تحت اشراف وأوامر مفتش عام انجليزى ، ورياســة البوليس فى القــاهرة والاسكندرية لضابطين اوربيين ، مع الحق فى تعيين مساعدين لهما ، وان يلحق بدوائر الامن العام والبوليس فريق من الضباط الاجانب من ذوى الرتب الصغيرة ، فى حدود ٣٢ ضابطا .

وصدر الامر فى ٩ يناير ١٨٨٣ بتعيين دىلا سالا باشا مديرا عاما للبوليس يعاونه فريق من الضباط البريطانيين من الذين خدموا فى حكومة الهند .

تمت سيطرة المحتلين على البوليس والامن العام بعد ان صبغوه بصبغة دولية . فعمدوا الى فصل كبار الضباط المصريين من الخدمة، واستبدلوهم بشبان انجليز واوربيين لايعرفون عادات البلاد او اخلاق سكانها ولا يتفاهمون بلسانهم .

وانتزعوا ادارة البوليس من اختصاص وزارة الداخلية وقلدوها لمفتش عام انجليزى والقوا اليه بزمام الامن العام بحجة ان ترتيب البوليس فى ذلك الوقت لم يكن بنسبة الحاجة اليه .

واقام المحتلون مستشارا بريطانيا لوزارة الداخلية ، فاستهل عهده برحلة الى الاقاليم بحجة التعرف الى الحكام من المديرين والوقوف على حالة الامن ، وكان من نتائج هذه الرحلة انامر بفصل عدد كبير من المديرين ومأمورى المراكز الذين تبين له ان ميولهم غير موالية للاحتلال ، ووضع لائحة تقضى بان يتوقف انتخاب العمد ومشايخ القرى على تصديقه هو شخصيا ، وبذلك انتقلت الادارة الداخلية للبلاد الى ايدى المحتلين وفاق سلطان هؤلاء المستشارين والمفتشين سلطات الوزراء .

***

والمع التقرير الى نظام القضاء وعرض لانواعه المختلفة من قضاء شرعى ومختلط وقنصلى وذكر ان الحاجة ماسة الى وجود نوع رابع من القضاء وهو المحاكم الاهلية للفصل فى القضايا التى تقع بين المصريين ولا يدخل الاجانب فيها . ثم اشار الى لائحة ترتيب المحاكم الاهلية التى صدرت فى ١٧ نوفمبر ١٨٨١ دون ان يعمل بها ، ونصح بضرورة ادخال العنصر الاوربى فى المحاكم الاهلية المقترح انشاؤها ، فقد اجتمع راى الحكومة والاهالى على انه بدون ذلك لا يتاتى بث روح النزاهة والاستقلال بين القضاة الوطنيين ، كما يجب ان يستخدم فى منصب النائب العام للمحاكم الاهلية محام بريطانى مشهور .

واوصى بانشاء محكمة ابتدائية فى كل مديرية ، تؤلف من ثلاثة قضاة بحيث يكون احدهم اوربيا ، وان تنشأ محكمتان للاستئناف احداهما للوجه البحرى والاخرى الوجه القبلى ، وتشكل كل منهما من خمسة قضاة اوربيين وثلاثة وطنيين ، وان تكون رواتب القضاة

الاوربيين عالية ليتيسر الحصول على قضاة بارعين . ويشترط فيهم المامهم باللغة العربية بعد فترة زمنية محددة .

والى جانب المحاكم الاهلية يجب ان تقوم محاكم ادارية النظر فى القضايا التى يرفعها الافراد على الدولة وموظفيها . اما اختصاص المحاكم الاهلية فلا يتعدى النظر فى القضايا المدنية والجنائية على المصريين فقط . وليس من حقها النظر فى المنازعات المتعلقة بالدين العام او بأسس ربط الاموال الاميرية .

وفى ١٤ يونيو ١٨٨٣ صدرت لائحة ترتيب المحاكم وهى مقتبسة من لائحة ١٧ نوفمبر ١٨٨١ التى وضع موادها المشترع محمد قدرى ، ثم صدر على اثرها قانون التجارة والقانون التجارى البحرى ، وقانون المرافعات ، وقانون العقوبات . وقانون تحقيق الجنايات .

وعين سير بنسون ماكسويل نائبا عاما للمحاكم الاهلية . وبعد سنوات قدم جون سكوت لوضع تقرير شامل عن اصلاح نظام القضاء وعين فى الوقت ذاته مستشارا لوزارة العدل .

***

وعطف التقرير على الحالة الزراعية فذكر ان ثروة مصر ناشئة عن تربتها التى يتوقف خصبها على الرى فان مياه النيل المولدة للخصوبة تجلب كل سنة كنوزا عظيمة ولكن الجانب الاكبر من هذه المياه يذهب سدى الى البحر ولا ينتفع الا بقسم قليل منه تروى به الاراضى المجاورة لمجارى النيل . وليس من شك فى انه لو اتخذت طرق مستكملة مستوفاة للشروط العلمية فيما يتعلق بالترع والرى لامكن دفع مضار النيل فضلا عن ان الانتفاع بمياهه الغزيرة التى لا تنفد مواد خصبها ، وذلك بأن تمد بها الاراضى البور فتصبح ارضا خصبة وتزداد مساحة الاراضى المزروعة ويتضاعف ايرادها الى حد ان تصبح قروض مصر للاجانب شيئا يسيرا .

على ان الوسائل المستخدمة حاليا فى الترع والرى ليست لسوء الحظ كافية فان الاعمال الضرورية مهملة والسخرة لاتزال شائعة مما يعود بالمشاق على الفلاح ، فضلا عن ان الفقراء يتضررون

من عدم انصاف الموظفين الشرهين فى توزيع المياه عليهم .

وقد عرضت مشروعات كثيرة فيما يتعلق بشئون الترع فلم يتحقق بعضها ، لما نالته هذه المشروعات من مقاومة الاقطاعيين الذين راوا فيها امرا قد يدفعهم الى تغيير الآلات الرافعة للمياه المستخدمة فى تفاتيشهم الزراعية باخرى .

الى ان قال : ان الغش الحاصل فى توزيع مياه الرى يرجع الى سلطة المهندسين الاستبدادية ، والى ان بعض الباشوات يبيعون المياه للفلاحين ، وضرب المثل باقطاعى يبلغ ايراده من توزيع المياه بالآلات البخارية خمسة عشر الف جنيه سنويا . ولا شك ان امثال هذا الاقطاعى يقاوم تنفيذ ايه مشروعات جديدة للرى .

واشتملت مقترحات دوفرين على اصلاح الجسور اتقاء للغرق فى فترة الفيضان وتطهير افواه الترع الكبيرة ، وازالة ما يتجمع فى كل سنة من الاتربة فى مجارى جميع الترع .

ونصح الحكومة بأن تستعير مهندسا كبيرا من الذين مارسوا اعمال الرى فى الهند ـ نظرا لتشابه البيئة الزراعية فى كل من البلدين ، وان تمنح له سلطة كاملة فيما يتعلق بالصيانة واقامة المنشآت على ضفتى النهر وتوزيع المياه وترتيب اشغال الفعلة ، وتزويد الحكومة المصرية بمشورته ، وله ان يستعين بمهندسين وخبراء اجانب ليتمكن من النهوض بأعباء منصبه .

وعلى ذلك صدر الامر فى ١٥ مايو ١٨٨٣ بتعيين الكولونيل كولن سكوت مونكريف مفتشا عاما للرى ، واستقدم طائفة من مفتشى الرى الانجليز لمعاونته فى وضع انظمة للمراقبة والتفتيش والاشراف على توزيع المياه .

وعرض التقرير لمصلحة المساحة وذكر ان فائدتها ضئيلة ، وينفق عليها اموال طائلة من الخزانة العامة ، الى حدان الفدان الواحد تتكلف مساحته خمسين قرشا ، واشار بضرورة تعيين عدد من المهندسين والاخصائيين الاجانب ، يتولون الاعمال الفنية حتى يستطيع الفلاح ان يعرف الطريقة التى تقاس بها أرضه ، وعلى هذا القياس يتوقف توزيع الضرائب على قاعدة الانصاف ، وتم فعلا تعيين ضباط انجليز من جيش الهند فى مصلحة المساحة ، ولم يكن

هؤلاء الضباط يقنعون بوضع خرائط الاراضى بل كانت مهمتهم مزدوجة فهم يقيسون الاراضى الزراعية ويضعون الخرائط العسكرية لمصر ولحدودها وللبلاد المتاخمة لها لحساب ادارة المخابرات فى وزارة الحرب البريطانية .

وانتقل التقرير الى شرح الادوار التى مرت بها الدائرة السنية والدومين ، وقدر مجموع اطيانهما بحوالى المليون فدان ، وهى عبارة عن خمس الاراضى الصالحة للزراعة فى مصر ، وكانت فيما مضى ملكا للخديو اسماعيل واسرته ، وهى الآن مثقلة بالديون .

وتبلغ املاك الدائرة السنية ٤٨٥ر١٣١ فدانا ، وقد جمع الخديو السابق هذه الاملاك بطرق ووسائل مختلفة ، وقدرت الديون التى اقترضها على هذه الاطيان فى ١٢ يوليو ١٨٧٧ مع بيت جوشن وجوبرت مبلغ ٨ر٨١٥ر٤٣٠ جنيها ، ثم جاء قانون التصفية فى ١٧ يوليو ١٨٨٠ فآلت هذه الاطيان بموجبه الى الدولة وخفض مقدار الفائدة الى ٤ ٪ .

ويقع الجانب الافضل من اراضى الدائرة السنية فى الوجه القبلى ويزرع بالقصب ، وفيه مصانع للسكر وتكريره .

اما الدومين فهى اراضى حصل عليها الخديو اسماعيل وافراد اسرته بالطريقة نفسها التى حصل بها على املاك الدائرة السنية وتبلغ مساحتها ٤٣٥ر٧٢٩ فدانا ، وتنازل عنها الى الحكومة فى سنة ١٨٧٨ وجعلت ضمانا لقرض قيمته ٨ر٥٠٠ر٠٠٠ جنيه من بيت روتشيلد .

وعرض مشروعا يتضمن انشاء شركة مالية تقوم بتقسيم تلك الاراضى الى اجزاء مناسبة ، تباع للفلاحين بأثمان معتدلة تحصل الحكومة منها على مايفى بديونها .

وقد نفذ الاقتراح فبيعت اراضى الدائرة السنية الى شركة قسمتها الى اجزاء وطرحتها للبيع ، ودفعت الحكومة الديون المستحقة على هذه الاراضى وفاض من الثمن ماقسم بين الشركة والحكومة . وكذلك بيعت اراضى الدومين بالطريقة نفسها .

وعرج التقرير على حالة الفلاح وابان ان الدائن لم يكن له فى الايام السالفة الحق فى حجز املاك مدينه وبيعها وان الشريعة الاسلامية لاتعترف بالحكم الغيابى ، ولكن المحاكم المختلطة منذ انشائها فى سنة ١٨٧٥ حركت فى الفلاح الميل الى الاستدانة برهن اطيانه الى

المرابين الاجانب ، كما ضمنت للدائن حقوقا واسعة النطاق فى بيع الاطيان المرهونة ، فنشأ من ذلك ان ديون الفلاحين قد تضاعفت فى بضع سنوات . ويتبين من سجلات المحاكم المختلطة ان قيمةالرهون المسجلة من عام ١٨٧٦ الى عام ١٨٨٢ بلغت سبعة ملايين من الجنيهات ، وان جانبا عظيما من هذا المبلغ يشمل السلف والفوائد التى تبلغ ٣٦٪ سنويا .

وصور التقرير الفلاح المصرى على انه رجل قلما يهتم بمستقبله بل هو كالطفل يميل الى ارضاء شهواته باى وجه ، فمن اجل ذلك تراه ينقاد بحكم الجهل الى عقد قروض تؤدى به الى الخراب ونزع الملكية من يده .

وفى ٣٠ يونيو ١٨٨٢ بلغ الدين برهن على اربعمائة الف فدان مبلغ ٥ر٨٢١ر٩١٢ جنيها ومتوسط الفائدة ١٦٪ .

واقترح دوفرين صيانة لاطيان صغار المزارعين منع البيع الجبرى وفاء للدين ، فى مقدار محدود من اطيانهم ، يبقى محفوظا لهم ، ليقوم بأود المالك ، وانشاء بنوك زراعية فى جميع المديريات ، يسهم فى راس مالها ذوو الثروة لتمد المزارعين بالقروض بفائدة ١٢٪ ولا تتجاوز السلفة ٧٥٪ من قيمة الاطيان المرهونة .

***

وتحدث التقرير عن الضرائب فذكر أن مجموع الضرائب السنوية يبلغ قرابة خمسة ملايين جنيه يدفع معظمها من قروض يعقدها الفلاحون مع المرابين ، وهى تختلف بين ستين وثمانين قرشا عن كل فدان ، ولا يجرى توزيع الضرائب على قاعدة الانصاف لانه مبنى على نظام عتيق يعود الى اكثر من نصف قرن حيث اتبع فى اعمال المساحة اساليب غير دقيقة .

وهناك ضرائب غير مقررة تجبى من عشور النخيل ومن زراعة الدخان وعوائد السواقى واموال سيوه وعوائد الاغنام وهى ضرائب غير مبنية على قواعد ثابتة يدخلها الغش وتبلغ ١٧٠ر٠٠٠ جنيه فى السنة .

وقدر التقرير الاطيان العشورية بنحو ١٢٠٨ر٠٠٠ فدان والخراجية بنحو ٣ر٤٠٦ر٤٨٠ فدانا .

وطالب بمنع السخرة التى هى من آفات مصر الكبرى وبرجع

منشؤها الى ستة آلاف سنة ، ولذلك يتعذر القضاء عليها قضاء مبرما لا سيما ان الحكام يرونها ضرورية لاقامة السدود فى زمن الفيضان ، غير انه من الميسور تخفيف عبئها بقدر المستطاع بتنظيم طرق العمل .

وتناول مركز الموظفين الافرنج فى الحكومة فذكر بأن عددهم يزيد زيادة فاحشة عن حاجة العمل فى المصالح والدواوين وذلك بسبب تفشى داء المحسوبية .

وقدر عدد جميع الموظفين بنحو عشرين الف موظف ومجموع مرتباتهم مليون ومائتى الف جنيه سنويا ، نصفهم موظفون فى المصالح الادارية والاخر مؤلف من صغار المستخدمين والعمال . ومن الفئة الاولى ٨٪ اوربيون مجموعهم ١٠٥٤ موظفا ومتوسط مرتب الواحد منهم ٢٨٣ جنيها سنويا .

ولمعالجة هذه الحالة يلزم تشكيل لجنة يعهد اليها بدراسة حالة هؤلاء الموظفين وانتخاب الاصلح منهم لادارة الاعمال وتحديد شروط الترقية الى الوظائف العليا ، وتعديل لائحة المعاشات على وجه يتفق وحالة الخزانة العامة .

وتكلم عن التعليم ومدارسه ومناهجه فذكر بأنه يوجد ١٢٧٫٠٠٠ تلميذ فى المدارس الابتدائية و٤٦٦٤ تلميذا فى المدارس الثانوية و٨٠٠٠ طالب فى الازهر و ١٢٫٠٠٠ طالب فى المدارس الاجنبية . وذلك بخلاف الموجودين فى المدارس العالية .

غير ان مناهج التعليم لاتفى بالمطلوب ، فان المدرسين يحرصون على تمرين الذاكرة نظريا دون بقية القوى العملية فتقوى الحافظة ويضعف الفهم والفكر . ولابد من وضع برامج جديدة وافية ، وتنظيم مدرسة الالسن ليمكن الحصول على مترجمين اكفاء ،وانشاء مدرسة زراعية ، واستخدام مفتشين بارعين يشرفون على سير التعليم ويتولون مراقبته ، وتلقين الاطفال العامية وليس لغة القرآن

وقد نفذت الحكومة كثيرا من هذه الاقتراحات .

***

وافرد التقرير فصلا خاصا بنظام الحكم حمل فيه حملة شعواء على مبدأ الدستور والحياة النيابية فى مصر ، فزعم بأن الديمقراطية لايمكن ان تترعرع فى بلد الف الاستبداد منذ قرون بعيدة ، ومن المقرر أن الشرق ليست فيه بذور للحرية النظامية ، فان الاستبداد

لايميت بذور تلك الحرية فحسب بل يجعل الارض التى يحل فيها غير صالحة للانبات ، وكل امة قضت زمنا مديدا فى الرق والاستعباد تطلب بالطبع ان يسود عليها من كان ذا يد قوية ولا ترغب فى ادارة نظامية لا تستخدم القوة او الغلظة ، ولو تولى شئونها حاكم على جانب عظيم من اللين والدعة لازدرته ونبذت طاعتـــه ، بدلا من ان تقابله بالشكر . وهذا القول لم تظهر حقيقته فى بلد اكثر من ظهوره جليا فى مصر ، وقد اصاب من مدح استخدام الــكرباج من حيث كونه الوسيلة الوحيدة للحصول على ادارة حكيمة ناجحة . وليس فى وسع بريطانيا — راعية مبادىء الحرية والحياة الدستورية — ان تدعم سياسة الاستبداد التى سارت عليها مصر منذ قرون ، ولكنها ستبذل قصارى جهدها فى مساعدة الفلاح على ايجاد الاشخاص الصالحين الذين يمثلون مصالحه .

وحاول دوفرين ان يشكك المصريين فى كل ما يمكن ان يقـــوى الروح القومى فى نفوسهـــم ، فوصف مجلس نواب ١٨٨١ بانه لم يكن يمثل الجبهة الشعبية ، لانه كان مؤلفا من الاقطاعيين والراسماليين اى من اشخاص لايكترثون بمصالح الفلاح بل هم يجتهدون فى تعطيلها والاضرار بها ، ومن غوغاء يتفشى الجهل بينهم بحيث لا يمكنهم مناقشة المشروعات واستيعاب المسائل المالية ، مع ان الواجب علينا الاهتمام برفاهية الفلاحين الذين يكدحون ويعملون فى اخلاص .

الى ان قال : اننى اخشى ان النظام النيابى مهما كان محكما فان المصريين لايقوون على اثبات استقلالهم من جهة الراى نظـــرا الى تعودهم على الخضوع والاذعان وتسلط الجهل عليهم وفشلهم فى تاليف حكومة شعبية .

وخطر لدوفرين ان يستطلع راى عرابى — بوصفه الزعيم الحق للبلاد — فى الدستور والحياة النيابية ، فطلب اليه فى ١٥ ديسمبر ١٨٨٢ عن طريق محاميه برودلى ان يبدى رايه فى الاصـــلاحات المطلوبة للنهوض بمصر ، فكتب اليه يقول :

« ان الحاكم على مصر يجب ان يكون محدود السلطة ، مقيـــدا بالدستور ، وينبغى انشاء مجلس نواب ، على ان يكون الانتخـــاب حرا ، وان تعرض على المجلس جميع اللوائح والقـــوانين الادارية والاقتصادية ، ويمنح أعضاؤه الحرية التامة فى المداولة وابداء الراى

بصراحة ليتمكنوا من حفظ حقوق منتخبيهم ، وحينئذ تكون قرارات مجلس النواب قطعية والوزراء مسئولين امام المجلس .

واوصى عرابى بوضع قاعدة عامة بين سكان مصر بحيث لايمتاز الاجنبى على الوطنى فى جميع المعاملات وانواع الضرائب والرسوم .

ووضع حد للمرابين لمنعهم من استخدام الغش بقصد سلب اموال المواطنين ، ووقف المزارعين عند حد فى الحصول على سلفيات بفوائد باهظة .

وتسوية ديون المزارعين وتوحيدها وتسديدها الى الدائنين على اقساط مناسبة بوساطة الحكومة ، على ان تسدد الى الحكومة مع اقساط الاموال الاميرية .

وابطال ضرائب الويركو والفردة والدخولية وجميع المكوس التى اضرت كل الضرر بالفقراء والمساكين .

وكذلك منع السخرة بوصفها من بواعث التاخر فى شئون العمران وتشتيت شمل الفقراء الذين لاقوت لهم من كد ايديهم وعرق جبينهم ، على ان يتم شهر عمليات تطهير الترع والمصارف وحفظ جسور النيل فى زمن الفيضان فى مناقصات عامة بين المقاولين .

ويجب توحيد القوانين القضائية فى جميع المحاكم ومراعاة تنفيذها بغاية الدقة دون تدخل ذوى السلطة فى تأويلها مع ابطال المحاكم المختلطة التى اضرت بالوطنيين ، وكانت سببا فى مساعدة المرابين على تجريد كثير من الوطنين من اطيانهم واملاكهم .

وان يقتصد فى استخدام العنصر الاوربى فى وظائف الدولة مع تسوية رواتب الموظفين الاجانب بغيرهم من ابناء البلاد .

واشترط عرابى ان تكون قناة السويس حرة بكفالة الدول الموقعة على معاهدة برلين ، وفى مقابل تنازل مصر عن حقوقها الصريحة فى ذلك يعوض لها مبلغ كاف يعادل هذا التنازل لتسدد به جانبا من ديونها ومع ذلك يبقى لمصر حق فيها كباقى الدول ، وعلى هذه الدول ان تدفع مبلغا سنويا يكون كافيا للقيام بحفظ وصيانة القناة .

وتناول عرابى مشكلة التعليم فأوصى بتعميمه وان يكون اجباريا حتى سن الخامسة عشرة .

واختتم مقترحاته بضرورة انشاء تمثيل ديبلوماسى لمصر فى عواصم العالم .

لم يعبأ الانجليز بما ورد فى الشق الاول من هذه المقترحات . اى فيما يمس الدستور والحياة النيابية بل مضـــوا فى سياستهـــم الاستعمارية على هدى ما اقترحه دوفرين من انشاء مجالس نيابية مكونة من اشخاص محدودة العدد مختارين ، وذلك لمساعدة الوزراء فى تحضير مشروعاتهم وانارة الطريق امامهم ، فاستبـدل بمجلس النواب نظام يقوم على وجود ثلاث هيئات تشريعية ليس لهـــا من النفوذ والسلطة ما للمجالس النيابية الاخرى . وهذه الهيئات هى : مجلس شورى القوانين ، والجمعية العمومية ، ومجالس المديريات . ولم يكترث الشعب لانشاء هذه المجالس التى جاءت اقـرب الى الصور الممسوخة . ولم يتحمس لانتخاب اعضائها الذين كانوا اشبه بدمى يحركها القصر احيانا والمحتلون فى احيان اخرى ، ولم يـكن لهؤلاء النواب صوت مسموع فى المسائل العليا المتعلقـــة بسياسة الدولة .

وفى اول مايو ١٨٨٣ صدر مرسوم خديو بالقانون النظامى لانشاء مجلس شورى القوانين ، والجمعية العمومية ، ومجالس المديريات .

لم يكن مجلس شورى القوانين الذى تمخضت عبقرية الاستعمار عن تاليفه هو الذى ثار الشعب وكافح وجاهد من اجـله عشرات السنين ، بل جاء صورة ممسوخة من المجالس النيابية التى عرفتها مصر فى ادوار حياتها السياسية فى عهود الحكم الاستبدادى المظلم ، واصر المحتلون على عدم منحه سلطات قوية ، لانهم على حد قولهم : يخافون على مستقبل البلاد ويخشون قيام ديمقراطية لم تتهيـا البلاد لها بعد .

كان مجلس شورى القوانين مؤلفـا من ثلاثين عضـــوا ، تعين الحكومة اربعة عشر عضوا منهم بما فيهم الرئيس واحد الوكيلين ، ثم اعضاء « منتخبون » وعددهم ستة عشر عضوا ، ومنهم احـد الوكيلين ، ومدة النيابة ست سنوات .

ولم يكن للمجلس سلطة ما عليا ، وانما تعرض عليه التشريعات التى تنوى الحكومة ان تسنها . ويستشار اعضاؤه فيها ، ولا يجوز اصدار اى قانون او امر يشتمل على لائحة عامة مالم يتقدم بهابتداء الى المجلس لاخذ رايه فيه ، وان لم تعول الحكومة على رايه فعليهـا ان تعلنه بالاسباب التى أوجبت ذلك ، وانما لايترتب على اعـلانه بهذه الاسباب جواز مناقشته فيها . ويجوز لكل مصرى تقـديم

عرائض للمجلس للنظر فيها ويحكم بقبولها او رفضها .
وللاعضاء الحق فى ابداء الرأى فى ميزانية الدولة عدا الجزية والدين العام ، والتزامات الحكومة بشأن قانون التصفية ، واشترط ان تكون جلسات المجلس غير علنية ، ويجتمع ست مرات فى السنة باعتبار مرة واحدة كل شهرين .

ولعل اصدق ماوصف به مجلس شورى القوانين ذلك الوصف الذى دونه محرر « الاهرام » عن جلسة من جلساته اذ قال :

« لولا فخامة البناء وضخامة المقاعد وكثرة الحجاب والكتاب لكان وصفه بحلقة من حلقات شيوخ القبيلة ، وفى احدى خيام العشيرة أحسن تعبير . انهم يخضعون للحق اذا بدا ، ويقبلون العذر اذا بسط ، ويغمضون الجفن على الاذى ، وانك لترى احدهم يعود عن رأيه لا اقتناعا ولا خضوعا لحكم الاغلبية وانما حسما للنزاع » .

والى جانب مجلس شورى القوانين قامت « الجمعية العمومية » وهى هيئة تشريعية تتكون من الوزراء واعضاء مجلس شورى القوانين ومن اعضاء آخرين عددهم ستة واربعون عضوا ينتخبون عن العواصم والاقاليم بحيث يكون مجموعهم ٨٢ عضوا ومدة نيابتهم ست سنوات ، وتجتمع الجمعية مرة واحدة كل سنتين بأمر من الخديو الذى له حق فضها ، وجلساتها سرية .

واشترط فى العضو ان يكون ملما بالقراءة والكتابة ، فوق الثلاثين من العمر ، وان يدفع ضريبة عن عقار او ارض زراعية لاتقل عن عشرين جنيها سنويا منذ خمس سنوات .

ولا تتعدى سلطة الجمعية العمومية تقرير ضرائب جديدة وان تجرى استشارة الاعضاء فى عقد قروض ، وانشاء او ابطال ترع وخطوط حديدية والنظر فى فرز الاطيان لتقدير قيمة الاموال المربوطة عليها ، وللاعضاء ان يبدوا آراءو مقترحات بمشروعات لا تتقيد الحكومة بتنفيذها كالمواد المتعلقة بالثروة العامة والامور الادارية او المالية .

اما مجالس المديريات فهى هيئات اقليمية تستشار فى المسائل المحلية الخاصة بمصالح المديريات ، ويرأس كلا منها مدير الاقليم ، ولها الحق فى تقرير رسوم تنفق فى المنافع العامة ، كما ان لها ان تبدى رغباتها فى المسائل المتعلقة بالتعليم والزراعة ، ولكن قراراتها

لا تكون قطعية الا بعد تصديق السلطات الحكومية المختصة عليها .

واشترط فى عضو مجلس المديرية ان يكون ملما بالقراءة والكتابة، فوق الثلاثين من العمر ، ويدفع ضرائب عن اطيان او عقار قدره خمسون جنيها على الاقل فى المديرية نفسها ، ومدة العضوية ست سنوات ، ويتغير نصف الاعضاء كل سنوات ثلاث بطريقة القرعة ، وجلسات هذه المجالس سرية ، وهى تجتمع مرة فى كل سنة بدعوة من المدير بناء على قرار وزير الداخلية .

***

وبعد ان تناول التقرير مسالة السودان وتجارة الرقيق والمواد الجنائية فى المحاكم المختلطة ، وتعديل المعاهدات التجارية المعقودة بين مصر والدول الاخرى ، وتقرير الضرائب على الاجانب ، وتعيين وكلاء للحكومة فى الخارج ، وتحليل ميزانية الدولة ، خلص من ذلك الى ان قال : على الرغم من ان التاريخ اشتمل على ادلة تثبت صعوبة ايجاد حكومة عادلة فى مصر ، الا ان مصر قابلة للاصلاح وللاستقلال .

اذا مانفذت بدقة هذه المقترحات ، وان جانبا كبير مما شرحناه يجب ان يشرع فى تنفيذه حالا خصوصا ما يتعلق بالمحاكم الاهلية والنظم النيابية ، وان الحكومة قد تعجز عن القيام بتلك المشروعات مالم يرشدها ويساعدها خبراء اجانب .

***

وجدت آراء دوفرين استجابة من الخديو على الرغم من ان روح التقرير توحى بتحويل مجرى السلطة من القصر الى دار الوكالة البريطانية ، واخراج اداة الحكم من ايدى الحكام العثمانيين الى ايدى المحتلين ، الا ان الخديو وجد فى التقرير منفذا للابقاء على طبقة الاغراب المتمصريين وعدم مس امتيازاتهم بسوء ، لان هذه الامتيازات كما وصفها دوفرين فى حديث له : ميراث الماضى وثمرة جذور بعيدة الغور فى المجتمع المصرى .

انتهت مهمة دوفرين فى مايو ١٨٨٣ فلم يشأ ان يزايل مصر قبل ان تنفذ الحكومة المسائل المتعلقة بالجيش وبالنظم النيابية وتنشر القوانين المتعلقة بها ، ثم عهد بالاشراف على تنفيذ بقية المسائل الى افلين بارنج الذى عرف فيما بعد باسم « لورد كرومر » ومنحه من السلطات مايفوق سلطة الخديو .

وبدات العناصر الدخيلة تزحف لاقتناص الفرص وسلب مصر ما تبقى من ثروتها ، بالتملق الى المحتلين وارضاء نزواتهم ، وكانت اولى هذه المناورات ، اجبار الحكومة على دفع تعويضات سخية عن الخسائر والاضرار التى لحقت بممتلكاتهم من جراء مذبحة الاسكندرية فى ١٠ يونيو ١٨٨٢ وحادث احراقها فى ١٢ يونيو ١٨٨٢ مع ان المسئول عن المذبحة والحريق هما الحكومة البريطانية والخديو .

وجرت مناقشات حامية الوطيس فى مجلس العموم البريطانى بشأن هذه التعويضات ، ورات فرنسا والمانيا عدم اختصاص المحاكم المصرية بالنظر فى مسالة التعويضات ، وانتقال هذا الاختصاص الى لجنة دولية .

وفى ١٣ يونيو ١٨٨٣ اصدر الخديو امرا قال فيه :

« بناء على ما عزمنا عليه سابقا من التعويض على المصابين بحوادث الهيجان التى جرت فى مصر منذ ١٠ يونيو ١٨٨٢ ، وبناء على موافقة مجلس نظارنا نامر بما هو آت :

١ ـ انشئت لجنة دولية يحق لها دون سواها النظر فى قضايا المصابين بالحوادث التى تعاقب وقوعها فى القطر المصرى منذ ١٠ يونيو ١٨٨٢ وأن تفحص مطالبهم وتقرر رفضها او تعين قيمة التعويض عنها .

٢ ـ لايصيب التعويض الخسائر غير الصريحة ولا النقود او الجواهر او الاشياء الفضية او غيرها مما يشاكلها من ذوات القيمة كالانتيكة وخلافها ، والسندات وغيرها ، واجارات المحلات والمحاصيل ، ولكن مع ذلك يصيب الجواهر والامتعة والاشياء الفضية والحاجات ذات القيمة كالانتيكة اذا كانت هذه الاشياء مودعة بالمخازن برسم البيع او مرهونة تحت سلفة وكان لها قيد

فى الدفاتر التجارية او الاوراق المعتمدة بتاريخ معلوم مقـــرر . ويمكن ايضا لارباب المحاصيل ان يطلبوا تعويضا اذا كانت المحاصيل المختصة بهم قد ضبطها العصاة توا او عطلوها تعمدا .

اما التعويض عن الابنية فتقاس قيمته على ما كانت تساوى تلك الابنية قبل فقدها .

٣ ــ تم الاتفاق مع الدول على ان تؤلف لجنة على الوجه التالى :

يعين من قبل الحكومة المصرية عضوان هما الرئيس ونائبـــه . وعضو واحد عن كل من : المانيا والنمسا وفرنسا وبريطانيا وايطاليا وروسيا وامريكا واليونان . ويكون لكل من حـكومات بلجيكا والدنمرك واسبانيا وهولاندا والبرتغال والسويد والنرويج عضـو واحد ينتخب باتفاقها .

٤ ــ تؤخذ القرارات باغلبية الاصوات ، وللجنـــة حق فحص القضايا وتقريرها . ولها مطلق السلطة بتحرى الطلبات التى تعرض عليها والاستعانة بالاشخاص الذين يتبين ان مساعدتهم مفيد لها »

انهالت طلبات الاجانب على اللجنة بمجرد تاليفها ، ومعظمهـــا طلبات مزورة ، بالغوا فيها فى تقدير التعويضات ؛ فقد رأوا الفرصة سانحة للكسب والاثراء .

واستطاعت اللجنة ان تنجز اعمالها فى يناير ١٨٨٤ ، وصـارت تنشر كل خمسة عشر يوما بيانا بمبالغ التعويضات التى قررتهـا ، وبلغ مجموعها اربعة ملايين وربع مليون جنيه ، واوصت بأن تدفع فى الحال المبالغ التى لا تتجاوز المائتى جنيه .

وكانت الخزانة العامة خاوية الوفاض ، فعقدت الحكومة قرضا مع بنك الانجلو اجبشيان بمبلغ ثلاثمائة الف جنيه لدفع التعويضات الصغيرة ، اما المبالغ الجسيمة فقد اصرت حكومة لنـــدن على ان تخفض بمقدار ١٥٪ من اصل التعويضات بعد ان شعـرت بالغبن الفادح الذى تتحمله مصر من جراء الزامها بدفع مبالغ خيالية .

السودان والثورة

الوحدة بين شطرى الوادى ـ الشمال والجنوب يتقاسمان المحن والآلام ـ حياة المهدى ـ اعلان الجهاد ـ الفريق عبد القادر حلمى ـ كارثة مصر فى معركة شيكان .

منذ ان قامت على جنبات الوادى جماعات بشرية ، وحياة سكانه مرتبطة بوشيجة قوية من الدم واللغة والثقافة والدين والمصالح الاقتصادية المشتركة ... وبدت مصر والسودان فى الاسرة الدولية كوحدة سياسية مستقلة .

وبذلت مصر قصارى جهدها فى نشر السلام والامن فى ربوع السودان ، وادخلت اشعاعات من الحضارة والمدنية ، وطبقت فى الجنوب القوانين والنظم الاقتصادية والثقافية المعمول بها فى الشمال وامتزج الشعبان امتزاجا تاما عن طريق الزواج والمصاهرة .

كان السودان الى ما قبل الاحتلال البريطانى عبارة عن امبراطورية متسعة الارجاء ، يمتد جنوبا الى خط الاستواء ومنابع النيل ، وتطل حدوده الشرقية على البحر الاحمر وخليج عدن ، وتسير بمحاذاتها الى شواطىء المحيط الهندى ، وكانت مساحة هذه الرقعة المترامية الاطراف من منبع النيل الى مصبه تبلغ زهاء خمسة ملايين ونصف مليون من الكيلو مترات المربعة ، تشمل مصر والسودان نحو ثلثيها ، والباقى موزع بين اوغندة وكينيا وتنجانيقا والكونغو ، وهى بلاد اقتطعها الاستعمار من جسد الوادى واستولى عليها .

والواقع انه منذ ان نشرت مصر فنون الحضارة والمدنية فى ربوع السودان ، تسابق المستعمرون الى منابع النيل بقصد السيطرة على مورد الحياة للبلدين الشقيقين ، وقد تنبهت مصر الى الخطر ، فبادرت الى انقاذ الموقف للمحافظة على هذا الشريان الحيوى وعلى وحدة الشعوب النيلية ، ومجابهة الغاصب بشعب قوى متحد فى الشعور ، متفق فى الغاية ، روحه النيل وجسده الوادى .

عملت مصر على افساد خطط المستعمرين ، وقاست الكثير فى سبيل تامين حياتها وحياة السودان ومنابع النيل ، حتى خرجت من معركة الحياة ظافرة بتحقيق وحدة الوادى . ولكن الاستعمار لم يترك مصر وشانها بل لا بد ان يطاردها مطاردة الذئب للحمل ، فيفسد على السودان نظمه وعاداته وتقاليده ويسلبه حريته ووجوده .

طفقت دول الاستعمار اذن تراقب حركات مصر الفتية ، متحينة الفرص لتخريب ما عمرته ، وتقويض ما شادته ، وتحاول طمس اضواء هذا الفجر الوليد الذى اشرق من القاهرة على جميع اراضى النيل . فبدات تتدخل ، واخذت توجه الضربات تلو الضربات الى مصر حتى اثخنت واثخن الوادى معها جراحا ، واخذ السودان يتطلع بعيون كليلة الى مصر الجريحة لعلها تحميه ، فوجد انها لن تقاوم كثيرا بسبب تفشى الفساد والانحلال والخيانة .

لم يكن السودان باسعد حالا من مصر فى ظل اسرة محمد على ، فتقاسم الشعبان المحن واشتركا فى الآلام ، وعندما كانت مصر تخوض غمار ثورتها الوطنية الكبرى بقيادة احمد عرابى ، اخذ السودان يضطرم بثورة اخرى بزعامة محمد احمد المهدى ، وكانت كل من الثورتين تنذر باخطار جسيمة .

كان المهدى يتتبع تطورات الثورة فى الشمال ، ويدرك انجوهرها ومرماها هو اخراج مصر من حكم الارهاب الذى تفرضه اسرة محمد على بالاستناد الى الرجعية والاستعمار .

شعر السودانيون بأن الخديو وضع مصيرهم فى ايدى طبقة من الاغراب والاجانب — هم طلائع الاستعمار — وان وطنهم امام عمليات اغتصاب ستجتاحه ، فاصبحوا ينظرون بعين القلق كلما راوا هؤلاء الاجانب الذين لا تربطهم بهم وشيجة من الدم او الدين ينتشرون فى ربوعه بوصفهم علماء مكتشفين او مبشرين دينيين او مديرين وحكاما ، ويتصرفون فى بلدهم تصرف السيد المطلق ، كأنه ملك لهم ، وانهم بسبيل اعداد مقبرة لتدفن فيها مصر والسودان معا.

كان هؤلاء الحكام خليطا من الاتراك والجراكسة والارناؤود والافرنج ، وكانوا يستعينون بجنود من الباشبوزق الذين لفظتهم

مصر ، فأثاروا روح الكراهية والمقت بمظالمهم وسوء معاملتهم افراد الشعب ، وفرضهم الوانا من الضرائب واشاعة السخرة ، واثقال الكواهل بالغرم والتكاليف .

وكانت الادارة الاوربية تعمل على محاربة العنصر العربى فى الوظائف الحكومية ، والسعى الى فصل جنوب الوادى عن شماله ، وتشن حملات شعواء على النخاسة ، وتتشدد فى تطبيق منع الاتجار بالرقيق .

وكان النخاسون فى السودان من طبقة السادة ، يقابلهم فى مصر الاقطاعيون الزراعيون ، فلكل منهم انصار واتباع ومناطق نفوذ واسعة ، واعوان وجنود مسلحون .

وكذلك نجح الحكام الاجانب فى خلق طبقة قوية اخرى ناقمة على الحكم المصرى ، بالايعاز الى الحكومة باحتكار تجارة العاج ، وهو مصدر ربح وفير لكبار التجار ، ومورد رزق لالوف السودانيين .

ثم جاء الاحتلال البريطانى وفى اثره الفساد والانحلال ، فاضعف من هيبة الحكومة المصرية ، وكسر شوكتها ، وحد من نفوذها ، وجرد الجيش المصرى من عتاده ، وكانت قيادة هذا الجيش فى السودان مفككة ، وتضم ثلاثة وثلاثين الف جندى ، على رأسها محمد رءوف باشا ، وكان حاكما ضعيفا مترددا ، مجردا من الكفاية تعوزه القيادة الصحيحة وحب النظام ، وفى الاجمال كان ظل الخديو توفيق فى السودان .

ثار السودان على هذه الاوضاع قبل ان يقع فريسة سهلة ، وانفجرت مراجل الغضب دفعة واحدة ، فظهرت بوادر الثورة فى غضون عام ١٨٨١ ، واصطبغت فى بادىء الامر بالصبغة الدينية ، ثم لم تلبث ان خرجت من هذاالحيز الى دعوةشاملة للكفاح والنضال

فثورة السودان هى صدى لثورة مصر ...

قامت كل منهما على مناهضة الظلم والاستبداد ، والمطالبة بحقوق الشعب ، ولم يكن هدفها الخلاص من مصر ، بقدر ماكانت ترمى الى التخلص من النفوذ الاوربى الذى استفحلت شروره .

كان زعيم الثورة محمد احمد المهدى يعطف على عرابى ويقتدى به ، ونهى اتباعه ساعة سقوط الخرطوم فى ايديهم عن قتل جوردون لانه يريد ان يفتدى به احمد عرابى .

وقد عبر ونستون تشرشل فى كتابه « حرب النهر » عن هاتين الثورتين بقوله : « ان اهل شمال النيل وجنوبه كانوا فى البلوى سواء : تطلع سكان الشمال الى زعيم دينى ينقذهم مما كانوا فيه فى صورة زعيم عسكرى هو احمد عرابى ، وتطلع سكان المنبع الى زعيم ينقذهم مما حل بهم فوجدوه فى صورة زعيم دينى هو محمد احمد المهدى » .

وكان جمال الدين الافغانى ينظر الى ثورة السودان نظرة اكبار واجلال ، فهى عمل متمم للخطة التى رسمها للشرق للتخلص من الاستعمار واعلاء شان المسلمين ، لذلك سعى جهده الى نشر الدعاية للمهدى فى المجتمعات السياسية وعلى صفحات الصحف فى عواصم العالم الحر .

اما تلميذه محمد عبده فقد حدد موقف شعب مصر من هذه الثورة ، فى رده على سؤال وجهه اليه مندوب صحيفة بول مول جازيت عندما زار لندن فى عام ١٨٨٤ فقال : لاخطر على مصر من حركة المهدى وانما الخطر فى وجودكم انتم فيها ، وانكم اذا غادرتم مصر فان المهدى لايرغب فى مهاجمتها ، ولن يكون فى هجومه ادنى خطر لانه محبوب من الشعب المصرى الذى يرى فيه المخلص لهم من الاعتداء الاوربى . وسيرحبون به عند قدومه .

واستطلع لورد روزبرى رأى عرابى عندما زاره فى منفاه فى كولمبو فى نوفمبر ١٨٨٣ ، فأجابه : ان كل من يدعو الى الخير والاصلاح هو مهدى ولكنه ليس المهدى المنتظر . ويكفى ان يكون على راس حملة الانقاذ هيكس باشا الانجليزى ليحكم المهدى بكفر المصريين الذين يقاتلون اخوانهم المسلمين تحت قيادة اوربية مسيحية ويستبيح قتلهم بسبب هذه القيادة .

وقد صح ماتوقعه عرابى ، وهلكت حملة هيكس عن آخرها .

***

والسيد محمد احمد المهدى سليل قبيلة عربية من الاشراف الحسينيين كانوا يسكنون بين اسوان ودراو فى منطقة تدعى « الخناق » ، ثم نزحوا الى السودان واستقروا فى جنوب مدينة دنقلة فى جزر لبب وضرار وغيرهما من الجزر والقرى ، فاطلق عليهم

اسم وطنهم الاصلى الخناق ، وفى جزيرة لبب ولد محمد احمد المهدى فى ١٢ اغسطس ١٨٤٤ من والد يعمل تجارا فى السفن .

مال المهدى منذ نشاته الى حياة العبادة والتنسك ، فانصرف الى حفظ القرآن الكريم والتفقه فى علوم الدين على بعض الشيوخ العارفين امثال : الشيخ الامين الصويلح بالجزيرة ، والشيخ محمد الخير تجاه بربر ، واشتهر بين اقرانه وعند مشايخه بالتعلق بالورع والتصوف حتى بلغ من امره ان اهله اذا تاخروا فى ارسال الزاد اليه رفض تناول طعام الآخرين خوفا من يكون قد دخله حرام ،ولجأ الى اصطياد السمك فلا يظفر منه الا بالقليل اذ كان يرى ان وضع الطعم للسمك غش ، ويستمر على هذه الحالة الى ان يصله القوت من اهله .

وهكذا عشقت نفسه التصوف ، وكأن ما انغمس فيه الناس من الشهوات وتغافلهم عن الهوة التى يترنحون عليها هى التى قادتهم الى استعباد الاوربيين والاغراب لهم . كل ذلك جعل نفسه لاتجد راحتها فى الحياة فتحلق فى السماء باحثة عن الاستقرار الروحى ، فيعالج هذه النفس بكثرة الاعتكاف وطول التامل والتفكير العميق. واخيراً عثر على ضالته الحقيقة ـ فوجدها وراء الحياة وليس فيها ، ولا يحجبها عن الناس سوى الاعراض الزائلة ، فاذا استطاعت النفس الصافية ان تمزق هذه الحجب وجدت الانوار الالهيةمنبثقة من المعانى الكونية الخالدة . حينئذ خلع المهدى هواه واعتصم بالايمان الذى اصبح الطاقة المخزونة فى قلبه ، والقوة المحركة التى جعلت منه رجلا لا يقهر .

قصد المهدى شيخا من كبار العارفين هو محمد شريف نور الدايم وسلم نفسه اليه ليصقلها ويجردها من ظلام الاكوان حتى تصبح صالحة للمهمة الخطيرة التى تنتظرها ، واخذ التلميذ يبذل ما فى وسعه تقربا الى استاذه حتى يظفر بمحبته ، فكان يقوم لهبالاحتطاب والطحن والطبخ والسقاية لا بسبب قلة الخدم وانما تفانيا فى الاخلاص والولاء . ولما وجد الشيخ ان غرسه قد اينع صار يرمق تلميذه بنظرات الحب والاعجاب كلما صادفه مختليا ، مستغرقا فى صلاته ، يبكى بكاء مرا حتى يبلل وجهه بالدموع .

اصبح التلميذ استاذا وعرف الطريق الى الله ...

فالبسه شيخه خلعة المشيخة ، واذن له باعطاء العهود وارشاد

الناس الى الحق ، وتسليك المريدين الى الله ، فراى المهدى ان ينتحى ناحية يسودها الهدوء وتظللها السكينة ليتفرغ للعبادة وتطهير النفوس ، ووقع اختياره على جزيرة فى النيل الابيض على مسيرة مائةوخمسين ميلا جنوب الخرطوم ، تشتهر بغاباتها ووفرة اشجارها التى تصلح لصناعة السفن ، وهى جزيرة آبا . فرحل اليها مع اهله فى غضون عام ١٨٧١ وهناك اشتغل اخوته بصناعة السفن وهى صناعتهم الموروثة عن آبائهم على حين بنى هو لنفسه مسجدا يؤمه انصاره للصلاة وخلوة للتدريس ، ثم اذاع مبادىء دعوته التى تقوم على قواعد الشرع الشريف والدين الحنيف ، وتبادل المودة بين المسلمين .

وتسامع الناس به فهرع اليه سكان الجزيرة من قبائل دغيم وكنانة وغيرهم من العرب المجاورين يتتلمذون عليه ، ويأخذون العهد عنه ، ويستمعون الى وعظه وارشاده عقب صلاة العصر او العشاء ، وصار يحدثهم عن تعاليم الاسلام الاولى وسموها من النواحى الفردية والاجتماعية ، ويندد بماهم فيه من جهل وخنوع وضعف . ويحذرهم نتيجة التفرق الذى سيؤدى بهم الى الوقوع فى مخالب الاستعمار وتحت رحمة الاوربين ، ويحثهم على التمسك بأهداب الدين والانصراف عن الملذات حتى يعدوا انفسهم للجهاد الاكبر والعمل للآخرة ، ويعيدوا للاسلام سابق عزه ومجده .

فكانت احاديثه بمثابة الالهام الذى تستمد منه نفوسهم الحماسة التى جعلت هؤلاء الانصار فيما بعد يتهافتون على الموت تهافت الفراش على النار ، وكان بين الفينة والفينة يشد الرحال لزيارة استاذه فى « القادرية » قرب جبل اولى ليبرهن له على انه متعلق به ، متفان فى الاخلاص له الى الابد .

بيد ان هذه الصلة الروحية بدات تضعف وتتلاشى حينما علم الاستاذ بأن تلميذه يسر دعوة جديدة لم تكن فى الحسبان ، هى زعمه بأنه المهدى المنتظر ، فقطع علاقته بتلميذه ، واصدر الاستاذ بيانا الى اتباعه يبلغهم فيه انه عزل محمد احمد من الطريقة وسحب منه المشيخة ، ومعنى ذلك فى عرف الصوفية حرمان المهدى من الدعوة والارشاد . وهنا بادر المهدى الى تجديد العهد على شيخ آخر ، وكان الكثيرون من مشايخ السودان يتمنى ان يكون هذا الزاهد الفقير تلميذه ، فاختار شيخا وقورا يقطن الحلاوين جنوب

الخرطوم بست مراحل اسمه الشيخ القرشي ، فاحتضنه هذا الشيخ ، وسر به سرورا عظيما ، وجدد له الاذن بالارشاد واجازه بالخلافة .

عاد المهدى الى جزيرة آبا ، وكانه اراد ان يقطع علاقاته بهذا العالم حسا ومعنى ، فحفر غارا تحت الارض يتعبد فيه ، وكان يخرج بين حين وآخر من معبده يحف به اتباعه وحواريوه فى زى الدراويش : الجبة المرقعة والعصا الطويلة والسبحة والركوة والمنطقة والطاقية المقرنة ، ويجول معهم فى لباس الجهاد ما بين دنقلة وسنار وكردفان ، داعيا للانضمام اليه .

وبدا السودان يشهد لونا جديدا من المواكب : الطبول تدق فيملأ دويها الشعاب والوديان ، والاعلام السوداء والزرقاء والصفراء والحمراء ترفرف هفافة مع النسائم وهى تحمل عبارة « لااله الاالله محمد رسول الله » . وجموع الدراويش تخب فى جبيها البيضاء يشق تهليلها وتكبيرها عنان السماء ، يتقدمهم رجل طويل القامة ، خفيف السمرة ، اسود اللحية ، عريض المنكبين ، واسع الجبهة ، براق العينين ، دائم الابتسام ، على راسه عمامة كبيرة منفرجة من الامام ، تسترسل منها عذبة طويلة على منكبه الايسر ، يحيطه الالوف بالتبجيل والاجلال ، وتفيض اعينهم بالدمع كلما راوه ، وتتهامس الافواه انه امام الصالحين ، وانه المهدى المنتظر الذى سيملأ الارض عدلا ، كما ملئت من قبل جورا وظلما .

وجد المهدى ان سر شقاء الشرق تسلط الاجنبى عليه . ولن يستطيع ان يتخلص من سيطرة هذا المارد الا بالرجوع الى حظيرة الدين ، فالدين فى نظره هو حصن الامة وتاجها ، وهو منها بمنزلة القلب من الجسم ، وهو الوسيلة الوحيدة لانقاذ الشرق وانتشاله من حماة البؤس الى ذروة النعيم ، ولكن المهدى تالم اذ وجد الناس سابحين فى لجج الظلام ، يذلهم الطمع ويستذلهم الطامع فيقعون فريسة سائغة فى براثن الاجنبى الذى يوقد نار العداوة والبغضاء بينهم ليهلكوا انفسهم بايديهم .

انقلبت آلامه الى ثورة جامحة ، وامسك بوق الجهاد ونفخ فيه فلبى السودان دعوته فى قوة وحماسة ... وبدات الدعوة سرية خشية ان تموت فى مهدها ، فكانت مقتصرة على اخصائه واتباعه ،

وبعض مشايخ الطرق ، وسرعان ما تضاعف عـــدد « الانصار والاحباب » واصبح له دعاة منبثين فى كل مـكان ، مابين المـوظف وزعيم القبيلة وشيخ الطريقة حتى انتشر اسمه فى ربوع السودان ، وجعلت السفن والابل ترد من كل فج على مقره فى جزيرة آبا ، تنقل اليه الوفود لتقسم امامه قسم الجهاد ، وتبايعه على التضحيــة بالنفس والمال فى سبيل نصرته .

بلغ محمد رءوف حاكم السودان العام بأن هناك رجلا يدعو الى عقيدة جديدة قد تعرض السودان للثورة ، ولكنه لم يأبه لشىء من ذلك ، واكتفى بارسال انذار فى شكل كتاب يدعو صاحب الدعوة للقدوم الى الخرطوم للتحقيق معه فيما نسب اليه ، ولكن المهـــدى رفض الامتثال وسخر من دعوته للشخوص الى الخــرطوم واعلن بانه ولى الامر الآن . فجرد الحاكم العام فى ١٢ اغسطس ١٨٨١ حملة مكونة من مائتى جندى للقبض على المهدى ، وكان يقود الحملة ضابطان ، وفى منتصف الليل كانت الحملة تشق طريقها فى جزيرة آبا وتقاسى من تنازع ضابطيها القيادة اكثر مما تقاسيه من وعورة الطـــريق وكثرة الاوحال . واذا برجال المهدى ينقضون عليها ، ويفتــكون برجالها فتختفى الحملة الامن بضعة رجال .

وابلغ الحاكم العام القاهرة دعوة المهدى وما حل بالجند من هزيمة وزعم بأن الجند ابوا طاعة قائدهم واطلاق النار على الدراويش لانهم فقراء مسلمون مثلهم ، فرد الخديو يستحث الحاكم العام على قمع الفتنة والقبض على الداعى اليها .

راى المهدى ان الجزيرة لم تعد صالحة كمركز للجهاد نظـــرا لتعرضها لحملات الحكومة ، فنزح الى مديرية فاشودة ، واستقر فى مكان حصين داخل الاقليم يدعى « جبل قدير » وشرع فى تجنيد الانصار واعلان الجهاد ، ومن هذا الحصن المنيع اصدر منشورا عاما يامر فيه « جميع المكلفين بالهجرة الينا لاجل الجهاد فى سبيـــل الله او الى اقرب بلاد منكم ، فهلموا للجهاد ولا تخافوا من احد غـــير الله ، لان خوف المخلوق من غير الله بعدم الايمان » .

وفى ٩ ديسمبر اعد مدير فاشودة حملة لاخضاع ذلك الضيف المشاكس فى نظره ، الذى حل بالقوة فى اقليمه ، ولكن قوات المهدى

كمنت للمدير ورجاله ، واشتبكت معهم فى قتال مر المذاق ، واستطاعت ان تفتك بالمدير ونحو الف واربعمائة مقاتل من رجاله ، وتغنم اسلحة الحملة وذخائرها .

وكان الخديو يرقب هذه الاحداث دون اكتراث ، فلما بعث اليه الحاكم العام الاستغاثة تلو الاخرى ، طالبا المدد لم يجبه الى طلبه بل بادر بعزله من منصبه ، واسند اعماله الى جيكلر باشا النمسوى مدير مصلحة التلغرافات السودانية ، ولم يتان نائب الحاكم العام الى ان يصل خلف محمد رءوف باشا بل بادر الى تجريد حملة قوامها اربعة آلاف مقاتل للقضاء على الدراويش .

نزلت هذه الحملة مديرية فاشودة وتوغلت فى وهادها ، ووجهتها « جبل قدير » مقر الثورة ، وفى ليلة ٢٩ مايو ١٨٨٢انتهز الثوار فرصة خلود رجال الحملة الى النوم فى خيامهم ، فزحفوا عليهم بجموع حاشدة ، واستطاعوا ان يفتكوا بهم وبقائدهم يوسف الشلالى باشا .

ذاعت شهرة المهدى عقب هذه الانتصارات المتوالية ، فنشر الدعوة بين سكان الجبال وسكان المدن ، مستعينا بالحجة مرة وبالقوة مرة اخرى ، حتى تمكن من اخضاع الجهات الواقعة حول جبل قدير واصبحت تدين له بالولاء ، وترددت انباء انتصاراته فى كردفان وبها اشد انصاره بأسا مثل قبائل الحوازمة والقدبات والجمع والجوامعة فهرعت اليه ، تتدفق كالسيل الجارف ، وهى تنشد نشيدها الوطنى :

هواى هواى اسير   للمهدى فى قدير

وتترنم بقولها :

بشاير الخير جات لينا   واليوم ظهر مهدينا

من هذه اللحظة أصبح المهدى رمز الحرية والتضحية والقوة ، وكان له من الشخصية مايجعله كفؤا للقيام بدور الزعامة ، فقدكان يحرك اوتار القلوب بمواعظه ومنشوراته ، كما يحرك الاسنة وافواه البنادق فى المعارك ، وكان لكلامه عذوبة وجزالة يأسر بهما سامعيه، كما كان له صوت الحق يحرق كالنار ويجلجل كالرعد ، اذا مادعا داعى الجهاد .

تفاقمت الحالة فى السودان وبسط الثوار نفوذهم على الجزء الغربى منه ، واصبحوا يهددون العاصمة بالزحف عليها ، فعين الفريق عبد القادر حلمى باشا حاكما عاما على السودان وكان رجلا قويا حازما ، له خبرة بالسودان واهله . اذ استهل حياته العسكرية فى ربوعه ، واشترك فى حرب الحبشة ، ثم عاد ثانية الى السودان مديرا لمصلحة السكك الحديدية .

وصل الحاكم العام الجديد الى الخرطوم فى ١١ مايو فادرك لاول وهلة حرج الموقف ، اذ وجد ان نيران الثورة قد اندلعت فى الغرب والشرق ، وجعل السودان يرقص رقصة الحرب بجنون ، وكأنما هو بركان يرسل حممه ، ففى الغرب كانت قبائل كردفان — وهى من اشجع القبائل واشدها فروسية — تهدد الابيض عاصمةالمديرية وفى الشرق كان الدعاة وفى طليعتهم ابن المكاشف وابن عبد الغفار وابن كريف يقومون بحركة ترمى الى تطويق الخرطوم ، وتكاد الجزيرة تقع تحت سيطرتهم .

وكانت حالة العاصمة سيئة من الوجهتين الدفاعية والمعنوية ، ولم يكن بها سوى خمسمائة جندى وثلاثة مدافع جبلية ، فارسل عبد القادر يطلب المدد من القاهرة ، ولكن حالة العاصمة المصرية وقتئذ لم تكن افضل من الخرطوم بكثير ، فقد كانت مسرحا لكوارث دامية بتأثير التدخل الاجنبى فلم تستطع ان تفعل شيئا وتركت الحاكم الجديد يدبر امره كما يشاء .

لم يضيع القائد المصرى الوقت سدى بل شرع منذ ٣٠ يونيو فى تحصين العاصمة وفى اقامة خط الدفاع الثانى وجعل عليهالابراج التى سلحها بالمدافع وحفر خندقا يصل بين النيلين الازرقوالابيض حول المدينة ، ثم بدأ فى تجنيد تسعة آلاف مقاتل من المتطوعين سلحهم بالبنادق واخذ يتولى تمرينهم وتدريبهم بنفسه ،واستدعى ست كتائب من الجنود النظامية من السودان الشرقى حتىاستطاع ان يضع تحت تصرفه قوة مكونة من ثلاثة عشر الف مقاتل ، وطبع كراسة فيها المعلومات الضرورية وزعها على المتطوعين .

وانشأ عبد القادر حلمى يدرس حالة اقليم سنار وهو اشد الاقاليم الشرقية تعرضا لهجمات الثوار ، فاتضح له ان بعض الموظفين متواطئون مع الثوار ، فعزل من تحقق من خيانته وارسل

بدلا منهم موظفين جددا ، والقى القبض على الخونة وامر باعدامهم، ووجد خلافا بين مدير سنار وبين وكيله فعزلهما لان الوقت لايتسع لامثال هذه الخلافات .

وكانت خطة الثوار الحربية مبنية على عدم مهاجمة المدن المحصنة والاقتصار على محاصرتها حتى تضطر بسبب المجاعة الى فتح ابوابها ، كما كانت ترتكن الى عدم الدخول في معارك فاصلة ، ومناضلة قوات الحكومة باستمرار والاحداق بها من بعد واستدراجها الى الداخل حتى تكل عن المقاومة ، فاذا عرف منها ذلك هجم عليها الانصار كالسيل الجارف بجميع قواهم لانهاء المعركة . اضف الى ذلك بث الدعاة في جميع الجهات لاستثارة القبائل كي يضطرب النظام فيفلت من الحكومة زمام الامور .

واجه الفريق عبد القادر هذه الخطة باخرى تناقضها اذ فصل شرق السودان عن غربه ، ورابط على طول النيل الابيض بجيشه ومدافعه واسطول البواخر النيلية ليمنع امتداد الثورة ، وحصن المدن وعزز حاميتها حتى يحجم الثوار عن مهاجمتها ، كما رأى ان تضييع الوقت في تجريد الحملات على موطن الثورة — كردفان — امر لاتحمد مغبته لبعد المسافات ممايجعل الجيش مهددا بقطع خط الرجعة عليه ، فضلا عن تمكين الدراويش من تنفيذ خطتهم بمحاصرة قوات الحكومة . وعلى ذلك قرر عزل كردفان حربيا عن بقية السودان حتى يضطر المهدى اما ان يخاطر بنفسه ويهاجم القوات المتحصنة على النهر فتضربه الضربة القاضية ، واما ان يبقى محصورا في صحارى كردفان فلا يلبث الثوار ان يتفرقوا لقلة المؤن والذخائر وتخبو الثورة من تلقاء نفسها ، وقد دلت هذه الخطة على براعة عبد القادر حلمى العسكرية واثبتت الحوادث فيما بعد انها الطريقة المثلى في اخضاع الدراويش بدون خسائر تذكر

وفى الوقت ذاته لجا الى بث دعاية روحية مضادة ، فكلف المفتى الشيخ شاكر الغزى وقاضى القضاة الشيخ محمد خوجلى والسيد احمد الازهرى ان يؤلف كل منهم رسالة في الرد على المهدى ودعوة الناس الى طاعة اولى الامر وتحذيرهم من عواقب التمرد ، كما أوعز الى الشيخ محمد شريف ان ينظم قصيدة هجاء في المهدى ، وطبع هذه الرسائل ووزعها في انحاء البلاد لمقاومة دعاية الدراويش .

واخيرا ولى وجهه قبل المشرق وارسل قواده تباعا لكسر شكيمة الثوار ، فاستطاع صالح الملك بك ان يشتت قوات عامر المكاشف ، وتغلب جيجلو باشا على عبد الباسط الجمرى ، الا ان فضل الله ودكريف انتصر على قوات الحكومة ، وقطع المواصلات بين الكوة والمسلمية ، وبذا اصبح يهدد جنوب الجزيرة ، على حين استطاع احمد المكاشف وهو من اقوى الدعاة ان يتغلب على حامية سنار ، وعسكر بقوة تبلغ اثنى عشر الف مقاتل على مسيرة عشرين ميلا شمال المدينة وحاصرها ، وقطع المواصلات بينها وبين الخرطوم كما اخذ عبد الغفار يجمع القبائل حوله من كركوج مهددا اعالى النيل الازرق .

تحرجت الحالة اذن فراى الفريق عبد القادر ان يقود حركة الهجوم بنفسه ، فغادر الخرطوم فى يناير ١٨٨٣ قاصدا ود كريف . وفى الطريق وصلته الانباء بتعيين الجنرال هيكس باشا رئيسالهيئة اركان حرب الجيش فى السودان ، ثم بدات الامور تتطور فى القاهرة تطورا يدعوا الى الشك والريبة ، اذ صدر الامر بوقف الحركات العسكرية فى وقت كانت فيه الجزيرة مشتعلة بنار الثورة فأجاب الفريق عبد القادر على هذا الامر الصادر اليه : عبثا نحاول وقف الحركات العسكرية فى مثل هذه الظروف لاننا ان تركنا الدراويش فهم لايتركوننا . الى ان قال : لقد ارسلت الجيش الى النيل الازرق بقصد رفع الحصار عن سنار ، وهو الآن فى انتظارى فى واد مدنى فهل اقف عند هذا الحد ام اتقدم لرفع الحصار ؟

علم احمد المكاشف بقدوم الفريق عبد القادر ، فجمع النساء والاولاد ووزع عليهم الاعلام واقترب بهم من المدينة وامرهم بالانتظار هناك ليوهم حامية سنار انه يعسكر فى هذه الناحية حتى يشغلهم عن الاشتراك فى المعركة ، ثم تسلل مع انصاره الى ظاهر مشرع الداعى ، حيث اشتبك مع قوات الحكومة فى معركة حامية الوطيس وصمد الدراويش زهاء ثلاث ساعات لنيران المدافع والبنادق واصيب الفريق عبد القادر برصاصة فى جنبه حطمت ساعته ولكنها لم تؤذه

ولما وجد الثوار انهم امام سيل من نار يحصدهم حصدا فروا الى جبال سفدى وموية ، وكان الانتصار باهرا لدرجة انه لم يقتل احد من رجال الحملة وجرح سبعة وعشرون فقط .

وبينما كان الفريق عبد القادر حلمى فى اوج انتصاره العسكرى كانت الامور تتحول فى مجرى آخر ، فقد اتصل به ان هناك امرا بعزله من منصبه وتولية علاء الدين باشا حكمدار السودان الشرقى مكانه فلم تنطفىء حماسته ولم تفتر وطنيته بل واصل اعماله الحربية واعاد للحكومة هيبتها ، وهو مفصول من منصبه ، فضيق الخناق على الثوار حتى جعلهم يهتفون بقولهم : « اللهم ياقوى ياقادر اكفنا عبد القادر » .

نجح الشطر الاول من خطة الفريق عبد القادر ، اذ حرر السودان الشرقى ، وحصر الثورة فى كردفان ، وكان جزاؤه على ذلك ان ذاع رسميا فى الخرطوم نبأ عزله وتعيين علاء الدين حاكما عاما على السودان ، فعاد الى سنار وسلم القيادة الى خلفه ورحل الى الخرطوم ثم بارحها الى القاهرة فى اواخر ابريل ١٨٨٣ .

وقع نبأ هذا الفصل اسوا وقع لدى سكان العاصمة ، ورفعوا العرائض تباعا الى الخديو يسالونه العدول عن هذا الامر ، فقد كانت خطة عبد القادر العسكرية السبب الوحيد فى نجاة الخرطوم وسنار والجزيرة كلها .

اما لماذا عزل الفريق عبد القادر حلمى من منصبه برغم انتصاره الساحق على الثوار ، فيرجع ذلك الى ارادة بريطانيا التى خشيت اذا هو ترك وشانه ان يتغلب على الثورة ويخمدها على حين تتجه سياستها الى اخلاء السودان بحجة عجز مصر عن الاحتفاظ به ثم فتحه من جديد لحسابها بالاشتراك مع مصر والاستئثار بحكمه .

والواقع ان بريطانيا كانت تحاول ان تحبط اى مجهود تبذله مصر فى سبيل اخضاع الثورة ، لان نجاح مصر فى اخضاعها معناه توطيد سلطان مصر فى السودان ، وهذا يخالف اطماعها التى ترمى الى ان تجعل من السودان راس جسر الى ممتلكاتها الافريقية فضلا عن ان السودان كان جزءا من المشروع المعروف باسم « افريقية الامبراطورية البريطانية الثالثة » .

وكانت السلطات البريطانية فى القاهرة قد اوفدت الكولونيل ستيوارت الى السودان بحجة تفقد الحالة هناك ، ووصل الخرطوم فى دسمبر ١٨٨٢ ، وقد دهش الفريق عبد القادر حلمى لتدخل هذا الضابط الانجليزى فى شئون السودان وخاصة انه لم يكن يعلم مهمته ، ولما استفهم عنه رسميا من القاهرة ورد النبأ له بانه ارسل

للتجسس على المهدى . ولكن عبد القادر لم يقتنع بهذا الرد فابرق يقول بأن الضابط الانجليزى يتجول هنا وهناك ويجمع المعلومات عن احوال السودان الادارية والسياسية والعسكرية والمالية والجغرافية .

والواقع ان تقريرات ستيوارت كانت موضع دراسة واهتمام وزارة الخارجية البريطانية ، وقد زعم فيها بأن المصريين عاجزون تماما عن الاحتفاظ بالسودان والدفاع عنه وان ذلك يرجع الى قلة الخبرة الفنية للضباط المصريين وليس الى قلة عدد الجنود او الذخيرة ، واختتم تقريره بطلب تعيين ضباط انجليز لهم المام باللغة العربية حتى تتيسر المحافظة على السودان .

وعلى ضوء ماجاء فى هذه التقريرات اخذ الاحتلال يعمل على نشر الفوضى فى ربوع السودان وترك الحبل له على الغارب لا لتحريره بل ليشنق به نفسه ، ثم راى ان يتخلص من بقايا الجيش المصرى الذى كان قد قاوم القوات البريطانية فأعد حملة اسند قيادتها الى الجنرال هيكس ليقوم بتمثيل الفاجعة الاخيرة على مسرح كردفان .

كان هيكس باشا من الضباط المتقاعدين فى القوات الهندية ، ولم تكن له خبرة بأراضى السودان . فضلا عن انه لم يكن كفوًا للقيادة ، وكان مجرد وضعه على راس اية قوة عسكرية تهاجم ثورة ذات طابع دينى ، مما يثير حماسة الثوار .

وكان على الحملة ان تسير من الدويم على النيل الابيض مخترقة صحراء كردفان لتهاجم المهدى فى عرينه ـ الابيض ـ وبذا يتخلص الانجليز نهائيا من ثلاثة عشر الف جندى مصرى .

واصلت الحملة سيرها منذ ٢٤ سبتمبر ١٨٨٣ فى الهضاب والجبال قرابة ستة اسابيع حتى كادت تفقد روحها المعنوية ، وفى نهاية الاسبوع السادس كانت الحملة على مسافة ثلاثين ميلا جنوبى الابيض ، فاحس الجند كان شيئا رهيبا سيحدث لهم اذ وجدوا انفسهم فى واد مكشوف على حين كانت غابة شيكان الكثيفة الاشجار تحيط بهم فتحجب ماوراءها مما بعث الشك فى قلوبهم العسكرية اليقظة . ولكنهم هزوا رءوسهم لانهم لا يستطيعون ان يفعلوا شيئا مخالفا لاوامر قائدهم ، وتابعوا الزحف واذا بالمأساة التى تخفيها الغابة تقع ، فينقض عليهم الوف الدراويش وتقع مجزرة رهيبة لم

ينج منها سوى ضابطين برتبة ملازم وثلاثمائة جندي وقعوا اسرى.

حاولت بريطانيا ان تسدل الستار على هذه الفضيحة ، لا سيما بعد ان تسلمت قيادة الجيش المصرى وتنظيم شئونه ، ولكن دماء الشهداء فى هذه المعركة مازالت تفور فى ساحة شيكان متهمة الانجليز بانهم المسئولون عن أرواحهم .

بكت مصر حين وصلتها هذه الانباء المحزنة على حين لم تستطع لندن اخفاء معالم الغبطة والسرور ، اذ نجحت سياستها فى التخلص من الجيش المصرى .

وفى اعقاب هذه الهزيمة الفاصلة بادر الحكام الاجانب بالتسليم للدراويش ، ففى ديسمبر ١٨٨٣ سلم رودلف سلاتين مديرية دارفور للمهدى ، وحذا حذوه لبتن الانجليزى فسلم مديرية بحر الغزال .

فصل التوأمين

طلب اخلاء السودان ـ الخديو ينحنى امام القوة ومحمد شريف يرفض الطلب ـ خادم الاحتلال نوبار ـ مهمة جوردون وتصفية الحكم المصرى فى الجنوب ـ سقوط الخرطوم ومقتل جوردون ـ امبراطورية الدراويش ـ تقسيم اقليم خط الاستواء ومنابع النيل .

اتخذت انجلترا من فشل حملة هيكس فرصة للقضاء على مابقى من الجيش المصرى ، وتصفية الحكم المصرى فى السودان توطئة للاستيلاء عليه والتحكم فى منابع النيل ، مصدر النماء والرخاء .

ففى ديسمبر ١٨٨٣ تلقى الخديو برقية متعمدة من الكولونيل كوتلوجون من الخرطوم بقصد جس نبض الحكومة المصرية جاء فيها: « اعرض على سموكم ضرورة اصدار الامر بالانسحاب من السودان فى الحال لعجزنا عن الدفاع عنه بسبب قلة قواتنا » .

وعلى اثر ذلك تداول مجلس الوزراء فى المسالة واقترح محمد شريف رئيس الوزارة ان يطلب الى الحكومة البريطانية التدخل لدى الباب العالى بغية الحصول على عون عسكرى كاف لاخماد الثورة فى السودان ، مع تعهد بمغادرة وادى النيل عقب ذلك ، وكان شريف يرى ان هذا العمل من حق السلطان ، بوصفه الخليفة والرئيس الدينى الاعلى لسائر المؤمنين ، مادام المهدى ثائرا مسلما . فرفضت بريطانيا ان تناشد الدولة العلية مديد العون تاركة معالجة الموقف للحكومة المصرية و « اتخاذ قرار سريع بترك جميع الاراضى الواقعة وراء اسوان او على الاقل وراء وادى حلفا ، مع استعداد بريطانيا للاشتراك فى المحافظة على النظام فى مصر نفسها ، والدفاع عنها كما تدافع عن موانىء البحر الاحمر » .

كان هذا الطلب بمثابة الاسفين الاخير لتجزئة الوادى وتمزيقه اربا ، وترك السودان مصبوغا بالدم المصرى : فلم يقر محمد شريف هذا الراى ، ولم يشاطر افلين بارنج ـ المعتمد البريطانى فى القاهرة

فكرته بضرورة اخلاء السودان ، لان هذه الاراضى لازمة لامن مصر ورخائها .

وازاء هذه المناورات التى تشبه رقعة الشطرنج ، والتى قامت عليها سياسة الاحتلال ، قدم محمد شريف مذكرة فى ٢١ ديسمبر ١٨٨٣ الى افلين بارنج تحمل وجهة النظر المصرية جاء فيها :

« ان التفكير فى احتمال ترك مصر للسودان ليثير اعتراضا مبدئيا مرده الى فرمان ١٧ اغسطس ١٨٧٩ الذى يحظر على الخديو حظرا باتا ان يتصرف فى الاقاليم المسندة ولايتها اليه .

« على انه اذا فرض جدلا جواز اقدام مصر على التنازل عن ممتلكاتها السودانية فانه يتعين تقدير الآثار التى تترتب على ذلك ، فان الحكومة المصرية تبسط سلطانها على السودان جميعه فيما عدا مقاطعة كردفان وبعض الاقاليم المجاورة لسواكن ، فاذا قررت ترك السودان كان معنى هذا القرار تمكين الثوار من السودان الشرقى برمته ومن مديريتى بربر ودنقلة ، وكذلك من مجرى نهر النيل من منابعه الى نقطة تعتبر حدا جنوبيا لمصر ، فينفرد المهدى بالسلطان فى هذه الاقاليم الشاسعة وتضطر القبائل التى مازالت على ولائها لمصر وكذلك القبائل المترددة مثل الكبابيش الى الانضواء تحت لواء الثورة .

« فاذا اقدمت مصر على ذلك اتسع نفوذ المهدى وضاقت رقعة اراضى مصر وصار لزاما عليها ان تواجه قوات الثوار المتعصبين ، يضاف الى ذلك وجوب التحوط للقبائل البدوية العديدة التى تحيط بحدودها جميعا ، وهى قبائل معروفة بميلها للنهب ولن تتردد فى اتباع المهدى اذا هو اغراها بمصر ومناها بثرائها .

« وبعض هذه القبائل مثل العبابدة والبشايرة التى لاتزال الى الآن على ولائها لمصر تمتد من بربر الى اسنا وقنا، فان هى انضمت الى حركة المهدى سببت للحكومة المصرية متاعب عديدة مستمرة .

« ويترتب على حرمان مصر من حدودها الطبيعية ان تصبح مكشوفة من كل الجهات ، فيتعين عليها للمحافظة على كيانها ان تحتفظ بجيش عظيم تزيد نفقاته على حدود طاقتها .

« اما الاحتفاظ بالسودان تحت ادارة حسنة فانه على العكس يتيح لمصر فضلا عن تجنيد عدد كبير من السودانيين بنفقات قليلة

ان تحمل هذه الاقاليم جزءا من النفقات اللازمة للاحتفاظ بجيش تكون مهمته المحافظة على الامن فى السودان والدفاع عن مصر ذاتها.

« ثم ان مصر اضطرت منذ اقدم العصور والى عهد محمد على ان تجرد الحملات الى الجنوب لتحمى نفسها من تسرب الشعوب التى تقطن مناطق اعالى النيل . فكانت خطة مصر الدفاعية المستقرة تقوم على ابعاد هذه الشعوب وصدها عن حدود مصر ذاتها .

« لذلك لا تستطيع حكومة سمو الخديو اقرار ترك هذه الاقاليم التى تراها لازمة لضمان سلامة مصر ولا غنى عنها .

« ومن جهة اخرى ، ومهما يكن الراى ، فيما يوجه من نقد الى الادارة المصرية فى السودان ، فان فضل مصر فى تعريف العالم المتمدين بهذه المناطق التى تمتد الى البحيرات فضل لا ينكر ، واليها وحدها كذلك يعود الفضل فى اقامة مصارف ومتاجر أوربية فى السودان ، وفى تمكين البعوث العلمية من ارتياده ، والارساليات الدينية من الاقامة فيه .

« وكذلك يصعب على المنصف ان ينكر على مصر جهودها الموفقة فى القضاء على الاتجار بالرقيق ، وقد تبين ان انصار المهدى البارزين هم من الرجال الذين كانت الادارة المصرية قد قضت على تجارتهم المخزية .

« ولكن الحكومة الخديوية فى حاجة الى معاونة قوة حربية قوامها نحو عشرة آلاف رجل معاونة موقوتة لتمكينها من الاستمرار فى اداء رسالتها فى السودان واعادة نفوذها اليه مما يترتب عليه حماية مصر ذاتها ، وتكون مهمة هذه القوة ان تفتح بادىء ذى بدء الطريق بين بربر وسواكن ، وان تعسكر لمدة محدودة حتى تستطيع الحكومة الخديوية ان تجهز وتركز القوات اللازمة لتحل محلها .

« وغنى عن البيان ان الحكومة الخديوية لا تنوى اعداد حملة جديدة توجه لكردفان ، بل هى تكتفى باتخاذ الوسائل اللازمة للاحتفاظ بالخرطوم كى تطمئن الى السودان الشرقى وتسيطر على مجرى النيل .

« ولما كانت الثورة ذات طابع دينى غير منكور فان الحكومة الخديوية ترى ان خير تدخل تقتضيه الظروف هو التدخل التركى وهى موقنة ان الباب العالى لن يتردد فى تقديم هذه المعاونة اذا هو قدر ما عاونته به مصر فى القرم وكريت وسربيا وبلغاريا . ولا

يخفى على الباب العالى أهمية الاسراع فى تقديم هذه المعاونة كى لا تمتد الثورة الى طرابلس والى الجزيرة العربية .

« على ان الحكومة الخديوية تود بصفة خاصة ان يضمن اى تعهد خاص فى هذا الشأن اتفاقا مع بريطانيا العظمى وسواء لديه فى ذلك ان تتولى حكومة جلالة الملكة المفاوضة نيابة عن مصر ام ان تتولى مصر ذاتها مفاوضات الباب العالى » .

وقد اصر المحتل البريطانى على وجوب اخلاء السودان . وواجه الحكومة المصرية بالبرقية المرسلة من لورد جرانفيل فى ٤ يناير ١٨٨٤ وهى :

« لا ارى حاجة الى ان اوضح لكم انه من الواجب ،مادام الاحتلال البريطانى المؤقت قائما فى مصر ، ان تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة اتباع النصائح التى ترى اسداءها للخديو فى المسائل الهامة التى تستهدف فيها ادارة مصر وسلامتها للخطر ، ويجب على الوزراء والمديرين المصريين ان يكونوا على بينة من ان المسئولية الملقاة الآن على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها الى ان تصر على اتباع السياسة التى تراها ، ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وفقا لهذه السياسة ، وان حكومة جلالة الملكة لواثقة من انه اذا اقتضت الحال استبدال احد الوزراء ، فهناك من المصريين ، سواء من شغلوا منصب الوزارة او شغلوا مناصب اقل درجة ، من هم على استعداد لتنفيذ الاوامر التى قد يصدرها اليهم الخديو بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة » .

كان هذا السياسى المحنك مخدوعا كغيره من قادة الرأى فى ان الاحتلال العسكرى هو احتلال مؤقت وان الانجليز سيجلون وشيكا عن ارض الوطن بمجرد استقرار الامور وتصفية الثورة ، فلما وضحت نوايا المحتلين وعلى الاخص فى مسألة اخلاء السودان ، لم يجد شريف مفرا من التنحى عن الحكم ، وسجل فى كتاب استقالته المؤرخ فى ٧ يناير عدوان الانجليز على حقوق مصر ومحاولتهم سلخ جنوب الوادى عن شماله فقال :

« تتعجل الحكومة البريطانية اخلاء السودان ، ولكننا لانملك حق الموافقة على اتخاذ مثل هذه الخطوة لان تلك المديريات التابعة للباب العالى قد وضعها امانة فى ايدينا لندبرها ، فاذا أصرت بريطانيا على ان تكون توصياتها نافذة بدون معارضة منا كان هذا العمل

متناقضا مع احكام الدكريتو الخديو الصادر فى ٢٣ اغسطس ١٨٧٨ الذى يشترط ان يحكم الخديو بوساطة وزرائه وبالاشتراك معهم ، لذلك تقدم استقالتنا لانه قد حيل بيننا وبين اداء مهمتنا وفقا للدستور " .

***

نجحت سياسة الاستعمار اذن فى ابعاد رجل لا يلين فى الحق ، هو محمد شريف ، اما الخديو فانحنى فى اذلال امام القوة ، ودعا اليه فى ليلة ٧ يناير افلين بارنج كى يعلن اليه استقالة الوزارة ، وترحيبه بسياسة ترك السودان كله ، بعد ان رأى — على حد تعبيره للمعتمد البريطانى — انها خير سياسة تتبع لمصلحة البلاد ، وبذلك اضاف الخديو وصمة عار الى الوصمات الاخرى التى لطخ بها تاريخه .

وجاء الانجليز باحد اذنابهم — نوبار — الذى قبل الحكم على اساس اخلاء جنوب الوادى ، والموافقة على اشد نكبة اصيبت بها مصر بعد نكبتها بالاحتلال ، وهل كانت مصر او السودان وطنه حتى يفكر فى مدى الجرم الشنيع الذى ارتكبه .

كانت وزارة هذا الارمنى شديدة الوطأة على وادى النيل ، فما كادت تتسلم مقاليد الحكم حتى اصدرت بعد ساعات معدودة تعليمات تقضى بوجوب اخلاء السودان من القوات العسكرية والمدنيين والجاليات الاجنبية ، وعمدت الى تكميم الافواه وتقييد حرية القول ، ومنعت الصحف من مناهضة الاحتلال .

كان نوبار ارمنيا ، ولد فى ازمير وتلقى تعليمه فى سويسرا ، ثم وفد على مصر للعمل مع خاله بوغوص مدير الشئون الخارجية والتجارية فى حكومة محمد على ، فاسند اليه منصب مترجم فى ديوان الوالى بالقلعة ، ولم يستطع نوبار ان يتعلم العربية وظل طيلة حياته يجهلها ، ولم يندمج فى الشعب لانه بطبعه دخيل عليه ، غريب عن التقاليد والدين واللغة ، وعين سكرتيرا خاصا للوالى ابراهيم فعباس الاول ، ووطد علاقته بمستر مرى القنصل البريطانى فى القاهرة وتعهد له بتنفيذ مآرب الاستعمار فى وادى النيل ، وكانت له اليد الطولى فى اغراء الوالى بخدمة المصالح البريطانية عن طريق مد الخط

الحديدي من الاسكندرية الى السويس ، وفى عهد سعيد رشحه سادته الانجليز ليكون مديرا لمصلحة السكك الحديدية واليه يعزى تنفيذ مؤامرة كفر الزيات التى اودت بحياة الامير احمد رفعت الذى كان يحجب اسماعيل عن العرش .

وكان نوبار ساعد الخديو اسماعيل الايمن فيسر له عقد قرض ١٨٦٤ المشئوم وحفر الهاوية تحت اقدام مصر ، عقده نوبار مع مصرف انجليزى بفائدة تربو على فائدة مصرف فرنسى ، لان العمولة التى نالها كانت افضل

بزغ نجمه ايام حكم الخديو اسماعيل ، وكانت نصائحه بمثابة خناجر مسمومة مسددة الى قلب مصر ، وماذا يهمه خربت أم عمرت مادامت جيوبه تفيض بالمال !.. كان الركن الاول فى مأساة القروض فامتدت يده اليها واغترف منها وكون لنفسه ثروة ضخمة على حساب الشعب ، ثم عهد اليه حل مشكلة القناة عندما تأزمت الامور بين مصر وبين الشركة .. وكذلك برز اسمه فى نظام تأسيس المحاكم المختلطة ، واوفد فى سفارات دبلوماسية الى العواصم الاوربية والى استامبول ، وبلغ به الغرور ان وسط بعض ساسة اوربا لترشيحه لعرش ارمنيا — وطنه الاصلى — فى مقابل المساومة والتفريط فى حقوق مصر .

وعندما زار لندن فى ابريل ١٨٧٧ كان هدفه ان يمهد الطريق امام الاستعمار ، ويدعو بريطانيا الى بسط حمايتها على وادى النيل ، ويحفزها على ان تشترى مصر من الباب العالى وتعوض السلطان عن الجزية السنوية المفروضة على مصر ، وكان ممن قابلهم الهر منستر سفير المانيا فى لندن ، فقال له بصراحة ، انه قدم الى لندن لتمهيد الطريق لوضع مصر تحت الحماية البريطانية ، وانه شخصيا يفضل الحماية البريطانية على اية حماية اخرى ، وكان يعتقد بان الدولة العلية ستنهار وستهزم فى حربها مع روسيا . وقد شبه مصر بقطعة من العظم يرغب فيها كلبان ، هما بريطانيا وفرنسا : ففى اثناء تطاحنهما على اختطاف العظمة زحفت اليها جيوش من النمل ، تمثل الجاليات اليونانية والشرقية فصارت تنهش العظمة وتسمن منها . وهو تشبيه ظريف لم نجد ابرع منه لوصف حالة مصر فى تلك الحقبة .

وبعد ان اقيل نوبار من الوزارة المختلطة فر الى أوربا وتجنس بالجنسية الروسية وداب على اثارة الدول ضد ولى نعمته الخديو اسماعيل ، وحرض اصحاب القروض ودولهم على المبادرة الى حماية مصالحهم وبسط نفوذهم كاملا على مصر .

وجاء الاحتلال البريطاني فاستقبله نوبار بالغبطة والسرور ، وعاد الى رياسة الوزارة تحت رايته ، وارتكبت من الجرائم والآثام ضد مصر ولصالح الاستعمار اكثر مما ارتكبه فى ايام شبابه .

تالفت وزارة نوبار فى ١٠ يناير ١٨٨٤ وفيها اسند الى عبد القادر حلمى منصب وزير الحربية ، وقيل ان مهمته انقاذ السودان ، ويثبت ذلك الامر الصادر فى ١٥ يناير الذى جعل شئون السودان تابعة لوزارة الحربية بدلا من رياسة الوزارة ، ولكن الامور جرت على غير ما يتوقع اذ اصر نوبار على تنفيذ برنامجه الذى كانت عاقبته انهيار السودان ، وما اشبه هذا الموقف بموقف محمد شريف حين قبل تشكيل الوزارة قبل سقوط القاهرة ظنا منه ان الانجليز سيجلون فورا عقب تثبيت عرش الخديو . فاستقال عبد القادر حلمى من وزارة نوبار ولم يقبل اى منصب آخر تحت ظلال الاحتلال

لم يلبث نوبار ان واصل تنفيذ برنامجه بشأن اخلاء السودان ، وترك الثورة والمجازر والتخريب والاوبئة تعم الجنوب ، وكان من جراء ذلك القرار ان احتج تجار الخرطوم وهم يمثلون زهاء ثلاثة آلاف بيت مصرى والف متجر اوربى ، فى مذكرة بعثوا بها الى الخديو وقالوا فيها : « هل يعقل ان العمل الكبير الذى بدا منذ سنوات للدفاع عن كيان مصر ذاتها ، ينهار بقرار يصدر على عجل وفى ساعة يأس نتيجة الكوارث التى تتوالى على البلاد » .

بيد ان هذه الصيحات تلاشت امام ضعف الخديو الذى كان مرتميا فى احضان الانجليز . وخسرت مصر تجارة السودان كما خسر هو تجارة مصر .

***

ووقع اختيار الحكومة البريطانية على الجنرال شارلس جوردون للقيام بمهمة اخلاء السودان ، وتمثيل الحكومة البريطانية فى الخرطوم ، على أن يتلقى التعليمات من العميد البريطانى فى القاهرة .

وفيما يلى نص الامر الصادر اليه فى ١٨ يناير ١٨٨٤ من حكومته:

« ان حكومة جلالة الملكة ترغب اليك السفر دون امهال الى مصر كيما تقدم لها تقريرا عن الحالة العسكرية فى السودان ،وعن الوسائل التى يلزم اتخاذها لضمانة ارواح المصريين والاوربيين فى الخرطوم ، فعليك اذن ان تفحص وتقرر افضل الوسائل الممكن اتخاذها لاخلاء السودان وضمان ادارة موانى البحر الاحمر التى هى تحت سيادة الحكومة المصرية . وفى الوقت نفسه نطلب اليك ان تصرف اهتماما خاصا بشأن الوسائل الفعالة التى يجب ان تتخذ لقمع الثورة وجلاء القوات المصرية ، بحيث لا ينجم عن ذلك ما يعزز تجارة الرقيق وان تتلقى التعليمات اللازمة من وكيل الملكة وقنصلها الجنرال فى القاهرة وتبعث بتقريراتك عن طريقه . وانت تعتبر كوكيل ومفوض لاتمام اية مامورية اخرى تشاء الحكومة المصرية ان تعهد بها اليك بوساطة السير افلين بارنج ، وستصحب الكولونيل ستيوارت ليساعدك فى المهام الملقاة على عاتقك . ولدى وصولك الى القاهرة تتفق مع السير افلين بارنج عما اذا كان من اللائق سفرك توا الى سواكن او التوجه بنفسك او ايفاد الكولونيل ستيوارت الى الخرطوم عن طريق النيل»

وعلى الرغم من ان بعض الوزراء المصريين ابدوا اعتراضا على تعيين جوردون بسبب ان الثورة لها طابع دينى وان تعيينه يسىء الى عواطف الثوار ، ومع ترشيحهم الزبير باشا حاكما عاما للسودان الا ان حكومة لندن اصرت على تعيين جوردون بالذات ، واصدر الخديو امرا بالموافقة على هذا التعيين .

لم تكن مهمة جوردون قاصرة على اخلاء السودان بقدر ماكانت ترمى الى توطيد الاستعمار البريطانى فى اواسط افريقية وذلك بايجاد معسكرين يتنافسان على حكم السودان ، وهنا تستطيع بريطانيا عن طريق ممثلها فى الخرطوم ان توقع بين المعسكرين لتبرر استمرار بقائها فى السودان بحجة المحافظة على الامن والنظام .

والواقع ان الاستعمار البريطانى بدأ فى اوسط افريقية تحت ستار رحلات استكشافية وعن طريق تطعيم الادارة بحكام بحجة تنفيذ معاهدة منع الاتجار بالرقيق ، وكان شارلس جوردون من بين عملاء الاستعمار ، اذ عين فى ١٩ فبراير ١٨٧٤ حاكما على المديرية الاستوائية بدلا من صمويل بيكر ، وكان يشغل قبل ذلك منصب عضو بريطانى فى لجنة نهر الدانوب الدولية ، وكان تعيينه فى

السودان بناء على توصية ولى عهد بريطانيا وتزكية نوبار الذى كان قد التقى به فى دار السفارة البريطانية باستامبول .

ولم يكن جوردون امينا فى اداء واجبه كموظف مصرى ، وادرك محمد رءوف الحاكم العام بأن جوردون جعل اقليم خط الاستواء قائما بنفسه وغير تابع لحكمداريته فى الخرطوم ، وانه يعمل على تنفيذ السياسة البريطانية التى تقضى باضعاف النفوذ المصرى واسناد المناصب الرئيسية الى الاجانب ، فضيق الخناق عليه الى ان استقال فى ٢ ديسمبر ١٨٧٦ .

قدم جوردون الى القاهرة فى ٢٦ يناير ١٨٨٤ وتسلم امرا من الخديو جاء فيه : « ان الغرض من ايفادكم الى السودان هو ارجاع الجنود والموظفين الملكيين والتجار الى مصر ، مع حفظ النظام فى البلاد باعادتها الى سلالة الملوك الذين حكموها قبل الفتح المصرى » .

وبدا الامل يعاود سكان الخرطوم حين علموا بأن القاهرة تحركت لنجدتهم ، ولم يكن فى حسبانهم ان الانجليز قد تحركوا ليضربوا ضربتهم القاضية .

وفى ١٨ فبراير ١٨٨٤ تقاطر سكان الخرطوم الى الميناء النهرى يستقبلون الامل المشرق الذى سيضع حدا لمتاعبهم وآلامهم ... بدت الساعات طويلة قبل ان يتمخض لهم الافق البعيد عن شبح باخرة مقبلة ، خفقت لها القلوب وشخصت اليها الابصار ، ثم بدا على الوجوه مزيج من الدهشة والتهكم . هل هذه هى النجدة التى ستنقذ الخرطوم وتحميها ؟ ام ان الباخرة تحمل معجزة تقاوم الدراويش ؟ واخيرا رست الباخرة فكانت صدمة المستقبلين اشد هولا اذ هبطت منها النجدة : جوردون وستيوارت وردلف سلاتين!

وتفرق المستقبلون فى ذهول وفى يأس وقنوط الى قصر الحاكم العام لعلهم يتبينون جلية الامر ، فاذا بجوردون يأمر بتلاوة الامر الصادر بتعيينه ، ويخطب فيهم واعدا اياهم باقرار العدل واشاعة الطمأنينة ثم يعلن اباحة تجارة الرقيق ، والتنازل عن متأخر الضرائب عن سنتين

والواقع ان جوردون لم تكن تهمه فى قليل او كثير تجارة الرقيق ، وقد اذاع قرار اباحة النخاسة لاستمالة النخاسين من البقارة الذين يستفيدون من هذه التجارة مخالفا بذلك نص المعاهدة التى وقعتها مصر مع بريطانيا فى ٤ اغسطس ١٨٧٧ بشأن ابطال النخاسة ، ونص الامر

الصادر اليه من حكومته فى ١٨ يناير ١٨٨٤ ، وكذلك امر باحراق سجلات الضرائب المدونة فيها متاخرات هذه الضرائب لكى يوهم السودانيين ان الحكومة لن تعتمد على اى مورد مالى من ضرائب المولين .

واراد جوردون ان يخطب ود المهدى ويلوح له بالامارة على اقليم كردفان ، فاوفد اليه رسولا يحمل اليه هدية من الملابس المزركشة بالقصب ، الموهة بالذهب ، ومعه كتاب يسميه فيه سلطان كردفان ، ويبيح له الحرية التامة والاستقلال فى العمل ، وبعد اسابيع جاءه الرد من المهدى يحمله ثلاثة من الدراويش ونصه :

« الى عزيز بريطانيا والخديو جوردون باشا .

وصلنا خطابك وفهمنا مافيه ، والحال انك تزعم ارادة اصلاح المسلمين وفتح الطريق لزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، واتصال المودة فيما بيننا وبينكم وان تجعلنا سلطانا على كردفان ، فاقول له انى قد دعوت العباد الى صلاحهم وما يقربهم من ربهم وان يفرغوا من الدنيا الفانية الى دار البقاء يعملون بما يصلحهم فى آخرتهم ، وقد كتبت الى حكمدار الخرطوم وانا بجزيرة آبا بدعوته الى الحق وبأن مهديتى من الله ورسوله .

« ولست فى ذلك بمستحيل ولا بمريد ملكا ولا جاها ولا مالا . وانما انا عبد احب المسكنة والمساكين ، واكره الفخر وتعزز السلاطين ونبوهم عن الحق المبين ، لما جبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين ، وهذا هو الذى صدهم عن صلاحهم واخذ نصيبهم من ربهم ، فاخذوا الفانى وتركوا الباقى ، واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ، ولم يسمعوا قول الله ولا رسوله ، ولم يذكروا خبر القرون الذين لم يغن عنهم ذلك شيئا ، وتندموا على قدر الذى تمتعوا به ، فايدنى الله تعالى بالمهدية الكبرى لدلالتهم الى الله تعالى وليتركوا العز الفانى الى العز الدائم والنعيم الابدى فى دار النعيم المقيم ، ولاعرفهم غرور من يريد العاجلة ويظن انه ساع فى رضا الله ويكون له نصيب فى الآخرة ، وقد قال المسيح عليه السلام « يامعشر الحواريين ابنوا على موج البحر دارا تلكم الدنيا ، فلا تتخذوها قرارا . ومن ظن انه يخوض البحر من غير بلل فهو مكروه » . فكذلك من ظن انه يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهها ويكون له فى الآخرة شأن . فانب الى الله

الباقى واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة ، ولا تظن ان هذه الدنيا دارا حتى تسعى لملكها وعزها . . .

« وغاية مانسعى اليه هو ان نجدد لهذه الامة ما اندرس من معالم دينها ، فان رجعت عما انت عليه من ملة غير الاسلام ، وانبت الى الله رسوله واخترت الآخرة ، نتخذك وليا ، وتكون من اخواننا فتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله وتكون ممن امتثل امر الله فاستحق الوعد والبشارة فى قوله تعالى « ولو ان اهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولادخلناهم جنات النعيم ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم » . فبعد هذا تتصل المحبة فيما بيننا وبينك ، وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والانجيل ، وتكون قد اتبعت باتباع نبينا محمد وعيسى وموسى وجميع الرسل والنبيين وحزب الخير الابدى . . . واعلم انى المهدى المنتظر ،خليفة رسول الله ، فلا حاجة لى بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا غيرها ولا فى مال الدنيا وزخرفها ، وانما انا عبد الله فمن كان سعيدا اجابنى واتبعنى ومن كان شقيا اعرض عن دلالتى فازاله الله عن موضعه واذله وعذب عذاب الابد .

« واما فتح طريق الحج فانه خديعة منك وتظاهر بحماية الدين الاسلامى ، مع انك لا تؤمن بحرف مما جاء فى هذا الدين ، وانك لمن معشر عرفوا بعدائه وكرهه ، فان كنت تشفق على المسلمين فاولى بك ان تشفق على نفسك وتخلصها من سخط خالقها وتحملها على اتباع الدين الحق .

« اما هديتك فلدينا منها كثير ، ولكن اعرضنا عنها لما عند الله من حسن الثواب ، وانى اقول كما قال سليمان عليه السلام لبلقيس وقومها « اتمدوننى بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون ، ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها اذلة ، وهم صاغرون » .

وبعد أن تلا جوردون ذلك الكتاب تولاه الهم فامر بنقض كتابه الاول اى بعزل المهدى من سلطنة كردفان وباعادة الدلق الى الدراويش

***

ضيق الثوار الخناق على الخرطوم وصارت محاصرة من جميع الجهات تقريبا ، وتوالت صيحات الاستغاثة من جوردون لانقاذه بمدد من قوات عسكرية من الهنود المسلمين ولكن الحكومة البريطانية

اعتذرت بأن هذه القوات قد تعجز عن اداء المهمة التى تطلب منها ، فعاد يطلب تعيين الزبير باشا نائبا عنه فى السودان فرفضت الحكومة هذا الطلب بحجة ان الباشا من كبار تجار الرقيق المعروفين ، وان وجوده فى السودان مما يساعد على رواج هذه التجارة .

وكانت الحكومة المصرية قد ارسلت حملة قوامها عساكر الرديف الى سواكن بقيادة الجنرال فالنتين بيكر مدير البوليس فهزمت هذه القوات فى ٤ فبراير ١٨٨٤ وقتل منها ٢٣٠٠ جندى و ٩٢ ضابطا ، وكانت هذه هى المعركة الثانية التى يمنى فيها المصريون بالهزيمة بقيادة ضباط انجليز بعد موقعة شيكان ، وعلى اثر ذلك بادر الاسطول البريطانى باحتلال سواكن .

واخيرا شعرت حكومة لندن بحرج موقفها امام الشعب البريطانى اذ هى تركت جوردون محاصرا دون ان تمد اليه يد المساعدة ، فعهدت الى الجنرال جرانت ولسلى ـ بطل معركة التل الكبير ـ مهمة انقاذه على رأس قوات بريطانية .

وكان جوردون قد اطلق على نفسه فى ابان فترة الحصار لقب « والى وسلطان السودان » وطبع اوراق نقد على ان يجرى دفع قيمتها بعد ستة اشهر من تاريخ اصدارها ، وامر بمحاكمة كل شخص يمتنع عن المعاملة بهذه الاوراق .

وصل الجنرال ولسلى الى كورتى فى ١٥ ديسمبر ١٨٨٤ واشتبك فى القتال مع الدراويش على امل الوصول الى الخرطوم لفك الحصار عنها ، على حين كانت بقية المدن والاقاليم تسقط كأوراق الخريف فى ايدى الثوار ، وكان اشجعهم وابسلهم عثمان دقنة الذى تزعم قبائل البحر الاحمر ، وجعل يستولى على بلاد السودان الشرقى بلدا اثر اخرى ، وفى الشمال اخذ محمد الخير يفتح مديرية بربر بقبائل الجعليين ، وحاصر الفكى مصطفى ام درمان بقبائل الجمع والسروراب والفتيحاب ، وابن البصير والشيخ العبيد بكتسحان الجزيرة ، وعبد الرحمن النجومى القائد العام لقوات الثورة يحاصر الخرطوم من الشمال والشرق والجنوب .

صمدت العاصمة امام حملات الدراويش واخذت تبيت الليل ساهرة وسط قعقعة البنادق وقصف المدافع وصلصلة السلاح ، وجعلت حالتها تزداد سوءا يوما عن يوم اذ انتشرت المجاعة حتى ان معظم السكان تورمت اطرافهم من شدة الجوع ، واصبح قوت

حاميتها الشهى الصمغ المخــلوط بالجمــار ، وبدا مرض اليرقان الاصفر ينتشر بين الجميع .

طالت مقاومة العاصمة بعد حصار دام ثلاثمائة وسبعة عشر يوما فراى الثوار ان يستولوا على مخفرها الغربى الواقع امام ام درمان ليحاصروها من جميع الجهات ، وكان يتولى الدفاع عن المدينة فرج باشا السودانى حتى نفد قوت الحامية وهزلت اجسام الجند ولم يجد قائدها وسيلة لانقاذ الحامية سوى ان يسلم المدينة فسلمها فى ٥ يناير ١٨٨٥ . حينئذ ركز الثوار قواتهم حول الخـرطوم ، فبعث جوردون الى الجنرال ولسلى قائد حملة الانقــاذ وكان وقتئذ فى وادى حلفا يخبره بخطورة الموقف وختم خطــابه بقوله : لاتدعـوا العساكر المصرية تأتى الى هنا .

تحرك الانجليز فى الشمال لانقاذ جوردون ووصلت انباءاشتباكهم مع الثوار الى الخرطوم ، ولكن القبضة الحديدية كان تهصر المدينة مما جعل انقاذها مستحيلا ، وسرعان ما انتقل المهدى الى معسكـر الجند ليضع خطة الهجوم الاخير ، فجعل على القلب ابن النجومى ، وعلى الميمنة الحاج محمد ابا قرجة ، وعلى الميسرة محمــد نوباوى الذى وكل اليه امر الاستيلاء على قصر الحاكم العام ، وقبيل الهجوم خطب المهدى فى الجيش بقوله : لا يتعرض احد منكم لحياة جوردون بسوء لاننى اريد ان افتدى به احمد عرابى باشا .

بدا الهجوم الاخير فى الوقت الذى اقتربت فيه حمـلة الانقــاذ البريطانية من الشمال فلم تحتمل المدينة الضغط اذ كـانت تلفظ نفسها الاخير فدخلها الدراويش فى فجر ٢٦ يناير ١٨٨٥ . وتوجه محمد نوباوى الى قصر الحاكم العام ، وكان جوردون فى تلك اللحظة جالسا على مقعده ممسكا بيده منديلا ابيض وقد ارتدى كســوة التشريفة ، ووضع على راسه كوفية من الحرير وعقالا عربيا .

وعلى الرغم من محاولته ان يبدو فى مظهـر الشخص المطمئن اذ كان على ثقة من ان المهدى امر بالمحافظة عليه الا انه عندما تنــاهت الى سمعه اصوات الدراويش تقصف كالرعد وهم يقبلون كفيضان النيل . علم بان نهايته قربت لامحالة وشعر بوخز الضمــير اذ كان هو المسئول عما حدث لا لنفسه بل للمدينة كلها ... امر حرســه الا يتعرضوا للمهاجمين ، وبعد دقائق اقتحم القصر اول فـوج من الثوار . فابتسم جوردون ليواجه مصيره الغامض وســال : اين

محمد احمد المهدى . فابتدره درويش بالجواب وكانت طعنة رمح خر على اثرها صريعا . ثم سحبوا جثته الى ساحة القصر وهنالك جزوا عنقه وبعثوا بها الى المهدى الذى استنكر هذه الفعلة . فأجابه التعايشى : ان قتله خير من استحيائه .

وقدر عدد من قتل من سكان الخرطوم فى ذلك اليوم بنحو اربع وعشرين الف نسمة بخلاف ثمانية آلاف جندى وجعل الثوار العاصمة مسرحا للتقتيل والنهب وسبى النساء .

صار المهدى بعد سقوط الخرطوم السيد المطلق فى السودان . وبدا يتحقق الشق الاول من مشروعه وهو قيام امبراطورية الدراويش ، وقبل ان يقوم باجراء حاسم لتنفيذ الشق الثانى ، اى ان يكون الخليفة الشرعى للبلاد الاسلامية ، آذنت شمس المهدية بالافول وهى فى عنوان اشراقها ، اذ اصيب المهدى بحمى من نوع الالتهاب السحائى الشوكى فاودت بحياته فى ٢٢ يونيو ١٨٨٥ ، وتولى الحكم بعده خليفته عبد الله التعايشى .

وبقى المهدى اثرا خالدا لقصة كفاح الشرق ضد الاستعمار ، وآية لا تمحى تربط شمال الوادى بجنوبه .

اصبح السودان دولة مستقلة ، ولكن الدراويش لم يمكنهم المحافظة على حدود الامبراطورية التى كانوا يحلمون بها ، اذ انتهز الاستعمار فرصة اخلاء السودان من القوات المصرية فاقبل يلتهم اطرافه فى شراهة ويوزع الاسلاب والغنائم .

ففى فبراير ١٨٨٤ استولت بريطانيا على سواكن ، وفى اغسطس من السنة نفسها استولت على اقليمى زيلع وبربرة وكونت منهما ومن الاراضى التابعة لهما الصومال البريطانى ، واستولت الحبشة على مقاطعة بوغوس فى ابريل ١٨٨٥ وعلى هرر فى يناير ١٨٨٧ ، واتفقت بريطانيا مع ايطاليا على احتلال مصوع فى فبراير ١٨٨٥ ورخصت لها باحتلال كسلا وما جاورها من الاراضى الى نهر عطبرة . وتقاسمت بريطانيا وبلجيكا جزءا كبيرا من اقليم خط الاستواء فاستولت بلجيكا على الكونغو وبسطت بريطانيا حمايتها على اوغندا ، وضمت فرنسا الى ممتلكاتها فى مايو ١٨٨٤ منطقة ضخمة فى جنوب غرب السودان واغتصبت جزءا كبيرا من اقليم بحر الغزال .

وتبلغ مساحة ما استولى عليه الفرنسيون من بحر الغزال حوالى ١٥٦٫٠٠٠ كيلو متر مربع ، وما استولى عليه البلجيكيون من مديرية بحر الغزال التى كان يحدها جنوبا نهر الاولة حوالى ٧٥٠٠٠ كيلو متر مربع بين الاولة وامبوبو ، واقتطعوا من مديرية خط الاستواء غرب بحر الجبل وبحيرة البرت نيانزا حوالى ٤٥٠٠٠ كيلومترمربع

والواقع ان ارتيريا والصومال وهرر واوغندة والكونغو كانت تدخل ضمن حدود السودان .

ولم يبق من ممتلكات مصر فى اواسط افريقية سوى اقليم خط الاستواء حيث ظلت الراية المصرية تخفق فوق ربوعه زهاء عشر سنوات

يعود الفضل فى بقاء هذه المنطقة الشاسعة الارجاء تحت الحكم المصرى طوال هذه الحقبة الى حاكمها ادوارد شنتزر الملقب بامين باشا

وكان الدكتور شنتزر من ابطال المغامرات ، شغل اسمه صحف العالم فى اواخر القرن التاسع عشر ، وقد ولد فى ٢٨ مارس ١٨٤٠ فى مدينة اوبلين فى سيليزيا بالمانيا من ابوين يهوديين ، واتم علومه الطبية فى برلين ، ثم نزح الى استامبول فى عام ١٨٦٤ حيث التحق بخدمة اسماعيل باشا الديوتيجى حاكم الروملى وظفر بثقته ، وهناك اعتنق الاسلام ، وصار يعرف باسم « الدكتور محمد امين الحكيم » واستطاع ان يتعلم التركية والعربية ويقتبس عادات واخلاق العثمانيين فى مدى اشهر قلائل ، وعقب وفاة سيده اقترن بأرملته ، وعاد بها وباطفالها الى مسقط راسه فى المانيا ، وهناك سولت له نفسه ان يغتصب مجوهراتها وثروتها وكانت تقدر بالوف الجنيهات ، ثم تركها مع اطفالها وفر الى باريس ولندن ، وبعد ان بدد هذه الثروة المغتصبة نزح الى مصر مصدر الاقبال والشهرة للافاقين الاجانب ، وموطن الثراء والمجد لمشردى اوربا .

وعين الدكتور امين رئيسا للادارة الصحية فى مديرية خط الاستواء فى ابريل ١٨٧٦ واوفده جوردون فى مهام سياسية الى البلاد المجاورة مثل اوغندة والاونيور ، ثم اخذ الرجل يرقى سلم المجد الى ان عين حاكما عاما على الاقليم فى عام ١٨٧٨ .

كان الدكتور امين حاكما من طراز فريد ، على الرغم من انه ظل يشتغل بالمسائل العلمية اكثر من الادارية ، فدافع عن الراية المصرية فى مناطق اعالى النيل ، واحتفظ لمصر بالسيادة على منطقة تستمد

منها حياتها ، على الرغم من ان المواصلات ظلت منقطعة بينه وبين العالم نحو سنوات ست .

وقد عمد فى خلال هذه السنوات العجاف الى سد حاجة الموظفين والجند من الموارد المحلية ومن حاصلات الاقليم ، وادخل زراعات جديدة كالقطن والارز والخضر والفاكهة واستخراج زيت النخيل ، واحتكار العاج وريش النعام وجلود الثيران لحساب الحكومة المحلية

وكان ساعد الدكتور امين الايمن البكباشى حواش منتصر ، احد الابطال المجهولين ،وهو من مواليد اسيوط ومن اصل سودانى ، فبسط نفوذ مصر على الاقليم بفضل شجاعته وجراته ، وحارب النخاسة وعمل على تحرير الارقاء ، ونظم الاداة الحكومية .

وكانت قوة الاقليم العسكرية لاتزيد على الفى جندى نظامى وخمسمائة من المتطوعين ومثلهم من التراجمة اى المقاتلين المساعدين ومجموع السكان حوالى مليون نسمة من الزنوج والعرب .

ظل اقليم خط الاستواء فى ايدى المصريين على الرغم من امتداد الثورة الى اطرافه ، وصدور امر جوردون باخلائه ، وعقب مقتل جوردون اعد المهدى قوات يبلغ عددها زهاء ستة وثلاثين الف مقاتل بقيادة نور عنقرة لغزو اراضى خط الاستواء ، وفى ٢٧ مايو ١٨٨٣ بعث بكتاب الى الدكتور امين هذا نصه :

« من احمد رسول الله المهدى الى الامير محمد امير خط الاستواء

« انى مرسل اليك الامير كرم الله القائم مقامى فسلمه مديريتك وات عندى فى البقعة الطاهرة لاضمك الى جماعتى . فاذا اطعتنى كفلت حياتك وتحاشيت اهراق الدماء على غير طائل . اما اذا عصيت فعليك تقع جريمة ضياع رجالك وضياعك انت نفسك ، وما حصل لغيرك فيه عبرة لك وموعظة للتروى والتبصر فى عملك ، ولقد رايت ان جميع المديريات حتى اقواها مثل كردفان وسنار سقطت فى يدى ، وانت تعلم من غير شك كيف كانت عاقبة راشد بك ويوسف باشا الشلالى وهيكس باشا ، وهذا لابد يقنعك انه بفضل معونة الله العلى لايقدر احد ان يقاوم الانصار ، وانت ليس لديك القوة الكافية لتستطيع مصادمة جيشى » .

وعقد الدكتور امين مجلسا من كبار الموظفين والضباط وقرأ عليهم كتاب المهدى وسالهم الراى فقالوا : نحن خاضعون لاوامركم ، ولكن الصاغ حواش منتصر والصاغ مرجان الدناصورى عارضا فى التسليم

وقالا : يمكن تجنيد ثلاثة آلاف مقاتل من الزنوج وتجهيزهم بالسلاح من مخازننا ، وان نقاتل الى آخر جندى وآخر قطرة من دمائنا .
زحفت قوات الدراويش وحاصرت الاقليم وضيقت الخناق عليه فردتها القوات المصرية مع قلة عددها ، وبعث الدكتور امين الى مصر يطلب المدد ، وبعد مرور عدة اشهر تلقى من نوبار كتابا مؤرخا فى ٢٧ مايو ١٨٨٥ هذا نصه :

« الى امين باشا قائد جنود خط الاستواء فى غندو كورو :
« ان حركة الثورة التى شبت فى السودان اضطرت حكومة صاحب السمو الى اخلاء تلك الاراضى ، وبناء على ذلك لا نستطيع ان نبعث اليكم اى مدد . ومن جهة اخرى لا نعرف بالتدقيق موقفكم ، انتم والجنود ، وليست متوافرة لدينا الوسائل لامدادكم بما يلزم من الارشادات بصدد الخطة الواجب اتباعها ، وعلاوة على هذا وذاك اذا طلبنا منكم موافاتنا بتقرير مفصل عن الموقف لنبنى عليه ما نزودكم به من التعليمات ، فان ذلك يستغرق زمنا طويلا ، وقد يكون ضياع هذا الوقت فى غير مصلحتكم ، والغرض من هذا الجواب الذى سوف يصل اليكم عن طريق زنجبار بوساطة سيرجون كيرك قنصل بريطانيا هو منحكم الحرية التامة فى العمل ، فاذا رأيتم ان الاضمن لكم ولجنودكم الانسحاب والرجوع الى مصر ، فان سيرجون كيرك وسلطان زنجبار يخاطبان رؤساء الزنوج الضاربين فى الطريق ويبذلان مافى وسعهما لكى يسهلا لكم الانسحاب » .

عز على الدكتور امين ان يخاطبه رئيس الوزارة المصرية بهذه اللهجة ، ولم ترد فى كتابه كلمة واحدة تشف عن الاعتراف له بالجميل عن كفاحه الشاق وما عاناه هو وجنوده من آلام الحرمان والجوع فى بقعة منعزلة عن العالم من اجل تثبيت العلم المصرى على هذه الربوع النائية ، واخيرا رفض الانسحاب مؤثرا الاحتفاظ لمصر بهذه الاراضى

ساء الانجليز ان تظل مصر محتفظة بهذه المنطقة التى تشرف على منابع النيل وتمد الوادى بالماء والرخاء ، فدبروا مؤامرة لاقصاء الدكتور امين وجنوده ، فشكلت لجنة بايعاز من حكومة لندن عرفت باسم « حملة انقاذ امين باشا » واسندت رياستها الى صحفى امريكى مغامر اسمه هنرى ستانلى الذى غادر لندن فى يناير ١٨٨٧ الى القاهرة حيث تلقى تعليمات من افلين بارنج وفالنتين بيكر والجنرال

ستيفنسون قائد جيش الاحتلال ، للعمل على انتزاع هذا الاقليم من مصر ، ثم واصل ستانلي سفره الى زنجبار ، والتقى بالدكتور امين في ٢٩ ابريل ١٨٨٨ عند بحيرة البرت وسلمه كتابا من الخديو تاريخه اول فبراير ، وهذا نصه :

« الى محمد امين باشا مدير خط الاستواء .

« سبق اننا شكرناكم على بسالتكم وثباتكم انتم والضباط والعساكر الذين معكم وتغلبكم على المصاعب ، وكافأناكم على ذلك بتوجيه رتبة اللواء الرفيعة الى عهدتكم ، وصدقنا على جميع الرتب والمكافآت التي منحتموها للضباط كما اخطرناكم بأمرنا العالي الصادر في ٢٩ نوفمبر ١٨٨٦ رقم ٣١ سايرة ، ولابد انه وصل اليكم امرنا المشار اليه مع البريد المرسل من طرف دولتلو نوبار باشا رئيس مجلس نظار حكومتنا ، وبما ان مابذلتموه من حسن المساعي وما كابدتموه من الاعمال الخطيرة التي قمتم بها قد استوجب زيادة محظوظيتنا منكم انتم والضباط والعساكر الذين معكم ، فقد تروت حكومتنا في الكيفية التي يمكن انجادكم وتخليصكم مما انتم فيه من المشقات ، والآن وقد شكلت نجدة برياسة مستر ستانلي العالم الشهير والسائح الخبير الذائع صيته بين الممالك بكمال فضله على اقرانه ، واستعدت هذه البعثة للذهاب اليكم ومعها ما انتم في حاجة اليه من المؤونة والذخائر بقصد حضوركم انتم والضباط والعساكر الى مصر عن الطريق الذي يتراءى لمستر ستانلي المومى اليه انه اكثر موافقة واسهل عبورا ، وبناء عليه اصدرنا امرنا هذا لكم ومرسليته بيد مستر ستانلي المومى اليه اعلاما بالكيفية ، فبوصوله تبلغونه الى الضباط والعساكر وتقرءونهم سلامنا العالي ليحيطوا علما بما ذكر ، واننا مع ذلك نترك لكم وللضباط والعساكر المومى اليهم الحرية التامة في الاقامة او تفضيل اغتنام فرصة الحضور مع هذه النجدة المرسلة اليكم .

« وقد قررت حكومتنا بانها ستصرف لكم ولجميع المستخدمين والضابطان والعساكر كامل ماهياتهم ومرتباتهم المستحقة ، اما من يريد البقاء في تلك الجهات من الضابطان والعساكر فله الخيار ، انما يكون ذلك تحت مسئوليته وبارادته المطلقة ، ولا ينتظر بعد ذلك ادنى مساعدة من الحكومة ، فافهموا ذلك جيدا ، وبلغوه بتمامه لسائر

الضابطان والعساكر المذكورين ليكون كل منهم على بينة من امره »

وكذلك اغراه ستانلى بالعروض التالية :

١ ـ ان تستمر كما كنت الجندى المطيع فتعود الى مصر معى على ان تتقاضى انت وجنودك مرتباتكم المتاخرة .

٢ ـ ان الملك ليوبولد ملك بلجيكا كلفنى ان اخطرك ـ لكى يمنع تدهور اقليم خط الاستواء فى مهاوى البربرية ، فهو على استعداد لان يدفع اليك مبلغ الف وخمسمائة جنيه استرلينى سنويا وان تعين حاكما برتبة جنرال بشرط ان يكون ايراد الاقليم لحكومة الكونغو تباشر استغلاله .

٣ ـ اذا كنت مقتنعا بان جنودك سيرفضون ان يتبعوك الى مصر فانى اعرض عليك ان تذهب مع اكبر عدد ممكن من الجنود المتعلقين بك الى شمال شرق بحيرة فيكتوريا حيث يمكنك الاستقرار باسم شركة شرق افريقية ، وسنساعدك على تشييد قلعة ، ونترك لك سفننا

وقد نصحه الدكتور امين قبل البت فى اى عرض من هذه العروض ان يطوف اولا بمراكز الاقليم ويتلو خطاب الحكومة على الضباط والجنود ، ولكنهم رفضوا جميعا الاذعان ، وذاع بينهم ان كتاب الخديو مزور ، وان الدكتور امين متواطىء على الانسحاب ، وعقدوا مجلسا برياسة البكباشى فضل المولى قرروا فيه عزل امين باشا من منصبه ونادوا بالبكباشى حامد محمد مديرا على الاقليم .

ولكن اليأس لم يتطرق الى قلب ستانلى فما زال يقنعهم تارة باطاعة اوامر الخديو ويغريهم اخرى الى ان نجح فى زحزحتهم عن موقفهم ، فانسحبوا الى سواحل زنجبار ، وسرعان ما حلت محلهم « الشركة البريطانية الشرقية الافريقية » لاستثمار خيرات الاقليم .

ورفض الدكتور امين السفر الى مصر ، وآثر الالتحاق بخدمة الحكومة الالمانية فى مستعمراتها بشرق افريقية ، الى ان لقى مصرعه فى اكتوبر ١٨٩٢ فى اثناء قيادته حملة على نهر الكونغو .

هكذا طوى العلم المصرى فى هذه المنطقة الاستوائية الشاسعة الارجاء وعلى المنابع الرئيسية التى يخرج النيل منها .

الظل الكئيب

محاولة فرض الحماية البريطانية على مصر ـ جيش الاحتلال يخفي نفسه ـ افلين بارنج حاكم مصر ـ الغاء المراقبة الثنائية ـ بعثة نور ثبروك ـ مؤتمر لندن والوفاق المالي المصري ـ النظام النقدي ـ الاستعباد الاقتصادي ـ محاربة الصناعة ـ الفلاح والسخرة ـ القضاء على التعليم .

بعد ان خيمت ظلال الاحتلال القاتمة على ضفاف النيل ببضعة اشهر ، اخذت صحف لندن توعز الى الحكومة البريطانية بفرض الحماية على مصر ، وشرع طلائع الاستعمار يطوفون القرى ومعهم عرائض ليوقع عليها العمد والمشايخ والاعيان وهي منطوية على التماس بوضع مصر تحت الحماية البريطانية .

ودعا الخديو اليه العلماء وطرح المسألة عليهم لاستطلاع رأيهم بشأنها ، فأجابوه بانه ليس لهم قول ولا راى بل ان الرأى في ذلك « منوط بالحضرة السلطانية » ، على ان عيون الاحرار لم تغفل عما يدبر في الظلام من مؤامرات لربط مصر بعجلة الامبراطورية البريطانية فاعلنوا بأن وضع مصر تحت الحماية سيخرجها من ظل الخلافة الاسلامية والسيادة العثمانية ، وسيكون فرض الحماية من بواعث تفاقم الثورة في جنوب الوادي وانتشارها الى البلاد العربية كافة .

ولم تستطع بريطانيا ان تواجه العاصفة فاحنت الرأس لها وقنعت بما غنمته من العتاد والمعدات الحربية وبالمبالغ الطائلة التي كانت تبتزها من الخزانة المصرية ومنها ١٧٤٠٠٠ جنيه نفقات الحملة البريطانية عن عام ١٨٨٢ و ٤٢٥٫٠٠٠ جنيه نفقات جيش الاحتلال عن عام ١٨٨٣ ومبلغ خمسمائة الف جنيه نفقات حملة السودان من السنة ذاتها وثلاثمائة وستين الف جنيه برسم جيش الاحتلال عن عام ١٨٨٤ ، ثم تخصيص مبلغ مائتي الف جنيه في كل عام للانفاق منه على شئون جيش الاحتلال .

كانت حاميات جيش الاحتلال فى البداية مكونة من جنود الجزيرة البريطانية ، وكان عددهم لا يتجاوز الاثنى عشر الفا ، ويقيمون فى ثكنات العباسية والقلعة وقصر النيل ورمل الاسكندرية وراس التين ومنطقة القناة ، وكان الضباط يختارون من بين ابناء البيوتات الكبيرة ، ويخضعون لاوامر وتعليمات صارمة ، فيبتعدون عن كل مايمس سياسة البلاد وحياتها ، ولم تكن لهم صلة مباشرة بالحكومة المصرية او جهات الادارة ، بل هم يدعون للمعتمد البريطانى وحده العناية عما كان يطلق عليه « مصالح بريطانيا » .

وصار جيش الاحتلال يغالى فى تستره ، فالضباط قلما يغادرون ابراجهم العاجية ، اذ ان لهم ندوتهم وناديهم وملاعبهم الرياضية وساحاتهم الخاصة بالبولو والتنس ، وكل مايهيىء لهم سبل الراحة ، وكانوا لا يختلطون بغير الموظفين البريطانيين ويبتعدون ابتعاداغريزيا عن كل ماليس انجلو سكسونيا ، ولم تكن مصر نفسها تعنيهم الا من بعيد ، اما الجنود فكانوا بدورهم لا يغادرون ثكناتهم الا لينفردوافى حانات ومواخير خاصة بهم يطوقها بوليس حربى شديد الحزم . فاذا ماحان موعد التدريبات والمناورات الحربية السنوية لجيش الاحتلال فيقوم بها عادة فى الصحارى والاماكن النائية البعيدة عن مواطن السكان .

وكان الغرض من كل هذه التحوطات والوسائل البارعة فى التخفى هو ان لاتقع ابصار المصريين على مناظر تحرك شجونهم وتهتاج مشاعرهم ، حتى اوشك المصريون فعلا ان لا يلقوا بالا الى وجود جيش اجنبى يجثم فوق صدورهم .

***

لقيت المقترحات التى وضعها لورد دوفرين لتنظيم الحماية المقنعة على مصر قبولا فى دوائر حكومة لندن ، وصارت بمثابة دستور يسير على هديه المعتمد البريطانى ومعاونوه من رجال الوكالة والمستشارين الذين فرضوا على كل دائرة من دوائر الحكومة وكل مرفق من مرافق البلاد .

كان اول معتمد بريطانى فى مصر سير افلين بارنج الذى عرف فيما بعد باسم لورد كرومر — وهو من اقطاب المدرسة الامبريالية ومن بناة الامبراطورية فى الشرق ، وقد لعب دورا خطيرا فى حياة مصر

فى غضون الستة والعشرين عاما التى تولى فيها منصبه وقد منحته حكومته سلطات واسعة النطاق ، وكانت تؤيد طلباته على طول الخط . اما هو فاستغل هذه الثقة فصار يحتقر المصريين وينظر اليهم نظرته الى رعايا ولاية هندية تحت حكم التاج البريطانى .

انحدر افلين بارنج من اسراة اشتهرت فى عالم التجارة والمال، يرجع منبتها الى المانيا ثم تجنس افرادها بالجنسية البريطانية متذ قرنين. وكان جده فرنسيس شخصية بارزة وحجة فى الشئون المالية ، كما كانت كلمته مسموعة فى مسائل العملة ؛ وكان ابوه هنرى مدير البنك بارنج ولشركة الهند الشرقية فمحافظا لبنك انجلترا . وولد افلين فى ٢٦ فبراير ١٨٤١ وبعد ان تلقى تعليمه فى مدرسة وولتش وقضى اعوامه الاولى فى سلاح المدفعية ، عين فى عام ١٨٧٢ سكرتيرا خاصـــا لابن عمه لورد نورثبروك نائب الملك فى الهند ، وفى خلال السنوات الاربع التى قضاها هناك استطاع الوقوف على اسرار الادارة الهندية . ثم لمع اسمه فى مصر عندما وقد عليها لاول مرة فى مارس ١٨٧٧ بوصفه عضوا فى لجنة الدين . وفى ١١ سبتمبر ١٨٨٣ عين « وكيلا مفوضا وقنصلا عاما » لدولته فى القاهرة ، فاكتفى باستلهام تجاربه فى الهند وتطبيقها شيئا فشيئا فى مصر .

كان جلادستون يبغى الجلاء حقا عن ضفاف النيل، ولكن بارنج كان يتشبث بالبقاء بحجة ان مصر لم تنضج بعد النضوج الكافى الـــذى يؤهلها لان تقف على قدميها ، وقد كتب اليه جلادستون بعد عام واحد من الاحتلال يقول : اتعشم ان تتمكن من ابداء النصح بسحب القوات البريطانية فى اول العام المقبل مع الاحتفاظ بقوة كافيـــة فى الاسكندرية ، ولكن بارنج رد عليه بقوله : اعتقد بانى سأتمـكن من التوصية بالجلاء قريبا وخفض القوة الكلية فى مصر .

وقد استطاع بارنج فى السنوات الاولى من الاحتلال ان يرفـــع سمعة مصر المالية على حساب كل اصلاح اقتصادى او اجتمـاعى او ثقافى ، فكانت اقساط الدين تسدد سنويا بانتظام ، وفـــوائد القروض تدفع فى مواعيدها ، وقلما كان يفتح مكتب بريد او تلغراف الا اذا كان مؤكدا انه سيغطى نفقاته ، ولم يكن فى الوسع انشاء محطة سكة حديدية الا اذا قدم سكان المنطقة الأرض اللازمة مجانا وتعهدوا بدفع العجز المحتمل وقوعه فى ايرادها .

والواقع انه كان من شروط بقاء الانجليز وشرعية الاحتـــلال أن ترضى الدول عن رعاية مصالحها الماليــة فى مصر ، فاذا لم تنجـح بريطانيا فى تنظيم شئون مصر المالية فى ظرف ثلاث سنوات فيجب ان تخلى مكانها للجنة دولية ، لذلك وجه بارنج معظم عنايتـــه الى الادارة المالية وتنمية الموارد الاقتصادية ووضع مصلحة حملة السندات فوق كل اعتبار .

وقد جاء فى تقرير دوفرين نص خاص بالغاء « المراقبة الثنائية » التى تغل يد انجلترا عن التصرف وفق هواها فى مالية مصر .

وكانت المراقبة الثنائية عبارة عن نظام فرضه حملة الســندات على مصر منذ عام ١٨٧٦ بحجة تنظيم شئونها المالية ، وقضى هـذا النظام بتعيين رقيبين فرنسي وبريطانى لمراقبة ايرادات الحكومــة ومصروفاتها ، ثم ابطلت المراقبة الثنائية فى عام ١٨٧٨ عندما شكل نوبار الوزارة المختلطة وادخل فيها الوزيرين الفرنسى والبريطانى . فلما ولى الخديو توفيق الحكم طلب الى الدول الاجنبية أن تسهم فى حل المشكلة المالية فاصرت على اعادة المراقبة الثنائية ، وقد اعيدت فعلا وعين سير افلين بارنج رقيبا على الايرادات ومسيو دى بلينير رقيبا على المصروفات ، وصار من حقهما التفتيش علـى أعمـال الوزارات والمصالح الحكومية ومراجعة حساباتها ، وحضور جلسات مجلس الوزراء والاشتراك فى مداولاته ، على ان يكون رايهمـا فى الظاهر استشاريا ،ولم يكن لمصر الحق فى عزلهما بدون موافقة حكومتيهما

وفى أعقاب الاحتلال ارادت بريطانيا ان تنفرد بالوصاية المالية على مصر ، فأوعزت الى مندوبها بالاعتذار عن حضور جلســات مجلس الوزراء حتى يمتنع المندوب الفرنسى بدوره من الاشتراك فيهـا . وفى ١٤ اكتوبر ١٨٨٢ انهت حكومة لندن الى فرنسا انهـا تضطلع الآن بأعباء المسئوليات الجسام فى مصر ولذلك فهى تـرى تكليف المندوب البريطانى وحده بشئون الرقابة المالية فى مصر . وقال جرانفيل فى كتابه الى الحكومة الفرنسية :

« ان المراقبة الموجودة حاليا لاتخلو من الخلل والاضطراب ، وان الحكومة البريطانية ترى العدول تماما عن هذا النظام واستبـداله بمستشار مالى أوربى يعينه الخديو ويحضر جلسات مجلس الوزراء اذا ما دعاه الخديو ، على ان لا يتدخل فى ادارة البلاد » وفى مقـابل

ذلك تعهد بريطانيا برياسة صندوق الدين الى العضو الفرنسي مع توسيع اختصاصاته .

وفى ٧ نوفمبر بعث محمد شريف رئيس الوزراء بكتاب موعز به الى حكومتى لندن وباريس ذكر فيه أن المراقبة الثنائية اصبحت ادارة سياسية لامزية لها فى تأييد الضمانات الممنوحة لاصحاب السندات وانها كانت من بواعث هياج خواطر المصريين وكان من نتائجها ايضا انها انتقصت بطريقة خطيرة سلطة الحكومة ، ولما كان قانون التصفية المصدق عليه من الدول لايعتبر المراقبة الثنائية فى فى جملة هذه الضمانات ولا جزءا منها ، وأن وجودها او الغاءها امر يتعلق باتفاق خاص بين حكومتى فرنسا وبريطانيا من جهة وبين الحكومة الخديوية من جهة اخرى ؛ فقد رات الحكومة المصرية العدول عن تأييد هذه الادارة التى لم يبق من سبب يوجب وجودها بالنسبة للدائنين » .

وفى ١١ يناير ١٨٨٣ استقال المراقب المالى البريطانى ، ثم صدر مرسوم خديو فى ١٨ يناير بالغاء المراقبة الثنائية ، فاحتجت فرنسا احتجاجا صارخا قدمه قنصلها العام الى الخديو وجاء فيه : ان للمراقبة الثنائية صفة دولية ولابد من استشارة الدول قبل الاقدام على الغائها . وفى ٢ فبراير أوضح محمد شريف فى كتابه الى الخديو البواعث التى حدت بالحكومة الى الغاء هذه الرقابة ، وتعيين الرقيب البريطانى فى منصب مستشار مالى للحكومة المصرية فقال :

« تكرمتم سموكم بالتصديق على صورة الامر العالى الذى تشرفت برفعه الى مقامكم السامى بتاريخ ٩ ربيع اول ١٣٠٠ الموافق ١٨ يناير ١٨٨٣ متضمنا الغاء الامرين الصادرين فى ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ و ١٥ نوفمبر ١٨٧٩ أحدهما يتعلق بالمراقبة والآخر بامتدادها ولقد ساعد حكومتكم السنية على عرض هذا الالغاء رغبتها فى مراعاة خواطر المصريين ، وتثبيت سلطتها ، فانه مهما تكن الخدمات التى أتت بها المراقبة ، فقد وضح ان تدخلها الذى تقتضيه فى الأعمال الادارية يعبث كثيرا باعمال وزارتكم . وكان من شانه ان ينقل سلطة الحكومة الى ايدى موظفين غير مسئولين لا يتعلق تعيينهم او استبدالهم بسموكم او بحكومتكم فقط ، وفضلا عما هنالك مما يغاير النظام الداخلى ، فان استمرار حضور المراقبين العموميين فى جلسات مجلس النظار ، مهما اعتبرت المسائل التى يبحث فيها ، كانت تخول هذه

المصلحة مزية سياسية تتجاوز مقاصد سموكم .

« ولما كانت حكومتكم السنية ، بعد ازالة هذه المغايرات ، ارتأت من الحكمة ان تتخذ مساعدا اجنبيا يعيننا على حل المسائل المالية ، فارجو مولاى ان يعطى لهذا الاوربى الذى سيصير موظفا مصريا لقب « مستشار مالى » يختص بسموكم امر اختياره وتعيينه ، ويتعلق بجنابكم العالى توا ، ومن ثم فيكون له ان يحضر جلسات مجلس الوزراء متى دعاه رئيس المجلس ، دون ان تكون له اختصاصات وزير ، وله ان يتفحص المسائل المالية ويبدى رايه بشأنها فى نطاق حدود يعينها سموكم ، وكيف كان الحال فليس له الحق مطلقا فى التدخل فى اعمال البلاد الادارية .

« واذا صدق سموكم على ما ارتأته حكومتكم فى هذا السبيل فاسمحوا لى وزملائى بان نعرض على جنابكم العالى اسناد منصب المستشار المالى الى سير اوكلند كلفن ، بناء على ان المدة التى قضاها فى درس ايرادات البلاد ووقوفه على انظمتها المالية تؤهلانه لنوال ثقة سموكم وثقة حكومتكم » .

وهكذا سيطر المحتلون على موارد البلاد والاستشار بالرقابة المالية بتعيين مستشار انجليزى صار هو صاحب الكلمة الاولى والاخيرة فى شئونها المالية ، ولم يكن فى الوسع ان تنفق الحكومة قرشا واحدا دون الحصول على موافقته .

***

ارتبك مركز مصر المالى وانهارت حالتها الاقتصادية نتيجة الاحتلال وما جره عليها من ويلات وخسائر فادحة لسد نفقات الحملة العسكرية البريطانية ونفقات جيش الاحتلال وما تكبدته من خسائر اخرى فى السودان وتدفق الموظفين البريطانيين على مناصب الدولة وتقاضيهم مرتبات باهظة ، وواجهت الحكومة ازمة عاصفة بحيث عجزت عن دفع مرتبات موظفيها ، واطل شبح الجوع والافلاس فى كل ركن من اركان البلاد ، فاشير على الحكومة بان تأخذ مبلغ خمسمائة وعشرين الف جنيه من الاموال المخصصة لصندوق الدين لتصريف الازمة بصفة مؤقتة .

وكان قانون التصفية قد حدد علاقة مصر بالدائنين وتحديد جانب من ايرادات الحكومة يخصص لدفع اقساط الدين وفوائده . فتقدم

الدين العام ومقداره ٩٨٫٧٤٨٫٩٣٠ جنيها الى دين موحد وهو ٥٨٫٠٤٠٫٣٢٦ جنيها ، ودين ممتاز وهو ٢٢٫٦٨٩٫٨٠٠ جنيه ثم دين الدائرة السنية ودين الدومين ، كما حددت الفائدة باربعة في المائة بدلا من سبعة في المائة .

وتقرر ان يقوم « صندوق الدين » على خدمة الدين الموحد والدين الممتاز ، والا تقدم الحكومة على عقد اى قرض بدون الحصول على موافقة الصندوق .

وكذلك نص قانون التصفية على الغاء « دين المقابلة » وتخصيص مبلغ مائة وخمسين الف جنيه ، لتعويض الدين دفعوا دين المقابلة وكان ملاك الاراضى قد دفعوا اربعة عشر مليون جنيه ، ولكن التعويض بلغ نصف هذا المبلغ مقسطا على خمسين سنة .

واصبحت فوائد الدين العام مضمونة بايرادات مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة واسيوط ومصالح السكك الحديدية والتلغرافات والجمارك .

وحدد القانون نفقات الدولة بمبلغ ٤٫٨٩٧٫٨٨٨ جنيها سنويا بما فى ذلك مبلغ ٦٨١٫٤٨٦ وهو مقدار الجزية التى تدفعها مصر الى الدولة العلية .

فمن ذلك ان قانون التصفية عرقل الاصلاحات المطلوبة للبلاد بتخصيص نصف موارد الخزانة العامة لدفع الديون وفوائدها وراعى الاجانب فأمنهم على اموالهم على حين انه غبن المصريين وحد من سلطة الحكومة فى التصرف فى ميزانيتها والقيام بنفقاتها على وجه مرض

وقد رات الحكومة البريطانية ان هذا الوضع يغل يدها عن التصرف فى شئون مصر المالية ، فدعت فى ١٩ ابريل ١٨٨٤ حكومات تركيا وفرنسا والمانيا وايطاليا والنمسا وروسيا الى عقد مؤتمر فى لندن لادخال تعديلات على قانون التصفية ، لمواجهة العجز الذى ظهر فى ميزانية الحكومة المصرية ، وقد لبت هذه الدول الدعوة واجتمع المؤتمر فعلا فى لندن فى ٢٨ يونيو ولكنه لم يلبث ان انفض فى ٢ اغسطس بعد ان اختلف المندوبون على الطريقة التى يمكن بها تسوية مركز مصر المالى ..

وكان من نتيجة فشل مؤتمر لندن ان اوفدت الحكومة البريطانية الى مصر لورد توماس جورج نورثبروك نائب الملك السابق فى الهند واحد رجالها الماليين وبصحبته الجنرال جرانت ولسلى والقاضى

الهندى محمد سميع الله خان وبعض الخبراء فى الشئون المالية والاقتصادية ، وقد وصلت هذه البعثة على مدرعة حربية الى الاسكندرية فى ٩ سبتمبر ١٨٨٤ فاطلقت المدافع تحية لقدومها واستقبلت استقبالا رسميا ورحب بوفادتها رئيس الوزارة نوبار والمعتمد البريطانى اقلين بارنج ومحافظ الاسكندرية ووكيل البحرية. ثم استانفت البعثة سفرها الى القاهرة حيث استقبلها مندوبون عن الخديو والوزراء وقواد جيش الاحتلال .

مكثت البعثة فى مصر قرابة ستة اسابيع عكف فى خلالها لورد نورثبروك على دراسة الحالة المالية واستطلاع آراء كبار رجال الحالية البريطانية ، وتفقد سير الاعمال فى محكمة الاستئناف والبوليس والسجون وبعض المستشفيات والمدارس والمصانع ، واستدعى الى مقره المديرين والعمد والاعيان ورجال المال والاعمال من الاجانب ، ليناقشهم فى مطالبهم ويقف على آرائهم بشأن الاصلاحات المطلوبة .

واعد تقريرا مفصلا عن المشكلة المالية والمسائل الادارية والاقتصادية ، ويعد تقريره الثانى من نوعه بعد تقرير لورد دوفرين

اقترح لورد نورثبروك ان تبادر مصر الى عقد قرض بضمان حكومة لندن قدره خمسة ملايين من الجنيهات وبفائدة ٣½٪ وان تخفض فوائد الدين الموحد والدائرة السنية بمقدار ½١٪ وان تؤجل تادية اقساط الاستهلاك وتطرح للبيع فورا اراضى الدائرة السنية والدومين وان يتساوى الاجانب مع المصريين فى دفع جميع انواع الضرائب المقررة ، وان تخفض ضريبة الارض الزراعية بمقدار اربعمائة وخمسين الف جنيه سنويا ، وكذلك تخفض فائدة اسهم قناة السويس من ٥٪ الى ٣٪ .

وقال عن المزارعين ان حالتهم ليست فى فقر مدقع بل ان اسباب المعيشة متوفرة لديهم ، وان مستواهم ارقى بكثير من مستوى المزارعين فى الهند وهذا يرجع الى خصوبة أراضى النيل .

ونوه بان معظم الفلاحين فى الدلتا يقعون تحت طائلة الديون ، اما فى الصعيد فان جميع المزارعين بدون استثناء يعمدون الى الاستدانة، وليست هذه الديون ناشئة عن ثقل الضرائب ولكنها ترجع الى ان جباة الضرائب فى العهد الماضى كانوا يعمدون الى اختلاس جانب كبير من الضرائب فيضطر الفلاح الى دفع الضريبة مرتين وثلاثا .

والمع الى ان من اهم اسباب ديون الفلاحين افراطهم فى شئون الزواج وكثرة انجاب الاطفال والاسراف فى النفقات الشخصية . ويجب معالجة هذه الحالة بشن تشريع للسلفيات، وتحصيل الضرائب فى مواعيد مقررة وفى اعقاب جنى محصول الارض .

وذكر بأن شعور المصريين نحو الحكومة طيب ، ولا يوجد ادنى عطف او ميل للثورة فى السودان ، وان المديرين والحكام على جانب من الحصافة والذكاء ، ولهم المام بأحوال الاقاليم التى يتولون حكمها ، وهم محترمون من الاهلين وحاصلون على قسط من العلم والمدنية ، وقد وصلوا الى المناصب الرئيسية عن طريق ترقيتهم من وظائف صغيرة ، وقد اثبت المستخدمون فى دوائر الحكومة بمصر فاتهم انهم لا يسيرون فى اعمالهم بالعدل والاستقامة ، وهذا ناشىء عن قلة المرتبات التى يتقاضونها ، ولهذا فهم يعمدون الى الاختلاس وقبول الرشوة ، وهو يقترح انقاص عدد الكتبة والسعاة وارباب الوظائف الصغيرة مع تعديل مرتباتهم . اما ادارة الاحكام فى الريف فهى فى ايدى العمد والمشايخ ، وهؤلاء يقومون بأعمالهم دون ان يتقاضوا مكافاة ، ولذا فهو يقترح ان يعفى جزء من اراضيهم من الضرائب وان يعفى ابناؤهم من الجندية ، وكذلك يوصي بمنح مكافآت شهرية بسيطة للخفراء والحراس حتى تتحسن حالة الريف ويستتب الامن فى ربوعه .

وتناول التقرير الانظمة السائدة فى المحاكم والسجون ونصح الحكومة بأن توفد سنويا بعض المتفوقين من طلبة المدرسة الحربية فى بعثة الى كلية سانت هيرست العسكرية ليستزيدوا من الثقافة الحربية .

وختم لورد نورثبروك تقريره بأنه لا يستطيع ان يشير على حكومة لندن بتحديد موعد للجلاء لان ذلك متوقف على تقدم الجيش وتحسن شئون مصر المالية والادارية .

استانف مؤتمر لندن عقد جلساته بناء على المساعى الدبلوماسية التى بذلتها بريطانيا لعرض مقترحات لورد نورثبروك عليه وانتهى المؤتمر فى ١٨ مارس ١٨٨٥ بوضع ما سمى « بالوفاق المالى المصرى» فظل بمثابة الدستور المالى لمصر عدة سنوات وهو يقضى بعقد قرض من بيت روتشيلد بضمان بريطانيا وفرنسا والمانيا وايطاليا وروسيا

قيمته الاسمية تسعة ملايين من الجنيهات بفائدة ٣١/٢ يدفع منه ٢٫٦٥٧٫٠٠٠ جنيه قيمة العجز فى ميزانية ١٨٨٤ وما سبقها و ١٫٢٠٠٫٠٠٠ قيمة العجز المتوقع حصوله فى ميزانية ١٨٨٥ ومليون جنيه لمشروعات الرى ونصف مليون وخمسين الف جنيه تعويضات عن الغاء بعض المعاشات ونصف مليون جنيه احتياطى لخدمة الخزانة العامة ويدفع من هذا القرض ايضا تعويضات حوادث الاسكندرية وما يتبقى يستهلك من اصل الدين بشراء سندات بقيمتها ،

وأوصى المؤتمر بالغاء النص الخاص فى قانون التصفية بالتصرف فى الزائد من الايراد ويستعاض عنه بنص آخر يقضى بأن عجوز الميزانية الحرة تغطى من الايرادات المخصصة ، وان تقسم الزيادة العامة الى قسمين احدهما لصندوق الدين والآخر للحكومة . ولكى ينفذ هذا الشرط على وجهه الصحيح حددت نفقات الحكومة السنوية — اى الجزء المقابل للايرادات الحرة — تحديدا دائما بمبلغ ٥٫٢٣٧٫٠٠٠ جنيه .

هكذا عادت مأساة الاحتلال على مصر بنكبات مالية اخرى. وحمل الانجليز ميزانية مصر ما انفقوه فى حملتهم العسكرية الغاشمة عليها، وكذلك نفقات جيش الاحتلال ، والتعويضات الخاصة بحريق الاسكندرية والتخريب الذى ترتب على ضربها بمدافع اسطولهم .

والانجليز الذين طالما عابوا على مصر سياسة الاقتراض وتدخلوا فى شئونها بحجة حماية اصحاب القروض وتنظيم ميزانيتها هم الذين سعوا الى عقد هذا القرض المشئوم والقوا العبء على كاهل دافعى الضرائب الابرياء من المصريين وليس على الذين خربوا الاسكندرية واشعلوا الحرائق فى ارجائها .

وفى ١٤ نوفمبر ١٨٨٥ صدر مرسوم خديو تناول اصلاح النظام النقدى واتخاذ الجنيه المصرى وحدة للنقود المصرية ، نظرا الى ان الفضة فى انخفاض مستمر ، ومعظم الدول التى تتعامل مع مصر اصبحت تتبع نظام المعدن الفردى الذهبى .

جعلت وحدة النقود المصرية الجنيه ووزنه ٨٫٥ جرام من الذهب ويقسم الى مائة قرش ، وان تسك الى جانبه قطع من الذهب من ذات الخمسين قرشا والعشرين قرشا والعشرة قروش والخمسة قروش وسك نقود فضية جديدة لتحل محل النقود الفضية الاجنبية التى يجب ان تسحب تدريجيا من التداول ، وجعلت عملة القرش

تحوى على قطع من ذات العشرين والعشرة والخمسة والقرشين والقرش ونصف القرش وربع القرش ، وعين حد اقصى لما يجوز الحكومة ان تسلكه منها وهو اربعون قرشا لكل فرد من السكان بشرط الا يزيد المتداول من الفضة على ٢٧٢٠٠٠٠ر٢ جنيه .

وكذلك نص المرسوم على تقسيم القرش الى عشرة مليمات بدلا من اربعين بارة ، وسك نقود صغيرة القيمة من النيكل من ذات خمسة مليمات والمليمين والمليم وذلك الى جانب نقود برونزية من ذات نصف المليم وربع المليم ، فاصبح النقود النيكلية ثلاث وحدات والبرونزية وحدتان ، واشترط الا يزيد المتداول من هذه العملة على مبلغ ٥٤٤٠٠٠ر جنيه .

نجحت النقود الفضية الجديدة فى طرد العملة الفضية الاجنبية التى كانت متداولة ، الا ان القطع الذهبية ذات العشرة قروش والخمسة قروش لم تصبح سهلة التداول نظرا لصغر حجمها واصبحت لا تستعمل الا فى الزينة وفى حفلات الاعراس .

***

اهتم الاحتلال بربط عجلة الاقتصاد المصرى ببريطانيا عن طريق النهوض بالانتاج الزراعى وبالاخص محصول القطن ، وبتنمية الإيرادات بتوسيع مساحة الارض المنزرعة وتنظيم سبل الرى وحماية المزارع المحدودة الدخل لمصلحة الراسمالية الاوربية وذلك على اعتبار انها اداة للانتاج .

واخذ المحتلون يفتخرون بانهم قد حققوا الاصلاحات التى كان عرابى قد وعد بها الفلاحين ، وكيف انهم استطاعوا ان يجبروا الحكام والمشايخ الطغاة على احترام القانون ، وصوروا الفلاح على انه نهض من اعماق البؤس الى الذروة فى النعيم .

وراح افلين بارنج — كرومر — يلقب نفسه بحامى الفلاح ويزهو بانه يبسط ظله على اصحاب الجلاليب الزرقاء ، ويوهم العوانس ورجال الكهنوت البروتستنتى فى انجلترا باسطورة فحواها انه منقذ الانسانية المعذبة فى مصر ، ويكذب على حكومته فى تقريره عن عام ١٨٨٤ حين ذكر « بان نظام الحكم الاستبدادى العتيق ليس فى دور الاحتضار بل قضى عليه فعلا ، فقد ابطل الكرباج ، تلك الآلة الجهنمية

التي تستخدم في تحصيل الضرائب وحمل المتهمين على الاعتراف ، وكذلك انتبقى من السخرة اقامة السدود وخفارة الجسور » .

والواقع ان الكرباج كان لايزال يستخدم ليس فى مصر وحدها بل فى الجيش والسجون والمدارس فى بريطانيا ، اما السخرة فقد أجاز كرومر اعفاء الاشخاص المطلوبين للسخرة بشرط ان يدفعوا الى الحكومة ضريبة سنوية فى مقابل الاعفاء منها ، ونسى ان المطلوبين للسخرة هم من طبقة الفقراء الذين لا يملكون قرشا واحدا .

وقد دون مستر فيلرس ستيوارت احد اعضاء البرلمان البريطانى فى تقرير رسمى : « رغبت ان ارى كيف تجرى اعمال السخرة رأى العين ، فذهبت الى جهة تنشأ فيهـا ترعة جديدة وشاهدتهم يحفرون فى أرض رملية ذات حصى حفرة عمقها ثمانية عشر قدما ، وكان لهذه الحفرة ضفتان مرتفعتان من تراب الحفر ارتفاع كل منهما من قاع الحفرة نحو اربعين قدما ، وكان الفلاحون يجتمعون على مسافة ميل فى قاع الحفرة ، وعلى الضفتين مثل النمل ، وقال لى الناظر ان عدد المسخرين الذى يبلغ الالوف تحت مراقبتى وان هؤلاء الفعلة يشتغلون من شروق الشمس الى غروبها ولا ينقطعون عن العمل الا برهة يسيرة عند الظهر يتناولون فى اثنائها خبزهم الجاف الذى يجلبه لهم اهلهم مبلولا بماء النيل ، وكذلك يأكلون قبل مباشرة العمل وعند الفراغ منه ، وكانوا يملأون مقاطف صغيرة بالتراب الذى يحفرونه بأصابعهم ، وكان مع عدد يسير منهم معاول يبلغ طولهـا قدما واحدة . اما اغلبهم فيعمل بيده ، ومنهم من يقدم الآلات والمقاطف وكان الحر لافحا وقد بلغت درجته فى الظل ٨٢ فهرنهيت ولعلهـا كانت بالغة فى قاع الحفرة ، وكان هؤلاء الفعلة يضعون على رءوسهم لبدة مشابهة لغطاء رءوس الفعلة المنقوش على قبور الدولة الرابعة الفرعونية ، وفى الليل يفترشون الغبراء وليس لهم غطاء سوى اثوابهم الرثة البالية ، وكان البرد فى الليل شديدا ، ومن بينهم عدد وافر من النظار مسلحين بالعصى ، وكانوا يضربون بها الفعلة دون سبب ما ، وكان قسم كبير من هؤلاء الفعلة يشكون ألما فى اصابع اقدامهم ، فان التراب الذى يحفرونه يحوى مقدارا من قطع الصوان ، وكان الرمد منتشرا بينهم ، وقد اكره المئات منهم على ترك أرضهم بورا ، واختطفوا من قراهم قسرا مع ان جيرانهم كانوا او فرحظا منهم اذ ظلوا يباشرون

اعمالهم فى قراهم نتيجة مراعاة الخاطر والرشوة » .

واخذ كرومر على عاتقه تنظيم دفع الضرائب وتيسير وسائل الرى وحماية صغار المزارعين من عسف كبار الملاك ليمكنهم العمل ، ومتى امكنهم العمل ازدادت الكفاية الانتاجية ، فيسهل على مصر ان تؤدى ما عليها من اقساط القروض ، ويتبع ذلك بطبيعة الحال زيادة القوة الشرائية بما يؤدى الى استهلاك الكثير من المنتجات الاوربية .

تقدمت الزراعة وتحسنت وسائل الري وارتفع مستوى الانتاج ، ولكن الفلاح برغم هذا كله لم ينتفع من هذا التحسين بشيء يذكر ، اذ عادت جميع الفوائد والارباح على حملة الاسهم وعلى المصانع البريطانية ، وظل الفلاح يئن من عبء الربا الفاحش ومن تسرب الملكيات الصغيرة الى ايدى الاجانب ، ولم يحرر ثراء الارض واخصابها الفلاح من الفقر والعوز ومن ارتكاب جرائم السرقة ، بل ان ثمار كده وعرق جبينه انصرف الى جيوب الماليين الاجانب وطبقة الاقطاعيين فى صورة ارباح مكدسة .

ونجح كرومر فى تحويل مصر الى مزرعة لانتاج القطن ، فزادت مساحة الارض المنزرعة قطنا من ٠٠٠ر٨٠٠ فدان الى ٠٠٠ر٦٤٠ر١ فدان وزاد المحصول من ٠٠٠ر٨١٨ر١ قنطار الى ٠٠٠ر٢٥٠ر٦ قنطار

وادى التوسع فى زراعة القطن الى قلة مساحة الارض التى كانت تزرع من قبل قمحا واذرة ، وبعد ان كانت مصر من اهراء القمح المعروفة فى العالم ، تحولت من بلد يصدر الحبوب والمواد الغذائية الى مستورد لها من أسواق الخارج .

وقضى على زراعة الدخان وفرضت عقوبات صارمة على كل من يقدم على زراعته حتى لا ينافس القطن فى استغلال الارض من ناحية والحصول على ضرائب جمركية عالية من ناحية اخرى .

وكانت زراعة الدخان وتجارته فى ايدى طائفة من الارمن والسوريين واليونانيين ، فعرضوا على الحكومة ان يدفعوا لها مبلغ ثلاثمائة الف جنيه سنويا للعدول عن قرارها ، ويدفعوا فوق هذا ٦٥٪ من صافى الارباح سنويا اذا وصلت الى مائة وخمسين الف جنيه و ٧٣٪ اذ تعدت الارباح هذا الرقم ، على ان الحكومة مضت فى تنفيذ قرارها .

وادى استصلاح الاراضى الزراعية واقامة القناطر والسدود والخزانات ، وشق الترع ومد الخطوط الحديدية والسلكية . واصطناع مظاهر الحضارة الغربية الى تعبيد الطريق امام الشركات

الاجنبية ، فقامت المصارف وشركات الرهون العقارية والزراعية والبناء والنقل والاحتكار وشركات استغلال المرافق العامة التى ضمنت الحكومة خسائرها ، واتسع مجال العمل والاستثمار فيها ، وادت هذه الشركات خدمات ولكن للارستقراطية المالية وحدها ، وصارت اهدافها وقفا على اهل اليسار ، وتفننت فى سبيل استنزاف الاموال من البسطاء ، وجعلت تتودد الى الطبقات المتوسطة وتسهل لهم سبل الاستدانة حتى تستولى على ممتلكاتهم وتحل محلهم فى اراضيهم ومتاجرهم ومصانعهم .

ولم تستخدم هذه الشركات فى وظائفها سوى العناصر الاجنبيه الدخيلة ، واقصت عنها العنصر الوطنى ، وصارت مكاتباتها وطرق امساك دفاترها وحساباتها تجرى باللغات الاجنبية ولا تخضع لرقابة الدولة او لاى لون من الوان الضرائب .

وكذلك بدات رءوس الاموال الاجنبية تغزو السوق ، واحتلت تجارة القطن المقام الاول ، فكان معدل ما يصدر من القطن وبذرته نحو ٨١٪ من مجموع الصادرات ، وصارت مصر تصدر حاصلاتها الزراعية فى مقابل استيراد الاقمشة والآلات .

وبعد ان كانت الواردات التركية معفاة من الرسوم الجمركية ، خضعت بعد الاحتلال لهذه الرسوم ، الى ان تضاءل مركز تركيا التجارى فى مصر وحلت بريطانيا محلها .

كان كرومر يدرك تمام الادراك ان قيام مصنع فى مصر معناه تعطيل مصنع فى انجلترا ، فقامت سياسة الاحتلال على ابقاء مصر بلدا زراعيا ، والقى فى روع المصريين بأن مصر لا تصلح لان تكون بلدا صناعيا لخلوها من الفحم والحديد والقوى المحركة ، وان منسوجات لنكشير تباع بسعر ارخص فيما لو نسج القطن فى مصر ، وادت هذه الدعاية الجوفاء الى تراخى الهمم وتحطيم الروح المعنوية وبينما كانت اوربا مقبلة على عصر تقدم ملموس ، كانت الصناعة المصرية فى دور اضمحلال وانحلال ، وقد برر كرومر هذه السياسة بقوله : « لما كانت مصر بلدا زراعيا فان الزراعة تكون همه الاول ، وكل تعليم صناعى يقضى على حراثة الارض انما يعد مصيبة على الامة ، لانه يقلل من ميل السكان الى الزراعة » .

وسرعان ما اختفت من الشوارع والاسواق المتاجر التى كانت مكتظة بالمصنوعات الوطنية وحلت محلها متاجر تعرض الاثاث

والملابس والمصنوعات الواردة من الخارج ، وظلت الصناعات الصغيرة كالصابون والشمع والزيوت والصباغة والسكر تقاوم ، ثم قامت فيما بعد صناعات اخرى تمولها رءوس اموال اجنبية كالمحالج والكحول والسجائر .

لقد رأينا كيف نصح قنصل انجلترا الوالى عباس الاول باغلاق المصانع القائمة فى مصر ، لتحتكر مصانع لنكشير توريد المنسوجات والاقمشة المختلفة ، ثم حذا كرومر حذوه فاشار باغلاق ما تبقى من مصانع النسيج والورق ودار سك النقود والترسانة ومصانع صب المدافع والاسلحة والذخائر ، وفرض رسما قدره ٨٪ على جميع المصنوعات القطنية الوطنية ، وعلى الفحم المستورد اللازم للصناعة ، وبذلك اندثرت الصناعة المحلية .

وانشأ الانجليز فى لندن « مكتب المشتروات للحكومة المصرية » وجعلوا مهمته ابتياع جميع ما تحتاجه الوزارات والمصالح من مهمات واسلحة وادوات المستشفيات والقاطرات وعربات السكك الحديدية والفحم حتى ورق الكتابة ، كل ذلك سار وقفا على مصانع انجلترا وحدها .

وكانت مصر تملك اسطولا بحريا ضخما يعرف باسم « بواخر البوستة الخديوية » ويشمل احدى عشرة باخرة تعمل فى البحرين الابيض والاحمر فى نقل المسافرين والبضائع والبريد ويرفرف العلم المصرى فوق سارياتها ، وكان يتبعه حوض كبير فى الاسكندرية وآخر فى السويس لاصلاح البواخر وصيانتها وترميمها ، فتقدم الانجليز بمشروع للتخلص من الاسطول ومن الحوضين فبيعت الى شركة بريطانية بثمن بخس قدره مائة وخمسون الف جنيه ، وبذلك قضى على الاسطول التجارى وانطوت صفحة مجيدة من صفحات البحرية المصرية .

وعلى هدى ماجاء فى دستور دوفرين للتخلص من املاك الدائرة السنية بيعت الاراضى وما يتبعها من مصانع للسكر عددها تسعة مصانع وسكة حديدية ضيقة بقاطراتها ومركباتها وخطوطها وورش الصيانة بها الى شركة اجنبية لقاء مبلغ ستة ملايين جنيه وكانت صفقة خاسرة بالنسبة للحكومة ، كما بيعت سكة حديد حلوان بفروعها ومنشآتها الى شركة سوارس اليهودية

البريطانية لقاء مبلغ مائة وعشرين الف جنيه بما فيها فندق حلوان والحمامات الكبريتية والكازينو وميدان سعيد .

واعلن المحتلون عن بيع تفتيش الوادى ومساحته تقرب من العشرين الف فدان لولا ان ناهضهم رجال الدين وتمسكوا بأن التفتيش وقف على التعليم ولا يجوز التصرف فيه بالبيع أو الرهن

واخذ كرومر يتفنن فى جباية ضرائب جديدة لسد عجز الميزانية وضمان سداد الفوائد لاصحاب القروض مثال ذلك صدور امر عال بان كل شخص قابل للتجنيد يعفى من العسكرية متى دفع للحكومة مبلغ اربعين جنيها قبل الاقتراع ومائة جنيه بعد التجنيد، واستطاعت الحكومة بهذه الطريقة ان تجبى مائة وخمسين الف جنيه سنويا .

وكذلك فرض بدل سخرة مقداره ثلاثون قرشا فى الصعيد واربعون قرشا فى الدلتا عن كل شخص ، ولاول مرة فرضت على الاجانب ضريبة المساكن ، ورفع الرسم الجمركى على الدخان الوارد من تركيا واليونان الى اربعين فى المائة .

***

وبسط الاحتلال ظله الكئيب على التعليم . فقد كانت الغاية التى يسعى المحتلون اليها هى تحويل مصر الى مستعمرة من مستعمرات التاج واستعباد شعبها واذلاله بوضعه فى حيز ضيق من المعارف والتعليم على ان يكون ما يقدم اليه مصطبغا بالصبغة السكسونية .

واغلق الانجليز المدارس فى وجوه الطبقات المتوسطة والكادحة . كما عطلوا التعليم فى الكثير من الكتاتيب فى القرى بسبب قلة المال وحولت الى مخازن للحاصلات الزراعية وحظائر للماشية ، وفرضت مصروفات مدرسية باهظة على جميع مراحل التعليم ، وكانت حجة كرومر من الغاء المجانية فى المدارس هو ان التعلم المجانى وضع فى الاصل ليستفيد منه الفقير ، الا انه لم يستفد منه فعلا الا اهل اليسار ومحاسيبهم عن طريق النفوذ والوساطة والشفاعة .

وتسلم زمام التعليم طبقة من أساطين الاستعمار ، فرسموا برامج الدراسة على أساس فرض الانجليزية لغة فى جميع المواد مع محاربة اللغة العربية ، وولوا نظارة المدارس بنى جنسهم ، وشحنت مناصب التدريس بمئات من المعلمين الانجليز الذين حلوا محل المصريين ،

وصارت مواد الدراسة عقيمة لا تاتي بالفوائد المرجوة ولا تواثم البيئة المصرية ، وكان الغرض من التعليم كما اعترف كرومر فى احد تقاريره السنوية هو « تلقين النشء بعض دروس ابتدائية فى الحساب واللغة العربية واعداد فريق من الطلاب ليتقلدوا فيما بعد الوظائف الحكومية البسيطة كالاعمال الكتابية والحسابية » .

وصار المستشار المالى يقتر فى الانفاق على شئون التعليم وبعد ان كانت ميزانية التعليم نحو ٩٩٥٤٩ جنيها هبطت فى السنوات الاولى للاحتلال الى ٦٩٫٨٤٦ اى ان التخفيض كان بنسبة الثلث ، كما شمل التقتير فى نفقات التعليم فى عام ١٨٨٣ اغلق ٢٢ مدرسة ثانوية وثلاث مدارس فنية ومدرسة المعلمين واخرى للمساحة وانحط مستوى التعليم فى جميع المدارس العالية .

لم يكتف المحتلون بان اشاعوا الجهل ودفن الشعب فى الامية ، بل عمدوا الى التاريخ القومى فمسخوه وصوروا مصر على انها امة ذليلة وطأ ارضها الغزاة من الهكسوس والفرس واليونان والرومان والعرب والاتراك ، فكانت مصر تستقبل الفاتحين بمظاهر الحفاوة وتسلس القياد لهم ، واخفوا عن عيون النشء حركات المقاومة والكفاح الشعبى وحرموا عليهم دراسة الآثار المصرية وجعلها وقفا على الاجانب حتى لا تستيقظ فى نفوس المصريين نزعة الاشادة بامجاد الجدود والتشبه بهم ، وفى الوقت ذاته القوا فى روع النشء بان بريطانيا سيدة البحار وان الامبراطورية من القوة والعظمة بحيث لا تغيب الشمس عنها .

وحاول كرومر ان يلبس مسوح المصلح الاخلاقى ، ولكن اضطراب حبل الامن كذبه فى دعواه ، فازدادت الجرائم زيادة مطردة ، وكانت لا تقل سنويا عن اربعة آلاف جريمة وسبعة عشر الف جنحة ، وذلك نتيجة انتشار الفقر وتفشى الافلاس الاقتصادى .

والقى بزمام الامن فى البلاد الى كليفورد لويد وجعله وكيلا لوزارة الداخلية ، وكان رجلا طائشا وقحا ، له تصرفات شاذة فاستأثر بالسلطة فى الوزارة الى حد انه فى مارس ١٨٨٤ اطلق سراح اربعمائة سجين من المجرمين والاشقياء مما زاد من جراة اللصوص وقويت شوكتهم ، واصبحوا يهاجمون القرى والمدن فى رابعة النهار كما امر بتعذيب غيرهم من المسجونين وتعليقهم من اطرافهم وضربهم بالكرباج .

وازاء تفشى حوادث الاجرام اشار كرومر بانشاء « قومسيونات الاشقياء » وهى اشبه بالمحاكم العسكرية تؤلف من المدير والعمد للتحقيق فى حالة الاشخاص المشتبه فيهم ونفيهم اداريا الى الواحات وكذلك قامت « قومسيونات الجنايات » لمحاكمة اللصوص وكبار المجرمين ، وكان لا يقبل الطعن فى هذه الاحكام .

اشتدت وطأة نوبار على البلاد وصار يحارب الرأى العام ممثلا فى الصحافة ، فعطل الكثير من الصحف الوطنية ، ومنع صحيفة « العروة الوثقى » التى يصدرها بباريس الافغانى ومحمد عبده من دخول مصر ومعاقبة كل من توجد فى حوزته نسخة منها بغرامة وكانت هذه الصحيفة تناهض الاحتلال وتحمل على الاستعمار فى الشرق حملات شعواء وتبصر المسلمين بحقوقهم .

وكانت صحيفة « البوسفور اجبسيان » الفرنسية توجه حملات قاسية على سياسة الاحتلال ، فانتهز نوبار فرصة اقدامها على نشر منشور للمهدى فى عددها الصادر فى ٥ ابريل ١٨٨٥ واصدر امرا بتعطيل صدور الجريدة وغلق مطبعتها ، وفعلا مضت ثلة من رجال البوليس الى المطبعة واخرجت العمال وشهد الحادث وكيل قنصل فرنسا .

وتطورت هذه المسألة الى حد ان رئيس الوزارة الفرنسية وجه انذارا الى الحكومة المصرية فى ١٨ ابريل فحواه : « فصل ضباط البوليس الذين اقتحموا مطبعة البوسفور اجبسيان واهانوا قنصل فرنسا ، وتقديم الاعتذار رسميا ، والسماح بصدور الصحيفة واذا ترددت الحكومة المصرية فى اجابة هذه الطلبات فان الحكومة الفرنسية لن تتوانى عن اتخاذ الاجراءات اللازمة للمحافظة على حقوقها ، ومن بين هذه الاجراءات : وقف العمل بالوفاق المالى المصرى ، وامتناع رعاياها عن دفع ضريبة المساكن ، وقطع علاقات فرنسا الدبلوماسية بمصر » .

وصار من المتوقع ان يظل نوبار الذى خدم المحتلين بسلخ السودان وتمكينهم من الاحتلال ، رئيسا للوزارة الى الابد ، ولكن الانجليز كعادتهم ، ماكادوا يظفرون ببغيتهم منه حتى تخلوا عنه ، ثم وقع خلاف بينه وبين الخديو فنحاه عن الحكم بخطاب وجهه اليه فى ٧ يونيو ١٨٨٨ قال فيه : « بناء على ما وقع فى جلسة مجلس

الوزراء امس وتكرار تباين الآراء بيننا ، مما رأيت معه استحالة بقائك فى منصبك ، فلهذا قد فصلتك من وظيفتك وعهدت بالرياسة الى صاحب الدولة رياض باشا » .

وقوبل نبأ اقالة هذا الارمنى بالغبطة والارتياح من افراد الشعب، فقد كان بغيضا الى نفوس الوطنيين ، وكان اشأم وزير عرفته مصر، اذ فرط فى حقوقها وسلم مقاليد امورها الى اعدائها ، وكان خاضعا خضوعا اعمى للمحتلين الذين يملون عليه ارادتهم .

وجاء الانجليز بمصطفى رياض — احد صنائعهم — وظل يشارك المحتلين عواطفهم الى ان ساءت العلاقة بينه وبينهم فاستقال فى ١٢ مايو ١٨٩١ حيث حل محله مصطفى فهمى وكان الوزير الاول الذى ينشده الاحتلال .

وفى يوم السبت ٩ يناير ١٨٩٢ صدرت صحيفة « الوقائع المصرية » مجللة بالسواد وفى صدرها النعى التالى : الجناب الخديو محمد توفيق باشا توفى الى رحمة الله فى الليلة الفائتة فى الساعة السابعة وسبع عشرة دقيقة افرنكى ليلا بسراى حلوان ، وايذانا بالحزن ستقفل كافة دواوين الحكومة والمصالح العمومية يومى السبت والاحد ٩ و ١٠ يناير » .

تنفس الشعب الصعداء باختفاء شبح ذلك الحاكم الماجن ، الذى جر على مصر ببلاهته ونزواته الشاذة المصائب والويلات، وسلط عليها الغزاة الاغراب لينكسوا راسها ويطفئوا شعلة الحرية التى اضاءت جوانبها ، وفاتهم جميعا — وهم فى نشوة فوزهم الرخيص — ان الشعب قد يقهر مرة او مرات ، ولكنه لا يمكن ان يفنى أو يلحقه العقم ، فالشعب خالد لا يموت ابدا ، وهو لا ينفك ينجب بين يوم وآخر بطلا مغوارا يقود جيشا فتيا يطالب بالثار ، أو زعيما يبعث الوعى ويثير الفداء فى نفوس المصريين ويأخذ بايديهم نحو السؤدد والمجد .

مصر للمصريين

مصر للمصريين . . . . . .

مصر للمصريين وليست للعثمانيين او الاجانب .

هذه هي الصيحة التي دوت منذ أجيال على ضفاف النيل ، بعد ان استكان الشعب حقبة طويلة للظلم وللفقر المادي والروحي ، وتآمر على اذلاله الحكام الاغراب والاقطاعيون من السلالات الاجنبية الذين كان الخديو يحابيهم ويضفي عليهم من الالقاب والنفوذ والثروة ما جعلهم يمتازون عن المصريين ، فاستيقظ الفلاحون الذين شادوا تراث مصر وامجادها وثراثها ، ومنحوها القوة العسكرية الضخمة لتزلزل بها العروش الفاسدة التي نخرها السوس ، استيقظوا على انتفاضة عرابى « لسنا عقارا ولا نورث بعد اليوم » واستطاعوا أن يرفعوا هاماتهم التي نكسها الاضطهاد والعدوان ، رفعوها تحت راية الجيش ، الحارس الامين للشعب ، والمدافع عن حقوق المواطنين ، والقوة الوحيدة التي تحمى الكنانة من عسف العناصر الدخيلة . . .

والواقع ان مصر قاست في ظل الحكم الارهابي الذي فرضته اسرة محمد علي ، من استفاضة الكوارث واستفحال الخطوب وشيوع الفساد ، الشيء الكثير . ولكنها احتفظت وسط العواصف والاعاصير باصالتها وعراقتها ومميزاتها ، ثم انتقلت الفكرة القومية اليها مع الافكار التي حملها الي ثرى الوادي الشبان الذين اصابوا حظا وافرا من التعليم والثقافة في جامعات الغرب ، وتشربوا المبادىء التي قامت عليها الثورة الفرنسية ، وهي : الحرية والاخاء والمساواة ، وتجلت آثار هذه التعاليم في سلسلة المقالات الحارة التي ظهرت على صفحات الصحف السياسية ، وفي منشورات الخلايا السرية التي توفر على اصدارها نخبة من شباب « مصر الفتاة » و « الحزب الوطني » ، وفي صفوف المعارضة في مجلس النواب الذي حاولت الرجعية ان تعصف به وتفضه بالقوة ، واخيرا تمثلت الدعوة القومية في بيانات وخطب واعمال احمد عرابى وصحبه .

انبثق الفيض الثوري من وجدان الشعب ، واخذ الزعماء على عاتقهم تحرير الفرد والمجموع من قيود الاستبداد ، وكافحوا كفاحا

شاقا مريرا بغية استخلاص الارض الطيبة من ايدى الواغلين ، وهاجموا الامتيازات التى تستأثر بها أسرة الخديو ومن يلوذ بها من الترك والمفاليك ، وواجهوا الخيانات المتراكمة صفا واحدا بقصد احباطها ، ولكن قوى الشر والظلام الممثلة فى الرجعية والرأسمالية اليهودية والتدخل الاجنبى تكاثرت على المصريين ، محاولة بلبلة الافكار الثورية ، ونفث سمومها بين صفوف الكتلة الشعبية للعودة بها القهقرى ، وكسر شوكة الفلاحين الحفاة الذين اقبلوا على طرد أمراء الاقطاع وعملاء الاستعمار من ارضهم ، صارخين فى وجوههم : اخرجوا من بلادنا فقراء كما جئتموها .

استمدت الثورة من امجاد الماضى ومن مفاخر الوطن قوة ونبراسا وانعكس كفاح عرابى وصحبه على أقلام الدعاة الذين احتضنوا بذور الوعى الثورى ، وتحمسوا للفكرة القومية ، ايمانا منهم بمستقبل وطنهم ، فكانت خطبهم ومقالاتهم ونداءاتهم وقصائدهم بمثابة المنابع الروحية التى تغذى الثورة ، وبهر الاحرار فى كل ركن من اركان العالم وهم يشهدون صحوة العملاق بعد ان نفض عن نفسه غبار القرون .

وتدفقت جموع الشعب على مراكز المقاومة ، وتكتلت حول راية عرابى القائد الاعلى لحرب الاستقلال ، وانهالت التبرعات وطلبات التطوع على جيش التحرير ، يحفزهم جميعا الشوق الى مقاومة الاعتداء المسلح الغاشم ، وطرد الغزاة الاغراب الذين انتهكوا حرمة الوطن ودنسوا باقدامهم ثراه ، وشهدت الثورة فيضا من التضحيات ، والوانا من البطولات العسكرية الرائعة ، تتمثل فى استماتة محمد عبيد ودفاع حسن رضوان ومحمود فهمى ، الى غيرهم من الضباط والجنود الذين قاتلوا ببسالة حتى آخر قطرة من دمائهم فاستشهدوا ودفنوا بلا قبر ولا وطن .

واحمد عرابى هو أول رائد من رواد القومية فى الشرق ، واول من استطاع أن يفرق بين الحركة الاسلامية والحركة القومية ، وتعتبر هذه الفواصل المميزة نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الكفاح الشعبى فى مصر والبلاد العربية . كما انه فى طليعة المكافحين الاحرار الذين نادوا بفكرة الوحدة العربية ، لمقاومة الجشع التركى والتخلص من الاستعمار العثمانى القائم على السلب والاستغلال والاستبداد .

وكذلك كان احمد عرابى أول زعيم فلاح تمرد على الاوضاع السارية ، المقررة فى وادى النيل منذ أجيال ، وكانت الثورة التى

غرس مبادءها فى نفوس مواطنيه تهدف الى الانصاف والمساواة ، وتحرير الاقنان من نير الاقطاعيين ، وتطهير ارض الكنانة من غمار الرق والعبودية ، وتمجيد الكفاح فى سبيل الحرية باستكمال عناصر الاستقلال ، وان يتمتع الشعب بحياة دستورية صحيحة ليحكم نفسه بنفسه ، وقد منحه الشعب عن ثقة لقب « حامى حمى الديار المصرية » واطلق الوف الآباء اسمه على اطفالهم .

وكان احمد عرابى لايفتأ ينادى بضرورة ادخال ضروب الاصلاح كافة واقتباس ما يوائم الطبيعة المصرية منها ، ولم يعرف عنه التعصب الذميم او التعجل بالشر او المبادرة بالاعتداء والتفزز الى الانتقام ، وقد قال مرة فى هذا الصدد : « لن نكون نحن المعتدين ولكننا سنقاوم من يعتدى علينا ، نحن امة مخلصة تعترف بالجميل لمن ياخذ بايدينا ويعيننا على اصلاح وطننا ، ونحن لا نبغى سوى الاصلاح ، ولكن الذين يريدون ان يغشونا سوف يجدون منا كل غش » .

وقد اقضت حركة مصر القومية مضجع الخديو ، لان شعار « مصر للمصريين » معناه وطن واحد وشعب واحد ، كما اقلقت بال السلطان العثمانى ، ووصفها رجال بابه العالى بانها « فكرة مضرة » لا لشيء سوى انها كانت تنشد ربط العرب بعضهم بالبعض الآخر بوشيجة من التآخى والجنس واللغة والدم ، مما يتنافى مع سيادة السلطان القائمة على ايقاظ النعرة الدينية فى نفوس المسلمين ليسهل عليه ابتزاز خيرات بلادهم باسم الخلافة أو السيادة ، وسلبهم اموالهم تحت ستار « الجزية السنوية » فحاول ما وسعته المحاولة احباط الفكرة القومية وتحويل التيار توطئة لتتريك العناصر العربية ، ولجأ الى احط وسائل الدس والرشوة والتغاضى عن مطامع الدول الاوربية .

وصور الخديو لسادته العثمانيين مخاوفه من تغلغل الوعى القومى فى صفوف المصريين ، وتفكيرهم فى انشاء دولة عربية ، فابرق الى الباب العالى فى ١٤ فبراير ١٨٨٢ يقول : « ان مسالة القومية تنتشر يوما بعد يوم حتى انه فى الاجتماع الكبير الذى عقده امراء الجيش لتهنئة مجلس النواب على توفيقه ، هتف القوم : يعيش العرب » .

وقد بذل الباب العالى اقصى الجهد ليهادن المجاهدين بغية ان يوجههم وجهة غير قومية ، وتزلف اليهم ضاربا على النغمة الدينية

وملوحا لهم بضرورة الولاء للخليفة وطاعة امير المؤمنين ، ومناهم بالوعود الخلابة ، ومنها عزمه على خلع الخديو توفيق حتى يقلعوا عن تفكيرهم بانشاء دولة عربية ، وغمر زعمـاءهم بالاوسمة و« التعطفات الشاهانية » .

وكان الخديو لاينى فى غضون هذه الفترة العصيبة التى تمر بالعلاقات العثمانية ـ المصرية يضاعف من مخاوف السلطان، ويصور له الحالة تصويرا يدخل الرعب الى فؤاده ، فكتب فى ٢٧ ابريل ١٨٨٢ الى مندوبه الشخصى فى اميرجان باستامبول يقول :

« ان قوة ارتباط مصر بمركز الخلافة يتوقف على تاكيد نفوذ العنصر التركى فى مصر وكثرة عدده . والقومية والجنسية اللتان ظهرتا فى مصر الآن مخالفتان تماما لهذا المبدا ، فغرضهم هو الوحدة العربية . ويعمل رئيس هذه الطائفة ـ احمد عرابى ـ على تقوية هذه الروح ليلا ونهارا ، ويسعى جاهدا الى افناء الاجناس الاخرى التى هى من الترك والجركس والارناؤود والاكراد وغيرهم من الموجودين فى مصر . كما انه يسعى الى ادماج سكان الحجاز والشام وطرابلس الغرب ضمن الاتحاد العربى ، وكل ماينشده هو تحقيق الوحدة العربية ، وغنى عن التعريف ما لهذه المقاصد من اضرار ومخاطر بالنسبة للحاكم الشرعى للاقوام العربية ، والخادم المقدس للحرمين الشريفين ، وهو الجالس على عرش الخلافة السنية ، وان ديانتى وفرط عبوديتى للحضرة الهمايونية تحتمان على المداومة على ارتباط مصر بمركز الخلافة » .

عاد الخديو فى ٨ يوليو ١٨٨٢ يباهى بالطريقة التى سلكها فى محاربة الفكرة القومية ويتزلف الى السلطان بقوله :

« اننى لم ادخر وسعا فى سبيل انقاذ مصر من مصيبة القومية التى ابتليت بها منذ عامين ، وهذا ما حملنى على ازعاج مولانا ولى النعم طيلة هذه المدة حتى يومنا هذا . افعل ذلك واقرر مرة اخرى بأن ازالة الفكرة القومية من مصر فرض عين ، وذلك لان انتشار هذه الفكرة واتساعها بين المصريين سيفضى حتما الى انفصال مصر عن الخلافة العظمى ... ان الذين يستحقون اللوم هم الذين اوجدوا بين المسلمين مثل هذه الفكرة الخاطئة ، واوقعوا بينهم مثل هذا التباين ، واوقفوا الحكومة مثل هذا الموقف الذى يدعو الى القلق ، وكانوا بذلك سببا فى وصول الاساطيل الاجنبية الى هنا » .

وفى اعقاب الاحتلال البريطانى يبرق بسيم بك مندوب الدولة

العلية غير الرسمى فى القاهرة الى استامبول فى ٢٠ نوفمبر ١٨٨٢ فيقول : « تواترت الانباء بأن الانجليز يطلبون الى الخديو اعلان الاستقلال ، الا ان اكثرية الآراء فى مجلس النظار ترفض طلب الانجليز » . فيرد عليه قدرى بك من رجال المابين الهمايونى بقوله : « نحن لا ننتظر من الخديو والشعب المصرى سوى الاخلاص للخلافة العظمى . والدولة العلية » .

انهارت المقاومة الشعبية وفشلت حرب التحرير ضد الاستعمار بتأثير الرجعية التى كانت تستند الى الخلافة والى مركز مصر الدولى الخاص والى مركزها المالى والى الامتيازات الاجنبية التى كانت تحتمى بها طوائف معينة ، كما ان خيانات الضباط المتمصرين عجلت بالخراب ، ولكن القومية المصرية ظلت راسخة فى النفوس وبقى الوعى الثورى راسبا فى الاعماق .

ان ماساة الثورة هى ماساة الفلاحين الذين طالما حنى كرباج امراء الاقطاع ظهورهم ولكن الكارثة لم تفت فى عضدهم او توهن من جناحهم ، ولم يقف كفاحهم عند هذا الحد من الهزيمة ، بل توارو فترة ريثما يلعقون جراحهم ويبنون الروح من جديد .

وقد عبر كرومر عن هذا الوعى عندما حاول ان يروض الخديو عباس حلمى فى بداية عهده بالحكم ويكبح جماحه بقوله : لاتنسى ان الحركة العرابية موجودة ، وانى اذا رفعت خنصرى ظهرت تلك الحركة ، وقذفت باسرة محمد على خارج البلاد » .

غلبت مصر على امرها ، واستطاع الانجليز ان يحرزوا نصرا مؤقتاً على العسكرية - عصب الكفاح فى البلاد - وتمكنوا من ان يخضعوا مصر حينا من قصر الدوبارة واخرى من داوننج ستريت فما خنعت الرقاب لنيرهم ولا دانت القلوب لبأسهم ، أو اختفى كفاح الشعب من مسرح الحوادث ، ولكن الذى ذل وصفر وعفر جبهته فى الرغام هم الحكام الطغاة من اسرة محمد على والباشوات من اصحاب القيم الاقطاعية .

لن تجد فى التاريخ كله سوى شعب واحد - هو الشعب المصرى - ما تكاد تحل به كارثة حتى ينهض ويقف على قدميه كالطود الراسخ دون ان يفقد شيئا من حيويته وصلابته ، ثم يهب للنضال والثورة ويدخل بمراحل كفاحه من اوسع أبواب التاريخ .

محتويات الكتاب

	صفحة
الوعى الثورى	٥
بين الاستبداد والحرية	١٠
الزعيم الثانى	٣١
أزمة الدستور	٥٢
عبيد الباب العالى	٧٢
الخيانة العظمى	٩٨
الثورة الوطنية الكبرى	١١٧
عرش مصر فوق بركان	١٣٦
صراع فوق الرمال	١٥٦
الصفحات السوداء	١٧٢
تصفية الثورة	١٩٣
الحماية المقنعة	٢٠٩
السودان والثورة	٢٣٠
فصل التوأمين	٢٤٥
الظل الكئيب	٢٦٤
مصر المصريين	٢٨٣

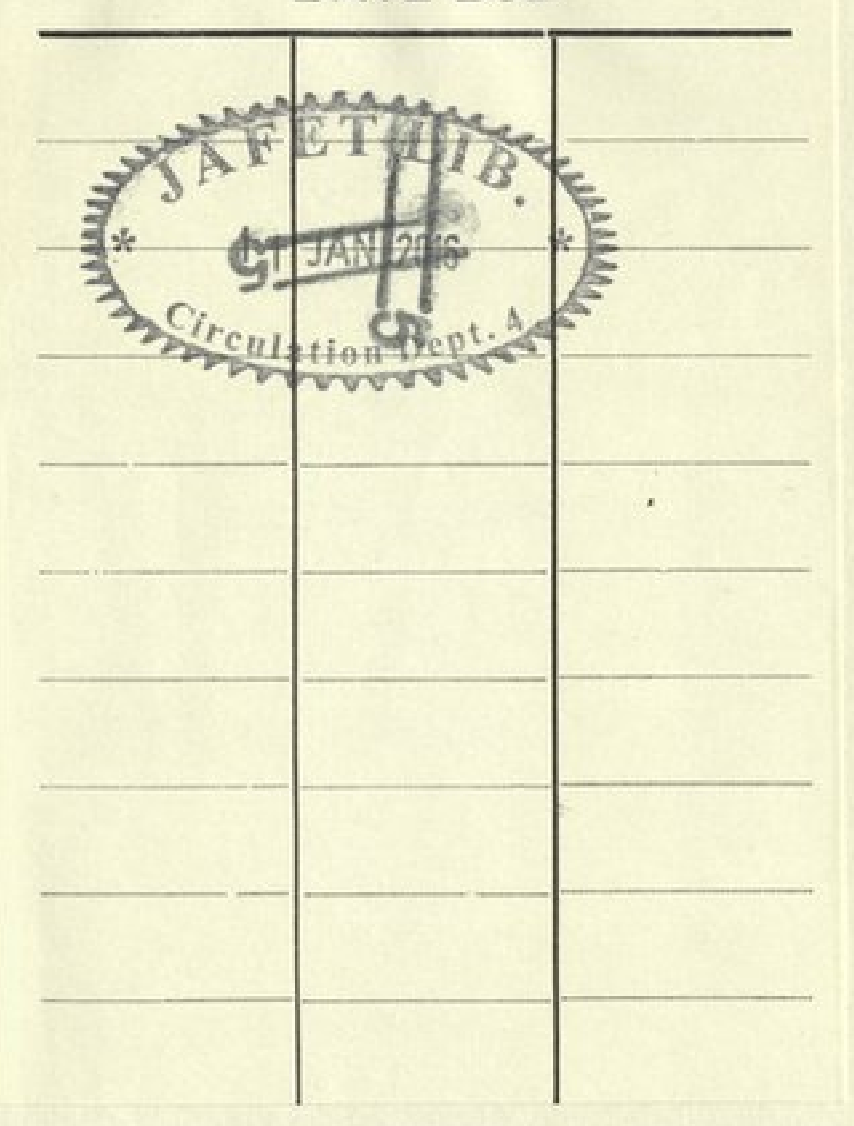
تم المجلد الثانى من

كفاح الشعب

ويليه المجلد الثالث بعنوان :

الوعى السياسى

DATE DUE



DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number

